

صَوْنٌ فِي مَحْجُوزِ النَّبِيِّ الْأَمْلَأِ

تأليف
علي محمد العباري

الطبعة الثانية

١٩٩٢

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد

صَوْنٌ فِي مَحْشَرِ النَّبْلِ وَالْأَسْلَالِ

تأليف

عبد الحميد العبّاري

العميد السابق لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ،
وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ التاريخ العربي
بمعهد الدراسات العربية العالية سابقا

الطبعة الثانية

١٩٩٣

الناشر

مكتبة الأبحاث والمصيرية

١٦٥ ط محمد فريد

رقم الايداع ١٠١٩٨ / ١٩٩٢

الى القارئ العزيز

هذا الكتاب الذى يصدر اليوم هو فى الاصل كتابان ظهرا على التوالي فى عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٢ ، وقد رأينا ضم الكتابين فى مجلد واحد نظرا لاتحاد الموضوع ، مع الإبقاء على التمسك على ماهو عليه . فالكتاب الأول والذى كان عنوانه « صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى » ، هو الجزء الأول من هذا المجلد . والكتاب الثانى والذى صدر بعنوان « صور ويحدث من التاريخ الإسلامى ، العصر العباسى والمغرب والأندلس » هو الجزء الثانى من هذا المجلد . وقد راعينا المحافظة على ذات النصوص وترتيبها كما كانت تماما دون أى اضافة أو تعديل .

وقد رأينا اعادة طبع هذين الكتابين فى مجلد واحد فى هذا العام ١٩٩٢ بمناسبة مرور مائة عام على مولد المؤلف المرحوم والدنا الأستاذ عبد الحميد العبادى .

وحفاظا على الشكل الذى ظهر به كل من الكتابين فانتا نورد فيما يلى الاعداء الذى كتبه المؤلف وقدم به الكتاب الأول يليه الاعداء الذى قدم به الكتاب الثانى يليها كلمة الجمعية التاريخية لخريجي كلية الآداب بجامعة الاسكندرية للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة وكان موقعها فى الأصل فى صدر الكتاب الأول .

واذ ولى التوفيق

للقاهرة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٩٢

حسان عبد الحميد العبادى

الإهداء

إلى إخواني وتلاميذي من خريجي مدرسة القضاء الشرعي ، ودار العلوم .
وكليني الآداب بجامعة فؤاد الأول وفاروق الأول ، والأزهر الشريف ، ودار
المعلمين العالية ببغداد ، أهدى الكلمات التي يشتمل عليها هذا الكتاب ؛ فهي
نمرة دروس ومحفوظات ألفتها عليهم ، وكان حسن قبولهم لها ، وانتفاعهم بها
أكبر باعث لي على أن أستخلص منها هذه الكلمات التي نشرتها من قبل
مفردة في الصحف والمجلات ، والتي أعيد نشرها اليوم في كتاب ؟

عبد الحميد العبادي

دمشق الاسكندرية في ١١ ربيع الأول سنة ١٣٦٧
(٢٠ يناير سنة ١٩٤٨)

تقدمة وإهداء

من خمس سنوات مضت نشرت في الجمعية التاريخية طريحي كليات الآداب بجامعة الإسكندرية مجموعة من المقالات تتصل بالعصر العربي الإسلامي القديم ، وكان ذلك في كتاب عنوانه « صور من التاريخ الإسلامي : العصر العربي » .

واليوم تنشر في مكتبة الأبحر المصرية مجموعة أخرى من مقالات وبحوث نشر بعضها مفرداً وبعضها الآخر لم يسبق نشره ، وذلك في كتاب عنوانه « صور وبحوث من التاريخ الإسلامي : عصر الدولة العباسية والغرب والأندلس » .

والقالات والبحوث المنشورة في الكتاب الجديد يدور أغلبها على بعض أعلام الإسلام في العصر المذكور في العنوان ومسائل أخرى علمية ، إلا أن الناظر للتوسم لا يعدم أن يلح فيها إشارات تكشف عن بعض جوانب الحياة الإسلامية القديمة من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية . ففى من أجل ذلك لا تغفل من الفائدة لجعل الجديد من طلاب التاريخ والتاريخ الإسلامي بوجه خاص . ولعل هذا التوسم هو الباعث الأول على جمعها ونشرها في كتاب .

وقد جرت عادة كثير من الكتاب والزلفين أن يهدوا تأليفهم إلى بعض من يحبون أو يحبون ، فغرياً على هذا السن الطيف والعرف للأولف أهدى هذا الكتاب إلى الذين أهديت إليهم كتابي السابق : أهدى إلى أصحابي من خريجي مدرسة القضاء الشرعي والأزهر الشريف ، ودور العلوم وكلية الآداب بجامعة القاهرة والإسكندرية ، ودور المعلمين العالية ميتداد . فالحق أن الكتاتين كليهما من وحى الدروس والمحاضرات التي سمعت يلقاها عليهم ؟

عبد الحميد البشاري

١٩٥٣ سنة هـ
١٣٧٣ سنة ١٠٠٠

كلية الجمعية التاريخية

للمرجعي كلية الآداب بجامعة قاروق الأولى

هذا هو الكتاب الثاني من الكتب التي تصدرها جمعية التاريخ^(١)، وهو كتاب نعتز به كل الاعتراز، لآلآنه كتاب رئيس الجمعية، بل لآنه كتاب علم من المثاني، بين كتب التاريخ. وقد يحق لكثير من الجمعيات أن تسابق في الافراد بتقديمه إلى الشعوب العربية المختلفة التي عرفت المؤلف الجليل من مقالاته ومحاضراته فقدرت فوقه التاريخي قدرا لم يبلغه فيما نرى أحد من مؤرخي الإسلام في الشرق الحديث.

ولاستاذنا عبد الحميد البادي بك فضل كبير على التاريخ الإسلامي تعرفه حتى المعرفة أجيال تخرجت على يديه منذ ثلاثين عاما أو تزيد. فقد استمعت لدروسه القيمة أجيال من الشباب كثيرة، فظلت تحتفظ بأجل الذكرى لما سمعت، وظلت على الأخص تحتفظ بصورة الماضي الإسلامي التي رسمها لهم ونقشها في أذهانهم رسما بسيطا ونقشا حيا، حتى لم يجدوا عناء في حلها كأنما صاغها من قوسهم. بل قد لا يتجاوز الحق في شيء إن زعمنا أن جيل المؤرخين الحاضر إنما يردد بعض صور الأستاذ أو يتخذها أساسا لدراسة الإسلامية. ولقد سمعت دروسه تليذا ثم سمعت شيئا منها زميلا، فخليل إلى أنني كنت أشد إعجابا بها وأعظم طربا لها حين أصبحت زميلا مني حين كنت تليذا. ولكن هذه الدروس جانب مجهول مجيد لم يذهه الأستاذ الجليل على الناس بعد.

نعم، فضل الأستاذ الجليل على التاريخ الإسلامي كبير الأثر، لأنه نقله من

(١) الكتاب الأول، أنبل في تاريخ ليبيا، تأليف مصطفى ميو العارابي، ١٩٤٧.

هذه الأول إلى عهد جديد : كان التاريخ الإسلامى لا يزال فى آخر القرن الماضى وأول القرن الحاضر من العلوم العقلية العرفية . فكان المؤرخون فى الغرب الأوروبى والشرق العربى أيضا يقتصرون على تجميع الروايات التاريخية المختلفة بقدر ما تقع لهم طرائقهم الرقيقة فى التفتيش ، ثم يسوقونها فى سرد متسق لا يحتاجون فيه إلا إلى اليسير من الربط . هكذا كان كوسان دى برسفال ودفريمرى وغيرهما فى فرنسا ومور فى إنجلترا وقايل فى ألمانيا ، وهكذا أيضا كان ما كتب الشرقيون أنفسهم ، فبينهم من كان يعمد إلى المصادر فيلخصها تلخيصا يتفاوت فى إيجازه قصر وطولا ، مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى . ومنهم محمد الحضرى بك ، بل لعل الحضرى كان يخال فى الطريقة القديمة حتى يحتفظ لرواياته بلفظ القديم . وكتابه لهذا يعد من أصلح الكتب فى نوعه إذا اعتبرناه كتاب فصوص ، ولا يزال إلى اليوم تنضج المبتدئين فى التاريخ بقرائه ليتعودوا أساليب المصادر . حتى أنشأت الجامعة المصرية القديمة فأنشأت جيلا جديدا كان خير شاهد بفضلها . من هذا الجيل أسانذتنا أصحاب النتج العلى الحديث : طه حسين بك فى الأدب ، وأحمد أمين بك فى الحياة العقلية ، وعبد الحميد العبادى بك فى التاريخ .

فبهر التاريخ الإسلامى طريقه التقدم الذى سلكه قرونا طويلة ، وسافر باقى فروع التاريخ الأخرى فى أوروبا . وتجاوز الدرر البسيط الذى مرت به كل الشعوب قريبا ؛ ثم لم يفتح بالتقدم البراق الذى عرضه فى القرن التاسع عشر على بدى جيرون وفولتير من قبل ، لأن هذا التقدم لم يكده غير إلا مظهره بما أدخل عليه من تنظيم الوثائق وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض وترتيبها فى أسلوب جميل يختلف حظه من الإمتاع . وإنك لتقرأ المختصرات من كتب التاريخ التى ظهرت فى فرنسا على هذا الأسلوب فتجدها قطعنا رائدة من الأدب الخطيبى

الرفع ، تحدث في النفس أروع الأثر . ولكنها على ما تقتصر من الروعة قليلة
الحظ من الصفة التاريخية الصحيحة ، وخاصة حين قلب عليها الزعة الثانية .
وتمثل هذا الانتقال في آثار الأستاذ الجليل . فإذا الأستاذ يقفز بالتاريخ
الإسلامي في مصر فترة المملاط ، وإذا به يتبع آثار جيون ويورى وغيرهم
من عظماء المؤرخين ويصالح التاريخ الإسلامي كما يعالجه كبار المؤرخين المعاصرين
في أوروبا بالقياس إلى فروع التاريخ الأخرى .

فالأستاذ الجليل طريقة علمية دقيقة أعانته عليها مكانته : فإنه يجمع إلى قوة
التقد و طرافة الاستنباط فطرة سليمة تجسده على السعي إلى فهم كل شيء . ثم
أسلوب أدبي رزين يعارض به الأساليب القديمة أحيانا ويبلغ به حد الإجابة
لا عن طريق الأسلوب وحده ولكن عن طريق الرسم السهل الممتنع خاصة .
ومن وراء كل هذا أساس تاريخي عتيق مبنى على قراءات واسعة مستقيمة وألفة
الحظ من الإجابة والإثبات ، أعانته عليها ذوقه الأدبي الممتاز ، فهو يحفظ بعضها
عن ظهر قلب ويمثل بعضها تمثيلا حيا . ولكن الأستاذ حرص دائما على أن
لا يشغل بها القارىء ، وأن لا يتقل بها سرده التاريخي القوي البناء . ثم هو
من أكثر المؤرخين حرصا على تجنب التفاصيل التي تملأ الصورة التاريخية أحيانا
فتذهب بروقتها ووضوحها ، وهو من أوسعهم نظرا أيضا : فلا يكاد يشي من
تعبير الواقعة الخاصة حتى يضعها في إطارها من التاريخ العام وضعا لا يتبرعنه .
ولهذا كان مجيدا في صورته التاريخية . فهي أشبه شيء بالتخطيط القوي في دلالة .
ولهذا كان عبد الحميد العبادي بك مؤرخا فنانا فذا صاحب طريقة خاصة ،
فاستطاع أن يجمع بين الأدب وبين التاريخ في آن واحد . له من التاريخ منهجه
العلمي الدقيق ، وله من الأدب جمال الصورة وروعها . فإن صح هذا الوصف

لطريقته فهو يعالج نوعين من العلم في نوع واحد ، ويلتقي على نفسه حملا كان
حريرا أن يشغله لولا أن ملكاته الزاهرة تبعته عليه وتقدّره على حمل لوائه ،
ورفعه إلى منزلة جليلة .

وفي هذا الكتاب نوع خاص من أبحاثه : هو صور من التاريخ الإسلامي
بعضها يدخل في باب التراجم فيقتصر هذا الباب إلى مستوى رفيع ، وإلى من لم يخل
إليه الاقبحون على كثرة تأليفهم فيه ، وبعضها إحياء رائع للأجواء التي كانت
مواطن الإسلام الأول مثل دار الندوة أو دار الأرقم المخزومي . وهو نوع
من البحث تظهر فيه مواهب الأستاذ ظهورا يفتينا عن وصفها والإدلال على
عاشتها . فهي غنية بذاتها عن الوصف والتأني . وما أردنا إلا أن نبين طريقة
للمؤلف الجليل ومنهجه التاريخي الدقيق المحكم . وقد كان من حقه علينا أن نشيد
بآثاره ، لولا أن في التأني وقرعاً في المخرج ووضعاً لاغتشافاً فوق موضوعها .
ولنجل في آخر هذه الكلمة شكرنا لأستاذنا على استجابة رجائنا ، وإذنه

في نشر هذه المقالات التاريخية القيمة ؟

عن الجمعية التاريخية

محمد عبد الهادي شمير

الاسكندرية في ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٧
(٢١ يناير سنة ١٩٤٨)

دروس من الصحراء

لقد أسعدني الحظ فسانرت في الصحاري وسلكت طرقها ومسالكها
غدير مرة :

تجولت في صحراء مصر الغربية وتغلقت بين وحاتها النيقة المتعاقمة. وضربت
في صحراء مصر الشرقية مراراً شعابها وأوديتها وشم جبالها. وسلكت من جزيرة
الغرب ما بين جدة ومكة ، وما بين مكة والمدينة ، كما جرت بادية الشام وعبرت
الغربة المترامية الواقعة بين الشام والعراق . وأشهد لقد علمتني هذه الأسفار من
أمر الصحراء ما لم أكن أعلم ، ووقفت من أسرارها ومكنون أمرها على ما
لم أكن لأبلغه بالدرس والقراءة ، مهما جت .

لقد كنا عند اعتزام السفر في الصحراء تأخذ أهبتنا للأمر أشد الأخذ ،
ونستعمله أتم الاستعداد ، تقادياً بما عسى أن يفجأنا في سفرنا من تقاد الزاد
أو الماء أو المتاد ، وكنا في ذلك إنما نقول على أنفسنا موقنين بأن التفريط والتهاون
قد يكون وخيم العاقبة ، وقد يفضي بنا إلى الهلاك المحقق وليس من شك في أن
التعويل على النفس والاحتياط للمستقبل أول سمات الرجولة الصحيحة وملاك
أمرها ، وهذا أول درس تلقاه الصحراء على من يخامر بنفسه في مجاهلها .

والكنا على الرغم من استعدادنا ومبالغتنا في الترقى والاعتماد على

النفس كنا لا نبرح نخالجنا شعور قوى حتى باتنا على شفا أمر مخوف ، وغيب
 مجهول ، وأتانا ضاربون في حماية لا تأمن بساتنها ولجأ آتيا ، فمن يدري ! فقلنا
 الخلل في تقديرنا وأمر لم يدخل في حسابنا ، نسي وقد انطوت علينا الصحراء
 انظروا اليم الخضم على من انخرقت به سفينته ، فإذا أجسادنا جزر سباعها وعقبانها
 ومدب حشراتنا وهوامها
 من أجل ذلك كنا لاندع التوكل على الله والاعتماد عليه بمد الاعتماد على
 أنفسنا ، مستدين إليه سبحانه حولنا وقوتنا . ولا شك أن الإيمان بالله على هذا
 النحو هو الإيمان الصحيح ، وأن التوكل على الله على هذه الحالة هو التوكل المحمود ،
 وهذا درس آخر بليغ يستفيدة المسافر في الصحراء .



ثم إن للصحراء روعة أي روعة ، وجمالا أي جمالا . ونحذر أن نتخذك
 من روعتها وجمالها رمالها الوعاء ، وجبالها الجرداء ، وحرها اللافح ، ويردها
 القارس ، فأتك لعمرك إلا بمنزلة أضمار على أقار ، وأبمال على حسناء مغضال .
 ورويدك حتى يقبل الريح ، ويرق المراء ، وتضع الأرض حملها ، فترى
 عجبا من العجب ، في الزهر المقوف ، والعشب الأخضر ، والطيور الصادحة
 والظباء السارحة ، والإبل الراعية ، والشاة الثاغية ، والقوم يتصايحون
 جذلا وجورا .

ورويدك حتى يقبل المساء ، ويطلع القمر ، وتلألأ النجوم والكواكب ،
 ويخيم على الصحراء سكون يكاد لهبه يحسمك المرفف ، فترى ضالة غير متاهية
 إزاء عظمة غير متاهية . فإذا غاب القمر ومد الظلام على البداء رواقه ، وطرق
 ممك عصف الرياح وهي تسلك بين الجبال أو تهوى في المهاوى السحيقة ،

وترأت لعينك أشباح غريبة وصور عجيبة ، وخيل إليك أنك تسمع عريف
الجن وصراخ السعال ، وأنت تراها وتحسها ، وأنها تراؤغك قارة عن يمينك
وأخرى عن شمالك ، فلا تزع ، فجن الصحراء وسعاليها ليس الخبث والغدر من
طبعها ، وقد عرفنا قديما العرب وعرفتهم ، وكان لهم معها ولها معهم شئون
وشئون ، قارة كانوا يصادعونها فيصرعونها أو تصرعهم ، وقارة كانوا يحبونها
وتحبهم ، ويصهرون إليها قتلهم البنين والبنات ، وطورا كانوا يصادقونها
ويحالفونها حتى لهم ويقون لها ، وطورا كان يستلمها شعراؤهم غلظهم عيون
الشعر وروائع القوافي . فهل تدري ماذا توحى الصحراء بكل ذلك ؟ إنها توحى
معنى الفن الرفيع والبقرية والجمال .

الصحراء تبعث في نفوس أهلها وعشائرها الرجوة الكاملة ، والإيمان الصادق ،
والبقرية التامة . فان شئت على ذلك دليلا فعليك بأجبال العرب في الجاهلية
والإسلام ، فان أبيت إلا الطريق السهل ، والقول الفصل ، والحجة البالغة ، المعجزة
الدائمة : فعليك بسيرة نبي الهجرة عليه السلام ٩



« مصر القديمة » وآثارها

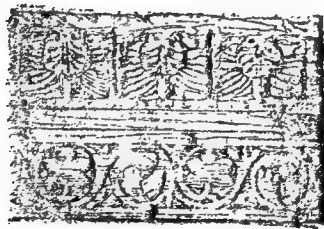
مصر القديمة حتى من أحياء العاصمة ، له من أفراد جنوبها ، ومن صيغته الوطنية الخالصة ، ما يجعله أشبه شيء بمدينة قائمة بنفسها . وهو عريق في المصرية ، ترى فيه المسلم إلى جانب القبطي في المسكن والمتجر والمصنع ، وتعرف فيه الأثر التاريخي الإسلامي قريبا من الأثر التاريخي القبطي . ثم لا تجد فيه سلطان الأجانب الاقتصادي واغوا ولا عنصرهم مائلا مثوله في أحياء العاصمة الأخرى . والحي هادي ساكن ، قد خلع عليه القدم ثوبا ضائبا من وحشة مقرونة بجلال . والسكان قارون وادعون لا يكاد يوحهم حزن أو يستنغم فرح ، كأنهم لطلول ما تنابع على حبيهم من غير الدهر وضروفة قد وسخت أحلامهم وصاروا إلى شيء من الاطمان الفلسفي غير قليل .

« ومصر القديمة ، على ضيق رقعتها وقارب أرجائها ليست بقليلة الآثار . وآثارها برغم ما أصابها من البلى والعفاء لا تزال ماثلات شواهد بكثير من حوادث التاريخ العظام . فإذا بكرت مرة إليها الفأري إلى مصر القديمة ، ووقفت في هدأة الصباح وحين أذكرك القلب ونشاط الذاكرة حيا ، « حصن بابليون » ، أو وسط الجامع العتيق ، أو بين خرائب القسطة ، قد تزدى إليك الذاكرة أنباء كثيرة من عبر التاريخ المصري .

فهذا الحصن الذي تستغذه الآن مصلحة الآثار من أيدي البلى يذكرك

بقيام دولة في هذه البلاد على أطلال دولة تآذن الله بانحلالها وذهاب ربحها .
وهذا الجامع العتيق يريك معنى للفتوح العريضة الأولى قد يخفى على من يقرأ
للتاريخ عجلان غير مثبت . وتنطق بين يديك خرائب الفسطاط بما قاسته
الفسطاط من نيران « شاور بن مجير السعدى » وزير « المعاضد لدين الله » الفاطمى
وقد زحفت إليها الجيوش الصليبية من فلسطين حتى أصبحت أترا بعد عين .

فإذا تركت أيها القارىء تلك الآثار ، وأخذت في سيرك ذات اليسار ، وجدت
النيل لم يبرح كما كان أيام الفراعنة والفرس البطالمة والرومان والعرب والترك ،
يتدفق تدفق الزمان هيناً ليناً حديثاً مطرداً ، لا يعبا بما يتعاقب على عدوته من
الدول والأجيال . إنه يمثل القوة الباقية الخالدة ، كما تمثل الخرائب القاسمة على
جانبيه القوة الزائلة الفانية ٩



دار الندوة^(١)

كان العربي القديم ، ديموقريطا جليعه ، بمعنى أنه كان ينفر من الاستبداد ، ويؤثر الشورى ورأى الجماعة على رأى الفرد . وأقدم أخبار العرب تدل على توافر هذا الروح الديموقراطى عندهم . من ذلك ماورد فى القرآن الكريم حكاية عن بلقيس ملكة سبأ حين جاءها الهدد بكتاب سيدنا سليمان ملك بنى اسرائيل ، وقالت ياأيا الملائى الذى الى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بآسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تملوا على واتوفى مسلمين . قالت ياأيا الملائى أفتوفى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وبأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ، ، وعمل الشاهد هنا المشاورة بلقيس للملائى من قومها ، وقولها إنها لا تقطع أمرا قبل الرجوع اليهم ، ورد الملائى عليها . وقد فسر الملائى ، بأنه الرؤساء لانهم ملاء بما يحتاج إليه ، وبالمشاعة ، وأشراف القوم ووجوههم ومقدميهم الذين يرجع إلى قولهم . ويروى أن النبي ﷺ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعا من غزوة بدر يقول « ما قتلنا إلا عجايز صلحاء فقال عليه السلام « أولئك الملائى من قريش ، لو حضرت فضالمم لاحترمت فملك ، ، ومن معانى الملائى « المشاورة » .

وفى حديث عمر بن الخطاب حين طعن : « أكلن هذا عن ملائكم ؟ » أى مشاورة من أشرافكم وجماعتكم . وكأنهم لحظوا فى أشراف القوم صفة تليق بهم وهى حسن الخلق فجعلوا من معانى الملائى ، حسن الخلق وأشدوا :

(١) حديث بلاديوفى ١٨-١-١٩٤٥ .

تسادوا بالبهنة إذ رأونا قتلنا أحسن ملأ جهنما
 أى أحسن أخلاقا يا جهنمة أر أحسن الممالة والمعانة، ومنه قول النبي
 ﷺ لبعض أصحابه وقد ضربوا أعرايا بالبن المسجد : « أحسنوا أملاءكم ، أى
 أخلاقكم ، فالأملاء معناه أشراف القوم والجماعة والمنصورة ، كما يفيد أحسن
 الأخلاق ومكارم الطباع .

وما جاء به القرآن عن وجود نظام للشورى عند النبيين القدماء قد صدقته
 الكتابات اليمنية القديمة التى عثر عليها العلماء الأوربيون الذين عنوا بتاريخ
 اليمن القديم ، فالخبر صحيح من ناحيتي الأثر السباوى والتاريخ البشرى .

ولا يقل عرب البوادي عن عرب الحواضر من حيث الروح الديموقراطية،
 فكان سيد القيلة أو شيخها كما نقول الآن ينتخب انتخابا طيعيا، على معنى أنه
 يصبح بالفعل سيد القيلة إذا فاق أفرادها في الفضائل التى تأتى عادة من قبل
 الطبع لا التطبع كالشجاعة والفصاحة والكرم ونضج العقل ووقار السن . ولما
 لم يكن من المؤكد أن تنتقل هذه الصفات من طريق الوراثة من الآباء إلى
 الأبناء والأحفاد لم تكن سيادة القيلة منصبا وراثيا إلا فى النادر، وإلى ذلك
 يشير عامر بن الطفيل أحد سادات العرب فى الجاهلية بقوله :

وإن وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل موكب
 فاسر دنتى عامر عر ووراة أبى الله أن أسمو بأمر ولا أب
 ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرى من رماها بمنكى
 وليس سيد القيلة بالحاكم المستبد بقيته ، وإنما هو خادمها الأول ، يدل على

ذلك قولهم المأثور : سيد القوم عادهم ،، ويعد من سلطانه مجلس القيلة الذي يتألف من أشراف القيلة وذوى المكانة والرأى والسن فيها . يجتمعون للتشاور فى شئون القيلة ويجيدوا سيدها بالرأى ، إذا حارب أمر أو لم يخطب .

لم يصل البناء مع الأسف شئ . يذكر من المناقشات التى كانت تجرى فى هذه المجالس القيلية كما يصح أن نسميها ، وذلك لأن العرب كانوا أمة أمية لا يدرسون أخبارها . ومع ذلك فى الشعر الجاهلى ما يلقى ضوءا على حقيقة هذه المجالس . ومن ذلك قول مهمل فى رثاء أخيه كليب :-

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمر كل عظيمة لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

وأشهر المجالس القيلية عند العرب قبل الاسلام للمجلس الذى كان لقريش بمكة ، وكان يعرف ، بدار الندوة .

كانت هذه الدار فيها يروون دار قصى بن كلاب الذى جمع بطون قريش وأزلهامكة ، وذلك قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة . وكانت الدار ملاصقة للمجد الحرام من ناحية الجهة الشمالية من الكعبة . وكانت فسيحة وسبعة ، وفيها كانت قريش تقضى فى شئونها العامة :

(١) فى دار الندوة كانت تعقد قريش لوائها إذا خرجت للحرب .

(٢) ومن دار الندوة ترحل قوافلها للتجارة ، وفى فنائها تحط هذه القوافل حولتها إذا رجعت .

(٣) وإذا بلغ غلام لقريش عذرا (أى ختن) فيها .

(٤) وإذا لفت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعاً (أي قيصها) ، ثم درعها إياه ، ثم انقلب بها أهلها فحجبوها ، والظاهر أن الغرض من الأمرين الآخرين تجريد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش من الذكور والإناث .

(٥) على أن أهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش ، فيها يجتمع ملؤها لتشاورة في أمورها ، وه الندوة ، الاجتماع والجماعة . ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة ، في حين كان يدخلها بنو قصي وحلفاؤهم جميعاً .

• • •

ولدينا نص عربي قديم يصح أن نعتبره مثلاً لنوع المناقشات البرلمانية التي كانت تجري في دار الندوة ، إذا حزب قريشاً أمر أو لم بها خطب . يصف هذا النص اجتماع قريش في دار الندوة وحوارها عندما أرادت الخيلولة بين محمد ﷺ وبين الهجرة إلى المدينة . وما انتهى إليه رأيها في ذلك . قال المؤرخ العربي القديم محمد بن اسحق ، فاجتمعوا في دار الندوة ... يتشاورون فيما يصنعون . واتمدوا يوماً يجتمعون فيه ، فلما كان ذلك اليوم اعترضهم إبليس (والمراد بالطبع زعيم المعارضة المتطرفة في ذلك اليوم) ، في هيئة شيخ جليل عليه بت له . فوقف على باب الدار ، فلما رآوه واقفاً على بابها قالوا من الشيخ ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم لسمع ما تقولون ، وعسى ألا يعدمكم منه رأى ونصح . قالوا أجل فادخل فدخل معهم ، ثم يسرد للمؤرخ أسماء من

حضر في ذلك اليوم من أشراف قريش يقول : وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة : من بني عبد شمس شيعة وعتبة ابنا ربيعة وأبوسفيان بن حرب ، ومن بني نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومن بني عبد الدار ، النضر بن الحارث . ومن بني أسد ، أبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام . ومن بني مخزوم ، أبو جل بن هشام . ومن بني سهم فيه ومنه ابنا الحجاج . ومن بني جح أمية بن خلف . قال واجتمع غير هؤلاء من لا يعد من قريش . ثم مضى ابن اسحق في تصوير ما حدث فيقول : قال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان وما قد رأيتم ، وأنا والله ما تأت على الرئوب علينا نحن قد اتبعه من غربنا ، فأجمعوا فيه رأيا ! قال فتشاوروا . ثم قال قاتل منهم : أحبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله زهيرا والناطقة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه منه ما أصابهم ! فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى . والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشبوا عليكم فينزعه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبكم على أمركم هذا ، ما هذا لكم برأى فانظروا في غيره ، !

ثم تشاوروا ، فقال قاتل منهم : نخرجه من بين أظهر ما فتفيه من بلدنا ، فإذا خرج عنا فواقه ما نبال أين ذهب ولا حيث وقع ، غلب عنا أذاه ، وفرغنا منه فأصلحنا أمرا وألفنا كما كانت . .

فيقول الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وخلوة

منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فلتتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيقلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتأبوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يهلككم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد اأدبروا فيه رأيا غير هذا ،

قال فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعدا قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ ، قال أرى أن تأخذوا من كل قبيلة قتي شأبا جلدا نسيئا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل قتي منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد فيقتلونه نفس تريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ورضوا منا بالمقل ، أى بالدية ، فعملناه لهم . فيقول الشيخ النجدي : « القول ما قال الرجل ا هذا رأى ا لا رأى لكم غيره ا ، تفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له . . ونحن نعلم أن ما دبرته قريش فى ذلك اليوم لم يفلح وأن الرسول أتم هجرته إلى يثرب . وإلى هذا الذى جرى من اجتماع قريش واتجارها بمحمد بشير القرآن الكريم بقوله « وإذ يمكركم الذين كفروا لينبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ، وبقوله أيضا « أم يقولون شاعر تترص به ربب المنون . قل ترصوا فإنى معكم من المترصين . » .

هذه دار ندوة قريش وبرلمانها فى الجاهلية وعند ظهور الدعوة الإسلامية . أما ما آل إليه أمرها بعد الإسلام فليس يهنا كثيرا ، ويكفى أن نقول إنها بدخول قريش فى الإسلام انتهى أمرها من حيث هى دار مشورة وندوة ، فلما كانت خلافة

معاوية بن أبي سفيان اشتراها من صاحبها بمائة ألف درهم ، وجعلها دار الإمارة بمكة ، ثم أهل أمرها وخربت ، فلما كان زمن الخليفة المعتضد بالله العباسي أمر بهدمها وإدخالها في المسجد الحرام . وبذلك اندرجت دار الندوة القرشبية الصغرى في دار الندوة الإسلامية الكبرى .

أما بعد ، فلعلنا نكون قد أوضحنا في هذا الحديث أن العرب القدماء كانوا مشبعين بالروح الديمقراطية على اختلاف عصورهم وتنوع درجات تحضرم ، ولقد أقر الإسلام نظامهم الديمقراطي فيما أقر من نظمهم وعاداتهم ، وأمر الله رسوله بالأخذ به ، فقال سبحانه وتعالى « وشاورهم في الأمر » ، وجعله من صفات المؤمنين في قوله : « وأمرهم شورى بينهم » . ثم زاد سبحانه هذا النظام تويها بقدره وإعظاما لشأنه ، فأزل سورة من سور القرآن أسمها « سورة الشورى » .



أحابيش قریش

هل كانوا عربا أو حبشا (١)؟

يستعمل لفظ « الأحابيش » في الدلالة على القوة العسكرية التي كانت قریش تستأجرها قبل الإسلام ، للدفاع عن بلادها وقوافلها التي كانت تردد بين الشام واليمن . ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمه اللتين كانتا تزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التي كانت تنزل بظاهر مكة . بهذه النصوص أخذ المستشرق الألماني الكبير فلهاوزن ، فقال في كتابه الذي ألفه عن الوثنية العربية (٢) هذه العبارة : Die politischen Verbundeten den Qurnisk sind die Ahabisch. ومعناها : الأحابيش أحلاف قریش السياسون .

ولكن الأب لاعانس المستشرق السوعي المعروف نشر في المجلة الآسيوية (٣) مقالا ضافيا عنوانه : Les Ahâbis' et l'organisation militaire : de la Mecque ، ذهب فيه إلى أن رواة اللغة العربية قد وهموا في تفسير هذا اللفظ ، وأن الأحابيش كانوا اكهم ، أو جلهم على أقل تقدير ، زنوجا من بلاد

(١) نشرت في القسم الأول من المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة طرابلس (١٩٣٣) مايو (١٩٣٣)

Reste des Arabischen Heldentums. ٨٨. (١)

Journal Asiatique, xvi, 1916, 32-35 (٢)

الحبشة ، وأن رواة السيرة تعدموا القول بأنهم عرب ، أتفه من أن يقولوا إن قريشا كانت في الجاهلية تستعين السودان في الدفاع عن حوزتها^(١) .

ومع أن الأب لامانس قد أفتق جهدا عظيما في التدليل على صحة نظريته ، وأن أحدا ، فيما أعلم ، لم يتصد لمناقشة هذه النظرية ، فإن أرى الموضوع لا يزال مفتقرا إلى التحقيق . وأريد في هذا البحث الموجز أن أثبت ثلاثة أمور :
(أولا) أن الأحايش كانوا عربا .

(ثانيا) أن القول بعريتهم هو المتفق مع تاريخهم .
(ثالثا) أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم في حروبها لم يكونوا من الأحايش في شيء .

(١)

لا شك أن بين كلمتي « حبش » و « أحايش » تجانسا شديدا في اللفظ واتحادا في المعنى من بعض الوجوه .
ولكن ثمة اللفظين يتفرد بعمان تعدل به في أغلب أحواله عن مدلول اللفظ الأول عدولا تاما . جاء في القاموس المحيط في مادة « حبش » : —
الحباشة ككثامة : الجماعة من الناس ليسوا من القبيلة كالأحوشة . وجاء في لسان العرب في المادة المذكورة : — والأحوشة جماعة الحبش ، ويقال هم الجماعة أيأ كانوا ، لأنهم إذا تجمعوا اسودوا ، والتحيش التجمع وفي المجلس حباشات وهباشات ، أي ناس ليسوا من قبيلة واحدة ، وهم الحباشة الجماعة والأحايش ، وتحبشوا عليه اجتمعوا ... والحبشان الجراد الذي صار كالمل

Ibid, p. 457 (١)

اسودادا . فالتفسير اللغوي يفيد أن لكلمة « الاحايش » ثلاثة معان خاصة :
 (١) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة . (٢) التجمع والتأشب ،
 ولا بأس أن نلاحظ بهذه المناسبة أن كلمة « حبش » و « حباش » و « تحيش » ،
 تفيد هذا المعنى في اللغة العربية الدارجة . (٣) كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ،
 لأن العرب تمتعت الشيء إذا كثر وتكاثف بسواد اللون .

وهذا التفسير اللغوي يتماشى مع مدلول الأخبار الواردة في بيان أصل
 نظام الاحايش . جاء في سيرة ابن هشام ما يأتي : قال ابن اسحق : والاحايش
 بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والمون بن خزيمه بن مدركة ، وبنو المصطلق
 من خزاعة . قال ابن هشام : « وتحالفوا جميعا فسموا الاحايش لانهم تحالفوا
 بواد يقال له الاحبش بأسفل مكة »^(١) . ويقول صاحب معجم البلدان :
 « حبشي ... جبل بأسفل مكة بنعيمان الأراك ، يقال به سميت أحايش قريش
 وذلك أن بني المصطلق وبني المون بن خزيمه اجتمعوا عنده وحالفوا قريشا ؛
 وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضع نهار ، ومارسا
 حبشي مكانه ، فسموا أحايش قريش باسم الجبل ، وبينه وبين مكة ستة أميال .
 مات عنده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فجاءه ، « لحمل على رقاب الرجال إلى
 مكة »^(٢) . وجاء في لسان العرب^(٣) : « وحبشي جبل بأسفل مكة ، يقال منه
 سمي أحايش قريش ، وذلك أن بني المصطلق وبني المون بن خزيمه اجتمعوا
 عنده لحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جوتيجن : ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) معجم البلدان - مادة حبشي .

(٣) لسان العرب - مادة حبش .

ووضح نهار ، وما أرسى حبش مكانه . فسموا أحايش قرش باسم الجبل . .
ولا بأس في هذا المقام أن نستدل بشعر السيرة ، فإنه على كثرة منحوه وقلة
صحيحه ، شعر دون في القرن الثاني الهجري وبين ما كان متعارفاً إذ ذاك عن
الأحايش . قال عبدة بن وهب الخزومي يفتخر يوم أحد :^(١)

سقتنا كنانة من أطراف ذي يمن عرض البلاد على ما كان يزجها
قالت كنانة أني تذهبون بنا ؟ قلنا التخل فأموها ومن فيها
فأجابه حسان بن ثابت فقال :-
سقتم كنانة جهلا من سفاهكم إلى الرسول لجند الله مخزها
جعمتم أحايشا بلا حسب أئمة الكفر أغرةكم طواغيتها
فهذه الآيات صريحة في أن المراد بالأحايش هو كنانة . وقال
حسان أيضا :

إذا عضل سبقت إلينا كأنها جدابة شرك معلمات الحواجب
أقنا لهم طعنا مبيرا منكلا وحزناهم بالضرب من كل جانب
قلولوا الحارثية أصبحوا ياعون في الأسواق بيع الجلاب
وعضل حي من بني الهون بن مدركة^(٢) ، فهي من الأحايش . ومعنى البيت
الآخر أنه لولا استئثار هذا الحي حول اللواء الذي رفعته يوم أحد تلك المرأة
الحارثية لوقعوا في الأسر فبنام بالأسواق كما تباع العيد المظوبة . من هذه
القول التاريخية نأخذ أن الأحايش :

(١) كانت أحياء عربية شتى تنسب إلى كنانة وخزيمه وخزاعة .

(١) سيرة ابن هشام ص ٦١٢ - ٦١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٦٣٨ .

٠ (٢) أن هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش، أو عند جبل يقال له
 حبشى، وتحالفت فسميت الأحابيش.
 (٣) أنها حالفت قريشاً على التناصر والتآزر فلم يدلول التاريخي لكلمة
 الأحابيش، متمش مع مدلولها اللغوي، غير أنه يحمل مناط التسمية تحالف
 هذه القبائل ومخالفتها قريشاً بمكان معين، وهو أمر لا يؤثر بحال في صحة
 النتيجة التي وصلنا إليها بهذه المقارنة: وهي أن الأحابيش عرب. والحق أنا
 بإزاء قبيلة عربية آخذة في التكون، بواسطة الحلف الذي كان سياً في تكون
 كثير من القبائل العربية القديمة. ولولا مجيء الإسلام وجولته دون تمام
 المزج بين الأحياء المولفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة،
 على نحو ما أصبحت البطون التي منها تألفت قبيلتنا «توخ»، «و» الرباب»^(١).

(٢)

وجنسية الأحابيش العرب يؤكدتها تاريخ حلفهم الذي زجج أنه قام في
 النصف الثاني من القرن السادس الميلادي وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان
 للهجرة. فإنا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحابيش طوال ذلك
 العصر الحظير قوة عربية لها خصائص القبيلة، من سيد يزعمها، وأرض تزولها،
 وراية تحف بها عند الحرب، وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش
 تنزل منها منزلة الخليف من الخليف، والد من الد، وأنها كانت مسموعة
 الكلمة في الشؤون العامة لقريش، وإلى الغاريء النصوص التي تؤيد ذلك:
 (١) كان سيد الأحابيش في السنوات الأولى من عهد النبوة رجلاً يقال له

(١) الطبري - المجلد الأول ص ٢٤٦.

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١١١.

« ابن الدغنة » . فلما خرج أبى بكر من مكة مهاجرا للأذى الذى ناله من قريش لقيه ابن الدغنة فأجاره ورده إلى مكة . ثم تعرض قريش لأبى بكر بسوءه ، احتراماً لهذا الجوار . وظلت كذلك إلى أن خافت أن يفتن أبناؤها ، فشكت أبا بكر إلى مجيره ، فإما كان من أبى بكر إلا أن رد على ابن الدغنة جواره^(١) .

(٢) يقول الطبرى فى كلامه على غزوة أحد ، رواية عن ابن إسحق : « وقد كان الحليس بن ذبان آخر بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شندق حمزة بن عبد المطلب بزع الرح ويقول : ذق عقق فقال الحليس : يا بنى كنانة اهدأ سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لهما . فقال : « ويحك اكتمها على قباها كانت ذلة »^(٢) .

(٣) ويحدث الطبرى فى خبر الحديدية عن ابن إسحق عن الزهرى فيقول : « ثم بشوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبآن . وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، قال : « إن هذا من قوم يتألمون ، فابشوا الهدى فى وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الرادى فى قلاته ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ . إعظاماً لما رأى ، فقال : « يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل ، صد الهدى فى قلاته قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله . فأتوا له « اجلس ، فأما أنت رجل أعرابي لا علم لك ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال « يا معشر قريش والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عقابناكم ، أن تصدوا عن بيت الله من جاء

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) الطبرى - طيبة ليون ، المجلد الأول ص ١٠٢٢ .

معه . والذي نفس الخليل بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ،
أو لأنقرن بالأحايش فقرة رجل واحد .

فقالوا له : « ما أكف عنا يا حليس حتى تأخذ لأنفسنا ما نرضى به » (١)

(٤) يروى الطبري في خبر الحديبية أيضا عن ابن إسحق أن النبي دعا
خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على حمل له يقال
له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فمقروا به حمل رسول الله ، وأرادوا
قتله ، فتمت الأحايش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ (٢).

وقد عرف الرسول كيف يقل قوة الأحايش التي كانت تعز بها قريش .
وسلك إلى تلك الغاية طريق السياسة وطريق العنف مدأ . فأما السياسة فإنه
اجتنب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التي تنتمي إليها أحياء الأحايش فكانت
خزاعة كما يروى ابن إسحق ، « مسلمهم ومشركم عية صح رسول الله ﷺ
بتامة ، صفقتهم معه ، لا يخفون عنه شيئا » (٣) . كما أن غفارا (٤) وهي من كنانة ،
وأسلم (٥) وهي من خزاعة ، أخذتا جانبه ، ووردت في التنا علىهما أحاديث
عدة . فلما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ، ودخلت
في عهده ، كما دخلت بكر بن عبد مناة بن كنانة في عهده قريش . وأما العنف
فتبينه في غزوة بني المصطلق سنة ٦ للهجرة . بهذه السياسة المحكمة انكسرت
شوكة الأحايش كما يرى من موقفهم في صلح الحديبية .

(١) الطبري - المجلد الأول ص ١٠٤٢ .

(٢) الطبري - المجلد الأول ص ١٤١٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ٥٨٩ .

(٤) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

(٥) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

وفي يوم فتح مكة قاتلت الأحابيش جالاد بن الوليد بأسفل مكة قتالا
يسيرا^(١).

واستعانة أهل الحواضر بأهل البوادي كانت ظاهرة سياسية عامة في بلاد
العرب قبل الإسلام . فمما كانت الأحابيش بالإضافة إلى قريش ، كانت الأوس
والخزرج بالإضافة إلى يهود يثرب^(٢) ، وكانت بنو عامر بن صعصعة بالنسبة
إلى ثقيف بالطائف^(٣) . ولقد عاهد يهود خيبر بنى فزارة على نصف غلة أرضهم
إذا هم حاربوا معهم النبي ﷺ^(٤).

(٣)

وبعد ، فلقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تكن من
الأحابيش في شيء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد ملوثة الحقوق
العامة ، ومسخرة لأشراف مكة في حال السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة قد
شرى بالمال ، وبعضها كان من قلول حلة أبرهة الحبشى على الحجاز .. يقول
الأزرقي^(٥) : « وأقام بمكة فلال من الحبش وعصفاء وبعض من ضمّه العسكر
يعتزلون ويرعون لمكة » . ويقول صاحب الأغاني^(٦) : « وكان لعبد الله بن أبي
ربيعه عيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا . فروى عن
سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله ﷺ : هل لك في حبش بنى المغيرة

(١) الطبري - البلد الأول ص ١١٣٥ .

(٢) السهوي : ج ١ ص ١٢٥ (طبع مصر) .

(٣) ابن الأثير : ج ١ ص ٢٥٣ (طبع مصر) .

(٤) السهوي : ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) أخبار مكة للأزرقي ص ١٦٧ .

(٦) الأغاني : ج ١ ص ٢٢٢ .

تستعين بهم؟^(١) فقال لا خير في الحبش : إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا .
 وإن فيهم لحقين حستين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس ، . فلما ظهر الإسلام
 بمكة أسرع عدد وافر من هذه الطبقة إلى اعتناقه ، فحسر ذلك عليهم اضطهاد
 أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش .
 من هذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع ، وبلال بن رباح ، وعامر بن
 فهيرة ، ووحشي قاتل حمزة يوم أحد ، وصواب حامل لواء قريش في ذلك اليوم .
 كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص في كتب السيرة على سادلتهم وعلى طريقة تحرر
 بعضهم من الرق .

وعما يدل على تميز هذه الطبقة من الأحايش قول الطبري في غزوة أحد^(٢) :
 فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحايش وعبدان أهل مكة ،
 وعطف عبدان على ما قبلها منا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح
 وبيان كما يرى الأب لامانس^(٣) .

بهذه التفرقة بين أحايش قريش وعبيدها يستقيم قول النصوص التي
 أوردناها أن الأحايش كانوا ألقفاء قريش ، وقول صاحب لباب النقول^(٤) :
 « واستأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين من الأحايش » ، فالمخالفة والاستئجار
 إنما ينضبان على الأحرار دون الأرقاء .

وعندما دون عمر بن الخطاب الدواوين أفرد لهذه الطبقة ديوانا خاصا ، سماه
 ديوان الحبش . يقول الماردي^(٥) : وذلك لما كان بلال منهم ؟

(١) وذلك عند سيرة أبي هوازن

(٢) الطبري المجلد الأول ص ١٣٦٦ .

(٤) لباب النقول في أسباب النقول للسيوطي ص ١٢٥ من الطبعة المصرية .

(٥) الأحكام السلطانية (وضع الديوان)

دار الأرقم المخزومي

لقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من دخلوا في الإسلام في السنوات الأربع الأولى من بعثة النبي، عليه السلام، فإذا هم بضع وثلاثون نفساً، جلهم من كانت تصل بينهم وبين محمد صلة قرابة أو صداقة. ولقد يبلل هذه الدعوة في تلك السنين العجاف من حياة الإسلام بأن محمداً لم يكن يجد فيها من حرية القول وأمن المضطرب ما يمكنه من إيصال الدعوة إلى من هو مستعد لقبولها من خاتمة قريش وعائتها. لقد كان أبداً معرض أنى وإغاثات، كما كان النفر الذين اتبعوه أبداً معرض فئة واضطهاد.

ولقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من هاجروا إلى الحبشة في العام السادس للبعثة، فإذا هم لا يتجاوزون مائة نفس غير من تحمل معهم من ذلورهم. فيهم الرجل والمرأة، والحر والعبد، والصریح في نسب قريش والدخيل. لشدة ما أعقبت هذه السنوات الست العجاف من حياة الدعوة الإسلامية سنوات صبيان، ففي نحو ستين اثنين بلغ عدد من دخل في الإسلام مثلي من دخوله من قبل، إذا قدرنا أن مهاجرة الحبشة كانوا، على أقل تقدير، على النصف من عدة الجماعة الإسلامية.

وليس من شك في أن تلك الثقلة العجيبة راجعة إلى أن محمداً أصبح يجد في هاتين السنين، من حرية القول وهدوء السرب ما لم يكن يجده من قبل. ولقد وجد محمد الأمرين جميعاً في دار من دور مكة، لم تقب به، ولم يضق صاحبها به وبأصحابه ذرعاً، كما ضاق كثير غيره، تلك هي دار أرقم بن أبي الأرقم المخزومي.

والأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة سبقوا الناس جميعا إلى الإسلام . وهو من بني مخزوم ، وكان بنو مخزوم ممن نصب للنبي العدواة وقس عليه الرسالة . فقد فسروا قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » بقولهم : أي على رجل عظيم من أهل مكة ، كالوليد بن المغيرة المخزومي ، أو من أهل الطائف كمروة بن مسعود الثقفي . وكان خالد بن الوليد بن المغيرة هذا قائد خيل مشركي قريش في وقعة أحد ، وبتيديره انكسر جيش محمد عليه السلام في تلك الغزوة المشهورة .

ولاشك أن سبق الأرقم المخزومي إلى الإسلام دليل على أن دعوة الرسول غزت من أول أمرها أمتنع صفوف أعدائه وألدها خصومة . وقد هاجر الأرقم إلى المدينة ، وحضر مع رسول الله بدرا وأحدا والخندق وسائر مشاهدته صلى الله عليه وسلم .

وقد عمر طويلا ، فقد توفي عام ٥٥ هـ عن ٨٠ ، عالية جاوزت الثمانين سنة . وأما دار الأرقم فتمتع شرق الكعبة ، على منتهى جبل الصفا ، يمر بها الباعون في سعيهم بين جلي الصفا والمروة جنة وذهابا . و أخذ من لغوى الرواية القديمة أنها كانت فسحة ، وثيقة البنيان ، محكمة الرناج ، ثم من مطلة على الكعبة والمسعى وغير بعيد من دار السيدة خديجة ، فكانت بكل هذه نازيا مركزا صالحا لنشر الدعوة الجديدة .

« دخل النبي دار الأرقم ، في السنة الرابعة من بعثته ، وجعل يدعو ديارا ، كما يقول مؤرخو السيرة . ونهى النبي فيها ستين أو أكثر قليلا ، وقد حقق عليه السلام ، في هذه الدعوة غرضين عظيمين : أولهما تقريره أصول رسالته في نفوس أصحابه ، وثانيهما بثه الدعوة من هذه الدار في جميع آفاق المجتمع المسكن . وفي

طاقة الخيال المحدود أن يتصور ما كان يجري عادة في تلك الدار أيام مقامه عليه السلام بها . فما هو ذا في صدر فناء الدار بسنته ووقاره . وجاذبيته . وروحانيته ، ومن بين يديه أصحابه ، وكلهم أوجلهم في مقتبل السن وعفوان الشباب . ما هو ذا ينزل عليهم ما ينزل عليه من الوحي من تلك السور المكية الأولى ، بما اشتملت عليه من أمر بعبادة الله وحده ، وترهيب في ثوابه ، وتحذير من عقابه .

وهاهم أولاء أصحابه يلقفون كل كلمة تنفج عنها شفتاه الكريمتان وحيا كانت أو حديثاً .

وهاهم أولاء . ينقلبون دعاة ينشرون الدعوة في أنحاء مكة ، فيستجيب لهم من رأى في الدين الجديد جمالا وخيرا . وهاهم أولاء الراغبون في الدخول في الإسلام يسرعون إلى دار الأرقم ليعلنوا إلى محمد دخولهم في دينه وقبلهم لرسالة . فنه من يأتي إليها تسلا وخفية ، كخفي حبيب وعمار ومصعب بن عمير . ومنهم من يأتي إليها في وضوح النهار ، كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وهاهو ذا النبي يأخذ بجماع رداء عمر وقد التبس عليه أمر بيته ويجذبه جذبة يترزله لها قلب ذلك الفتى المعتنت الجماع ، فلا يملك أكثر من أن يعلن إيمانه بالله ورسوله . وهاهو ذا النبي يكبر عندما يسمع إسلام عمر وهاهم أصحابه يكبرون من داخل الدار لتكثيره عليه السلام .

كان إسلام عمر بن الخطاب في ختام السنة السادسة للبعثة . عند ذلك يرى النبي أن قد آن أن يرحل دار الأرقم ، فقد كثرت أصحابه ورسخت في قلوبهم دعوته ، فيرحلها ويواجه قريشا بأولئك الصحابة الذين أصبحوا من الخير كل الخير في أن يعم الدين الجديد مكة ، بل الحجاز ، بل جزيرة العرب ، بل العالم جميعا .

أما بعد، فقد عرف المسلمون في مختلف عصورهم لدار الأرقم عظيم حرمتها
وشرفها، فأولوها عناية بالغة .

اشترى أبو جعفر المنصور حق حفدة الأرقم فيها بمال كثير . والظاهر أنه
أراد أن يضاهي بعمله هذا ما عمله معاوية بن أبي سفيان من شرائه دار الندوة .
ثم صيرها المنصور لولي عهده المهدي . وصيرها المهدي لوجه الخيزران . ولما حجت
الخيزران سنة ١٧١ هـ وسعها بأن ضمت إليها الدور المجاورة لها . بعد شرائها من
أصحابها . ويظهر أنه في ذلك الوقت أصبح مكان اجتماع النبي بأصحابه في تلك
الدار مسجداً أقيمت عليه قبة عالية ، وأن الدار كلها أصبحت تسمى بدار
الخيزران ، بعد أن كانت تسمى بدار الإسلام . وقد جددت الدار غير مرة بعد
ذلك ؛ وأشهر من عمرها عمارة حسنة الوزير أبو جعفر الأصفهاني في سنة ٥٥٥ هـ
كما يؤخذ من كتابة لا تزال محفوظة بها .

وانتقلت الدار من يد إلى يد، حتى صارت إلى السلطان العثماني مراد الثالث .
وكان السلطان سليم الثاني قد أراد أن ينشئ فيها مبرة عظيمة لفقراء مكة ،
فصرفه عن ذلك شواغل الملك .

قلت القائلين بأمر الحجاز يعنون بأمر هذه الدار العظيمة ، فينشئوا فيها
مدرسة تعلم فيها أصول الدين الإسلامي، فلعمرى لقد كانت أول وأعظم مدرسة
في الإسلام ، ومنها سال السيل وانبثق النور ؟

أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد^(١)

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وناب الخيال ، مطلق العاطفة ،
جزل الالفاظ ، سرى المعاني ، إذا استطاع أن يصوغ للقراء من سيرة
أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناب تلك السيدة الجليلة ،
وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية
بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة في أشرف معانيها .

ولكن صاحب هذا المقال ، وأسفاه ! ليس شيئا من ذلك الشاعر الذي
يتمنى أن يكونه . إن هو المؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها
الوضعية جهد طاقته ، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له
ولا بمحاولة التظاير والتحليق ، وبكتم عاطفته حتى لا يطفئ عليه سلطانها فيتسكب
سيل المؤرخ الذي هم البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ، فليقع
القارى الكريم بالصورة المجملة التي أرسما في هذا المقال ، حتى يتأذن الله
بظهور شاعر عظيم ينظم الألياذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك
السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه .

كانت جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي قد أخذت تمهيا للأحداث

(١) الرسالة ، ٢٠ أبريل ١٩٢٦ .

الجسام التي تخضع عنها القرن السابع ، وقد بدأ ذلك التبرؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامة ، سياسة كانت أم اقتصادية أم اجتماعية ، وبهنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة .

كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول في حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة إلى النحو الذي أقره في جلته الإسلام فيما بعد ، فأخذت تلاشى ضروب الأزواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحا ، وبحل محلها نظام الزواج القائم على التراضي والتعاقد .

وصاحب هذا التطور الخطير في بناء الأسرة تطور خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية ؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الإرث ، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف في مالها ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا في الحياة الملكية العامة قيل الإسلام وفي عصر النبوة .

ولدت خديجة بمكة حوالي منتصف القرن السادس المذكور . وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وكان خويلد من قادي قريشا في حرب الفجار ، ثم هي ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي ، ولا نعرف عن فاطمة شيئا ، غير أن الذهبي يقول في جدها عمرو بن خنسر المزي أنَّهُ كان من أبطال الجاهلية . فشب خديجة لآيها وأما يدل على أنها تنتمي إلى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصي ، وإلى قبيلة من أعز قبائل مضر هي عامر بن لؤي ، واكتفت عمود هذا النسب الجليل

فروع وحواش زاهية زاهرة ، فدمها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومته حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فاما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى في منيعه لبني هاشم والمطلب عندما حصرهم قريش في الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا في تلك العصبية المستنيرة التي يعرف أحادها باسم المتحفين ، قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوراة والإنجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة في ميوله الأدبية والدينية ، فكانت ، بمن ينظر في الكتب ، على حد تعبير القدماء ، ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجال قريش ، وهو والد الزبير بن العوام حوارى رسول الله .

خديجة من أوسط نساء قريش نسا ، كما يقول مؤرخو العرب ، وإذا جاز للتورخ أن يلاحظ عمل الوراثة في هذا المقام ، فإننا نقول إنها ورثت عن أبيها مزايا السؤدد العربي ، من نبيل وكرم خلق ، ووفاء وشجاعة ، كما لفتت عن عمومته تلك الاستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحاني الذي أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر .

تزوجت خديجة مرتين في مقبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائد بن عبد الله بن غزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة النخعي . ثم توفي أبو هالة ففدت أيماء . وقد ورثت على ما يظهر عن أبيها وزوجها ميراثا قويا رأت أن تقوم على استغلاله في التجارة التي كانت مرزوق قريش في ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تساجر الرجال في الأنجاء لما بالمها لقضاء نصيب تسببه لهم من الرجز .

لكن خديجة الحسبية النفسية ، الثرية الوسيمة ، لم تنزل بعد نصفها في النساء ،
 عروانا بين الشباب والكهولة . قد شارفت الأربعين ولما تعدها ، وهي سن لها
 عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخفة ، وكان غير واحد من كبار
 قريش حريصا على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تنأى على الخطاب ، لا رغبة
 منها في العزوبة ، فهي أعمر قلبا وأخضر شبابا من أن ترغب فيها ، ولكن لأن
 الأيدي التي كانت تمتد لخطبتها ليست من العراز الذي يسجها . لقد نضج عقلها ،
 وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد الكف والمثيل ، ومن لها بالعقل الراجح ،
 والقلب الكبير في مجتمع خشن ، ككيف غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك
 السؤدد العربي الجاهلي بما يتطوى عليه في واقع الأمر من بدانة واعرابية ،
 لا يمكن أن تنفي منهما إلى ظل ظليل .

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت
 تنطبع عليه شيئا فشيئا صورة نجم شارق في أفق المجتمع المكبر ، ويوشك أن
 ينكشف عن كوكب وقاديملا الكون نورا هاديا . وحرارة تبعث فيه الحياة
 قوية بعد أن لم يبق له منها إلا اللذماء . لقد كانت تلك الصورة منزعجة من الحقيقة
 لا من الوهم ولا الخيال . أنها كانت صورة قتي لا يزال مغمورا ، ولكن كل
 غنايله كانت تؤذن في فطر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة
 جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله .

كان محمد إذ ذاك شابا قد فاعز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الحلقة ،
 مشرق الطلعة ، ذليل المظهر ، كريم الخبر . وكان يحيا حياة ليله لم يكن يحياها
 بمكة أحد غيره . كان زاهدا في الناس ، عزوفا عنهم ، الا ما اقتضته ضرورة
 المعاشة والمساكنة ، نزوعا إلى التفكير ، محبا للعزلة ، قادعا للشهوة رادعا

للنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغدا أنه في وحشته ،
وانبساطه في انقباضه ، وغناه في اقلاله ، قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح
المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم ان تتجاوز هذا الحد فتتصص عليه نعمة باله ،
وتفسد عليه هدوء سره .

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقانا شديدا عندما كانت تلمح هذا الفتى
العجيب ، روح لطيفه ويغدو في طرق مكة وأسواقها وأنديتها ، وأدركت من
فورها أنه حاجة قلبها ومهوى قوادها . ولكن كيف تقضى إليه بدخيلة نفسها ،
وتبته لاهج حبا ؟ ان الحسب والنسب ، والحقير والحيا ، كل ذلك كان يمنعا
أن تكون هي التي تخطو في الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى .
لقد كانت الموقف دقيقا كل الدقيقة ، حرجا كل الحرج قلنسر في الأمر بحذر
واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفراها وقية لحياتها .

انها كانت تستأجر الرجال في الاتجار لها بما لها وتسامهم بنصيب مسمى من
الربح ، فلم لا تستأجر محمدا وتضاعف له الجعل الذي كانت تجعله لغيره ؟
وانشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ، فوسطت إلى محمد من عرض عليه
رغبته . قبل محمدا ما عرض عليه ، وسافر إلى الشام في صيف عام ٥٩٤ متجرا
في مال السيدة ، وسافر معه ميرة غلام خديجة ليرقيه عن كذب وينهى إلى
السيدة عند عودته جملة حاله في السفر ، فلم يجملة حاله في السفر والحضر . وباع
محمد ، واشترى ، ولقي الرهبان يادية الشام ، وتحدث إليهم ، وتحدثوا إليه ، ثم
عاد وقد ربحت التجارة ربحا وفيرا . وقص ميرة على السيدة ما رأى من محمد
في السفر من رقة الثمائن ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ، فعلمت السيدة عند
ذلك أن قلبها لم يكنزها ، قطعت كل تردد ، وأجمعت أن تخطو هي الخطوة

الاولى ، وتقول هى الحكمة الاولى : وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه ، فاستأجرتها إلى محمد لتلوح له بالامر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة - يا محمد ! ما يمنحك أن تزوج ؟

محمد - ما يبدى ما أتزوج به !

نفيسة - فان كيف ذلك ودعيت إلى الجلال ، والمال ، والشرف ،

والكفاية ، ألا تجيب ؟

محمد - فن هى ؟

نفيسة - خديجة !

محمد - وكيف لي بذلك ؟

نفيسة - على !

محمد - فأتأفصل !

لا شك أن محمدا لم يقل مقالته الأخيرة الا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوها ، وبعد أن أصبح يادها عطفاً بعطف ، وتقديراً بتقدير . نعم إنها أسن منه ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى محاسنها وفنائها الكثيرة التى جعلته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه : وعرض محمد الأمر على عمومته كاعرضته خديجة على عمها ، فكل وافق ، وبني محمد بها بعد أن أسدقها عشرين بكرة كايروون .

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنية ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأودعها وأهتها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر

في محمد كرم الخلق ورقة القلب ، وروحانية النفس ، وكان هو يقدر فيها
رجاحة العقل وكثرة العطف عليه ، والأعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته
في منزله . ومطابقته فيما يجب وما لا يجب .

ولأنفس ان محمدا لم يكن كثر الرجال يبشش كيفما اتفق . فهو رجل
كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يعلم . ولا كل الشراب يشرب ،
ولا كل الملبس يلبس . ولا بكل الزيتة يزدان . ثم هو مبال بطبعه إلى العزلة
مؤثر للصمت ، مطيل للفكر . فعلى جليبه وعشره أن يعرف فيه كل ذلك
وبرعاه له ، وقد عرفت ذلك خديجة ورعته له أتم رعاية ، فلا شك أنها كانت
تعد له ما يستطيعه من الدباء والعسل والتمر المنقوع في اللبن المخلوط بالقشاء
أحيانا ، ولا شك أنها كانت تقل في طعامه من البصل والثوم الذين كانت تعاق
كثرتهما نفسه . كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدعائه . فقد كان
محمد يحب أن يبرز لقناس عطر الجسم ، خفيف الملبس . ولا شك أنها كانت توفر
له المهدوء في المنزل . وإذا جنح إلى الخلوة أو التحدث في الغار لم تقطع عليه
سكوته . بل أعاته على ذلك بإعداد الزاد الذي يحتاج إليه . فإذا طالت غيبته
افتقدته من غير ازعاج له . ولا تكدير لصفو نفسه .

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفية بزوجها . فإنها كانت مثال الأم المعنية
بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير إبراهيم . ورزق منها القاسم وبه
كان يكنى . ثم ولدت له زينب ورقية . وفاطمة وأم كلثوم . وكل هؤلاء ولدوا
قبل النبوة . ثم ولد له في الإسلام عبيدة الذي عرف بالطيب والعامر . وقد
مات الغلامان صغيرين .

أما البنات فكلهن أدركن الإسلام . وتزوجن ، وهاجرن . وقد انضم إلى

هؤلاء على بن أبي طالب . ضمه النبي إلى أولاده تخفيفاً عن عمه أبي طالب وكان
 فقيراً كثير الغيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف
 كانت خديجة تقول أولادها وتنشئهم ، غير أن ماورد من الأخبار على قلته
 لا يتخلو من الفائدة . روى ابن سعد عن الواقدي قال : « وكانت سلى بنت
 حبيبة مولاة عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها ، وكانت تقي من كل غلام
 فيشأتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها ستة ، وكانت تسترضع
 لهم . وبعد ذلك قبل ولادها ، وكما كانت خديجة تقي بولادة أولادها ،
 ورضاعتهم ، وتنشئهم ، فقد كانت تنشئ الأزواج لبناتها . ففي التي أشارت على
 النبي بأن يزوج أبا العباس بن الربيع من بنتها زينب . فلما زفت إليه أهدتها
 خديجة قلادة كان لها شأن فيما يند سيرة ذكره . ولما أرادت قرين حملها على
 أن يطلق زينب نكاحاً في محمد أبي أن يفارقها مع أنه لم يكن قد أسلم
 بعد . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فلما توفيت ورآه النبي حزينا مهموماً
 لطيفان زوجه أختها أم كلثوم وكانت فاطمة عند زوجها على بن أبي طالب بالمحل
 الرفيع والمكان الممتاز

•••

لكن فضل خديجة الأكبر وغررها الخالد خلود الزمن ، إنما هو في
 موقعها من زوجها عندما نبي . ومن الدعوة الإسلامية التي أخذ يدعو إليها
 بعد خمس عشرة سنة من زواجه منه

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادئ السرب ناعم البال ، وأصبح
 له منزل يأوي إليه وأهل يسكن إليهم ، فأنصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من
 الجلوة وإطالة الفكر فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى في مسلكه

بابا. فلما جرى الوحي عمدا ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الدهول
 والحيرة ، ورجع إلى منزله رعبا جازرا ، وقال لخديجة : « لقد خشيت أن يكون
 بي جين » لم يكن منها ألا أن ثبتت فراده ، وسكنت خاطره بمقاتلتها المشهورة :
 « الله لا يعزبك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، ... وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ،
 وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ... الخ » ثم أنها انطلقت من
 غورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . وقصت عليه خبر زوجها . فبشرها ورقة
 بأن الذي رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذي نزل على عيسى وموسى . وقد
 أنجحت تلك المقالة نواذرها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها .
 فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به . روى الطبري بإسناده إلى عفيف
 البكدي أنه قال : « كنت امرأة تاجرا ، فقدمت أيام الحج ، فأثقت العباس .
 فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصل معه . فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة
 فصارت معه تصل ، وخرج غلام فقام يصل معه . فقلت : يا عباس ما هذا
 الدين ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى
 وقصر سفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام
 ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به ، قال عفيف . فليتي كنت آمنت بمرثد ،
 فكنت أكبرن قالنا . »

ولم يزد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخا . ولا يفئها إلا قوة ، ولا تغلبها
 بزوجها إلا شدة ، فكانت في سنوات العشر الأولى للبعثة ، وهي السنوات التي
 توالى فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أبا
 اضطهاد ، كانت خديجة في تلك السنوات إلى جانب زوجها تريض بتأييدها
 حجاجه ، وتأسير معظمتها جراحه . روى ابن الأثير بإسناده قال : « وكانت

خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، إذا رجع إليها ثبته ، وتخفف عنه وتصدق ، وتهون عليه أمر الناس . . . ولم تتردد خديجة عندما جد الجد ، أن تترك زوجها في محنته ، وتقاسمه أمر العيش كما قاسمته حلوه ، وتعمل لنصرة دعوته صابرة محسبة . فعندما اشتدت قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم في الشعب ومنعهم حتى الماء والزاد ، كانت خطيئة في الشعب تقاسى ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها : فلما قامت قريش إلى صوابها وخلصت سبيل أولئك المجاهدين المجهورين . كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جنبها فلم تعش إلا قليلا . وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة . بالغة من العمر خمسة وستين عاما . وقد دفنها الرسول بالحجون . وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة .

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفي نفس العام عمه أبا طالب . وهو الذي كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد في وقت واحد خطبان فادحان . ورزان بالغان . ولكن لا شك في أن داخل رزئيته كان الأفرح : وباطن جرحيه كان الأذى . لقد تهتم صرح سعادته المنزلية . وغدت الحياة مشغلة له في الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه الله في الداخل والخارج .

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحن إحسانه . وأكرم من ألا ينسى الحبيب صدقه الحب . وأصفاه الرد . ولو باعدت بينه وبينه طباق الأرض . وكذلك

كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد وفق لها في حال الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها في حياتها ، فلما لحقت بربها لم تترحم صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه . وم يرون في ثناءه عليها ودوام تذكره لها اخبارا كثيرة ، يرون أنه فضلها هي ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها بيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب . وأنه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بقلادة قلدها إياها خديجة ، لتفتدي بها زوجها أبا العاص بن الربيع وكان قد أسرى يدرق النبي لذلك رقة شديدة ، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا الزينب أسيرها ومالها ففعلوا ، وأنه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدين إليها منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثنى عليها ، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهي بعد أثر نسيانه لديه ، وأجلهن ، وأصغرهن سنا . روى بن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا فقد أبدله الله خيرا منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر للناس ، وصدقتي وكذبني الناس ، وواسقتني في مالها إذ حرمتني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمتني أولاد النساء ، قالت : فقلت في نفسي لا أذكرها ببيتة أبداً .

تلك بالإختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة ، يعرف فيها الفاريد للث الأعلى للمرأة ، زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور في غير خروج على طيبة الجنس ومواضع الناس منذ صار الإنسان إنساناً .

الهجرة^(١)

كان من أثر الإنجاء المادى الحديث في فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شئ بالفلاسفة الكليين القدماء الذين كانوا يحدون الإنسان من عاطفة الخير ، ويعتقدون أنه أثنى بطبعه ، لا يصدر عنه الخير إلا رياء ونفاقا ، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى وينقضا تقضا صريحا . ولست أجد في التاريخ الإسلامى أنقض لتلك الدعوى وأشد تكديما من حديث الهجرة التى وقعت زمن النبوة ، سواء أكانت هجرة الحبشة أم الهجرة إلى المدينة ، ففى كلتا الهجرةين نجد الإخلاص للعقيدة مجسما محسوسا والنزاهة عن حطام الدنيا واضحا ملموسا . وإلى القارىء أسوق المقال الآتى توضيحا لهاتين الهجرةين فى ضوء الجاه العامة التى ابتعثتهما وأدت إليهما .

لقد حمل الإسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من ظلم بالية عتيقة حلة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة . فكان محمد يقرع أسماع قومه بما ينزل عليه من القرآن ناعيا عليهم وثبتهم المنحطة ، ونظامهم الإجتماعى الذى فرقه من أغنياء وقراء وسادة وعبيدا ، مهجنا تكثرهم بالأحباب والأنساب ، مقبحا طرفهم الملتصبة فى المعاملات . من تخفيف الكيل والميزان وأكل أموال

(١) الرسالة العدد ٤٢ ، ٢٣ أبريل ١٩٣٤ .

الناس بالباطل . محذرا لهم إن هم أصروا على عتوهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به إليها الرسل من أسباب الهداية والإصلاح .

لم يجب هذه الدعوة التي تكلفك بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العدد وسيط المكاة في المجتمع القرشى . أما الملا من قريش فرأوها دعوة صريحة إلى الفوضى وقلب الأوضاع . ورأوا في محمد تائرا يريد هدم النظم التي درجت عليها الجمهورية المسكية من قديم . ثم من يدرهم لعلمهم إن هم اتبعوه التأف عليهم الأمر واضطرب الحبل ، فإن الهدم عادة أيسر من البناء . تلك كانت حجتهم في عدم متابعتها ، وهى حجة الجامدين على المصلحين في كل زمان ومكان .

وكان موقف قريش من محمد أول الأمر سلبيا محضا . ولكن محمدا كان النشاط واللباقة والنفصاحة وقوة الخلق مجتمعة . فوجدت قريش نفسها بإزاء رجل لا كالرجال وخمهم ليس كغيره من الخصوم ، فهى إن لم تعاجله عاجلها ، وإن لم تقض عليه قضى عليها . لذلك أخذت تنهج في مقاومته خطة إيجابية تدرجت فيها تدرجا . فكانت أول الأمر تستهزئ به وبدعوته وبمن اتبعه ، فهو شاعر وساحر ومجنون ، ودعوته إنما هى محض خداع وغرور ، وأتباعه ليسوا إلا أرواها وسفاتها ، ثم جعلت تحاول إعجازه ومعانياته . إن يكن صادقا فيما يدعى فليحول جبال مكة جنانا وأنهارا ، أو فليكن له بيت من زخرف ، أو ليرق فى السماء ، أو فليسقط عليهم كفا ، أو فليأت باقة والملائكة قيلا . ثم انتقلوا من هذه المعايه الدالة على قصر عقولهم إلى التعريض له بالمال والسلطان . فلما أعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالآذى

والغلب ، فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته ، ومنهم من كان يفتن من
شدة البلا

عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التي هي آخر ما يلجأ إليه الحق
الضعيف في مقاومة المظالم القوي . أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهي أرض
قديمة الصلة بمكة . وبها ملك نصراني رشيد لا يضام من يلجأ إليه ويحتمى بحماه .
فخرج من مكة في شهر رجب من سنة خمس للنبوّة زهاء مائة مسلم ومسلمة ،
وكلهم جاز البحر الأحمر من الشعة إلى بر الحبشة فلقاهم النجاشي لقاء حسنا
وأذن لهم في المقام بأرضه آمنين على دينهم وأنفسهم . وقد أبي أن يخفف عنهم
لهم عندما أرسلت إليه قريش في رد اللاجئين إليه . فلما تبدلت الأحوال
بالحجاز وعلا شأن الإسلام به جعل هؤلاء المهاجرون يعودون إلى الحجاز
وكانت عودة بقيتهم إلى المدينة سنة سبع للهجرة أي بعد أن لبثت بأرض
الحبشة نحو خمسة عشر عاما ، وقد جرت الرواية الإسلامية النجاشي عن صنيعة
هذا بأن اعتنقت إسلامه ، وبأن النبي ﷺ قد صلى عليه عندما بلغته وفاته .
ولما رأت قريش خروج من خرج إلى الحبشة من أصحاب محمد أرادت أن
تحسم مادة الخطر فاجتمعت كلمة ملتها على حبس محمد وعشيرته من بني هاشم
والمطلب في بعض شعاب مكة ، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم
وبين جمهور قريش ، وقد اتفقت هذا الحكم ، وقضى بني هاشم والمطلب في
الشعب نحو ثلاث سنين - وأقيا جهدا جامدا حتى لقد كان يسمع صوت
صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعا . وأخيرا قام في قريش من عطفه
عليهم عاطفة الرحم واتقاربة فسمى في اخراجهم من الشعب فأخرجوا .
على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التي سبقت إليه طويلا ، ففي السنة

العاشرة النبوة أصيب بمقدحه أنى طالب وزوجه خديجة ، فخلا للبسدان من
 النصارى الزائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤمن ، وأصبح محمد وجهه أمام
 عدو حتى عليه كان يقرب فيه الفرصة ، فلما أمكنت استغلها استغلالا . فجلس
 يأخذ عليه المذاهب ويعزى به السفاه يتممونه بالأذى والهووان . . .
 .. عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به على أصحابه منذ سنين
 عندما اشتد تحامل قريش عليهم : يأخذ يفكر هو أيضا في الهجرة . لقد دلت
 تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة في واد
 وفخة في رماد ، وإذا قفيم المقام بواد غير ذى زرع حقة ومجازا ؟ فليهاجر !
 ذلك ما قر عليه رأيه . ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث
 إلى العرب أولا وإلى سائر الناس أخيرا . فليخرج إلى أقرب قرية عربية من
 مكة : إلى الطائف ، لعل ثقيفا يغيره حتى يبلغ رسالته . ولكن ثقيفا لم تكن
 أير به من قريش ، فقد أعرضت عن سماع دعوته ، وضفت عليه بجوارها ، ثم
 زادت فأغرت به سفهاها ، فازالوا يتعقبونه حتى الجأوه هو ومولاه زيد بن
 خازمة إلى حائط من حوائط قيف وهنا .. وقد خلا إلى نفسه وربه . فاضت
 أشجانها واعتلجت في صدره همومه ، فانبعث يناجي ربه : اللهم إليك أشكو
 ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ! أنت رب
 المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلمنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو
 ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي
 أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا
 والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ،
 ولا حول ولا قوة إلا بك .

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها إلا في جوار سيد من ساداتها هو
المعلم بن عدى . وكف محمد مؤقتا عن توجيه الدعوة إلى قريش واكتفى
بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج لعل كل قبيلة تصفى إليه فيقتل
إليها ويبلغ دعوته في ظلها وسلطانها . فكانت القبائل ترد عليه بأنه لو كان صادقا
لا تبعه قومه ، الا ما كان من أمر أهل يثرب . ففى عام ١١ للنبوة لقي النبي عند
العقبة ستة نفر من الخزرج فرض عليهم الإسلام فأمنوا وصدقوا ، ووعدوه
أن ينشروا الدين الجديد في قومهم . تلكبيعة العقبة الأولى . فلما كان العام
القابل وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، لقوا النبي عند العقبة
أيضا فبايعوه علىبيعة النساء ، وذلك قبل أن يشرع القتال ، على ألا نترك بالله
شيئا ، ولا نفرق ، ولا نؤذى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى يهتان فقتله من
بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعطيه في معروف . فبان وفيم فلكم الجنة ، وإن
قتلتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب ،
تلكبيعة العقبة الثانية ، وبعث الرسول معهم صاحباً من أصحابه ديناً لبقاً فضاً
ليفقه القوم في الدين ، وفى الوقت نفسه لينبئ أحوال يثرب العامة ويسير
غورها وينهى إلى النبي ما يصل إليه من ذلك . ذلك هو مصعب بن عمير . وقد
أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه ، ثم عاد إلى مكة فأطلع الرسول
على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الإسلامية بها . فلما حل موسم الحج وافى
مكة جم غفيرة من الأوس والخزرج ، مسلمهم ومشرِكهم . فواعد المسلمون
منهم رسول الله أن يلتقوه عند العقبة ليلاً ، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلاً
وامرأتان ، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهى تقوم على تعهد
الأوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والخرب من دونه ، يقول الطبري

« فوافره بالحج فبايعوه بالعقبة واعطوه عهدهم ، هل أنا منك وأنت منا ، وعل أنه من جاءنا من أصحابك أو جئنا فأنا نمنعك عما منع منه أنفسنا ، وهذه البيعة أصبح للرسول يثرب أنصار يؤوونه ويندرون عنه .

لكي ندرك السبب في مسارعة الأوس والخزرج الى قبول الدعوة الإسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه ، ينبغي أن نلم بحال يثرب في السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية ، فمن الناحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدت الأنصار لقبول الدعوة الإسلامية ، لأنهم أهل كتاب منزل ودين مشروع . وكان الأوس والخزرج يلقفون منهم معنى النبوة والرسالة والوحي ونحو ذلك من المصطلحات الدينية . ثم إن اليهود كانوا كدأهم يتوقعون ظهور نبي منهم يجمع شملهم ويعيد إليهم سلطانهم ويهر بهم أعدائهم ، وكانوا لا يصدقون أن يرحوا بشيء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج . قال ابن اسحق عند كلامه على استجابة الأنصار لدعوة النبي في بيعة العقبة الأولى : « وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم ييلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوه ييلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نينا مبعوث الآن ، قد أطل زمانه تنبئه فتقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلوا ، والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام . »

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبيل الهجرة أبلغ من تصوير الحالة

المدينة في غمهم قبل الانصار دعوة النبي والتزامهم الدفاع عنه يلاهم . لقد كانت
 الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الأوس والخزرج
 التي سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثارات . وكانت الغلبة بوجه عام في
 تلك الحرب للخزرج على الأوس ، حتى لقد همت الأوس حوالى السنة العاشرة
 قبل الهجرة أن تجلوا عن المدينة بجملة ، وأخذت تقاوض قريشا في أن تأذن لها
 بالنزول عليها بمكة ، ولكن قريشا كانت أحرص من أن تأذن بذلك ، فلما طلبت
 إليها الأوس أن تحالفها على الخزرج أبت أن تتورط في شيء من ذلك أيضا .
 فعادت الأوس تلتصق بالخلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير . وكان
 اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق ، فلما بلغ الأمر الخزرج
 أرسلت إلى اليهود تحذرم عاقبة هذا الخلف إن تم ، فلما أكد اليهود أنهم غير
 محالين الأوس عادت الخزرج تطلب منهم رهنا أربعين غلاما من غلبانهم يكونون
 بأيديهم ضمانا لهذا الحياد . فلم يسمع اليهود إلا أن يسلموا إليهم الضمان الذي طلبوا .
 ولكن الخزرج كانت قد قرمت إلى أرض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع
 يثرب فأقبلت تتجنى على اليهود وتخبر قريظة والنضيرين أمرين كلاهما شر : فإما
 أن يجلوا عن يثرب وينزلوا لهم عن أرضهم ، وإما أن يقتل غلبانهم . فلما رأت
 " . دأن الخزرج قد لجأت في طغيانها ، وأن حيادها لن يجري إليها خيرا ، عند ذلك
 خرجت من حيادها وحالفت الأوس صراحة ، قتلت الخزرج الغلبان وعقدت
 حلفا مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قيلة بني قيثعاع ، وبذلك استحالت يثرب
 عسكرين تشد فيهما السيوف وترش النبال استعدادا للواقعة الفاصلة .

وقد وقعت الواقعة الفاصلة في يوم بعث الذي كان قبل الهجرة بنحو
 خمس سنين . في ذلك اليوم أديل للأوس وحلفائها ، من الخزرج وحلفائها ، وقتل

من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرافهم . جاء في صحيح البخارى عن عائشة : « كان يوم بعثت يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افرق ملثم وقتلت سرايتهم ، ويضر السموذى هذا الحديث بقوله : ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ، ويقف أن يدخل في الإسلام ، إلى أن يقول : وقد كان يقي معهم من هذا لفظ عبد الله بن أبي بن سلول . . . وكذلك ابو عامر الراهب . . . فشقا بشرقهما . »

ورأى أهل يثرب غداة يوم بعثت أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الأموال ، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعا ، وأنه أولى بهم أن يقيموا يثرب حكومة تزع القوي وتأخذ بناصر الضعيف . وكان عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي قد رأى غدر قومه في الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان يده من غلبان اليهود ، ولذلك اتجهت إليه أقطار القوم ومهروا أن يملكوه على يثرب ، وأقبلوا ينظمون له الحز ، وكان ذلك شارة الملك عندهم . ولكن يظهر أنه لم تكن هناك رغبة صادقة في تملكه . أما الأوس فكانت تكره أن يصير الأمر إلى خزرجي مهما تكن فضائله ، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولى رجلا وسما بالفنر وخذلما عند الحرب ، فكان بذلك مسئولاً إلى حد ما عن هزيمتها . وأما اليهود فلا شك في أنها كانت تستكشف أن يلى أمرها مشرك ولو كان ابن أبي نفسه .

فلما لقي حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج واطلعوا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالهم المنشودة . فهو وحده الرجل الذى تستقيم على يده حافم المختلة ، وتجتمع على حكمته آراؤهم المختلفة ، هو نبى عربى ينزل عليه الوحى

من السماء ، وبذلك يحتجون به على اليهود . نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر
أجنيا عن يثوب ؛ ولكن حكومته لن تكون أجنبية . أليس الأنصار هم الذين
سيكونون عدته ومادته ؟ فأى حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة ؟
إنهم طيعوا عن تملك ابن أبي ، ولياسوا محمدا ، ولكن ذلك في غية ابن أبي ،
وليكنتموا ذلك الأمر عنه كتمان النبي إياه عن قريش .

تلك كانت الحال المعنوية للأنصار عندما بايسوا النبي ببعثهم الثلاث بمكة .
قال ابن اسحق عند كلامه على العقبة الأولى : « ... وقالوا له : النبي ، إننا قد
تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله
بك ، فتستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من
هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أهر منك . ثم انصرفوا عن رسول
الله ﷺ راجعين إلى بلادهم . وروى ابن اسحاق أيضا عند كلامه على
بيعة العقبة الكبرى : « ... فافترض القوم أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول
الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإننا قاطعوها . يعني اليهود ، فهل عسيت إن نحن
فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال قبسم رسول الله
ﷺ . ثم قال بل الدم الدم والمدم والمدم ؟ أنا منكم ، وأنتم مني ،
أحارب من حاربتهم وأسلم من أسلمهم ، فالمسألة من ناحية الأنصار لا تعدو أن
تكون حلقا سياسيا قوامه الفكرة الدينية . أما من ناحية الرسول فلم تكن
كذلك . فالرسول إنما كان يريد إذ ذاك بلدا يأمن فيه على دعوته وأصحابه ،
وقوما يحملون ظهره حتى يبلغ رسالته . وقد أصبح ذلك مكفولا له بالبيعة
الآخيرة ، وإذن فلم يبق إلا الرحيل من مكة إلى المدينة .

ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه في الخروج إلى يثرب في
 أواخر ذي الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوّة . فجعلت جماعاتهم عند ما استهل
 الحرم تخرج من مكة أرسالا وقزلا على الأنصار في دورهم . فخرج في نحو
 شهرين زهاء المائتين . وقد أقترت دور يرمتها بسبب الهجرة ، من ذلك دور بني
 مظعون وبني جحش وبني البكير . قال ابن هشام وقفلت دار بني جحش هجرة ،
 فربها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة .
 وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فظفر إليها عتبة بن ربيعة تخفى أبولها يابا ليس
 فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركما التكباء والحرب
 ثم قال هذا عمل ابن أخي هذا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيتنا ،
 ولم يبق بمكة من المسلمين إلا النبي وأبو بكر وعلي وإلا من كان مقتونا أو
 عبوسا أو مريضا أو ضعيفا عن الخروج .

وأجست قريش الخطر الذي أصبح يهددها من جراء تلك الهجرة وذلك
 لحلف الذي عقده محمد مع أهل يثرب . فأجتمع ملؤها في دار نذوتها ليقلب
 الأمر على وجوهه ويصدر فيه رأيا حاسما . وهنا افرقت بها الآراء وتشعبت
 المذاهب ، فنهى من رأى أن يحبس محمد حتى يموت ، ومنهم من رأى أن ينفي
 من البلد ، ومنهم من رأى قتله . والظاهر أن الرأي الأخير هو الذي اجتمعوا
 عليه آخر الأمر . وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله : وإذ يكره لكم
 كفروا ليثبتنكم أو يقولوا كذبوا أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ،
 ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتع على عشيته المطالبة بدمه فأمروا قتيانا من بطون
 قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يفرق دمه في القبائل ويرضى

بثو هاشم بدية.

ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأسرع إلى الخروج خفية من داره إلى دار صديقه أبي بكر ، وكان قد أعد عدة السفر إلى المدينة ؛ دليلاً وظهراً وخادماً وزاداً . وخرج الرسول وأبو بكر إلى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام احتاجت فيها قريش احتياجاً شديداً وجعلت لمن يأتي بالنبي حياً أو ميتاً جعلاً مبنياً . وإلى حادث النار يشير القرآن بقوله : إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ، إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بخنوده لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز ذو انتقام .

توصف الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها حزمة وعرة موحشة ، ليس بها ما يرفه عن المسافر في بلاد العرب من ماء أو خضرة ثم هي يشقها طريقتان : إحداهما شرقية محاذية لنجد ويمارز طولها الثلاثمائة ميل بقليل ، والأخرى غربية محاذية لساحل البحر الأحمر وقرب طولها من مائتين وخمسين ميلاً . وقد أثر الدليل الذي اتخذ أبو بكر هادياً له والرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية . غير أنه كان ينحرف يمنة ، ويسرة قهقريلاً لمن عسى أن ترسله قريش في إزم . فخرج بالجماعة من جبل ثور أسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك رافقه بن سائب طامعاً في قتل الرسول وأخذ جعل قريش ، ولكنه وجد معه أمام أربعة أشداء فكان قصاره أن نجأ بنفسه بعد أن أعطى الرسول وأصحابه موثقاً ألا يدل عليهم . ثم سار الدليل بهم إلى أمج قديد ، فلما قارب بدرأ مال بهم يمنة إلى العرج ، ثم هبط وادى العقيق الذي يؤدي إلى المدينة . ولكن بالنبي أمر بأن يكون المسير أولاً إلى بقاء قرية بني عمر بن عوف . فبلغها ظهر يوم

الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانية أيام .
وأقام النبي ثلاثة أيام بقاء وثق فيها من حسن استقباله بالمدينة . فلما كان يوم
الجمعة خرج من قباء إلى المدينة يحف به ملائكة التجار . وقد لحقه بقاء على بن
أبي طالب بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع . ولما
اطمان الرسول بالمدينة أتقذ إلى مكة من حل إليه أهل بيته .

ليس يسيرا على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التي لحقت المهاجرين
الأولين من جراء هجرتهم من وطنهم إلى بلد ناء ومشر غرباء . لقد كان أول
مظهر لهذه المشقة أن تأثروا بجو المدينة الرخم لأول قدمهم فاعتلت محنتهم
وأصابهم الحمى وعراهم داء الحنين إلى وطنهم القديم ، حتى لقد كان بعضهم يهذى
بذلك إذا أخذ دوار الحمى . روى البلاذري بإسناده عن عائشة أم المؤمنين
أنها قالت : لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان من
اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فيرة . فكان أبو بكر يقول في مرضه :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله
وكان بلال يقول :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة بضع وحول أذخر وجليل
وهل أرتن يوما مياه مجنة وهل تبون لي شامة وطفيل
وكان عامر بن فيرة يقول :

لقد وجئت الموت قبل ذوقه إن الجبان خفاه من فوفه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

قال فأخبر النبي ﷺ بذلك ، قال : اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا

مكة وبأمرنا في مدحا وصاعا ،

وتتمثل هذه المشقة كذلك في العاقبة الشديدة التي صار إليها المهاجرون بسبب الهجرة . فقد خلف أكثرهم أمواله بمكة ففدت عليها قريش فأغصبتها تشقيا من أصحابها . روى صاحب أخبار مكة ، إنه قيل للنبي ﷺ يوم الفتح (فتح مكة) ألا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال وهل ترك لنا عقيل منزا . قال وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوانه من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقيل لرسول الله ﷺ فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك فأبى رسول الله ﷺ وقال لا أدخل البيوت ، فلهزل مضطربا بالحجون ، وكان يأتي المسجد من الحجون ، وروى ابن هشام أن عبد الرحمن بن أبي بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته ، فلما كان يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فآذاه أبوه : أين مالي ياخيث ؟ فأجابه عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعوب وصارم يقتل ضلال الشيب

وروى ابن هشام كذلك ، أن صبيحا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أئتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صيب . أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخولون سبيل ؟ قالوا نعم ! قال فإني جعلت لكم مالي . قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صيب اربح صيب ! ، وروى ابن اسحق أنه لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعهم من عمرو بن علقمة ... فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ

ألا ترضى يا عبد الله أن يسطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة؟ قال بلى أو قل
 كذلك لك . فلما انتح رسول الله ﷺ مكة ، كله أبو أحمد في دارهم فأبأ عليه
 رسول الله ﷺ . فقال الناس لابي أحمد يا أبا أحمد ! إن رسول الله ﷺ
 يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب في الله عز وجل ، فأمسك عن
 كلام رسول الله ﷺ (فيها) ، وما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول عهدهم
 بالمدينة أن الرسول عندما خرج بهم إلى وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة دعا الله
 في رواية الواقدي فقال : اللهم إنهم خفاة فاحملهم ، وعرة فاكسهم ، وجباة
 فأشبههم ، وعالة فاغنهم من فضلك .

من أجل تلك العاقة كان المهاجرون في السنوات الأولى من الهجرة عالة
 على الأنصار . وذلك مظهر تلك الحقوق المشقة بهم - نعم إن الأنصار أكرموا
 وقادتهم كل الإكرام وواسوهم أتم الواساة ، ولكن تلك الحال ليس من
 السهل على كرام النفوس احتمالها . يروى البلاذري أن النبي عندما أراد قسمة
 غنائم بني النضير قال للأنصار : ه ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن
 شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً ، وإن شئتم أمسكن أموالكم
 وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا
 ما شئتم . فزلت الآية (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقال
 أبو بكر : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً ، فو الله ما مثلنا ومثلكم إلا كما
 قال الغنوي :

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
 أبوا أن يملونا ولو أن أدنا تلاقى الذي يلقون منا ملك
 فذو المال مرفور وكل معصب إلى حشرات أدنات وأضت

من أجل تلك المشقة التي نالت المهاجرين الأولين في سبيل الله اعتبر القرآن هجرتهم هجرة إلى الله ورسوله ، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع طبقات المسلمين درجة وأجزلهم مشربة ، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحق الضيم ، قال تعالى : إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا : إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما .

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عندما اتخذ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سفنهم وأيامهم ويؤرخون منه أحداثهم ووقائعهم . إنه لا شك قد لحظ في الهجرة أنها بدء وصوخ الإسلام ، ولكننا نلحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظہرا رائعا لعناصر الحياة القرية النبيلة : حياة الأمل والتضحية والإخلاص ؟



مسجد قباء

كيف كان الرسول يسوس أصحابه

لقد تحدث المؤرخون فأكثروا عن قدرة الإسكندر قديما ونابليون حديثا على اختيار الرجال واجتذابهم واصطناعهم؛ فوصفوا صبر أصحاب الإسكندر على أهوال حروبه المتلاحقة، ومشاق أسفاره البعيدة المترامية؛ وبينوا كيف بلغ من إخلاص أصحاب نابليون له أنهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة إلبا، لم يسعهم إلا ترك صفوفهم والإضمار إلى نابليون، فاضطر لويس الثامن عشر إلى الخروج من فرنسا جملة.

ولكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون مع ذلك أن الإسكندر عندما طرحت به فتوحه إلى أقصى المشرق وأراد التوغل في بلاد الهند، امتنع عليه جنده وحمله على أن يعود بهم أدراجه، وأن رجال نابليون لم ينتصروا لغضبه بعد كسرتة في واترلو، بل إن قائدا من أعظمهم هو المارشال ناي الذي لقبه نابليون بأشجع الشجعان قد اضطرب في ولائه بين آل بوربون ونابليون، فجر بذلك على نفسه البوار.

ليت أولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبد الله! إذا علموا أن الرسول العربي قد بز الأولين والآخرين في اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته في حياته وبعد مماته. ذلك بأن محمدا لم يكن ينزل من أصحابه منزلة فاتح مقام، ولا منزلة جبار يريد علوا في الأرض

ولكن منزلة الأب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بأدواء النفوس
وأساليب علاجها ؛ وكان عليه السلام يروضهم ويسوهم على هذا الاعتبار
وحده ، ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه السلام مع أصحابه بعض
ما يوضح هذه الرياضة ويحلل تلك السياسة .

عندما هاجر الرسول وأصحابه من قريش إلى المدينة رأى أن يحكم أسباب
المودة بين المهاجرين والأنصار ، فعمد إلى المؤاخاة بين الفريقين ، فكان يؤاخى
بين المهاجرين والأنصار ، مرتباً على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون
فى الحياة ، والتوارث بعد الموت . وقد نخل التوارث جارياً على هذا النظام إلى
أن شرعت أحكام الميراث ، فنصار التوارث يجرى على مقتضاها .

إلا أن فريقاً من أهل المدينة يزعمهم عبد الله بن أبى وقصوا من الدعوة
الإسلامية وصاحبها موقف العناد والمعارضة ، ونظروا إلى الرسول والمهاجرين
نظراً إلى قوم دخلوا عليهم بدم وذاحموم فيه ، واستبدوا به دونهم ، فكانوا
يتطلعون إلى الإفلات من النظام الجديد والعود إلى الحال السابقة بالمدينة .

هؤلاء المنافقون كما سماهم القرآن وعرفهم السيرة . وقد لقي الرسول
منهم عتاً شديداً ، ولكنه كان يداريهم ويحتاط منهم فى أناة ورفق يستثيران
متئى الإعجاب ! من ذلك ما حدث فى غزوة بنى المصطلق سنة ٦ للهجرة . فإنه
لما فرغ الرسول من قتال بنى المصطلق أقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه
ويسقون ؛ فازدحم على الماء واقتل عليه رجلان أحدهما يقال له جهماء الغفارى
كان أجيراً لعمر بن الخطاب ، ويقال للآخر سنان بن وبرة الجهنى كان حليفاً
للأنصار ، وصرخ جهماء : يا للمهاجرين ! فغضب عند ذلك عبد الله بن أبى ،

وطفق يلوم من كان حاضرا من قومه لأنهم أحلوا المهاجرين ديارهم ؛ ولج به الغضب حتى قال : « لن رجعا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وهي المقالة التي يجعلها القرآن الكريم . وبلغت مقالة ابن أبي رسول الله . فأنتم لذلك غما شديدا ؛ وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن أبي ، فأجابته الرسول : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ ، ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الأمر أمر من فوره بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن من عادته أن يسير فيها . وراح عليه السلام وأصحابه يطأون المراحل ويصلون النهار بالليل سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة ؛ وإذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوها . فهذا عبد الله ابن أبي قد أتى إلى الرسول يحلف له أنه ما قال ما بلغه عنه ، وهذا ابنه يطالب إلى النبي إن كان لا بد أمرا بقتل أبيه أن يتولى هو ، أي الابن ، قله ، فيقول له الرسول : « يل ترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ، وهؤلاء رهط عبد الله بن أبي قد استخذوا لسلوك ابن أبي ، وأصبحوا كلنا أحدث حدثا هم الذين ينفونه ويؤنبونه .

هنالك أقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتله يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آنف لو أمزتها اليوم بقتله لقتله . فقال عمر : « لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

وإلى القارىء مثلا آخر قد يكون أبلغ مما تقدم في بيان ما نحن بهند .
رووا أنه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى أكثر من كان معه أن الرسول أعطى في هذا العهد أكثر مما أخذ ، فهم لم يدخلوا مكة في عامهم ذلك بل سيعودون من حيث أتوا ، وقد قبل الرسول أن يرد على قريش كل من أتى

إليه منها بغير إذن وليه . وأن لا ترد إليه قريش من يأتي إليها من مع محمد ، وفوق ذلك قد رد الرسول إلى قريش أيا جندل بن سويل بن عمرو ، وهو رجل مسلم اختلف إلى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح ، وساور الناس غم شديد أشرف بهم على الهلاك حتى أنهم عند ما أمرهم النبي أن ينحروا بينهم ويحلقوا رؤوسهم لم يطمع منهم رجل واحد . فدخل الرسول على زوجته أم سلمة ، وذكر لها ما لبى من الناس ، فقالت له ... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ؛ فلما رأى القوم ذلك توارثوا ينحرون ويحلقون .

وفي رواية ابن اسحق عن ابن عباس أنه خلق دجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال رسول الله ﷺ : « يرحم المحلقين ، قالوا والمقصرين يا رسول الله . قال « يرحم الله المحلقين » . قالوا : « والمقصرين يا رسول الله . قال : « والمقصرين » فقالوا يا رسول الله ، فلم ظهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » .

ويروون أنه كان عليه السلام قد خص المؤلفة قلوبهم من قريش وقبائل العرب من قبائل هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلها أحدا من الأنصار ، فوجد الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لبي والله رسول الله قومه ، ودخل عليه سعد بن عباد وأبلغه رأى قومه ، فقال له الرسول : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : « ما أنا إلا رجل من قومي قال « فاجمع لي قومك في الحظيرة ، فلما جمعهم سعد أنام رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ! لقد بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ! ألم أنكم

ضلالاتهم فهداكم الله وعالمة فافتاكم الله وأعداء فأنف بين قلوبكم؟.

قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: يا أنجيوني يا معشر الأنصار؟.

قالوا: بماذا نجيك يا رسول الله؟ قال: ورسوله المن والفضل. قال: أما والله لو شتمت لقتلتم، فلصدقتم ولصدقتكم، أتيتنا مكذبا فصدقناك، وعذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لماعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلوا، ووكلكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالثاء والبعر، وترجعوا برسول الله إلى رحابكم؟ فوالذي نفس محمد بيده نولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. قال فيكي القوم حتى أخضوا الحام، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا ثم انصرف رسول الله وقرقوا.

من هذه المثل تدين الأسس التي كانت تقوم عليها سياسة الرسول أصحابه. كانت تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق، بذلك كان عليه السلام يتنادى المعصي، ويتألف النافر، ويحمل المحزن على أن يزداد إحسانا. على أن الأمر لم يكن مجرد تأليف وحلم ورفق، بل كان من وراء ذلك كله الأسوة الحسنة والروح المتديقة والقلب الرحيم، والخلق العظيم، والعلم بطائع النفوس وأسرارها الذي لا يدرك كنهه. ولا يسبر غوره؟

من ذكريات الحج

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطرفت في الآفاق شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ؛ فكنيت في كل أسفارى السابقة أشعر ، من شدة تعلقى بأهل بيتى وأرلادى وخواص شئونى ، كأتى غادرت قلبى ورائى ، فكنيت دائم التلفت كثير التذكر لمن خلفت وما خلفت . ولكنى عندما يسر الله لى العام الماضى حج بيتى العتيق . وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأنى عجبا من العجب ! فقد شعرت كأن قلبى أمامى ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلفت إلى الوراء . ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجه إلى الامام ، وانذفاع ، بل انجذاب نحو الغاية التى تركت من أجلها من أحب وما أحب . بل لقد أنسيت قسئى ، وكنت مريضا موعوكا ، وكان الطيب قد رسم لى بما أندأوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحمد لله فى ذلك النسيان .

• • •

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو المشرق ، وماهى إلا أن نرأى سواحل الحجاز ، ورفعت لنا قم جباله ، حتى عرا الركب نوع من الوجد والهام يعرفه العشاق المعاميد ، ويعرفه المقربون الواصلون من الصوفية . وحاذت بنا السفينة راينا ، فأنن مؤدتها أن أحرموا أيها الحاج ، فاهى لإسريعات قلائل حتى خيل إلى أن أهل السفينة قد استحالوا ملائكة أطهارا :

() الزينة عدد ١٨ ص ٢٤ مايو ١٩٣٩ .

أشباح قد اشتملت عليها ثياب يض ساذجة ، وتقوم مطمئنة راضية ، ووجوه
 بوضيعة متبشرة ، وألسنة بالتلبية والدعاء منطلقة لاهجة . وكان لذلك المنظر في
 الركب جمال أى جمال ، فأما الشيب قد غاط فيهم وقار السن جمال التي فزادهم
 روعة ومهابة ، وأما الشباب قد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة الصبا ، فعلمهم
 مسحة من التوقر والاعلمتان اللطيف

وما يرح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة واستقلنا السيارات تؤم
 مكة أم القرى . فبلغنا في المزيغ الثاني من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو
 نحس نصبا ، على بعد الشقة ، واتصال الحركة ، وامتاع النوم إلا غرأ فوق
 متن السفينة أو تهويما على ظهر السيارة . وراح محبي وقد شارفتا البلد الأمين ،
 يتذاكرون الحديبية ، وذات طوى ، وغار حراء ، وغار ثور ، وغير ذلك من
 المعاهد التي أنارت في أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه ونأثاته ، وذكريات
 ذلك النضال العظيم الذي كان بين عمدة قريش ، بين الإسلام الحادى والثنية
 الضالة ، بين الحق الأبلج والباطل اللجلج ، نعم وذكرى ما احتمله الرسول
 وعصابته القليلة في سبيل الدعوة ، من تكذيب ، واضطهاد ، وعدوان ،
 وانزعاج آخر الأمر عن الأهل والوطن والمال .

وبلغنا النزل الذى أعد لقلنا بأعلى مكة ، فقد كنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا
 نكرم الحرم لطوف بالكعبة ونسئ بين الصفا والمروة . وإن أنس لا أنس
 بمشهدنا وقد انتظمتا موكبا واحداً وأخذنا نتحدر من العللة في جوف الليل
 اللبيم ونسير رويدا رويدا ، ومطوفنا بين أيدينا يهتف مليا بصوت الأجنس ،
 فتردد نحن التالية بأصوات متباعدة من أعماق قلوبنا ، فتجاوب بأصدائها جنبات

الطرق وتمضي صعداً في السماء . لقد كان المشهد رهيباً رائعاً ، ومنه عرفت كيف
تسمو الروحانية في الإنسان على المادية متى استغرقته الفكرة السامية وتولاه
الإيمان العميق .

ثم يقف المطوف ويقف الموكب لرقفة ، فإذا بنا قبالة باب عظيم من
أبواب الحرم الكثيرة . ونحبتن الأقباس ، ونحب القلوب ، وتمتد الأبصار ،
كأنما تريد أن تلقف بنظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذي كان يضم
في تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والقائمين والركع السجود .
وكنت قد قرأت في بعض الكتب وصف الحرم المكي فلم يشق على أن أبين
معالمه لأول منولى فيه . فهذه الكعبة مؤطرة بالسواد ومحتلة قرارة المسجد
ووسطه . وهذا الحجر الأسود يزاحم الناس على استلامه ، وهذا حجر اسمعيل ،
وهذا المطاف من حول الكعبة يتدافع الطائفون فيه تدافعا ، وهذا مقام
إبراهيم ، وتلك بئر زمزم يردما الطائفون ويشربون منها عللا بعد نهل . وهذا
سائر المسجد من حول ذلك كله . والمسجد في جملته مسقوفة حواشيه ، وأما
سائر فسقفه السماء وفرشه الحصاء ، وتخل عليه جبال أبي قيس وقيقعان
والصفا والمروة .

وأما لك بقعة عجيبة قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشاداً ، واحتفلت
فيها مظاهرها الرائعة احتفالاً لقد تمثلت فيها السماء بنجومها وكواكبها ، والأرض
بسبلها وجبلها ، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة ، فأنا حر لاضع ، وأنا
برد قارس ، وأوة جفاف تنقلص منه الشفاء ، وأخرى سيول دافعة تحط من
أعال الجبال وتسفر حول الكعبة نفسها ، وأنا أسماء مصحبة وجو طلق ، وأنا
صحاب مكرهم ، ورعد مجلجل وبرق خاطف .

كم لتعبد في هذه البقعة بعينها من معاني التوجه المباشر إلى الواحد القهار
المسخر لقوى الطبيعة ، والمصرف لها على هذا النحو الذي لا يحتمل جدلا
ولامراء ، او كنى بهذا التعبد باعنا للبعد على الإثابة والإخبات والخشوع ، وكنى
به مشرأ قلبه بمقارة الإنسان وضعفه وعجزه ، وبأنه إنما هو ذرة في محيط
هذا الوجود الذي لا يسير اليوم غوره ، ولا يدرك الخيال مداه . هنا يجد
الإنسان نفسه وجها لوجه أمام ما يعرف في الفن الرفيع والأدب العالي بالعظيم
والجليل حسا ومعنى .

إذا كان الحرم المكي يوحى إلى النفس معنى ما هو قوى ورائع وجميل ،
فإن للوقوف بركة - وهو أم مناسب الحج - وجبا آخر ومغزى
عظيم الشأن .

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلو مترا . ويشرف على مضبة
مترامية الأطراف ، يزلها الحجيج في مضاربهم وخيامهم ، معهم أزوادهم
ورواحلهم وسياراتهم التي تقلهم . فإذا كان عصر يوم الوقوف بركة أخذ
الحجاج يخرجون من خيامهم فيصعدون في الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه ،
ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم ، ثم يعودون وقد طفلت الشمس للغروب
مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حط عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من
حياتهم . لا يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم . ولقد وقت
بركة مع الواقفين ، ودعوت الله مع الداعين ، وأشهد أن المنظر رائع ، بل
هائل ! وأى منظر أشد هولاً من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء
ولكن من خلاقي موج بعضها في بعض ، فتحس لما هممة البحر المحيط أو

الجيش اللهم؟ ومع ذلك فكل ملق السلاح، وكل مقر بالضعف، معترف بالمبودية، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها، فلا قاض ولا مفضل، ولا سيد ولا مسود، ولا رفيع ولا وضع. لقد جاءوا الله كما خلقهم، وكما يحبهم، وكما ينشئهم النشأة الأخرى. لقد ردوا أنفسهم في ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التي يتساوى فيها الناس جميعا، وعلوا أن ما سواها متاع الغرور.

وإذا كان الحج بركنيه العظيمين من طواف بالكعبة ووقوف بركة يوحى معاني الجلال والبساطة، فإن في الحجاز مشهدا ثالثا ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس، ولكن شهوده واجب على المسلم في شرعة الذيق السليم على أقل تقدير. ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة. ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يهزني شوق يختلف عن ذلك الذي كانت تضطرم به جوانحي عند توجئنا إلى مكة. لقد كان الشوق الأول شوقا إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير. أما الثاني فكان شوقا إلى المعلوم غير المجهول، إلى إنسان أثير حبيب.

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على التأوى بالمدينة عليه السلام، فهو حبيب إلى الله الذي اصطفاه لتبليغ رسالته، وهو حبيب إلى الإنسانية بما أسدى إليها من صنع باق على الزمان.

شارفنا المدينة فتواردت على الذاكرة أحداث ذلك البلد الذي يعد في مقدمة البلدان التي أثرت في تاريخ العالم أبلغ التأثير. ألا إنه إذا عدت أئينا عظمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة، وعدت روما عظمة بما بعثت في عالم السياسة من دولة غممة، فإن المدينة عظمة بالأميرين جميعا،

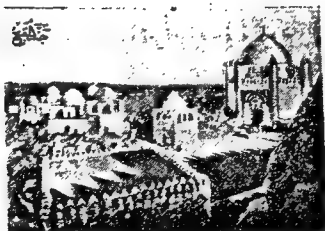
وكفاما عرأ أنها مهد المدينة الإسلامية والدولة العربية، ومثوى محمد بن عبد الله.
 وطفقتا تجول في خطط المدينة وطرقها الضيقة الملتوية ونشق فيها ريع
 القدم وعظمة الماضي وتعرف معالمها ومعاهدتها. هنا بركت ناقة الرسول لأول
 قدومه المدينة، هناك السح الذي نزل أبو بكر، تلك أطام اليهود، هذا أئر
 الخندق، ذلك جبل أحد، تلك سقيفة بنى ساعدة، هذا البقيع، وهذا مهوى
 الأفتدة ومحط الرجال، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف.
 ألا لقد رأيت في أسفاري قبور كثير من عظماء الشرق والغرب، وأشهد أنى
 لم يأخذنى شيء من الرهبة والهيبة التى أخذتنى عندما وقفت جبال قبر الرسول
 العربى. إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمكان. أما
 عظمة محمد فطفقة ليس المكان ولا للزمان عليها سبيل. أولئك وردوا وشلا
 تحت أقدامهم وفى متناول أيديهم، أما محمد فورد ببحر الحقيقة الطامى وسر
 الوجود الخافى قهمل وعمل، أولئك بادوا وأصبحوا أحاديث، أما محمد
 فاستحال قوة فى هذا العالم كقوى الطبيعة باقية ما بقيت الأرض والسماء.

والمسجد النبوى تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفة الروح والوقار والهيبة.
 وقد لزمه الطابع الذى كان له على عهد الرسول، طابع منزل الرسول، ومجلس
 الرسول، ومسجد الرسول؛ فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسنت أنك فى
 منزل صديق حميم أو أخ كريم. كل شيء فيه يعث فىك الأناى وبنى عنك
 الوحشة، فأنت فى منزل، على حد تعبيرنا المألوف؛ تلك السقوف العالية
 تتدل منها الثريات الرواحية، وتلك البط الوثيرة، وتلك النقوش المذهبة
 تقشى الجدران. وتلك المحاريب الأثرية النفيسة، وتلك القبة المذهبة فى السماء،
 كل ذلك فيه معنى اللطف ومعنى الأناى، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان

الصادق والإنسانية الصحيحة . الحرم المكي يربك معنى الإله والألوهية
والحرم المدني يربك معنى الإنسان والإنسانية .

كل ما في المدينة جميل : جمال في الطبيعة تعرفه في الماء والزرع والسماء
والجبل ، وجمال في الخلق تعرفه في دعة أهل المدينة ، الذين رضى أسلافهم
الأنصار برسول الله قسما وحظا في حياته وبعد مماته ، ثم جمال ثالث في المسجد
وفي الذكرى التي يثيرها ، جمال في جمال في جمال .

أما بعد فإن الجلال بمكة ، والبساطة بعمرة ، والجمال بالمدينة . ولست
أعرف قطرا آخر أجمع لهذه المعاني الثلاثة من الحجاز ؟



رسالة الحج

تأليف الأستاذ ج. ع. (٢) (دبلوماسي)

الأستاذ ج. ع. من خيرة رجالنا العاملين في السلك الدبلوماسي ، مثل مصر ولا يزال يمثلها في ممالك الشرق العربي ، فأفاد من ذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية في الوقت الحاضر ، وأنشأ لنفسه بخلفه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب وساستهم وأدبائهم وعلماهم . وإن لسعيد بأن أقول إن أطلعت على ذلك بنفسى في بعض تجوالى في ربوع الشرق الأدنى والأوسط . وقد ولى الحظ الأستاذ ج. ع. وساعفته ظروف عمله الدبلوماسى فأدى فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس في أثناءها على هدى التاريخ وفي ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامى الجليل المحدود خامس أركان الإسلام . ثم صاغ خلاصة دراسته في رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة ، يعرف فيها من عالمها بلاغة الأديب ، وفكرة الفيلسوف ، و نزعة المصلح المزمع برسالة الإسلام وبإمكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسننهم الأولى . فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن الحج ، ومن خير ما أخرجته المطابع المصرية في هذا العام .

(١) نشرت بالعدد ١٢١ من الرسالة (السنة الثالثة) بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٥ .

(٢) هو المرحوم الطبيب تذكرو الأستاذ حافظ عامر بك .

ينعى الأستاذ على المسلمين في صدر رسالته إمامهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد من الناحية العملية الحكمة التي قصد إليها الشارع من تشريعه . فهو يقول :

« أما بعد فقد أدبت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجيج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وحادثت كبارهم ونوى العقول منهم ، ودرست بفكرى وعينى وقلبي ، فكنت أرى وأفكر وأبحث وكنت أستلهم كل شيء حكته وكل مكان وجهه ، وكل عمل سره ، فظهر لى أخيرا أن الحج لا يزال مجهولا في حقيقته ، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملا فرديا محضا ، ولا يعرفون إلا ظاهرا من الأمر ... »

والرسالة تنقسم ثلاثة أقسام ، أولها في أن الإسلام دين إنساني عام ، وأنه دين المساواة التي تظهر في شكلها المادي المحسوس في الحج ، وأن الكعبة من العالم الإسلامي بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه إليها في الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثاني يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفيلا بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذي دعا إليه الفلاسفة أمثال روسو والكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفي مزايا نظام الكشافة ويربى عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الإسلامي في أسمى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمرا عاما لنشر التفاهة بين المسلمين لو حرصت كل أمة إسلامية على أن تخرج كل عام قرا من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأي والمشورة ، والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها بما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم » .

على أن الجديد الممتع في هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التي عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التي خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقفية لا مجال لتفكير العقل البشري فيها ؛ فالأستاذ يتناولها منسكا ومنسكا : من الإحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعي بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمي الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدى ، إلى إستلام الحجر الأسود والإهلال باللبية ، فإذا هذه المناسك قد أوضحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حكمها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير .

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الإسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجيا الأخذ بها حتى يتففع المسلمون بنظام الحج .

وإن الذي يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتبنى أمرين : أن تجدد دعوة الأستاذ ح.ع. من أولى الراى فى العالم الإسلامى آذا نا صاغية ، وقلوبا واعية ، والأياحرم الأستاذ الشاب المتعلم المثقف من فئات براعه ، فهو براع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة ؟



عمر بن الخطاب في عام الرمادة

(١)

عرف الناس عمر بن الخطاب في الجملة قتي في خلقه جفاء وشدة . وعرفوه في عهد النبوة محاييا من أمضى الصحابة عزيمته ، وأغظمهم على مبادئ الدعوة الإسلامية من الكفار والمنافقين ؛ وعرفوه في خلافته قائما عظيما ومنظما قديرا . ولكن الناس لم يعرفوا عمر راغبا رافعا راجعت كل الرأفة ، وأبالآته شفيقا عليها كل الشفقة ؛ وإن يكونوا قد فعلوا فهم لم يعرفوه من هذه الناحية الإنسانية حتى عرفوه ، ولا قدروه حتى قدره .

وعن نجلو على القراء من تلرخ الحاروق صحيفة يضاء مشرقه ، تصوره لنا حاكما شديد الصعور بالمسئولية عن ألقبت إليه مقاليد حكمهم ، حتى لقد أؤلم من قسه منزلة دونها منزلة النفس والولد والأهل والشجرة . تلك صحيفة سيرة في القصة التي نزلت بجزيرة العرب في العام المعروف بعام الرمادة .

ويسمى أخبارو العرب بعام الرمادة : العام الذي بدأ من مصريف الناس من الحج في سنة ١٨ هـ ، واستد إلى موسم الحج من سنة ١٩ هـ ؛ وسمى بعام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فسميت لذلك بالرماد .

ولقد دم عمر بن الخطاب من أمر الناس في ذلك العام شيء عظيم . فظرة

الحاكم الإنسانى الشفيق كانت تمثل له هول القحط وفك الجوع بالناس ؛ وضرة
السياسى الرشيد كانت تودى إليه أن قلب الدولة العربية النامضة يوشك أن تلم
به سكة يكون فيها تنهار تلك الدولة وذهابها .

ولكن عمر تجرد للأمر تجردا . وعلم أن فى إنكار الذات ، ومضاه
العزيمة ، وسرعة المبادرة ما يكفل تبوين الشدة على أقل تحدير . فأنشأ يأخذ
الناس بالاعتقاد فى معيشتهم ، وجعل يخططهم بنفسه ويمش كواحد منهم . فكان
يطعمهم أول الأمر التزيد من الخبز مادوما بالزيت ، وربما نحسر لهم فى أيام
معينة جزورا يجعل لحما على التزيد ، ويأكل مع الناس مما يأكلون . ويروى أنهم
غرفوا له ذات مرة أطايب الجزور ، فإذا قد من سنام وكبد ؛ فقال : بخ الخ
بش الرالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها ، وأمر مولاه بأن
يرفع هذا الطعام ويحمله إلى أهل بيت مققرين ، وأن يأتيه هو بخبز وزيت .

على أنه لم يلبث أمام اشتداد الحال أن حرم على نفسه وأهل بيته لذائذ
المعيش من سمن ولحم وفاكهة . ولذلك قصص يروونها عنه ؛ منها أنه أتى مرة
بخبز مقنوت بسمن ، فدعا رجلا بدويا فأكل معه . فجعل البدوى يتبع الودك
فى جانب الصفحة ، فقال له عمر : إنك مققر من الودك ؟ فقال : أجل !
ما أكلت سمن ولا زيتا ، ولا رأيت أكلا له مذ كذا وكذا قبل اليوم . خلف
عمر لا يذوق لحما ولا سمن حتى يحيا الناس . وكان بطنه ربما تفرق من أكل
الزيت المطبوخ على النار ، فكان يقول : تفرق ! لا والله لا تأكله حتى يأكله
الناس . وكانت لابنه عيدة الهمة فجعلها فى التنور ، فخرج ربحها على عمر
وهو فى قمر من أصحابه ، فقال : ما أظن أحدا من أهلى اجترأ على هذا ! وقال
لمولاه أسلم : اذهب فانظر من أين هذه الريح ، قال : فوجت الهمة فى التنور ،

فقال عبيد الله : استر على سترك الله اقلت : قد عرف حين أرسلني أن لا أكذبه . قال : فاستخرجها ، ثم جاء فوضها بين يديه واعتذر إليه من أن يكون علم بها . وقال : أنا كنت اشتريتها لابني قهرم إلى اللحم ، فذبحت له وشويت .

ونظر يوما إلى بطيخة في يد بعض ولده ، فقال : بخ ! بخ ! تأكل الفاكة وأمة محمد هزل ؟ فخرج الصبي هاربا وبكى ، فأل عمر عن أمر تلك البطيخة فقيل له : اشتريت بكف من نوى . فسكت عمر .

وتشتد المجاعة في داخل الجزيرة ويهجم الشتاء ، وتعصف ريح الموت بأرجائها فتحمل القبائل من يوادها إلى الحواضر عامة ، والمدينة خاصة ، على عادة أهل البس في التواب والأزمات ، فأزلم عمر بأرضها فيما بين رأس البنية ، إلى بني حارثة ، إلى بني عبد الأشهل ، إلى البقيع ، إلى بني قريظة . وأزل منهم طائفة بيني سلة ، وكان عمر يتعاهدم بنفسه . قال أبو هريرة : يرحم الله ابن حنمة ، فقد رأيته عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرابين ، وفي يده عكازيت ، وإنه ليعتب هو وأسلم . فلما رأى قال : من أين يا أبا هر ؟ قلت قريبا ، قال : كن معنا . فحملنا ذلك حتى اتينا إلى حرم نحو عشرين بيتا من مغارب . فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا الجهد ! وأخرجوا لنا جلد ميتة مشويا كانوا يأكلونه ، ورمة عظام مسحوة كانوا يستفونها . فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم اتزر . فازال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شعوا . ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبرة فحملهم عليها حتى أزلهم الحياة ، ثم كسام وكان يختلف إليهم حتى رفع الله ذلك .

ورأى عمر أن الأخطار المفترحة إن يكن فيها خير فذاك وقته . فكتب إلى عماله عليها يستعينهم ويستجدهم . وإلى القارىء نص الرسالة التي دارت بينه في هذا الشأن وبين عمرو بن العاص عامله على مصر : ومن عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص : سلام عليك . أقراني هالكا ومن قبلي ، ونعيش أنت ومن قبلك ، فياغوثاه انم ياغوثاه . فكتب إليه عمرو : وسلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الفوت . فلابسني إليك بغير أولها عندك وآخرها عندي والسلام . ويظهر أن عامل الشام والعراق ردا يمثل هذا المعنى . فأما أمداد مصر فوردت في البحر الأحمر في عشرين سفينة تحمل البقيق والردك . وبعث عمرو في البر بألف بغير تحمل البقيق والزيت . وبعث بخمسة آلاف كساء . وبعث معاوية من الشام بثلاثة آلاف بغير تحمل البقيق ، وثلاثة آلاف عباءة . وبعث سعد من العراق بألف بغير عليها البقيق . وكتب عمر من ثقات رجاله من استقبال المدد الوارد في البر من مصر والشام والعراق ومال به إلى البادية . وأمره أن يجعل الظروف ، أي الأوعية ، لحفا يلبسونها ، وأن ينحر لهم الإبل يأكلون من لحومها ويحتملون من ودكها . وبعث إلى الجار ، وكانت إذ ذاك مرقأ المدينة ، من حمل ما يبعث عمرو في البحر إلى تهامة فأطعمه الناس .

وقد نظم عمر توزيع الطعام على الناس توزيعا ساذجا ، ولكنه واف بالعرض المطلوب . فكون لجنة تتولى ذلك مؤلفة من أربعة نفر ، هم : ابن أخت النمر ، والمسور بن حزمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود . وكان كل رجل من هؤلاء الأربعة على ناحية من المدينة . واتخذ عمر مواعيد عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم من ألبم معلومة

عشرون جزوا من جزر بعث بها عمرو من مصر . ومن لم يحضر العشاء العام من العيالات والصبيان والمرضى أرسل إليهم طعامهم في منازلهم . هذا في الأيام التي يباح فيها أكل اللحم . أما في الأيام الآخر : فكانت عمر يأمر بالزيت فيصير في القدور الكبير على النار حتى يذهب حره ، ثم يثرد الخبز ويؤدم بذلك الزيت . وكان منادى عمر ينادى : من أحب أن يحضر طعامنا فياكل فليفعل . ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فياخذ .

وكان نفر الذين سمينا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه ما كانوا فيه . فأنهم عمر ليلة وقد تعشى الناس : أحصوا من تعشى عندنا فأحصوهم من القابلة فوجدوا سبعة آلاف رجل ، وأحصوا من أرسل إليهم الطعام في منازلهم فوجدوا أربعين ألفا . ثم أحصوهم بعد ليل فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف ، ووجد الآخرون خمسين ألفا .

فیر أن ذلك الجهد كله لم يرد على أن يخفف من وطأة المجاعة ؛ فلقد كان متعذرا أن ينقل إلى الجزيرة في تلك الأيام من المأوى ما يكفي لسد حاجة أهلها دفعة واحدة ، كما كان مستحيلا ألا تتأثر الصحة العامة بهذا النوع من الطعام الحسن الجشب ، الذي اضطر إليه الناس اضطرارا ، وحلوا عليه حلا . فوقع الفناء في الناس ، حتى قيل إنه ملك في تلك السنة من العرب الذين زلوا بأرض المدينة نحو ثلثهم . وكانوا يزيدون على مائة ألف . هذا عددا من ملك في داخل الجزيرة .. وكان عمر يأتي بنفسه فيصلي على الموتى . ولقد روى مرة وهو يصلي على عشرين جميعا . فلما تناهت الشدة إلى تلك الحال لم يبق عمر بالامر ولا شاق به ذنوبا . بل نهج في تفريج الكرب وتوطين الخطب منهمجا جديدا هداه إليه فكره السلام وقلبه الكبير ؟

عمر بن الخطاب في عام الامة

(٢)

لقد كان عمر بن الخطاب أكبر قلباً وأصح تفكيراً من أن يقف في
مكافحة الفسقة التي نزلت بالجزيرة عام الرمادة عند الناحية للمادية وحدها . لقد
علم أن الناس إذا صار أمر بطونهم شغلهم الشاغل ، ومهم القاصب ، فربما
اقلبوا اسباعاً عادية وذئاباً ضارية يأكل بعضهم لحم بعض ، كما وقع عند بعض
الأمم في مثل تلك الحال . فبني إذا أن يصموا من الكفر والملاكمة ، أو من
التعمور والاضطراب بجاهم الدين ووازع العقيدة . فبني ، وقد خوت بطونهم ،
أن تعمر قلوبهم بذكر الله ، وأن يتوجهوا إليه سبحانه في الفسقة كما يتوجهون
إليه في الرخاء . ولعمري الحق لا ولم يكن من وراء ذلك إلا أن يرموا إلى خالقهم
وإلى أحسنهم من مرة القرع والملح ، ويستقبلوا الموت راضية قلوبهم ،
مطمئنة قلوبهم ، لكنني ؛ فكيف والصبر على المحن والشدائد من صفات المؤمنين
دلائل الإيمان الصادق الصحيح !!

ومن ثم جرد عمر لفتوة ما حل بالناس من آفات المجرع والعري والمرض
قوة الدين ووسائلها من طه وصلاة وإتقان وأخذ بالصبر على ابتلاء الله
وتحميه . وهي نفس القوة التي نزل بها من قبل ومن بعد عرامل الفساد
الاجتماعي والاضطراب البشري في أملاك الفرس والروم .

...

(١) الفتاة ، العدد ٢١٤٢٦٠ ديسمبر ١٩٤٢ .

وبدا عمر بنفسه على عادته في المنهج الجديد الذي نهجه والخطه التي اختارها،
فكما جعل نفسه المثل والقوة في الاقتصاد وشفة النفس، فكذلك أحب أن
يكون المثل والقوة في صحة التدين وصدق التضرع إلى من يده الأمر كله .

روى الواقدي بإسناده إلى ابن عمر قال : « أحدث عمر في زمان الرمادة
أمراً ما كان يفعله من قبل . كان يصلي بالناس العشاء ، ثم يدخل إلى بيته فلا
يزال يصلي إلى آخر الليل . ثم يخرج فيأتى الأتخاب فيطوف عليها ، وإنى لأسمعه
إيلة في السحر وهو يقول : اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي وفي ولايتي . »
وحدث ابن سعد بإسناده إلى من رأى عمر عام الرمادة قال : « قال رأيت
عمر رضي الله تعالى عنه يصلي في جوف الليل في مسجد رسول الله ﷺ عام
الرمادة وهو يقول : اللهم لا تهلكنا بالسنين ، ولرفع هذا البلاء عنا : يردد
هذه الكلمة . »

ثم يلجأ إلى دعاء الاستسقاء وصلاته ، وهي صلاة يصليها المسلمون عند
امتناع المطر واشتداد الجذب . روى البلاذري بإسناده إلى السائب بن يزيد ،
قال : « فظرت إلى عمر يوماً في الرمادة وقد غدا متبتلاً متضرعاً ، عليه برد لا يبلغ
ركبته ، يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تهرقان على خديه وعن يمينه العباس بن
عبد المطلب ، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافع يديه إلى السماء ، وهج إلى
ربه ودعا ودعا الناس معه . »

ورأى عمر أن يكون دعاء الاستسقاء عاماً يشمل عرب الجزيرة جميعاً ،
فكتب إلى عماله على نواحي الجزيرة وقاتلها أن يخرجوا للاستسقاء بالناس
يوم كذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه رفع هذا المحل عنهم . وخرج
عمر لذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلي فنطب

الناس فضرع، وجعل الناس يلحون، فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار، حتى إذا
 قرب أن يتصرف رفع يديه مدا وحول رداءه كما يفعل المستسقي لجمل العين على
 اليسار ثم اليسار على اليمين، ثم مد يديه وجعل يلح في الدعاء، ويكي بكاء طويلا
 حتى اغضت لحيته. وخرجت العرب في ذلك اليوم عنه يستسقون فلم يبق منهم
 إلا خبرات أي جفايا. فخرجوا يستسقون كأنهم السور المجاف تخرج من
 وكورها يعجون إلى الله.

وأخيرا يتأذن الله بالفرج بعد الشدة، وبالبسر بعد العسر. حدث ابن
 سعد بإسناده قال: قال عمر العباس بن عبد المطلب، يا أبا الفضل أكرم بني
 علينا من النجوم؟ قال العواء قال أكرم بني دنها؟ قال ثمانية أيام أقال عمر،
 ونسى الله أن يجعل فيها خيرا.

والعواء بالتشديد نجم يظهر في أفق الجزيرة في فصلي الحريف والشتاء،
 وطوله ما يكون لاثنتين وعشرين ليلة من أبلون، وسقوطها لاثنتين وعشرين
 ليلة تخلو من آذار.

قال ساجعهم: إذا طلعت العواء وجئتم الشتاء، طاب الصلاة.
 وقد جعل الله في تلك الأيام الثمانية خيرا كما رجا عمر. حدث محمد بن سعد
 بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال كنا في الرمادة لا نرى سحابا، فلما
 استسقى عمر بالناس مكثنا أياما، ثم جعلنا نرى قزع السحاب، وجعل عمر
 يظهر التكبير كلما دخل وخرج، وجعل الناس يكبرون، حتى نظر إلى سحابة
 سوداء جاءت من ناحية البحر، ثم تشامت فكان الحيا.

وأرسل الله السماء على الجزيرة منزارا، فاعتمت الأرض المائدة السوداء.

أن دب فيها ديب الحياة ، فاهتزت وربت وأنبت الكلاً والعشب ، فتقى
الطير ورتعت الآرام ، وثنت الشاة ، ورغت الإبل ، وحملت الحيل ، وبدت
معالم الربيع العربي في جميع أرجاء الجزيرة .

هناك رأى عمر أن قد انتهى واجبه ، فأمر أولئك النفر الأربعة الموكلين
بمن في نواحيهم بأرباض المدينة أن يخرجوا الأهراب إلى البادية وسعولهم قوتا
وحملانا ، وكان عمر ربما تولى العمل في إخراجهم بنفسه .

ورب سائل يسأل ، ماذا كان عمر فاعلا لو تهادى القحط عاما آخر ، أو لم
توافر عنده المؤن الكافية ؟ ويجيبنا عمر نفسه عن هذا السؤال . روى البلاذرى
بإسناده إلى ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال عام الرمادة : « لو لم أجد للناس
من المال ما يسعهم لادخلت على كل أهل بيت عندهم قناسهم أنصاف بطونهم
حتى يأتى الله بالحيا ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم . » ولعل من هنا نشأت
عند عمر خطة المقاسمة التي اتخذها بعد إزاء المال الذين كانوا يثرون على حساب
مناصبهم ، فكان يقاسمهم أموالهم على النصف ، فيأخذ النصف ليت المال ويدفع
لهم النصف الآخر .

وكم كان عمر يبلغ الرفق بالناس عندما آخر تحصيل الزكاة عام الرمادة ، فلما
كان القليل مبعث السعاة ، وأمرهم أن يحملوا زكاة عامين ؛ وأن يوزعوا
سبعا على الفقراء ويقدموا عليه بالنصف الآخر . وقد بين عمر لموزعي
الصدقات من يعطون ومن لا يعطون . فأمرهم أن يعطوا من أبت له السنة
غنا وراعيا ، ولا يعطوا من أبت له غمين وراعين ، وكذلك وصى عمر

الفقراء في تلك الشدة في غير ما عنف بالأغنياء ولا إعانت لهم .

ولقد لقي عمر في عام الرمادة نصبا شديدا ، وقال منه الجهد والإعياء .
حدث ابن سعيد بإسناده إلى عياش بن خليفة قال : رأيت عمر رضي الله
تعالى عنه عام الرمادة وهو أسود اللون ، وعهدته قبل ذلك أبيض ، فقلت ، ولم
أسود ؟ فقيل إنه كان يأكل السمن واللبن ، فلما أحل الناس حرمهما حتى يحبوا ،
فأكل الزيت ، فتغير لونه وجاع فأكثر .

وحدث ابن سعيد بإسناده إلى أسامة بن زيد عن أبيه عن جده ، قال :
« كنا نقول لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لفظننا أن عمر يموت هما بأمر الناس » .

رحم الله عمر ، كما رحم عمر الناس ؟



عمر الفاتح^(١)

(الروح الذى وجه المسلمين إلى النصر الباهر)

مهما بعد العهد فليس يتقضى عجب المؤرخين وعشاق البطولة من فعال
قواد العرب القدماء ، أمثال المثني بن حارثة ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن
أبي وقاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعمر بن العاص ، وحذيفة بن اليمان .
فهم الذين قروضوا ملك كسرى ، وزلزلوا عرش قيصر . وهم الذين شادوا فى
مدى من الزمن لا يتجاوز عشر سنوات ملكا ضخما انتظم الجزيرة والعراق
وقارس والشام ومصر . ولكن ينبغي ألا ينسيتنا لآلاء هذه الفتح ، وما انتقد
على مفارق هؤلاء الأبطال المغاوير من أكاليل المجد ، أنهم ما كانوا يفعلون
ما فعلوا ويلون ما أبلاؤا لولا روح فياض غرهم ، وعقل جبار سطر عليهم ،
وعزيمة ماضية صرقتهم ، هى روح عمر بن الخطاب وعقله وعزمته .

ولعلنا لا نكذب مسرفين إذا قلنا إنهم جميعا لم يزيدوا على أن يكونوا
أعرافا وجنودا لعب بهم عمر لعبة الحرب الزهية مع كسرى وقيصر ، وإنه فى
حقيقة الأمر هو الفاتح الذى فتح الممالك ودوخ الأمصار ، وأقام الدولة العربية
عالية الذرى ، ثابتة الأساس ، متينة البنيان . ورعى الله أبا الطيب حيث يقول :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثاني

(١) المجلد ١ ، نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٠ - ٤٤ .

ولربما طعن الفتي أقرانه بالرأي قبل طعن الأقران

لم يكن عمر قبل الخلافة بالجندی البارز بروز من ذكرنا من القواد . وتعليل ذلك الخول الظاهري غير عسير . لقد كانت سنه في الجاهلية أصغر من أن تأذن له بتشيان الحرب . أما زمن النبوة والخلافة الأولى فكان سداد رأيه وشجاعته الأدبية أثر عند الرسول وعند أبي بكر من شجاعته الحرية . فكان عندهما أظهر في مقام الرأي والمشورة منه في مشاهد الجلال والعلوان . على أن عمر كان من غير شك ذا كفاية حرية ممتازة اكتسبها من حضوره المشاهد مع رسول الله ومن تديره قتال الردة مع أبي بكر . وقد أدرك أبو بكر تلك الكفاية وود لو أنه انتفع بها انتفاعا مباشرا . فيروى أنه قال وهو على فراش الموت : « ووددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام . كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدي لكتيها في سبيل الله . » . فقد عده أبو بكر عدل « سيف الله » وضربه . وكفى بذلك دليلا على رسوخ قدمه في فن الحرب وكفايته في شئون القتال . فلما ولي عمر الخلافة ظهرت تلك الكفاية أيما ظهور وأثمرت أيما ثمر .

كانت كفاية عمر الحرية من ذلك الطراز العالي الذي يقوم على قوة التصور ، وسلامة الإدراك ، والإحاطة بطبائع البشر أفرادا كانوا أو جماعات ، وعلى معرفة الفرص عند سنوحها والعلم بطرق اقتراضها ، ومواجهة الأزمات والطب لها . هذا إلى نشاط جم ، وعزيمة صارمة ، وذهن نقاد . وهي صفات لم تجتمع بعد رسول الله لواحد من المسلمين غير عمر بن الخطاب .

وكان لعمر مظهر وخبر . وبما بعد ما كان بين مظهره وخبره فهو بادي الرأي رجل من أهل المدينة ، ساذج العيش ، يأكل أجيب الطعام ، ويلبس

أخشن الثياب ، ويأثم حيث يدركه النوم . وسلاحه درته ، ومطية قنمه ،
 يروح ويغدو كأحد الناس ، لا يفضلهم إلا بأنه أول خدامهم ، وأشبه سادتهم
 بعبادتهم . يد أنه إذا تأمله المتأمل وقد نصب نفسه لحرب الفرس والروم رأى
 دون ذلك المظهر ، أحوزيا مشمرا ، قد استحضر في ذهنه ميادين القتال في الشرق
 والغرب . فهو ينتخب الرجال ، ويعي الجنود ، ويرسم المواقع ، ويخطط الخطط ،
 ويبحث رجلا بيه إلى العراق وآخر إلى الشام وثالثا إلى مصر ، ويأمر بالإقدام
 تارة وبالإحجام أخرى ، وينقل الأمداء من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى
 الشرق ، لا يكاد يتأخر حسابه في ذلك أو يستقدم يوما واحدا . فإذا ما أحكم
 الخطة وأعد العدة قال لأصحابه في هدوء الواثق بنجح مسعاه : « قد رمينا ملوك
 المعجم بملوك العرب . فانظروا عم تتجلى اء ، فإذا ما أفلح سعيه ، وأتمر غرسه ،
 وجاءه نبال الفتح والنظر تلقاه في خشوع وإخبات وتواضع تزيد روعة
 وعظمة وجلالا .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نقيم البيئة على صحة تلك الدعاوى في جميع ميادين
 القتال الذي نشب في أيام عمرين العرب وبين الفرس والروم . فنكتفي بالتدليل
 على صحتها في مقام واحد : هو وقعة القادسية (١٤ هـ) للمعدودة أعظم وقائع
 العرب مع الفرس .

لما اشتد الأمر على العرب بالعراق بعد وقعة الجسر (١٣ هـ) التي أودت
 بقائدين عريين هما أبو عبيد ثم المنثى بن حارثة ، وصمم الفرس على طرد العرب
 من بلادهم ، قام عمر للأمر وقعد واهتم له غاية الإهتمام فكتب^(١) إلى عماله
 على قبائل العرب وكورهم : « ... ولا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة

(١) الطبري : ٤٤ ص ٨٢ .

أو رأى إلا اتخبتوه ثم وجهتموه إلى . والعجل العجل ١ . فلما توافيت إليه
 النجدات حارقيمن يؤمره عليها . وم أول الأمر أن يسير فيها بنفسه إلى العراق ،
 ولكن قوى مشورته ثبته عن ذلك . ثم وفق إلى رجل لحظ فيه أصالة الرأي
 وتعام الشجاعة ويمن الثقة فأمره عليها . روى الطبري ^(١) قال : . وكان سعد
 على صدقات هوازن ، فبعث إلى عمر بألف فارس وكتب إليه كتابا بذلك ...
 فوافى كتابه مشورتهم ، فقلوا قد رجسته ! قال : من ؟ قالوا : الأسد عابدا !
 قال : من ؟ قالوا : سعد ! فأتته إلى قولهم . فأرسل إليه فأمره على حرب العراق
 وعقد له على أربعة آلاف معهم ذراريهم وناؤهم . وأنهم عرف في عسكرهم
 فأرادهم جميعا إلى العراق ، فأبوا إلا الشام ، وأبى إلا العراق ، فسمح نصفهم
 فأمنهم نحو العراق ، وأمنى النصف الآخر نحو الشام .

فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غضى
 إلى الجبلة . فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس ، وعرف
 عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعيهم ، وواعدتم القادسية ، واضم إليك المنيرة
 بن شعبة في خيله . واكتب إلى بالذى يستقر عليه رأيهم ، ^(٢)

ثم يكتب عمر إلى سعد بالمنازل التي يزلها وبخطبة الحرب وبمعداد تحركه ،
 قال الطبري ^(٣) : . وقدم على سعد وهو بشراف كتاب عمر ... أما بعد فسر من
 شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين . فإذا انتهت إلى القادسية . . وهو
 منزل رعيب خبيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتعة فتكون مسالكك على
 ألقاها ، ويكون الناس بين الحجير والمدبر ، على حافات الحجر وحافات المدر

(١) المصدر نفسه ص ٨٥ .

(٢) د ص ٨٧ .

(٣) د ص ٨٧ .

والجراح بينهما . ثم ألزم مكانك فلا تبحر به ، فإنهم إذا أحسوك أنقضتهم ، رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وخدم وخدم . فإن أتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوئتم الأمانة رجوت أن تصروا عليهم ، ثم لا يجمع لكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدياركم فانصرقم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرا وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح ... فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس فيما بين عذيب المهجانات وغذيب القوادس ، وشرق بالناس وغرب بهم . .

ثم كتب عمر إلى سعد يستوصفه المنازل والبقاع ويستخبره عن أحوال العدو (١) : . . . واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فإنه متعنى من بعض ما أردت الكتاب به فله على بما هجمتم عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلبة . .

فكتب إليه سعد : القادسية بين الحندق والعتيق ، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ . نهر يدعى الحوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورق والخيرة ، وإن ما عن يمين القادسية إلى الوجبة فيض من فيوض مياههم ، وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبل إلى الب لاهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا . وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم . فهم يحاولون إنفاضنا وإفحامنا ونحن نحاول إنفاضهم وإبرازهم . وأمر الله بعد ماض ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر

(١) الطبري ، ص ٨٩ - ٩٠

لنا . فكتب إليه عمر : « قد جأني كتابك وفهمته ، وأتم بمكانك حتى ينقض الله لك عدوك ، وأعلم أن لما ما بعدها . فإن منحك الله أديارهم فلا تزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن » .

« ووضع سعد بالغذيب خيلا تحوط الحرم ... ونزل سعد القادسية ، فنزل بقديس ، ونزل زهرة بحمال العتيق في موضع القادسية اليوم ... وبعث سعد إلى عمر بنزوله قديسا ، وأقام بها شهرا ... ثم كتب إلى عمر : « لم يوجه القوم إلينا أحدا ، ولم يستدوا حربا إلى أحد علمناه . ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به . واستنصر الله فأنا بمنحة دينا عريضة دونها بأس شديد »^(١) .

« وبعث سعد عيوننا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولى رستم بن الفرخذاذ الأرمني حربا وأمره بالمسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر . فكتب إليه عمر : « لا يكرئك ما يأتيك عنهم ولا ما يؤتئك به ... وابعث إليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعائهم تروينا لهم وقلبا عليهم . واكتب إلى كل يوم » .

« .. ولما عسكر رستم بسباط كتبوا بذلك إلى عمر »^(٢) . « ثم إن سعد بن أبي وقاص حين جاءه أمر عمر جمع قرا عليهم نجار ولهم آراء ، وقرأ لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء .. فبعثهم دعاة إلى الملك ، وكان من أمر هذا الوفد العربي ما رواه الطبري من مفاوضاتهم لرستم أولا ويزدجرد أخيرا . وهي مفاوضة صورية بطبيعة الحال ؛ وقد انتهت بأن زحف رستم من

(١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٩١ .

(٢) « » « » ، ص ٩٢ .

ساباط إلى القادسية لقاء سعد^(١) ، المحرم عام ١٤ هـ .

كانت كفة الفرس هي الراجحة في اليومين الأولين من أيام القادسية ، ثم كان من صنع الله للعرب ، ولطف بتدبير عمر أن قدم المدد من الشام في اليوم الثاني وقد زلزل العرب زلزالا شديدا ، فقويت عزائمهم وانصفوا من الفرس في اليوم الثالث ، وهو المعروف بيوم عماس . قال الطبري^(٢) : « وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدا ، العرب والعجم فيه على السواء ، ولا يكون بينهم نقطة إلا تناورها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجرد فيبعث إليهم أهل التيجانات من بني عنده ، فيقروون بهم .. قولا الذي صنع الله للمسلمين بالذي ألم القمعاق في اليومين وأتاح لهم بها شتم كسر ذلك المسلمين ،

واتصل القتال ليلة اليوم الرابع ، وهي المروفة عندم بيلة الحرير . فلم يتنفس صبح ذلك اليوم إلا وقد انتصر العرب على عدوم انتصارا عظيما .

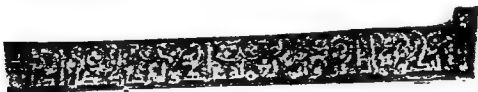
قال الطبري^(٣) ، وكتب سعد بالفتح ... وكان كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الرامون مثل زهاتها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ، ونقله منهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طغوف الآجام وفي الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدورون بالقرآن إذ جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٠٠ .

(٢) » » » ص ١٢٦ .

(٣) » » » ص ١٤٤ .

من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم .
ولما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستنخر الركبان عن أهل
القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال
فلما لقي البشير سأله : من أين ؟ فأخبره . قال يا عبد الله ! حدثني . قال : هزم
الله العدو ! وعمر يحب معه ويستنخره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل
المدينة ، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل : فملاخبرتنى رحمتك
الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى !^(١)
ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة ،
فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم .
فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بناها ووطنه بمنسما ، نادى فقال بالفارسية
ما تعريه : « أثنى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم
العقل . أكل عمر كبدى ، أحرقت كبدى »^(٢) ، ولما أجمع المقيمون بالمدينة
أن يتقموا عن فتح بلادهم لم يعمدوا إلى خالد ولا إلى سعد ، وإنما عمدوا إلى عمر
ابن الخطاب فاغتالوه . ولعمري لقد كان رستم وأبولؤلوة ومن آروه على
قتل عمر أصرح وأشجع ممن جاء بعد من روافض الشيعة وغلاتهم الذين أسسوا
رفضهم عمر على استنثاره بالخلافة ، كأن لم يكن هناك سبب آخر أدعى إلى
الرفض وأجل خطرا ؟



(١) الطبري ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) » » ص ١٤ : ١١٥ .

دولة الأكاسرة

٢٢٦ - ٦٥١ م

لقد شهدت إيران في تاريخها الطويل دولاً إيرانية كثيرة : شهدت في الزمن القديم دول عيلام ، ومادى ، والكيانيين ، والأشغانيين ، والساسانيين . وشهدت في عصورها الحديثة دول الصفويين والزنديين والقاجاريين إلا أن الدولة الإيرانية التي يظلمها الإيرانيون أشد التعظيم ويخرون بها الفخر كله ، ويرونها عنوان المجد الإيراني والقومية الإيرانية بكل معانيها ، هي الدولة الساسانية ، أو دولة الأكاسرة التي قامت سنة ٢٢٦ م ، وعبرت من الزمان أربعمائة عام تزيد قليلاً .

والساسانيون ينسبون إلى رجل يسمى ساسان ، كان قياً على بيت فار مدينة اصطخر بإقليم فارس . وقد ولد له ابن يسمى بابك ، نشأ جليداً هماً ، حريصاً على بعث القومية الإيرانية إلى أماتها أو كادت غارة الإسكندر المقدوني على فارس في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، وراغباً في استعادة المجد الذي كان لإيران على عهد للدولة البكيانية العظيمة ، والذي قضى عليه الفاتح المقدوني في عشية وضحاها . وما زال بابك يسمى وتوابعه المقادير ، حتى أنشأ لنفسه ملكاً كانت قاعدته

(١) الثقافة ، العدد ٤٤١٤ ، إبريل سنة ١٩٢٩ .

مدينة (خير) الواقعة شرقي شيراز . فلما توفي خلفه ابنه أردشير (٢٢٦-٢٤١) فاقنى أثر أبيه ، ونزع منزعه في السياسة ، فصار يوسع رقعة ملكه على حساب مجاورة من ملوك الطوائف ، حتى فطن لما ربه كبيرهم أردوان الأشفائين ، فهض لحجم الأمر قبل استفحاله ، ولكن أردشير ساجله الحرب حتى قضى عليه في واقعة عظيمة جرت سنة ٢٢٤ م ثم دخل بعد عامين المدائن مظفراً منصوراً . فكان ذلك الفتح ختام عهد الفوضى السياسية التي نشأت عن الفتح المقدوني ومبدأ عهد مجيد حافل بالأحداث العظام ، هو عهد الدولة الساسانية .

والتصفح لتاريخ الدولة الساسانية من أول قيامها إلى أن تضعضت أمورها واختلت أحوالها في أوائل القرن السابع الميلادي يلحظ فيه ظاهرة ماثلة كل المثل ، هي ظاهرة الحروب المتلاحقة ، بل المتصلة ، التي وقعت بينها وبين الدولة الرومانية . وليس من شك في أن تلك الوقائع الجسام ، والحطوب العظام ، إنما هي فصل من فصول تلك المأساة التاريخية الكبرى مأساة الصراع بين مايسى على سبيل الاصطلاح شرقاً ومايسى غرباً .

ولقد كانت كفة الدولة الساسانية ، هي الراجحة على وجه الإجمال في ذلك الصراع النيف . فلم يوغل الروم قط في الهضبة الإيرانية ولاقاتلوا خصومهم في عقر دارهم وصميم ملكهم ، بل كان قصارهم أن يرددوا الغارة على أرمينية ، وأن تنساح كتابهم في سهول العراق ، لا يكادون يزدنون على ذلك ، في حين أن الفرس على عهد كسرى أبريز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) أسكنهم أن يتزعموا من الروم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ، وأن يراجلوا في البر الآسيوى تجاه القسطنطينية نفسها ، وأن يحملوا بنقض الصليب الأعظم من بيت المقدس إلى

فأصمتهم المدائن . وإلى هذا النصر أشار القرآن الكريم في أول سورة الروم بقوله : « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيقلبون ، الآية . ولقد يكون أدوم حوادث ذلك الصراع الحاد العنيف وقمع الإمبراطور الروماني وليريان أسيرا في يد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) وذلك عام ٢٦٠ م وقضاء ذلك الإمبراطور التعر بقة حياته أسيرا ذليلا . لقد رج هذا الحادث الجلل العالم الروماني رجبا عتيقا ، كما كان سبب فخر لاحد له الفرس الساسانيين . ولقد استظهر الساسانيون في حروبهم مع الروم بالعرب فأذتوا لهم أن ينزلوا بادية العراق ، ويستقروا بالحيرة في القرن الرابع الميلادي ، وينشئوا بها مملكة الحيرة المشهورة التي شغقت الدولة الساسانية قعما مزدوجا ، فكانت عرفنا لها على الروم ، كما أنها بسطت قوذها على شرق الجزيرة العربية وجنوبها . ولقد تهج الروم منهج الفرس فأقاموا من عرب بادية الشام مملكة الفساسنة ، وكان موقفها من الروم موقف الحيرة من فارس سواء بسواء .

على أن المظهر الحربى للدولة الساسانية لم يكن مقصورا على مجالدهم الروم وحدهم ، فلقد كانوا عرضة لهجوم القبائل البدوية المحجية التي تنزل حدودهم الشمالية الشرقية ، ولكنهم استطاعوا أن يدمروا ذلك بانتصاراتهم العديدة على التار المعروفين بالمياطلة أولا وعلى قبايل الترك أخيرا ، وأن يسطروا سلطانهم على رقعة واسعة من الإقليم الذى عرف بعد بما وراء النهر .

وإذا صح أنه لا يوجد فى هذا العالم خير محض ولا شر محض ، فيمكن القول بأن هذه الحرب على كثرة ما أزهقت من قوس ، وخربت من بلدان ، وأكلت من مال ، لم تكن شرا محضا ، بل لقد نتجت خيرا كثيرا للفرس أنفسهم وللروم والعرب والترك . فأما الفرس فقد كان من سياستهم إزاء عدوهم الروماني

أن يفتحوا أبواب بلادهم للخالفين على الدولة الرومانية من رعاياها . فالتجمت
أرض فارس فاسطرة النصارى الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية ، وئزولوا آمنين
مطمئنين ونشروا فيها العلوم والآداب السريانية المستمدة من علوم الأغريق
وآدابهم ، فكان لذلك أثر كبير في رفع المستوى العلمى والتفانى للدولة
الفارسية الساسانية .

ولما أمر الامبراطور جستنيان (٥٢١ - ٥٧٨ م) بإغلاق مدارس الفلسفة
بأثينا وإخراج الفلاسفة من ملكه ، لم يكن لمؤلاء العلماء من ملجأ سوى فارس ،
وقد تقبلهم العامل الساسانى العظيم كسرى أنوشروان (٥٢١ - ٥٧٩ م) بقبول
حسن وأذن لهم في نشر علومهم في بلاده ، فنشروا فيها مذهب الأفلاطونية
الحديثة الذى امتزج بالعقيدة الإيرانية والخيال الإيراني ، فكان لذلك الامتزاج
أثر قوى في ظهور التصوف الفارسى المشهور فى آداب الفرس قديما وحديثا .
ولقد أخذ الروم عن الفرس الساسانيين أن دينار رسميا واحدا خير للدولة
من أديان متعددة ، فاتخذوا النصرانية ديانتهم الرسمية وهجروا الوثنية ، فكان
ذلك بدء اعتزاز المسيحية وانتشارها فى الأرض .

ثم أن اتصال العرب بالفرس الساسانيين وقف العرب على أساليب الفرس
والروم فى الحرب . كما أظهرهم على معارف ومعلومات دينية لم يكن لهم بها عهد
من قبل ، فعلا مستواهم الثقافى ، وتهذبت نواحي حياتهم الخشنة الساذجة إلى
حد بعيد . وما يقال عن العرب يقال مثله عن الترك فإنهم تأثروا بالدينية
الإيرانية تأثرا كبيرا إلى حد أن غير واحد من فلاسفة الإسلام الذين نبغوا بما
وراء النهر لا يندى أصله على التحقيق : أفرسى هو أم تركى ؟ .

قد يخل إلى القارىء أن الساسانيين لكثرة تعرضهم لخوار الحرب مع الروم .
تجارة وترك أخرى ، قوم لام لهم إلا الحرب والجلاد ، وأن شأنهم في ذلك .
تجان الآشوريين والآسبرطيين والترك الساسانيين . ولكن الواقع ليس كذلك ،
عنان عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر عما تتجلى زمن الحرب .
لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة بحكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا
مؤفوري الحظ من الخبرة العملية بشؤون الناس وعلى علم تام بلبائهم . فن أسس
هذه السياسة عليهم على التمكن النظام الملكي في إيران وجعله لا مجرد نظام
معرض لمواصف السياسة العانية وأعاصيرها الموحج ، ولكن عقيدة تملك على
الشعب الإيراني له وقلبه على السواء ، فألقوا في نفسه أنهم سلاطة الملوك الساسانيين
النظام الذين كانوا يحكمون في الأرض بتفويض من إله النور آهورامزدا ، وأنهم
ورثة ملك الساسانيين وأنهم إنما يحكمون بهذا التفويض الإلهي ، وأن عليهم وحدهم
سمعة الملك وطابع الحكم لا ينتقل ذلك عنهم إلى غيرهم أبدا . وقد عززوا هذه
الدعوة بأن أحاطوا الملك بسياج من المهابة والأبهة والعظمة ، يمثل في تاجه المتألق
وسريره العالي وإيوانه المنيف ، وفي احتجابه عن الشعب ، وفي تلك المراسم الدقيقة
التي كان يؤخذ بها كل من يسعده الحظ بالمثل بين يدي كسرى ملك الملوك .

ومن الأسس التي حتى بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء
الدين . والدين الفارسي القديم هو الزرادشتية التي ظهرت قبل الدولة
الساسانية بأزمان طويلة . والزرادشتية ديانة رمزية تؤله الخير والشر
وتأمر بالخير وتنهى عن الشر . والخير والشر عندها أمران مادبان محسوسان
إيجابيان ، فهي تأمر بالعمل والإنتاج والزراعة والتجارة ، وتحث على الزواج
والنسل وتعد ذلك خيرا ، وتنهى عن أصدقاء ذلك وترأها شرا .

وقد أدرك الساسانيون القيمة العملية للديانة المذكورة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الإيرانية ، فأنشأوا في كل مدينة ، بل في كل قرية ، بيوت التاريخ يعبد الناس النار ، مبعث النور الذي هو رمز الخير وطائفة الظلمة التي هي رمز الشر . وقد أدت تلك العناية بالدين الزرادشتي إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالمواظبة على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر ماني ودعا إلى مذهبه ، وكان مذهبا عديما سلبيا يرى الخير في الزهد ، وعدم الإنتاج ، والامتناع من الزواج والنسل . فإن بهرام الأول (٢٧٢ - ٢٧٦ م) تجرد لمحاربه قتل ماني وتكل بأصحابه شر تشكيل . وقد قابل رجال الدين الزرادشتي هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسي بما لهم على الشعب من نفوذ روحى عظيم .

ومن المبادئ المقررة في سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة الثابتة على النظام الاجتماعي الإيراني القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلما ظهر مزدك في أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نخلته الشيوعية الهادمة لنظام الأسرة والملكية ، واقتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة نخلته ، فقضى على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على ماني وأصحابه .

وأجل الفضائل السياسية التي كان يتوخى أكسرة الدولة الساسانية التحل بها فضيلة العدل . وهي ملحوظة فيهم من أولهم إلى آخرهم . فقد ورد في عهد أردشير الأول إلى ابنه قوله : لا ملك بغير جند ، ولا جند بغير مال ، ولا مال بغير زراعة ، ولا زراعة بغير عدل ، فالعدل عنده أساس الملك . وكان أنوشروان يلقب بالملك العادل ، وعلى هذه الفضيلة العظيمة جروا في نظامهم

التي تصل بالحقوق والواجبات بوجه عام .

• • •

ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر . فإذا كانت سياسة
الأكاسرة تتطوى على خير كثير فإنها للأسف كانت تحمل في ثناياها العناصر
التي أدت في النهاية إلى انتفاض أمرم وضياح ملكهم ، فإن حملهم الشعب على
اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به
إبان قوة الأسرة الساسانية ، فلما اضمحلت ، وعراها الوهن والهرم من بعد
كسرى أنوشروان لم يكن يمكننا أن يقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان ،
وينقله إلى أسرة أخرى فية ناهضة . فإذا حدث أن رجلا قويا حدثه نفسه
بذلك لى الخذلان من الشعب ، على نحو ما حدث لبهرام جورين في أواخر
القرن السادس . ثم إن انتصار الدولة الزرادشتية والمياعة في رفع أقدار رجالها
قد أدى في نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق
بالتاس في مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان
منهم بإيران خلق كثير .

ثم إن التفكك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذي كان عليه دون تعديل
يطابق الظروف ، أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة
كثيرة الامتيازات ، كما قسم الشعب طبقات متحاجة متحاجزا تاما أو غر قلوب
الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجا عمليا
على ذلك النظام بصورته التي أصبح عليها في القرن السادس الميلادي .

وكان اجتماع هذه العوامل في نهاية القرن السادس عما أوقع الدولة في
الفوضى والارتباك ، وهي فوضى يكفي للتدليل عليها أن اثني عشر ملكا جلسوا

على سرير الملك فيما بين عامي ٦٢٨ و ٦٣٢ م ، أى فى نحو أربع سنوات . ومن الاتفاقات العجيبة أنه فى تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين فلم يقو صرح الأكسرة المتداعى على صدماتهم العنيفة فى مبادىء الفادسية وجلولاه ونهاوند . وقضى آخر الأكسرة وهو يزيد جرد بن شهر يار بقية أيامه شريدا مطردا إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٦٣١ هـ (٦٥١ م) ، فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلا واضحا لجحود العامة وغرور الحياة .

على أن الدولة الساسانية لم تذهب إلا بعد أن أدت واجبها من حيث هى دولة عظيمة . لقد أقامت ياران معالم حضارة رائعة ، لانزال آثارها شاهدة بروعتها . كما أنها ثقفت الشعوب المجاورة لها ، وبخاصة العرب والترك ، وهياتهم للقيام بدورهم التاريخى العظيم . وهى التى علمت الروم أن وحدة الدين خير فى السياسة من تعدده ، وقد علم الروم ذلك وعملوا به ، فكان من وراء ذلك الخير كل الخير للنصرانية . وأخيرا فإن دولة الأكسرة الساسانية بنظمها وسياستها وإدارتها وحياتها العامة ، كانت المثل والقُدوة للسليين فى عصرهم العباسى العظيم ؟



فتح العرب لمصر

تأليف الدكتور الفرد ج. بتلر

وتمريب محمد فريد أبو حمير

سمعت مرة أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد بك يقول ما معناه : أننا الآن في دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية ، وهو قول لا غبار عليه ، فإن زمن الإقتصار على تراثنا العلي والأدبي القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار في العلم والأدب لم يأت بعد ، ويغني أن يتقدمه زمن تتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية إلى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح في صدر الدولة العباسية .

إننا بهذا التوافر نثبت في حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونكسبها مادة جديدة وأساليباً في البحث والعرض العلي جديدا ، ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة وأعدنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان ، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والإنسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضمّن يقتضي كثيرا من الجهد والتضحية . فهي من ناحية المترجم تطلب غزارة علم وأدب وإنكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للوفاق الذي يتقله ، وقليل من النامس

(١) نشرت بالعدد الخامس من الرسالة (الطبعة الأولى) ١٥ مارس ١٩٣٢

من يصر على مثل هذا العناء . ثم هي تقتضي من ناحية الناشر ، وبخاصة في بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية التي تصيبه مما ينشر ، فإذا استطاع أن يخرج من الأمر كفافا لا عليه ولا له لحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فإذا جعله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة في بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذا الكساد تأثرا شديدا ، حتى أصبحت لا شرقية ولا غربية ولا قديمة ولا حديثة . ولكن الحمد لله ، فقد أخذت هذه الحال تزدن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما نسمعه عن التفكير في وضع قاموس عربي جديد يجمع شتات اللغة التي أصبحت إلى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آيته أيضا ما ترجم في السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه ، تذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لإفلاطون ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب الكون والفساد ، ونظام الآتين وآلام فرتر لجوته ، وفارست له أيضا ، والشاهنامة للفردوسي ، وأصل الأنواع لدارون . ثم كتاب فتح العرب لمصر وهو الذي سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

ألف كتاب « فتح العرب لمصر » منذ ثلاثين عاما بحاثه إنجليزي هو الدكتور ألفرد ج . بتر . وقله إلى العربية منذ عام صديقنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ثم نشرته في هذه الأيام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع في قرابة ستائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . في الفصول الأربعة الأولى يمرض المؤلف الحال السياسية للدولة الرومانية في

أوائل القرن السابع للميلادى . ويتكلم عن الثورة التى انتهت بأن أصبح هرقل
 عامل الدولة المذكورة ، وفى الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع
 يتكلم على غزو الفرس الشام ومصر ، فنهضة هرقل واسترداده الإقليمين
 المذكورين ، وعقده مع الفرس صلحا أعاد إلى الروم شرفهم المسمى ، فالحال
 الادبية للإسكندرية خاصة لذلك العهد . وفى الفصل العاشر والحادى عشر والثانى
 عشر والثالث عشر يتكلم على ظهور الإسلام . وفتح العرب الشام ومصر ،
 واضطهاد قيس البطريرك الملكاني للأقباط فى السنوات العشر السابقة على الفتح .
 ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام على
 حوادث الفتح العربى لمصر . فيتكلم على زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه
 مدينة مصر ، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس ، فحصار حصن نابليون وأخذه ،
 فالزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها ، فأخذ المدن الساحلية الشمالية ،
 فانتهاج السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين إلى الثلاثين
 يتكلم المؤلف كلاما ممتعا موضوعه حال الإسكندرية وقت الفتح ومكبتها
 المشهورة ، وحريق هذه المكتبة المنسوب إلى عمرو ، وغزو عمرو لبرقة
 وطرابلس ، والنظام الإدارى الإسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع
 المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها بصفة خاصة ، شخصية المقوقس ،
 والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى ، والكتاب إلى جانب ذلك مزود بخرائط
 ورسوم تعين على فهم موضوعه

من هذا العرض يبين القارئ أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى
 لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائمه كل الاستيعاب ، والحق أن الدكتور
 بئر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الإسلامى ، وحل كثيرا من

ألفاه : أوضح شخصية المقوقس ، وكانت غامضة ، ورتب حوادث الفتح ترتيباً أوفى إلى الصحة منه في أى مصدر قديم . وأتى بالقول الفصل في حريق مكتبة الاسكندرية ، وبين وجه الخلاف القديم في فتح مصر ، أصلاً أم عنوة ؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسى والدينى فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الإدارية والاقتصادية ، على ما كان لها من أثر قوى في سهولة انتقال مصر من حكم الروم إلى حكم العرب . ولقد ظهر في هذا الموضوع في العشرين سنة الأخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها . من هذه البحوث : النظام العسكرى لمصر البيزنطية ، لجان ماسيرو . و الإدارة المدنية لمصر البيزنطية ، لجرمين رويارد .

ثم أتت ألاف توافق المؤلف على تصويره لفارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن عمراً عندما بلغ رأس الدنا ورأى قلة من معه من الجند وخرج موقه بين جنود الروم جنوباً وشمالاً ، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمدد ورأى في الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستقدم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف عبور النيل إلى شاطئ الغربي ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبّر النيل ثانية ، فوجد المدد قد قدم من المدينة . لاشك أن هذه طريقة غريبة جداً في الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة ، ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المكيدة . يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان : فنوع لا يعرفها بالمرّة ، ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب إلى المعقول من الصورة المذكورة ، ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بتتابعة يوحنا النقيسى بحجة أنه أقدم عهداً من كل المصادر

العربية ؛ ولكن القدم وحده لا يكون دائماً دليلاً على صحة المصادر التاريخية .
 كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه في الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك
 المشهورة كانت فضلاً لأنها لم تؤد إلى ما كان الرسول يرى إليه بها من مصادمة
 الروم ، والحق أنها أدت إلى ما كان النبي ﷺ يرى إليه من شد سلطانه السياسى
 على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد تورم المؤلف أن مسيلة المتنبى
 ظهر باليمن (١٢١) والصحيح أنه ظهر باليمامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية وحسب
 الفارى . أن يعلم أن الدكتور بتر قد أقام فى كتابه تاريخ الفتح العربى لمصر على
 أساس على متين ، وأنه إلى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه .
 فضلاً عن أن يفوقه .

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شئ أن
 أمدح صديق فريداً على توفيقه فيها أخلص التهئة ، فقد جاءت صورة صادقة
 للأصل مطابقة له فقرة فقرة ، وجملة جملة ، هذا مع سهولة العبارة وسلاستها
 ووضوحها ، مما يشهد للأستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة ، ولكن ليت شعرى
 أى مترجم ولو كان الأستاذ فريد نفسه يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا يغفر
 قلبه ولا ينحرف عن الأصل الذى ينقل عنه يمتد أو يسره ؟ على هذا الاعتبار
 أهدى إلى الأستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة . (النذر اليسير) وصوابها (النذر) بالزاي
 المعجمة ؛ وفى ص ٢٧ عرب لسم المستشرق المشهور De Goeje (دى جويج)
 وصوابه (دى غويج) ؛ ووردت فى صفحة ٢٧ أيضاً كلمة (المونوفيسية) وأحسن
 منها أن يقال (المذهب اليعقوبى) ؛ وجاء فى ص ١٢٢ (هزيمة تبوك) بدلاً من

(فشل غزوة نبوك) وهو المتأيل للأصل . وفي ص ٨٣ ترجمت Theology
 (بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ؛ وجاء في ص ٢١٨ تسور الزير إلى الحصن
 والصواب أن يحذف حرف الجر . وفي ص ٢٢٨ ترجمت Drawbridges
 بـ (قاطر) وأصح من ذلك (جسور) ، لأن العرف جرى بإطلاق اللفظ
 الأول على البناء الثابت الذي يعقد فرق الأنهار، وهو غير المراد من اللفظ
 الانجليزي . وجاء في ص ٢٥٥ : وكانت ، مسلحة ، المدينة بدلا من : وكانت
 حامية المدينة . . وفي ص ٤٠٦ : وقال عن (النواي) وصوابه (النوى)
 بدون ألف المد .

على أن هذه الملاحظات أيضا لاتنضر الترجمة شيئا : وإذا كان الكتاب عثالا
 يحتذى من حيث دقة البحث العلمي فترجمته العربية مثال يفسح على مثواله من
 حيث أمانة النقل وصحة التعبير ؟



على ساحل بحر الروم



إن عهدى بحر الروم بعيد ليس بالقرب ، فلعشرات من السنين خلت
أذكر أنى كنت بمدينة الاسكندرية ، وأنى كنت طفلا غليل الجسم ومد العينين ،
قد أعيأ نفس الأطباء علاجه ، وحرار فى أمره والداء أشد الحيرة . وأخيرا
وصف الواصفون لوالديه رحمة الله عليهما ماء البحر المالح ، وقالوا لها أنه ينفع
طفلهما المريض . فكان أكبر إخوتي يقتادنى كل صباح إلى ساحل البحر من
« حى الأنفوشى » ، فيدفعنى فى الماء إلى حيث تغمر لجنته ساقى الناحلتين ، ثم يحملنى
أضخ وجبى بالماء المالح بحيث يتخلل جفونى الرملة . وربما تجرد هو بعقب
ذلك من ثيابه فعبث فى الماء بعد أن يكون قد استكتمنى ذلك عن والدى .
وربما قضينا بعد ذلك كله بعض الوقت نعبث بالرمل أو نلتقط من صخور
الساحل بعض ما علق بها من الأصداف .

تم تأذن الله بذهاب المرض عني وعود الصحة إلى . ولست أشك في أن
الفضل في ذلك يرجع إلى ماء البحر ، وهوائه ، وشمسه ، وإلى الحرية التى كنت
أنعم بها على ساحله . ومهما يكن من الأمر فقد نشأت على حب البحر ؛
وأعتقد أنى مدين له في صحتى وعافيتى وحياتى كلها . ومما حب واعتقاد لم تزدما
الأيام إلا رسوخا في نفسى وتمكينا من قلبى .



ودارت الأيام ، فإذا أنا تليذ بمدرسة رأس التين ، أغدو إليها كل صباح وأروح منها كل مساء . فكنت أجعل طريق غدوى إليها ورواحى منها على البحر ، لا أكاد أعدل عنه إلا مضطرا وإن أنس لا أنس ما كانت تحتل عيني في تلك الأيام من البحر في مختلف حالاته وتنوع منظره . فتارة هو ساج ساكن كصفحة المرأة ، وتارة هو هائج مضطرب يرى بموج كالجبال ، وأخرى هو بين بين ، فليس بالساجى ولا الهائج المضطرب . ولقد كان البحر في تلك الأيام يهدى بتعدد مسوره وتنوع منظره إلى فكرى الغض وخيال التانى .

ضروبا من معاني الروعة ، والقوة ، والحركة ، واللاتهنية .

كان مبلغ حظى من البحر في ذلك العهد أن أسير وساحله ، وأن أنعم بالنظر إليه ، لا أنجاز منه غير ذلك . فقد كان أبواى يحذرانى الدنو منه فضلا عن التورط فى لجته . وكانا يلقيان فى روعى أن فى البحر كائنات عجيبة تختطف الأطفال الذين يجرءون على نزوله . فلما ترعرت بعض الشيء كانا يقصان على بآ التيارات الخفية التى تذهب بالأولاد المجازفين إلى حيث لا يعودون .

ولم يكن يعمر ساحل البحر فى ذلك الزمان إلا طوائف من الناس يعملون فى البحر ، من سفانى السفن ، وصيادى السمك ، وناسجى شباك الصيد ، وإلا أوزاع من الشبان العاطلين من العمل ، يغشون ساحل البحر لتزجية الوقت ، أو لتشاجر على عادتهم أينما ضربوا باليونيات والروسيات ، وتطاعنا بالمدى والسكاكين أحيانا .

ثم دارت الأيام دورة أخرى ، فإذا بى قد أتممت دراستى ، وبلغت مبلغ الرجال ، وارتفعت عني رقابة والدى ، وإذا بسواحل الاسكندرية قد قامت على

حادثها المصايف والحمامات والملاهي والمقاهي .

وكنت لما قدمت من الأسباب لم أتمل السباحة بعد . فوطئت النفس على استدراك ما فاتني من ذلك زمن الطغرة . وأردت الإستعانة فيما قصدت بكتاب انجليزى فى فن السباحة ، ولكن الكتاب لم يسعنى ، فاستغنت بهديق كريم علم بذلك الفن . وماهى إلا أساييع معدودة حتى حققت أن أسك جسمى فوق سطح الماء ، ثم أن أحرك أطرافى جيئة وذهابا ، ثم أن أقذف بنفسى فى الماء من عل ، وأن أغوص تحت لجته أخيرا . ومن ذلك الوقت صار البحر متعة نفسى وبهجة قلبى وبخاصة زمن الصيف . فكنت أغشى الحمامات مقبدها ومطلقاتها . فى الحمامات المفيدة حيث لا يباح اختلاط الجنسين فى مكان واحد كنت أغنى بتقوية جسمى وتقويمه ، وتثديبه وتهذيبه ، عملا بالحكمة الفرنسية القائلة إن كل مجهود يتفقه الشاب فى تقوية جسمه يكسبه قوة أديبة . وفى الحمامات المطلقة حيث يباح استحمام الجنسين فى مكان واحد كنت أروض عيى على تعرف مواقع الحسن والقبح من جسم الإنسان . وكان رائدى فى ذلك ما لفته إبان الدراسة من كتب الفن والأدب . فكنت وأصدقائى عند كل مناسبة نتمثل شيئا عما أثر فى الفول والنسب عن امرئ القيس ، وابن أبى ربيعة ، وأبي تمام ، والبحترى وغيرهم . وقد تذكر آلهة الجمال عند اليونان والرومان ، وتماثيل فدياس وشخصيات شكسبير ، وصور ميشيل أنجلو وغيره من أئمة الفنانين .

والحق أنى لم أدرك إلا على ساحل بحر الروم جمال الجسم الإنسانى الذى هو أصل الفنون وملهمها وموحىها ، وبدايتها ومنتهاها .

ثم مضت أيام ، وتقصت أعوام ، فإذا بي أعلم في بعض الجامعات ، وإذا
 في زوج ورب بنين وبنات . وإذا العاطفة المشوبة قد هدأت ، والعين الحائرة
 قد ابرهت ، وإذا العقل هو الآخذ بالزمام ، وعليه المعول وإليه الاحتكام .
 جلست في يوم من أخريات صيف هذا العام على سبيل البحر من رمل
 الاسكندرية . فلم يستهوي هذه المرة ما كان يستهوي من قبل ، من جسوم شبه
 عاريات كالدي ، مرموقات كالتي ، أنا تصافح الموج وتلاعبه ، وأنا تخوضه
 وتخالطه . وطورا ينتظمها الرمل ، فلو لا الحياة لخلتها تماثيل من عاج مكفوة ،
 وطورا يتوزعها الصخر ، فكأنما هي قطع الرياض الممطرة ، وأنا من بين
 الحالين ، يحظرن رائحات غايات ، آنسات نافرات ، قريبات بعيدات .

كلا ! ولم تأخذني هذه المرة روعة البحر ، وهو الذي طالما فتنت روعته
 غاطرى وسحرت لي ، والذي له على من الفضل ما أنا عاجز عن شكر بعضه
 فكيف بشكره كله ! وإنما عرائني ما يحرو الأساذة المخكين ، وإن شئت قل
 الكحول المجريين ، من ميل إلى التفكير ونزوع إليه عند كل مناسبة وحين
 لا مناسبة . فذهبت أفكر كأنما أنا وحدي بذلك الساحل ، وكأنما الساحل
 قد خلا من أسباب الفتنة ودواعي الهوى .

سبحانك اللهم ! هذا بحر الروم مهد الملاحة عند آبائنا الأولين . هذا بحر
 الروم الذي قامت حوله حضارة مصر ، وبابل ، وفينيقية ، واليونان ، والرومان ،
 والعرب ، وهي الحضارة التي ترتكز عليها حضارة العالم الحديث وإن جدد
 الخلف فضل السلف . هذا بحر الروم أجل بحار الأرض شأنًا وأبعد ما أثرًا في
 التاريخ ، قديمه ، ووسيطه ، وحديثه ، ومعاصره .

هذا البحر يقال إن مصر تملك من سواحله ما يقدر ذروعه بمئات الأميال ،

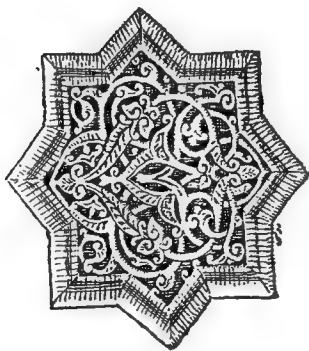
ومع ذلك فليس لها فيه سفن تجارية تعتملها زمن السلم، ولا أسطول حربي ينافح
عنها إذا جد الجدد، وعظم الخطب .

ولا يظن ظان أن تلك الجبال طليعية، بل هي مقصودة متممة . فإن
البحر باب عظمة الأمم وطريقها، وما من أمة عظم شأنها وعلا نجمها إلا كان
البحر سلها إلى المجد وسيلها إلى النبوغ . وحذاق المؤرخين يرون البحر قسم
الكبر في تنشئة الدول ورفع عمادها . ولئن خفيت تلك الحقيقة على عدى المشاركة
قد أدركها مستعمرو بلادهم فحرصوا على أن تكون مفاتيح الشرق بأيديهم،
وتركوا الأمل البلاد ما وراء ذلك من رمال يترغون عليها وأحوال يضطربون
فيها . وإن نظرة عجيلى يلقيا القارىء على خريطة الشرق لكافية بأن تثبت له
صححة هذه الدعوى . فامن مرفأ منيع ولا مرسى أمين، من لندن طليجة
بأقصى المغرب إلى سواحل الصين بأقصى المشرق، إلا وهو بأيدي المستعمرين
الفاصلين .

لقد غدت ببحر الروم لا تقترن في أذهان شبابنا إلا بذكر الحمامات
والملاهي، والمصايف والمقاهى التي ياترى تصبح مقترنا بذكر الأسفار
للطوال، والبقائع الجسم، إن كان ولا بد من وقائع جسم ؟ متى تضعون
أيها المصريون أيديكم على سواحلكم حقا وتستغلونها حقا، فتصبحوا أمة
ملاحين، إلى جانب كونكم أمة فلاحين ؟ لقد استرهنكم المستعمر الأرض
ووضع في أعناقكم أغلالا وفي أقدامكم قيودا . ولا خلاص لكم من ذلك الرق
المضروب عليكم إلا بركوب متن البحار . هنالك تنشقون فوق ثبج الماء
ريح الحرية الصحيحة، وتبرأون من علل وأدواء أرزلكوها لزوم البر أحقابا
طوالا، هنالك تنبعث مصر الحرة حقا، مصر الحديثة حقا، مصر العظيمة حقا .

ولقد كنت أسترسل في تفكيري هذا لولا أن قطعه على ابني الصغير بعونه .
 لقد ابتعد الجو ، وكانت الشمس تغرب ، فبينا إلى المنزل ، وابتعدت ، فإذا الأفق
 الغربي قد أحاطته الشمس الغاربة لها مضطربا ، وإذا الأفق الشرق قد أخذ
 يتلفف في غلالة سوداء . ثم جعلت ظلة المشرق تشد وتمتد حتى استحال الأفق
 كله ظلاما في ظلام . وتألف من ظلام الجو وهدير البحر منظر يبعث في النفوس
 الوحشة والرهبة . هنالك نهضت فاقنعت أولادي نحو المنزل وأنا أردد قول
 القائل :

للدهر لو كنت تدري هول منطوقه لحن ترده الأصال والبكر



شعراؤنا وسيدنا عثمان

أبت الأقدار إلا أن يشق بالخلافة سيدنا عثمان في حياته وأن تشقى بها ذكره بعد مماته . فقد تولى الخلافة بعد عظيم من عظماء الأمة العربية فاستقامت له الأمور ست سنين ثم اضطرب بحر السياسة وهبت أعاصير الفتنة من كل جانب ، قلبت يغالبا وتغالبه ست سنين أخرى ، ثم طأطأ لها من هامته ومضى مقتولا شهيدا ، فكان أول خليفة سفك دمه جهارا ، وانصدع بمقتله شمل الأمة الإسلامية انصدعا لم يليئم حتى يومنا هذا .

عابرا عليه ليه وإثارة مع هنات أخره ، ولو أنصفوا لعادوا عثمان من أولئك الرجال الذين لطف مزاجهم الأخلاقى وترقق ماء الحياة في وجوههم وأصبحوا بعيدين عما تتطلبه مآزق السياسة ومحرجاتها من جرأة وإقدام . وإن كان لين الرجل لم يكن عن جبن في النفس وخور في الطبيعة : قد نصر النبي في كثير من المواقف الحرجة وثبت يوم الدار والموت يتوئب عليه من كل جانب وما رعدت له فريضة ولا اضطرب له جنان .

قلبا مضى لسبيله كان خلفه بطلا من أبطال العرب ذا فصاحة وشيعة تنصب له وتنمى على مخالفيه . والناس عامة يتعجبون بالمتهمجين من السواس والمشهورين من أبطال الحروب ومساير القتال ويتشوقون سماع أخبارهم وقراءة سيرهم ، ولكنهم لا يحرصون كثيرا على مطالعة سير الأنبياء والتقديسين والعلماء

() السطور ، العدد ١٧٦ ، ٢١٤ أكتوبر سنة ١٩١٨ .

والأخلاقين وكان ذلك نزوع منهم إلى معيشة آبائهم الأولين أيام كان للشجاعة الطبيعية الشأن الأكبر في حياة الإنسان .

من أجل ذلك نرى أن عثمان الحلي الوجه، الرقيق الطبع، الدمث الخلق، قد أصبح بينه وبين سابقه ولاحقه تباين في نظر الجمهور كبير . فلا هو في شدة عمر وصرامته ، ولا هو في جرأة على وإقدامه ، فكان كرادين جبلين تتخطاه أقطار المتحمسين من المؤرخين ، كما تتخطاه أقطار المتحمسين من شعرائنا . وإن كان واديا يجري فيه الماء العذب وينبت على جانبيه غصن الزهر ويانع الثمر .

قرأناه البردة ، و نهج البردة ، و كشف الغمة ، و العمرية ، و البكرية ، و لبنا حيناً توقع قراءة ، العنانية ، فإذا بنا في شهر وبعض شهر قرأ ثلاث ، عاريات ، طوال ، فوجدنا من متابعة شعرائنا للرأى العام حتى في اختيار الموضوعات الشعرية .

إذا كان التاريخ يخطئ عثمان فإن الشعر يعطف عليه العطف كله . وإذا كان المؤرخ يستخلص العبرة من عصر عثمان فإن الشاعر يجد فيه كثيراً مما يهمه خاصة من محرك للعواطف ومستقر للقلوب ؛ ولعلنا لا نجد في التاريخ كله موضوعاً أروع وأدعى إلى أن يكتب فيه الشاعر الفيلسوف والكاتب المتميلي والعالم الإجتماعي من موضوع الثورة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان . ولو لنا ارتجعنا الأيام الخوالي وألقينا نظرة تنفذ قلوب الناس أيام تلك الثورة وتستقرى وحى غرائم رأينا نظراً عجائباً :-

فهذه روح الجماهيلية الأولى ، روح الخلاف والشقاق ، ترفع من رؤسها مناهضة روح الدين الجنيد ، روح التضامن والاتحاد . وهذا الباطل تغلب حيناً على الحق . وتجم رؤوس الفتنة في الكوفة والبصرة ومصر ، ثم تندفع من هذه النواحي

الثلاث شطر حاضرة الخلافة فتسحك حلقتها بالمدينة حول دار عثمان . وهذا
التخاذل يدب إلى قلوب النصاراء كما يؤلف التناصر بين قلوب الاعداء . وهذا
عثمان نفسه يطل على الثوار وينصح لهم ، ولكن أنى لصوته الخافت الضعيف أن
يعلم وضوءه الجواهر وقعقة السلاح . ثم يشتد الخطب وعظم البلاء ويمنع
خليفة الإسلام الماء . ولكن القوم الذين بلغوا من التدنّ والتذلة مكانا نصيبا
أبوا إلا أن يذهبوا إلى أبعد منه . لقد اشتمت الذئاب الضارية ريح فريستها
وهبات أن تصرف أو تلغ في دما وتطمع من لحمها . هاهم أولاء يحرق بعضهم
على عثمان باب داره ، في حين أن بعضا آخر يتسور الجدران وقتحم الدار .
وماذا يرون ؟ يا لله ! يرون شيخا قات السبعين من عمره ، أهزل من
السلاح قد اتحن مكانا من غرفته الهادئة يقرأ القرآن ، وبالقرب منه زوجة
هائلة بنت الفرافصة ، توازره في بلواه . فما يتخشع المجرمون لذلك المنظر
الساذج المريب ، بل يتقدمون إليه بأقدام ثابتة ويعملون فيه سلاحهم . حتى إذا
همت الزوجة البارة بالدود عن زوجها لم ينحرج أحدهم أن ينفع يدها بالسيف
تفحة أظنت أصابها . وهكذا احتسى القوم كأس الذلّة حتى الصباية . ثم أبوا
شرماب؛ على أن الرواية لم تتم فصولا : فالخروب الطاحنة التي انتشبت بعد بين
المسلمين إنما كانت انتقاما عدلا للخطيئة المظلم . لقد تفرقت جماعة الأمة ، ويد
الله إنما تكون مع الجماعة ما دامت مجتمعة ، فإذا تفرقت فיד الله عليها تذيبها
وبال تفرقها .

تلك عظة بالغة ومجال للشعر قد لا نجد له مثيلا غير مقتل يوليوس قيصر
في الزمن القديم ، ومقتل قيصر روسيا في أعماق سيبيريا في أيامنا هذه ؟

أبوذر الغفاري

العربي القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأدفعهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشددم استساكا بما يراه الحق ، وأعظمهم حمية أن يجرى عليه ذل أو ضيم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف . ذلك الحق ، الذي قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الأخلاقية الحديثة ، يرجع إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأ العربي في حجرها وصيغ على مثالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعي إنما هو نظام الأسرة مكبرا . وكل الناس من فضائل هي وليفة يبتهم ، وإن شئت قل : كم من فضائل الناس ما هو مرذوق غير مجلوب ، وموهوب غير مكسوب .

ولقد جاء الدين الإسلامي مطبوعا في جملة الطابع العربي ، موسوما بسمته ، قد سلك إلى الحقيقتين الدينية والاجتماعية أقرب السبل ، وعبر عنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهو من ناحية يأمر بالتوحيد انحص ، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس في الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن يبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وأن يحولوا فواريت أم التيس عليها أمر الحقيقتين المذكورتين ، فلم يلبث العرب أن تأثروا بتلك الأمم وانتقلت إليها أدواؤها وأصابعهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السهلة قد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء

والذل ، أمرا صعبا مستصعبا ، له ظاهرا وباطنا ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية في صدر الإسلام ، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول إن هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بضلالهم النفس العربية الساذجة ، وأبدلوها بالزهد في الدنيا شغفها ، ونهالكا عليها . نعم إن أبا بكر وعمر أنفقوا جهدا غير يسير في سد ذرائع هذا الخطر ، وبدءوا في ذلك بأنفسهما . فكأنما مضرب المثل في القناعة والزهد وخشوة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال ، فلم يقسم بينهم الأرض المفتوحة غنوة ، ثم زاد فنع قريشا من الخروج إلى البلدان المفتوحة إلا بإذن وإلى أجل . فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التي تفيض قوة وتصميا ... ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا إني قائم دون شعب الحرة فأخذ بحلقهم قريش وحجزها أن يتهاوتوا في النار . فلما ذهب عمر لسيدته وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها ، وأقبلت تستغل لين ذى التورين وحياء الجمل ، فانطلقت إلى الأمصار تفتن المال الوافر والمغار الواسع والإقطاعات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل ، وتملك أرضهاى بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا في غلته . فأثرت قريش وربك ، وصارت إلى رفاغة عيش لم تلمها من قبل بخيال . يحدثنا أبو الحسن المسعودى فيقول : « وفي أيام عثمان أثنى جماعة من أصحاب النبي الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ... وابتقى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما علم من دوره وضياعه فعلم غير مجهول إلى هذه النجاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين

ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططابجك
ذكرنا من الآصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ، أبنى داره بالكوفة
المشهوره به هذا الوقت ، المعروفة بالكناسة بدار الطالحين ؛ وكانت غلته من
العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (١) وبناحية سراه (٢) أكثر
نما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج ؛ وكذلك
عبد الرحمن بن عوف الزهري أبنى داره ووسعها ، وكان على مرطبه مائة فرس ،
وله ألف بعير وعشرة آلاف من القتم ؛ وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة
وثمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من
الذهب والفضة ما كان يكسر بالفروس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة
مائة ألف دينار . وأبنى القداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على
أبوال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها بحصنة الظاهر والباطن .
ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات
وغير ذلك . ثم يقول السعدي : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن
تملك من الأموال في أيامه ، ولم يكن مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب ، بل
كانت جادة واضحة وطريقة بيته .

مهما يكن من المبالغة في هذا النص فهو لا ريب يشير إلى حال كانت لا بد
ثمرة لمعارضة جادة غير هائلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الإسلامية وبالشيوخ
كان لا يزال قريبا ، ومبادئ الإسلام الديمقراطية لم تسمح بعد من الأذهان ،
وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال : نوع يستند إلى العنف والقوة المادية ،
وكان بالأصار الكبرى حيث الجند الذين شادوا الدولة بسيفهم والذين
أصبحوا يرون قريشا استأثرت بحقهم في النبي ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر

من أهل الكوفة :-

يلينا من قریش كل عام أمير محدث أو مستشار

لنا نار نخوفها فنخشی وليس لهم قلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت غاف
مجمج ، لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية في الدولة العربية ، فقد خلفتها في ذلك
الأمصار المذكورة . والحق أن الأوس والخزرج قد أدوا الواجب الذي من
أجله لقبوا بالأنصار ، ثم أخذ نجم مجدهم السياسي في الأفول .
وأما النوع الآخر من المعارضة فكان يستند إلى الدليل الشرعي وإلى مبدأ
الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عالياً رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان
صریح في الحق كل الصراحة : ذلك أبو ذر الغفاری .

كانت غفار من القبائل الضاربة بين المدينة ومكة ، وكانت في الجاهلية تحترق
قطع الطريق واعتراض القوافل التي تمر من أرضها . وهي حرة لم يكن بها بأس
في عرف ذلك الزمان . فنشأ أبو ذر نشأة أعراية ، واتصف بما يتصف به
الأعراب عادة من صدق الهمجة وصراحة القول ، ومرن على حياة البادية بما
فيها من خشونة ومذاجة . ويقال إنه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه
قومه من فساد العقيدة فاطرح الأوثان ووجد الإله ، وذلك قبل أن يعث
النبي ﷺ بثلاث سنين . فلما نبي عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته ، وجد
مشكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت إليه من قبل ، فحل
إليه من فوره وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم ، وكان خامس
خمس مائة الجماعة الإسلامية وقتئذ . ولقد أبى إلا أن يجهر في مكة بدينه الجديد

فعمدته فريش بالأذى، ثم ذكرت أنه من قوم نمر عيرها من أرضهم، فكفت عنه .

وعاد أبو ذر بعد ذلك إلى البادية فدعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول إلى المدينة . وبذلك أصبحت غفار من القبائل التي ظلمت الرسول في عمارته قريشا . وقد لبث أبو ذر في قومه إلى أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق، ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول في غزوة تبوك، ولزم صحبه إلى أن توفي عليه السلام فكان بذلك من أكبر رواة الحديث .

وقد وردت أحاديث تشير إلى أخلاق أبي ذر: فيروى أن النبي سمعه يقول
لآخر : يا بن الامة ، فقال عليه السلام ما ذهبت عنك أعرايتك بعد ، وتخلقت
بأبي ذر راحلته عن الجيش في غزوة تبوك فتركها وأدرك الجيش ماشيا وحده .
فقال الرسول : . يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده ، وورد فيه أيضا
: ما أفلتك النبراء ولا أهلك الحضراء من ذى لجة أحلق من أبي ذر . .

وأقام أبو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب
أحلقه عمر في العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وإن لم يكن منهم ، ففرض له حصة
آلاف درهم في السنة . ثم خرج إلى الشام وغزا مع معاوية أرض الروم سنة
٢٢ هـ وجزيرة قبرص سنة ٢٧ هـ .

فلما وقف تيار الفتح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام
فرأى ما آل إليه المسلمون من الحال التي سبق وصفها : رأى رجال الدولة
تسمى التي . مال الله توصلها بهذه التسمية الخادعة إلى الاستتار به ، أو التصرف

فبه كما يشاؤون، ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين: أغنياء مترفين وفقراء معدمين، فأثارت تلك الحال حفيظة أبي ذر وهو الذي شهد دورة الفلك كاملة، ورأى العرب في جاهليتهم وما صاروا إليه في خلافة عثمان، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك، وأعلن برنامجا في الإصلاح. فأما الذي فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الأغنياء فيجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء، وذهب أبو ذر إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومية ولبنة أو شيء ينفعه في سبيل الله أو يعبده للكرم، أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى: والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرم بعباد اليم، وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكيا صريحا. وقد شاعت دعوته في فقراء الناس ومحايبيهم فثاروا بالأغنياء وطالبوهم أن يشاركهم في أموالهم، فوجه الأغنياء بالشكوى إلى أمير الشام لذلك العهد: معاوية بن أبي سفيان.

أحب معاوية قبل كل شيء أن يختبر صدق أبي ذر فيما يدعوا إليه، فبعث إليه في جنح الليل بألف دينار، ولما كان الصبح أرسل إليه يستردها بحيلة احتالها، فوجد أبا ذر قد فرقاها كلها، فلم معاوية أن الرجل يفعل مايقول. وأقبل يجادلها فيما يدعوا إليه، وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمى التي (مال المسلمين) بدلا من (مال الله)، ولكن أبا ذر أصر على أن ينزل الأغنياء عن فضل أموالهم للفقراء، وعبثا حاول معاوية أن يقنعه بأن الآية التي يستدل بها إنما نزلت في أهل الكتاب وحدهم. وأعيى معاوية أمر أبي ذر، فجنح إلى أخذه بالشدّة، فنهى الناس عن مجالسته وتهده بالقتل، فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره إلى عثمان فأمره بإشخاصه إليه، وأشخصه إليه على شر حال.

لم يكن أبو ذر في المدينة بأبعد منه في الشام، فقد حاول عثمان أن يصرفه عن
دعوته، ويرييه أنه لا يملك أن يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير
فريضة الزكاة، وأن كل الذي يملك هو أن يدعو المسلمين إلى الاجتهاد والاقتصاد،
ولكن أبا ذر كان يريد برنامجا كاملا، وولع به أهل المدينة واتفقوا حوله.
فرأى عثمان آخره الأمر أن يحصر الخطر في أضيق نطاق ممكن، فبنى أبا ذر
إلى الرينة. وهي مكان في البادية ناء عن المدينة؛ والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر
من إبعاد أبي ذر عن الناس، فالروايات تقول أنه أجرى عليه رزقا يتاله
كل يوم، وأنه لم يمنعه من الاختلاف إلى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد
أعراسا.

لم يكن أبو ذر تائرا ولكن طالب إصلاح أرقاه. وما يدل على عدم
نزوعه إلى الثروة أنه وهو في متفاه مربيه ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا
عن عثمان، فطلبوا إليه أن ينصب راية يلف حولها كل من كان على شاكلته
وشاكلتهم، فأبى ذلك بتاتا ونهام عنه. وأما مذهبه في الإصلاح فلا شك أنه
ابن مجده، فالإسلام لا يحظر الثروة ولا الملكية، ولا يوجب على المسلم
حقا في ماله غير الزكاة، وكل ما ينهى عنه الإسلام في هذا الصدد إنما هو أن
تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته.

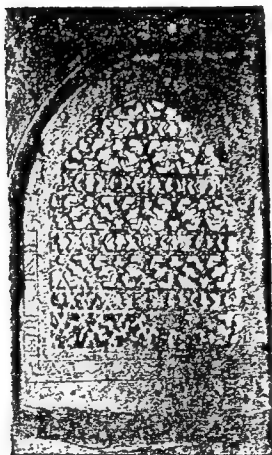
وعندى أن حركة أبي ذر الاشتراكية تمت بسبب قوى إلى حركة مزدك
الشيوعي الذي ظهر بفارس على عهد قباد وكسرى أنوشروان، والذي كاد يقلب
نظام المجتمع الفارسي رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه. فإذا
عرفنا أن الذين خضعت لفارس قبيل الإسلام، وأن يهوديا من أهل صنعا
يعرف بابن السوداء ادعى الإسلام في خلافة عثمان وجعل يطوف الأمصار

الإسلامية داعيا إلى الثورة، وأنه هو الذي حرك أبا ذر لما أنس فيه من
الميل الاشتراكية، إذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة
لشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التي أوشكت أن تقع في
الدولة الإسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

لبث أبو ذر في مفاه نحو ثلاث سنين يعاني ألم الوحشة وكبر السن وخيبة
الامل، فلما أدركه الموت في سنة ٣٢ هـ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة
ثباته على مبدئه حتى النهاية، وعلى أنه حقا قد مشى وحده ومات وحده بروى ابن
سعد بن طبرقة أنه عندما حضرت الوفاة أباندر حارث امرأته في أمرها لتوحيدها
في تلك الفلاة، فكانت تشد إلى كتيب تقوم عليه فتظن ثم ترجع إليه فتمرحه
ثم ترجع إلى الكتيب، فيناهي كذلك إذا هي بغفر تغدبهم رواطهم كأمهم الرحم
على رحالم، والآلات بشوبها فأقبلوا حتى وقفوا عليها، قالوا مالك؟ قالت أمرؤ
من المسلمين يموت تكفونوه. قالوا ومن هو؟ قالت أبو ذر. فقدموه بآبائهم
وأمهاتهم، ووضعوا السياط في نحورها يستبقون إليه حتى جاءوه. فقال لهم ..
لو كان لي ثوب يسعني كفنا لم أكف إلا في ثوب هولي، أولامرأني ثوب يسعني لم
أكف. ^١ بها، فأنشدكم الله والإسلام ألا يكفني رجل منكم كان أميرا أو عريفا
رحيبا أو بريدا. فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك إلا في من الانصار
قال أنا أكفك فإني لم أصب بما ذكرت شيئا، أكفك في رداق هذا الذي
على وني ثوبين في عيبي من غزل أمي حاكتهما لي. قال أنت فكفني

فكان ذلك الفتى الأنصاري هو الذي تولى تجهيزه، ثم دفنوه جميعا .

وهكذا انطلق سراج هذه الشخصية الفذة العجيبة . إنها لاشك من تلك
الشخصيات التي يقدمها الزمن عادة بين أيدي الأحداث الخطيرة إنذارا
للناس وإقامة للحجة عليهم إذا لج بهم الفرور فلم يرعوا ولم يزدجروا .
على أن روح أبي ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه في تلك الغلاة البلقع ، فقد
ظل صوته داويا إلى أن تحقق ما أنذر به المدينة من غارة شعواء وحرب
مذكر ، ووقعت الفتنة الكبرى التي يقال إنها انتجت كل فتنة حدثت في
الإسلام . ولقد كانت غمار من نهض فيها والتي في نارها حطابا ؟



العتبات المقدسة^(١)

— ١٩٢٢٤٣ —

كان يوم الجمعة الماضي من أيام ربيع العراق ، فالجو باسم طلق والموى ندى
ورغاء ، وجوانب الأفق كاسية حالية بالماء والحضرة والزهرة .
خرجنا في صبيحة ذلك اليوم لتؤدى واجب الزيارة للعتبات المقدسة
بكر بلاه والتجف الأشرف . وكنا رفقا أربعة ، كلهم عارف بشروط الصحة
وأدب الطريق : ثلاثة مصريون وواحد عراقي هو في الحقيقة داعينا وهادينا في
طريقنا ، هو الشاب الأديب محمد كاشف الغطاء النجفي ، سليل آل كاشف الغطاء
الغنيين بفضلهم وإفضالهم عن التزويج والتعريف .

وانطلقت بنا السيارة تطوى المنازل والمراحل طيا عجيا ، فكأنما عراها
ما عرانا من الشوق والحنين ، فهي تعدو غير متأية ولا مستعصية ، فأذكرني أمرها
قول الشاعر العربي القديم :

لقد زارني طيف الخيال فهاجني فهل زار هنى الأبل طيف خيال ؟
لعل كراها قد أراها جذابها فوائب طلع بالعقيق وضال
تلون زبوراً في الحنين منزلا عليهن فيه الضبر غير حلال
وأثندن من شعر المطايا قصيدة وأودعتها في الشوق كل مقال .

(١) النري ، السنة الثالثة العدد ٩٣ . التجف الأشرف ، الثلاثاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦١ و
٢١ نيسان سنة ١٩٤٢ .

وإذا بنا في أقل من ساعتين من الزمان نسير بين صفين من بساتين موشة
متصلة الظلال ، فإذا بنا في ضواحي كربلاء .

فإذا بنا في شوارع كربلاء ، فإذا بنا قبالة مسجد الحسين بن علي ،
عليهما السلام .

كل شيء في كربلاء فيه مشابه من سيد شباب أهل الجنة : مياه جارئة ،
ورياض ناضرة ، وبلدة آمنة مطمئة ، ومسجد خفيف الروح ، وجيران
أرحمهم كرام ، ولكن ذلك الجمال كله ملفوف في غلالة سوداء لا تبين إلا لعين
الناظر المتوسم ، فإذا تبيتها حاجت به لواجع أسى دفن لم يملك معها حسرة النفس
وابتدار الدموع .

ومال ميزان النهار وأخذت أشعة الشمس القفزة تتحول خيوطلا عسجدية
اللون زادت معالم كربلاء جمالا كاسفا حزينا . فاستأذنا مضيفينا الكرام في
متابعة السفر إلى النجف الأشرف فأذنوا .

وراحت السيارة تعدو بنا العدو العظيم ، في قفار يابسة جرداء قاحلة ، ليس بها
من أنيس سوى الضباب وكأنها ريعت من ديب السيارة فهي تسرع إلى أجحارها
مستعينة بالله من بنى الإنسان وعدوانه . وبينما نحن تقاذفنا تلك المهامه الفج إذ
رفع لنا على حافة الأفق الجنوبي ما يشبه أن يكون نجما متوقدا ، فأننا عنه
دللتنا الحريت ، قتال : تلسم قبة مسجد الإمام .

وما أسرع ما أسلستنا اليداء إلى مقبرة النجف الأشرف ، فإذا نحن عند
روبة عالية يقوم عليها مسجد أمير المؤمنين وضريحه وقبته المذهبة الذاهبة في
السماء . هنالك ترجلنا وسعينا على الأقدام إلى المسجد ، فدخلناه محبتين عاشقين .

السلام عليك أبا حسن ! طبت حيا وميتا ! أما والله لست أعلم ميتا غيرك
 لم تل يد الموت من شماته وقحاته قليلا ولا كثيرا ! ها أنت ذا منفرد وحيد
 بذلك القفر ، ولقد كنت كذلك منفردا وحيدا في حياتك ، شأن كل قوال للحق
 عمال به في هذه الدنيا ! ها أنت ذى على تلك الزبوة عال على لحظ الميرون ،
 كذلك كنت في حياتك عاليا بإيمانك وتقاك وزهدك على قد الناقدين وتقص
 المتقصين ! وها هي ذا رياض القرات وغياض ترامى لك من بعيد كما كانت
 الدنيا تترامى لك بزخرفها وبرجها ، وها أنت ذا كأنك تصدها كما كنت تفعل
 قائلًا : يا دنيا عرى غيرى ! وها هي ذى فائس الأعلاق وكرائم الأموال قد
 سبقت إليك وكنت عند قدميك قدمة لك من مواليك وعييك ، وها أنت ذا
 كأنك تنحيا عنك بلطف وتقول كما قلت يوم دخلت بيت المال : يا صفره
 ويا بيضاء غرى غيرى ! وها هي ذى جرع الوافدين حولك كأنهم ينصتون إلى
 خطبة من خطبك الجليلة الرائعة ، وكأنما أنت تخطبهم كما كنت تخطب في الحياة
 لك فدى القلوب وبكى الميرون . وحتى علت وفصاحتك وجودك
 ولطفك لم تزل منها أنارة في جيرانك الأحياء الذين اختاروا جوارك والنزول
 في رحابك .

وانتبهت من أحلامى على دعوات الداعين وحقاوة المحفزين من أهل النجف
 الأشرف ، فخرجنا من حضرة أمير المؤمنين ، وما زلنا نتم بلطف أهل النجف
 وفتبس من عليهم وأدبهم حتى لم يبق من الليل إلا قليل .

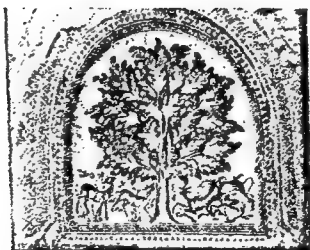
* * *

وانحدرنا في الصباح إلى الكوفة فوقفنا على ديارها البلاقع وأطلناها

الدوائر فتلوت قوله تعالى : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في
الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين . .

وبرحنا الكوفة نريد بغداد ، فلم نخرج في طريقنا إليها إلا على الحلة الفيحاء ،
تأية منا لدعوة فاضل من فضلها أبي إلا أن نطعم من زاده ، ثم استأنفنا السفر
فبلغنا بغداد وقت الغروب فألفيناها كمهدنا بها : هاتجة مأجوة ، ساحرة غائسة ،
فقلت لأصحابي : رجعنا إلى الدنيا ٩

بغداد في ١٦ نيسان سنة ١٩٤٢



الأب لامانس

والحكومة الإسلامية الأولى

إن الأيام بل الساعات القلائل التي مرت بالمسلمين عقب وفاة النبي ، عليه السلام ، هي لا شك أدق ظرف مر بهم في تاريخهم ، على كثرة ما شهد ذلك التاريخ من ظروف دقيقة عسوية ؛ ذلك بأنه في تلك الساعات المصدودة كانت الشريعة الإسلامية التي ظل الرسول سنين طويلة يعمل على تثبيت قواعدها وإدخالها على قلوب العرب ، معرضة لأشد الاخطار ؛ كما كانت الوحدة السياسية التي قضى النبي طوال العصر المدني من حياته يعمل على تكوينها وإحكامها ليتمكن لدعوته الدينية ، هي أيضا معرضة لخطر التفكك والانتقاض . ولكن ما هي إلا تلك الأيام أو الساعات القلائل حتى نجت من الضياع قضية الإسلام وقضية الدولة الإسلامية ، وافتتح كل منهما عصرا جديدا لا يزال إلى اليوم إحدى أعاجيب التاريخ ومن دواعي حيرة المؤرخين . تلك الأيام أو الساعات هي التي عبرها المهاجرون والأنصار بسقيفة بني ساعدة بالمدينة والتي اشتد أثناءها الخلاف بين الفريقين حتى خيفت الفتنة ، ثم آل أمرهما جميعا إلى انتخاب أبي بكر خليفة لرسول الله على المسلمين ، وإلى قيام الخلافة الإسلامية بشكلها الديمقراطي المعروف .

وبعد فلاّب لآمانس المسترق اليسوعي المعروف بسعة اطلاعه على آداب العصر الجاهلي وتاريخ العصر الإسلامي الأول نظرية^(١) غريبة تتعلق بشكل الحكومة الإسلامية التي قامت يوم السقيفة واستمرت طوال عهد الشيخين .

فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثي Triumvira المعروف في التاريخ الروماني في طور الانتقال من الجمهورية إلى الامبراطورية ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة : هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وأن هؤلاء اجتمعت كلمتهم في أواخر حياة النبي على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته عليه السلام ، ويتداولوه واحدا بعد واحد ، وأن اثنين من أزواج النبي ، هما عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، مهدتا لهم السبل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد . إذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة ، وقاز أبو بكر بالخلافة ، وقد عاونه صاحباه في الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على النية . فلما حضرت الوفاة نأى أبا بكر عهد إلى عمر من بعده . ثم إن عمر رشع أبا عبيدة للخلافة من بعده ، بأن ولاه القيادة العليا لجيش الشام . غير أن أبا عبيدة توفي في حياة عمر ، فخط مشروع الحكم الثلاثي ، وكان من وراء ذلك أن يرجع المسلمون إلى الشورى التي حرّموا منها في استخلاف أبي بكر وعمر ١١

ونحن مع احترامنا لـم الآب لامانس وإطلاعه تقول إن نظريته هذه
لا تقوم على أساس تاريخي متين .

أولا - لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئا من هذا القيل ،
فالطبري والبلاذري اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة
بقيام الخلافة العربية ، لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية
الآب لامانس .

ثانيا - إن الأحاديث التي يستشهد بها الآب لامانس أغلبها من الأحاديث
المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم . وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ تام ، وربما
كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح ، ذلك
بأن معظمها لا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب
السياسية إبان العصر الأموي وخبر العصر العباسي .

ثالثا - إن الآب لامانس يهمل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول
الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي ، وقد لحظ حديثنا الدكتور
السهروري بك في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ، ولكنه لا يعلق عليها
الأهمية التي نعلقها نحن . وليان هذه الأهمية ثبتت نص الرواية كما سألها
ابن اسحق :

قال ابن اسحق : وقال الزهري وحدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال
لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : ه إن رجالا من المنافقين
يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي ، وإن رسول الله ﷺ مات ولكنه
ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم
رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله أيرجعن رسول الله ﷺ كما يرجع

موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات ، وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمره يومئذ ثمانين سنة ، فدخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم أقبل عليه قبله . ثم قال : يا بى أنت وأمى ! أما الموتة التي كنت آتية عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . قال ثم رد البردة على رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمره يومئذ ثمانين سنة ، فقال : على رسلك يا عمر ! أنصت يا بى ! إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلبسهم الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! من كان بعد عمدا فإن عمدا قد مات ، ومن كان بعد الله فإن الله حي لا يموت . قال ثم تلا هذه الآية : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن ما دأبنا من قبلنا أفلحتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين . قال فوافقه لكان الناس لم يعلوا أن هذه الآية نزلت في تلاحا أبو بكر فأنما هي في أفواههم . قال فقال أبو هريرة : قال عمر : وفواة ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففصرت حتى وقعت إلى الأرض ماتت . رجلاى ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

فالتارىء يرى أن هذه الرواية المالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهو تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن . وهي من أجل ذلك بعيدة عن أن تكون مختلفة ، والمناسبة التي وردت في صدد هذا لا شك صحيحة .

إذا كيف فوق بين عمر المؤمن ، على رأى لا مانس ، وعمر الذاهل لموت

الرسول كل هذا النهرول كما تدل الرواية المذكورة ؟

وبعد فإن القول باتهار أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به
روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخي في صدر
الإسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان ، لا أبا عبيدة كما يرى لا مانس ،
قد اتهموا بيني هاشم ونصبروم قهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا
الزعم من شعر السيد الميرى الذى يقضى مدحا لى هاشم ودما للخلفاء الثلاثة
الأوائل . روى صاحب الأغاني (١) قال : جلس المهدي يوما يعطى قريشا صلات
لم وهو ولي عهد ، فبدأ بيني هاشم ثم بسائر قريش ، فجاء السيد فرفع إلى الربيع
رقعة محتومة ، وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه ، فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس سمى محمد	لا تعطين بنى عدى درهما
واحرم بنى تميم مرة إنهم	شر البرية آخرأ ومقدما
إن تطعم لا يشكروا لك نعمة	ويكافؤك بأن تدم وتشتا
وإن اتهمتم أو استعملتم	خانوك واتخذوا خراجك متما
ولئن ضلعتهم لقد بدأوكم	بالمع إذ ملكوا وكانوا أظلا
منعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديدة مريم
وتأمروا من غير أن يستخفوا	وكفى بما فعلوا هناك مأثما
لم يشكروا محمد إسماءه	أفيشكرون لغيره إن أنما ؟
واقه من عليهم بمحمد	وهدام وكما الجنوب وأطما
ثم اتبروا الوصية ووليته	بالمكرات فجرعوه القلما

قال : وهى قصيدة طويلة حذف باقيا لقب ما فيه . قال : فرى بها لا
 أبى عبيد الله ثم قال : أقطع المطاء أقطعه ، وانصرف الناس ، ودخل السب
 إليه ، فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ! ولم يعطهم شيئا ،
 وقال الشهرستانى فى المال والنحل فى كلامه على المغيرة إحدى فرق غلا
 الشيعة : إن زعيمها المغيرة بن سبيد العجلي كان يزعم أن أول ما خلق الله
 ظل محمد وعلى قبل ظلال الكل ، ثم عرض على السموات والأرض أن يحملز
 الأمانة ، وهى أن يمنعن على بن أبى طالب من الإمامة ، فأين ذلك ، ثم عرض
 على الناس ، فأمر عمر بن الخطاب أبابكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن
 يعينه على القدرة . على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده ، فقبل منه ، وأقدم
 على المنع متظاهرين ، فذلك قوله تعالى ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا .^(١)
 فالأب لا مانس لم يرد على أن أخذ نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام
 الخلافة ، وبني عليها بحته الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى ، وهى بعد
 وجهة نظر ليست لما قيمة عليية على الإطلاق ؟

(١) ابن حزم ج ٢ ص ١٤ ،

زياد بن أبي سفيان^(١)

(١)

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسة ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك عدلاً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين تقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار .

ولد زياد بالطائف في السنة الأولى للهجرة من أب قرشي هو أبو سفيان علي المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كلدة المعروف بطيب العرب . وتعلم في كتاب من كتائب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فتشأ قارئاً كاتباً حاسباً . ثم اعتنق الإسلام في أغلب الظن عند ما أسلمت ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن غزوان إلى الألبه وجنوبي العراق ليكون ردها لسعد بن أبي وقاص ، كان الفتى زياد

(١) التتمة .

فمن اتى بالخروج معه وكان هو الذى يقسم لهم الغنائم ، وأجروا عليه كل يوم درهمين . ثم ولّى سعد ديوانه فكان هو الذى يكتب الناس ويدونهم ، فلما فتحت جلولا سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمرو بعث بالجاب مع زياد وكلفه استئذان الخليفة في الانسياح في أرض فارس . فلما قدم الوفد المدينة كلم زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذلك الفتي النشأ . ومضاه لسانه ، وقوة جناته ، وأحب أن يستزيد من اختياره فسأله : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذى كلتني به . فأجاب الفتى . والله ما على وجه الأرض رجل أهيى في صدرى منك ، فكيف لا أقوم على هذا مع غيرك ؟ فلما كان الغد قام في الناس فكلّم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في بلاد فارس ، فازداد عمر إعجاباً به وقال : هذا الخطيب المصقع . ولم يكن الإعجاب قاصراً على عمر ، بل لقد أعجب زياد من سمعه يومئذ من أكابر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : لو كان هذا الفتى من قريش لائق العرب بعصاه ، فيقال إن أبا سفيان مرس في أذنه بقوله إنه هو أبوه الذى ولده حقاً . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مضت البصرة سنة ١٦ هـ تزلمها زياد فيمن تزلمها من قيف ، واتخذها مقراً مدى حياته بوجه عام . ولما ولّى عمر المغيرة بن شعبة على البصرة سنة ١٦ هـ ورى المغيرة بما رى به ، وم عمر برجه لم ينجه من الهلاك إلا شهادة شهدا زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة سبباً في درء الحد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته وانعقدت بينهما من ذلك الوقت أواصر المودة والصداقة .

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبى موسى الأشعري سنة ٢٢ ، كان مما احتجوا به عليه عند عمر أنه فرض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد قتي حدث ،

ليست له من ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد عليهم أبو موسى بقوله : ه إلى
وَجِئْتَ لَهُ بِلَا وَرَايَا ، فَأَسَدْتَ إِلَيْهِ عَمَلًا ، وَقَدْ قِيلَ عَمْرٍ قَوْلَ أَبِي مُوسَى مَتَارًا
لَأَسْلُكَ بِالصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ لَزِيَادَ فِي ذِمَّتِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِنَفْسِهِ
إِلَّا مَضَى أَمْرُ ذَلِكَ الشَّابِّ فِي مَدَى سَبْعِ سِنَوَاتٍ ، فَأَمَرَ أَبُو مُوسَى أَنْ يُشْخَصَ إِلَيْهِ
زِيَادًا . وَقَدِمَ زِيَادٌ عَلَى عَمْرِ قَدَمَتِهِ الثَّانِيَةَ وَقَامَ يَبِيبَ عَمْرٍ . فَلَمَّا خَرَجَ عَمْرٍ وَجَدَ
شَابَا حَسَنَ الْمِيئَةِ ، لَهُ نِزَاقَةٌ . وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ يَبِضُ مِنْ كَتَانٍ ، فَأَبْتَدَرَهُ بِقَوْلِهِ :
مَا هَذِهِ الثِّيَابُ ؟ فَأَخْبَرَهُ زِيَادٌ . فَقَالَ : كَمْ مَعَهَا ؟ فَأَخْبَرَهُ زِيَادٌ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ ، وَصَدَقَ
عَمْرٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : كَمْ عَطَاؤُكَ ؟ قَالَ : أَلْفَانِ . قَالَ مَا صَنَعْتَ فِي أَوَّلِ عَطَاءِ خَرَجَ
لَكَ ؟ قَالَ : اشْتَرَيْتُ وَالِدَتِي فَأَعْتَقْتُهَا ، وَاشْتَرَيْتُ بِالنَّاسِ رِيْدِي عِيْدًا فَأَعْتَقْتَهُ .
قَالَ الْخَلِيفَةُ : وَقَتَ أَتَمَّ اخْتِبَرَ عَمْرٍ قُدْرَتَهُ عَلَى الْكِتَابَةِ فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي
مَعْنَى وَاحِدٍ ثَلَاثَةَ كُتُبٍ مَحْتَفَةٍ الْعِبَارَةِ ، فَكُتِبَ زِيَادٌ ثَلَاثَةَ كُتُبٍ بَلِيغَةٍ أَعْجَبَ بِهَا
عَمْرٌ ، ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ وَالْقُرْآنِ فَوَجَدَهُ قَاطِبًا ، فَرَدَّهُ إِلَى الْبَصْرَةِ
وَأَمَرَ أَسْرَافَهَا أَنْ يَسِيرُوا بِرَأْيِهِ . وَكَذَلِكَ لَمْ تَحْبِ فِرَاسَةُ عَمْرٍ فِي ذَلِكَ الشَّابِّ
مَذْرَأَةً عِنْدَ قُدُومِهِ عَلَيْهِ بِأَخْمَاسِ جُلُولَاءِ لِسَبْعِ سِنَوَاتٍ خَلَّتْ ، وَلَمْ تَزِدْهُ الْيَوْمَ
إِلَّا ثِقَةً بِهِ وَاطْمَئِنَانًا إِلَيْهِ ، كَمَا أَنَّ هَاتَيْنِ الْقَدَمَتَيْنِ غَرَسَتْ لَذَلِكَ الْخَلِيفَةُ فِي قَلْبِ
زِيَادًا إِكْبَارًا وَتَجَلَّةً جَعَلَتْهُ يَرَى فِيهِ مِثْلَهُ الْأَعْلَى الَّذِي يَتَأَثَّرُ وَيَهْتَدِي بِهِ .

ولما شخَصَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ عَامِلَ الْبَصْرَةِ مِنْ قَبْلِ عُثْمَانَ إِلَى خِرَاسَانَ غَازِيَا
سَنَةَ ٢١ هـ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْبَصْرَةِ زِيَادًا ، فَقَامَ بِأَمْرِهَا فِي غَيْبِهِ خَيْرَ قِيَامٍ عَلَى
صُعُوبَةِ حَكْمِ ذَلِكَ الْمَصْرِ فِي تِلْكَ الْيَوْمِ .

فلما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التي انتهت بمقتل عثمان ،
واستخلف على بن أبي طالب ، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشه وطلحة

والزبير، لم يترك زياد في تلك الفتن ساكناً، ولم يخض فيها مع الجائضين، ولا أتى في نازها حطياً، بل اعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره، وأقام مستخفاً في بعض دور البصرة ينتظرهم تتجلى الأمور. ولم يكن أمر زياد خافياً على علي، فإنه بعد أن ظفر بخصومه في وقعة الجمل سنة ٢٦ وجاءه عبد الرحمن ابن أبي بكر، وهو ابن أخي زياد لأمه، مستأثماً مبايعاً، قال له علي: وأين عمك المترجس المتعادي؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد. وزنه على مسرتك الحريص، ولكن بلغني أنه يشتكي، أفأعلم لك عليه ثم آتيك؟ وكنتم عالياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه. فقال علي: إمش أمانى فأهدني إليه أفعل. فلما دخل عليه قال: تقاعدت عني وترجست ووضعت يده على صدره وقال: هذا وجع بيننا فاعتذر إليه زياد، فقبل عذره. ثم استشاره على وأراده على إمرة البصرة، فامتنع زياد من قبولها وقال: يل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس... وسأ كفيه وأشير عليه. وافتقراً على عيد لقة بن عباس. إلا أن علياً ولي زياداً خراج البصرة وبيت مالها، وأمر ابن عباس أن يسمع منه.

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال علي إخلاصاً له، وقد لبث على إخلاصه وولائه له إلى أن انتهت حياة علي نفسه. ويتضح هذا الإخلاص في حادثين وقعا في ذلك الوقت في أهم النواحي التابعة لعلي، في البصرة وفارس، وهما يبينان مقدرة زياد ودعاه وسعة حيلته. أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبي بكر بمصر سنة ٤٩ هـ واضطرب الأمر على علي خرج إليه بالكوفة عبد الله بن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة. ودم زياداً غداه رجيل ابن عباس أمر عظيم، فإن معاوية أخذ إلى البصرة عبد الله بن

الحضري فاعياً مقتل عثمان وعمر كالأهل البصرة على علي . ونظر زياد فوجد نفسه في قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده . فأعمل الرأي والحيلة ولما كان ابن الحضري قد نزل في بني تميم فإن زياداً أسرع فزل ومعه الأموال في قبيلة الأزد المعادية هي وحليفها بكر بن وائل تميم . وكان لنزوله في الأزد معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزد بالدود عنه كاتباً ما كان الأمر . وكتب زياد إلى علي يخبره بالحبال ويستمدد . فصوب علي رأيه وأتخذ إليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدي النخعي . وقد استطاع جارية أن يرد قومه عن متابعة ابن الحضري ثم سار إلى ابن الحضري فقتل عليه وعلى أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال .

أما الحوادث الآخر خلاصته أنه عندما اضطرب الأمر على علي طمع الفرس في استعادة استقلالهم ، فتموا الحراج واضطربت فارس ثاروا . فأشار ابن عباس على علي أن يولي زياداً على فارس وكرمان فقبل . قال الطبري : ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعدهم من نصره ومناه ، وخوف قومه وأتوهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة قتل بعضهم بعضاً . وصفت له فارس ، فلم يبق فيها جمعاً ولا حرباً وفضل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار في كورها ومنام فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فزها وحصن قلعة بها ... فكانت تسمى قلعة زياد ، لحمل إليها الأموال سنة ٤٠ هـ .

ولقد أتى عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى .
أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة والعلم بما يأتي .
والظاهر أن زياداً لم يحصن قلعة اصطخر ويحمل إليها الأموال ليجرد التجصن

ففيها من العجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرى فرق ذلك إلى غرض آخر : لقد رأى بثاقب ذهنه وببعد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين على ومعاوية مت لا محالة بغلبة معاوية ، ورأى في الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً في إحفاظ معاوية بأخذه جانب على ، هذا إلى مضاينة كان يحسبها في قرارة نفسه تجعله لا يسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن في مكانه الحريز وبين أظهر الغرض الذين غدوا معجيين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض معاوية وهو في حصنه ويساومه مساومة التدلل ولا ينزل إليه إلا على شروط يملأها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يحظر له يال ، ففي عام ٤٠٠ قتل أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وأصبح زياد ومعاوية في حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا تجد رجلين متعادين عداً غريباً . كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فساقه الحلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاء وأوسعها حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادئ بفتح باب المفاوضة والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل على إلى زياد يتهدده ويتوعده ، ويعرض في الوقت نفسه بولادة أبي سفيان له . فلم يسع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه ، فقام في الناس خطيباً فقال : ألم يجب من ابن آكلة الأكباد وكهف المنافق ورئيس الأحزاب ، كتب إلى يتهددني ويثني وبينه ابنا عم رسول الله في تسعين ألفاً وأضفى سيوفهم على عواتقهم لا يتشون ، لكن خلص إلى الأمر ليجدن أحمر ضراباً بالسيف ! . وكذلك أعرض زياد ونأى بجانبه معللاً نفسه بأنه لا يزال بينه وبين معاوية الحسن بن على وعبد الله بن

عباس . وأبغ وعبد . بأن انتقل إلى القامة ومعه الأموال وامتنع بها ، وذلك سنة ٤١ هـ .

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية . وقدم معاوية الكوفة لينهى أمر العراق والمشرق جميعا ، وخلا ما بين زياد ومعاوية مرة أخرى . لوعاد معاوية بمحاذب زياد الحبل ولكن في غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما في ذمته من مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك في أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه . ولكن زياداً أصم سمعه عن تلك الدعوة الخلافة . فلم يسع معاوية عند ذلك إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بشر بن أرطاة عامله على البصرة بأخذ الأكبر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبة ، عامله على الكوفة ، بالشخص إلى البصرة واستصفاء أموال زياد التي كانت في يد عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتعذيب عبد الرحمن إن امتنع من أداها . ولكن زياد لم تكن قناته إزاء هذا الجدم معاوية في أمره . ولم يشر بأن يقتل أبناء زياد فضلا لولا أن تدخل في الأمر أخوه لأمه أبو بكر ، على ما بينه وبين زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التي شهدا زياد في حادث المغيرة . فقد شفع في أبناء زياد لدى معاوية فتشفعه فيهم ، وكتب إلى بشر بأن يخلئ سبيلهم . واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعا . وبينما الحال كذلك إذا برجل يتن به معاوية ولزياد عنده يد مشكورة ، ومئة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل هو المغيرة بن شعبة . قالوا إنه دخل يوماً على معاوية وهو بالكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه المتصح
فإذا بحث بسر قالي ناصح يكتنه أو لانيح

فقال: يا أمير المؤمنين إن لتودعني تسودع ناصحاً شفيقاً، ورعاً وثيقاً،
 فإذا؟ قال: قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس واستاعه بها، ولم
 أتم ليقي؛ فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال: ما زياد هناك القال
 معاوية: داهية العرب، معه الأموال، متحصن بفلاح فارس، يدبر ويربص
 الحيل. ما يؤتمنى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد على
 الحرب جذعة؟ قال المغيرة: أأأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟ قال: نعم!
 فأتته وتلف له. فأقى المغيرة زياداً وأعلمه بتزول الحسن عن الأمر، وأن
 الأول له أن يصل حله بحبل معاوية. وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم،
 وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية.

قدم زياد على معاوية بدمشق في سنة ٤٢، ووقع إليه حساب فارس، فأحسن
 معاوية لقاءه وصدق كل ما قال، ثم أزاله الكوفة كما طلب. إلا أنه لم يركن
 إليه كل الركون فقد كتب إلى المغيرة بأمره بأن يأخذ زياداً ورموس أصحاب
 على بالكوفة، كحجر بن عدي الكندي وعمر بن الحنف مجذور صلاة الجماعة،
 فكانوا يصلونها معه.

يبدو أن معاوية كان أدهى من أن يقف في أمر زياد عند هذا الحد. لقد أراد
 أن ينتخلطه ويخذه إلى جانبه جملة، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفائته ومواقفه
 العظيمة. ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا عاين هس زياد ما كان يحس من
 المضاضة، بأن يعلن على رؤوس الأشهاد صحة ما كان يتهاوس به الناس من
 نسبة زياد إلى أبي سفيان. وتفصيل ذلك أن زياداً كان حتى ذلك الوقت
 لا يعرف له أب على التعيين، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد، وهو عبد روى
 كان للحارث بن كعدة، وبعضهم ينسبه إلى أبي سفيان، وبعضهم ينسبه إلى أمه

فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أبيه أيا كان ذلك الأب . إلا أن
 ذلك الغموض في النسب لم يلحق زياداً منه شبه ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب
 كما رأينا ، وهذا مما يدل على سماحة السياسة في ذلك الزمان وسعة ألقها . فإكان
 من معاوية إلا أن أخذ يقرر أن أبي سفيان الذي سبقت الإشارة إليه ، وبشهادة
 شهود شهدوا ببنوة زياد لأبي سفيان ، وأعلن في الآفاق أن زياداً أخوه لأبيه .
 ولقد أثار معاوية بعمله هذا دغشة الرأي العام ، وامتناع بني أمية ،
 وسخط بعض رجال الفقه والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقد
 نظروا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذي قضى
 بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد في
 هذه المسألة التي وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبي سفيان ، حكم الإسلام
 بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم في الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم
 وعدما سفاهاً . فكان لمعاوية في الأمر نظر أوسع من نظرم وتقدير أبلغ من
 تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسي يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام
 يقضى باصطناع تلك الشخصية الفذة والارتفاع بها في إدارة الدولة .
 ولقد كان معاوية مرتاح الفكر والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشلت القالة
 واشتد التنكير عليه ، قام في الناس فقال : « أما والله لقد علبت العرب أني كنت
 أعزها في الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدني إلا عزاً ، وإن لم أتكثر زياداً من ذلة
 ولكن عرفت حقاً فوضعت موضعه ، ألا إن يكن معاوية قد أظهر في هذه المسألة
 شيئاً ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر
 الخليفة المهدي العباسي الذي أمر في سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان
 قريش وردمهم إلى ثقيف ؟

زياد بن أبي سفيان

(٢)

كانت دعوة معاوية زيادا في سنة ٤٤ ، وسرعان ما عرضت الظروف التي رأى معاوية أن يتنفع فيها بكفاية أخيه الجديد وموابعه . ذلك بأن البصرة قد اختلت أمورها اختلا لا كبيرا ، فكثرت في نواحيها عيث الخوارج ، والتلصص وقطع الطرق ، وفشت في البلد نفسه الآفات التي تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة إلى الحضارة والترف ، فكثرت الفسق وشاع الفجور . وزاد الطين بلة . تصيب القبائل بعضها على بعض ، مما جعل البلد يحيا حياة جاهلية إلى حد بعيد . ولقد عجز من ولاه معاوية أمر البصرة عن إصلاح تلك الحال ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والادارة يضع الأمور في مواضعها ، ويرد فساد ذلك المبر إلى صلاح . ولم ير معاوية أقدر على الاضطلاع بذلك العبد الجسم من زياد ، فولاه في سنة ٥٤ على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الآلة وما إليها . رأى زياد أن الحال تقتضي حزما وعزما وشدة في بعض المواطن وضراطة ، ولكنه جهد في أن يعمل بالسياسة العميرية القديمة ، سياسة الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وإن يكن قد طبقها تطبيقا حريا دقيقا في حالات معدودة قصد الإرهاب وقذف الرعب في قلوب المفسدين ، وقد وضع لسياسة برناجا

(١) التتمة ، العدد ٢٦٠ ٢١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

أعلنه في خطبة البتراء التي خطبها الناس بالمسجد الجامع لأول دخوله
 البصرة . فقد أعلن عزمه على حدم المرائير ودور الفساد ، وقال : « ما هذه
 المرائير المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر والمدد غير قليل ؟ حرام
 على الطعام والشراب حتى أسورها بالأرض هدماء وإحراقاً ، ونهى عن دجل
 الليل نهباً باتاً ضرباً على أيدي المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب ، وذلك في
 قوله : « وإياي ودلج الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه » . ونهى عن
 دعوى الجاهلية منعا لتعصب القبائل بعضها على بعض . « وإياي ودعوى
 الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه » ، وأعلن تضامن الناس
 في حفظ النظام : « وإني أقسم بالله لأخذن الزول بالزول ، والمقيم بالطاعن
 والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم . . . أو تستقيم لي قنائكم » . إلا أن
 زيادا وإن كان قد شد الوطأة على أصحاب الرب وفساد قاته سكن خواطر
 الصالحاء وجهد في استمالة المنحرفين عنه : « فمن كان محسنا فليزدد إحسانا ، ومن
 كان سيئا فليزغ عن إساءته » ، ثم بين لهم حرمة على مصلحتهم : « واعلموا
 أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة
 منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابساً رزقا ولا عطاء عن إبانته ، ولا بجمراً
 لكم بيتاً . أيها الناس . . . عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا ، ولكم علينا العدل
 فيما ولينا .

وكان زياد عند قوله ، فاتفاق عليه أحد بكذبة ، ولقد أخذ وعيده هذا
 في حالات تعد على أصابع اليد الواحدة ، بقصد الإرهاب ، لا سباً في سفك
 الدماء . فاستقامت أمور البصرة ، ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر في نواحيها
 فاستكنى كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فكسر بذلك شرمة تلك الفرقة العائية ،

وعم الأمن أطراف البصرة ونواحها حتى قال زياد : لو قد جبل بني ويزن
خراسان لرقت من أخذه .

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفي المغيرة بن شعبة في
سنة ٥٠ لم يتردد معاوية في ضم إمارة الكوفة وأعمالها إلى زياد .

كان الخطر بالكوفة آنياً لا من قبل أهل الريب والفساد والخواارج
وتعصب القبائل كما كانت الحال بالبصرة ، ولكن من قبل الشيعة الذين كانوا
لا يمتزفون بسلطان معاوية والذين وجدوا في لمن على على منابرهم فرصة
لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله والترحم
على أن تلب ، ولقد رأى معاوية فيهم خطراً جوهرياً على حكمه فأمر المغيرة
بأن يشبة بمراقبتهم .

وكان المغيرة بن شعبة في أخريات حياته رجل رقيق ولين وإيثار للعافية ،
فكان يكتفي من الشيعة بالإخلاد إلى السكون وعدم مخالفة الجماعة ويدعهم بعد
ذلك يقولون ماشاموا . لما أسندت ولاية الكوفة إلى زياد قدمها ، وشهد الوطاة
على رؤساء الشيعة : حجر بن عدي وأصحابه ، وطوى ما بينه وبينهم من صداقة
قديمة ، إيثاراته على عاداته لأداء واجبه نحو الحكومة التي يخدمها . ولما أحسن
منهم المقاومة لسلطانه والجسارة بلعن معاوية وعماله والترحم على على ، قبض
على حجر بن عدي وبضعة عشر رجلاً كانوا أزعامهم ، واستشهد ناساً من
وجوه أهل الكوفة على أن حجراً وأصحابه قد غالفوا الجماعة وشقوا عصا
الطاعة ، ثم بعث بهم وبالشهادة عليهم إلى معاوية . وهنا يتورط هذا السياسي
الحنك في الأمر ويضيق بهؤلاء النفر حله المشهور ، فيأمر بقتل ستة منهم ، فيهم
حجر بن عدي ، قتلوا صبراً . يمرج عندها بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ

وهذه أحوال الكوفة على أثر ذلك إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب
إلى معاوية يقول : إني قد ضبطت العراق بشألي ويمنى قارعة ، يمرض برغبته
في أن تضم إليه الجامة ، لا الحجاز كما ورد في بعض الروايات . فضم إليه معاوية
الجامة وما إليها .

ولم تطل حياة زياد بعد هذا الحادث ، فقد أصابه الفالج وتوفي في رمضان
عام ٥٢ هـ . ودفن بالتربة بظاهر الكوفة .

...

ذلك تصور عام لحياة زياد السياسية . ومنه نرى أن زياداً كان سياسياً
حازماً يعرف مواضع الشدة ومواضع اللين ، وليس لكل حال لبوسها ، ويدأوى
كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثاني ، وكان يثأره ويحب سماع
الحديث عنه ويعمل بسنته ويقضى بقضائه .

وأياً ما كانت الحال فقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للصليحة
العامية ، ولا أدل على ذلك من موقفه من معاوية عندما أراد أخذ البيعة بولاية
العهد لابنه يزيد ، فقد رأى زياد الأمر يجد خطيراً ، وأن واجبه نحو الإسلام
والمسلمين يحتم عليه ألا يعين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً مؤدباً
ينصح له فيه بالتزيت وعدم العجلة . وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخط
الخطوة الأخيرة في هذا الأمر إلا بعد موت زياد .

ذلك وجه الحق في أمر ذلك السياسي الذي عاش في أيام قن واضطراب
ونقطة من عصر النبوة والحلافة إلى عصر الملك والسياسة : أخذ بالحزم ، وأداء
الواجب ، ونصح لولى الأمر . ومع ذلك قيم روايات تصور زياداً طائش
السيف ، سفاكاً للدماء بغير حق ، فزعم أنه قتل الأبرياء بالبصرة ، وأنه قطع

أبدي ثمانين أو ثلاثين رجلا حصوه وهو على المنبر بالكوفة ، وأنه دفن رجلا من أصحاب جحر حيا . إن هذه الروايات وأمثالها متهمة ، لأنها صادرة عن رواية الشيعة المتحرفين عن بني أمية ، ومؤرخي بني العباس الذين قضوا على الدولة الأموية . وإلا فكيف يتصور أن ينال زياد بإجماع الأخبار رضا الأمة المهديين عمر وعثمان وعلى ، وثقة عاملهم سعد وابن موسى وابن عامر وابن رهباس ، وإعجاب الفرس وولاهم ، ثم يتقلب بمجرد وضعه يده في يد معاوية سفاكا سفاحا ؟ ألا إن سبب الوضع والاتصال أو المبالغة على أقل تقدير واضح في تلك الروايات من غير مراد .

وكما كان زياد سياسيا حازما ، فقد كان إداريا بارعا ، لا يكاد يلحق به في ذلك الميدان من رجال الصدر الأول إلا قليل . والظاهر أنه لقف صناعة الإدارة أثناء عمله بفارس للإمام علي ، وذلك بمعاشرته الدهاتين وسماعه أخبار الأكاسرة الأولين . يعني بمعاينة فارس والعراق . فأما فارس فقد بلغه أن الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج ستة فاقدي بهم في ذلك ، فعمرت فارس عمارة عظيمة . وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية الري بالنسبة له ، فحفر عدة أنهار ، منها نهر معقل ونهر الأبله ونهر ديس ، وأكثر من الاقطاع وإحياء الموات . قال المسدثي : « وكان يقطع الرجل القطعة ويدعه سنتين ؛ فإن عمرها وإلا أخذها منه » .

وقد عمر العراق لعمدة عمارة عظيمة . روى البلاذري أن جباية كور البصرة على عهد زياد بلغت ستين ألف ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة آلاف ألف فقط ، وينفق الباقي في أعطيات الجند وعامة ضروب الإصلاح .

وبلغت جباية كور الكوفة على عهده أربعين ألف درهم كان يرسل منها
إلى معاوية ثلثي ما يرسل إليه من جباية البصرة ، ويتفق ما تبقى في مختلف
بشئون الكوفة .

وعنى بأمر الأسواق ، فكان يراقب الأسعار مراقبة دقيقة متوخيا مصلحة
الجمهور في ذلك . قال المدائني : « غلا الطعام على عهد زياد ، فذفع إلى التجار
بمالا فابتاعوا به طعاما ، وقال زياد أربعا ربما ، فلما رخص الطعام ارتفع
ماله . » وربما تنسكرو ونزل إلى السوق واختبر الموازين والمكاييل بنفسه ، وكان
يوقع العقوبة الموجهة بمن يطفف كيلا أو يخسر ميزانا .

وعنى العناية كلها بالشرطة والجند ، فاتخذ حرسا مؤلفا من خمسمائة رجل
لا يخرجون المسجد ، وجعل الشرطة ٤٠٠ رجل ، وبلغت مقاتلة البصرة في
زمانه ثمانين ألفا ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفا . وجعل جند البصرة أخصابا ، وجند
الكوفة أربابا ، مازجا بين القبائل المتباعدة الانساب ليؤلف بينها ، ويضعف
من تعصب بعضها على بعض . وول على كل خمسين أو أربع رجلا من قبل
الحكومة بدل سيد القبيلة كما كانت الحال من قبل ، ونقل إلى خراسان خمسين
ألفا من عرب المصريين ، وجعلهم أربابا على نظام جند الكوفة ، فكان ذلك
بده استعمار العرب ذلك الأقليم . وكانت أعطيات الجند وأرزاقهم وأرزاق
عيالهم تصرف إليهم من دار الرزق في مواعيد معينة من السنة ، وأكثر ما كان
ذلك في المحرم ورمضان .

روى البلاذري أن زيادا سأل أحد جلسائه فقال : ألت تعلم أن الأسواق
قائمة وأن الاعطيات والأرزاق تخرج إلى شهر معلوم ويبيع البائع إلى شهر
معلوم ؟ قال : بلى . قال : فله الحمد لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا .

وكان زياد شغف بالبناء مع ذوق فيه وخب للنظافة العامة . بنى بالبصرة دار الإمارة ، وهدم مسجدها ، وكان من القصب ، ثم وسعه وبناءه بالأجر والجص وسقفه بالساج ، ونقل أساطينه من جبل الأهواز ، وأنشأ به المقصورة يدخل إليها من دار الإمارة مباشرة دون أن يتخطى الناس . ويروى أنه حين بنى المسجد ودار الإمارة جعل يطوف فيهما وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه : أترون خلا ؟ فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه . فقال : على هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود ؛ لو كانت أغلظ من سائر الأساطين : قالوا ولم يؤت من تلك الأساطين قط تصديق ولا عيب . وقد قال شاعر من شعراء ذلك الوقت في فتاة بناء ذلك المسجد :

بنى زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تآمر أيدي الإنس ترفها إذا لفنا من أعمال الشياطين
وكذلك وسع مسجد الكوفة واتخذ به مقصورة ، وفرش صحنه وصحن
مسجد البصرة بالحصباء حتى لا تقرب أيدي المصلين .

وقال المدائني . كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أصبحت برفع ما بين يدي فتائه من الطين ، فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فأتى في محله . ويأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القنر والكناسات ؛ ثم أنه اشترى عبيدا ووكلمهم بذلك . وكان زياد يعني بمظهره الرسمي الخاصة والعامة على السواء . كان يشتر بالبصرة ويهيف بالكوفة ؛ وكان له مجلس يحضره أشراف المصر يدخلون عليه فيه على السابقة والشرف والحسن ، ويسمرون عنده فيه جالسين على الكراسي ؛ وهو أول من جلس بين يديه على الكراسي ، وكان لا يطعم وحده ولكن مع الصحابة والشرط والمقاتلة ومن حضر ، وكان يهدي الناس ويعشيهم كل يوم إلا

يوم الجمعة فكان بعشيم فقط ، وكان له قبة يشرف منها على عرض الجند كلها
أراد ذلك ، وكان إذا برز من دار الأمانة في موكب غم يسار بين يديه
بالجرب والاعمة ، وهو أول من سير بين يديه كذلك .

ولسيرة زياد الخاصة طراقة وروعة : كان زياد في صباه حسن الهيئة ، حسن
التياب ذا نؤابة . وقد وصفه من رآه في أواخر حياته فقال : رأيت فيه حمرة ،
وفي عينه البني انكسار ، أبيض اللحية ، مخروطها ، عليه قميص مرقوع . وقد أجمع
الرواة على أن زيادا كان من أخطب الخطباء ، وأنه كان كاتباً بليغاً ومحدثاً لبق
الحديث . قال الشعبي : ما رأيت أحداً يتكلم إلا أحسيت أن يسكت غفلة أن ينقطع ،
إلا زياداً فإنه لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن . وكان أباً باراً ببناته وأبناته
الكثيرين ، وصديقاً وفيماً لم يخل بصدقة المغيرة ولا صدقة بدر بن حارثة الغداني
الشاعر ، على قلة كلف زياد بالشعر ، ومع ما عرف به بدر من معارقة الشراب .
وإن يكن قد تنكر لحجر بن عدي فمن أجل الواجب وحده تنكر . وفوق كل
شيء فقد كان زياد عفيفاً لم تؤخذ عليه هبة في حياته الخاصة ، زاهداً في الدنيا
غير حريص عليها . روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه أن زياداً لم يكن
من القراء ولا الفقهاء . ولكن كان يبد في الزهاد . وقال الأصمعي : مكث زياد
على العراق تسع سنين لم يضع لبنة ، ولم يفرس شجرة . يريد أنه لم يتحضر
نفسه ببناء ولا زرع تعففاً وزهداً . وكان يقول : أغبط الناس حالاً رجلاً له
دار لا يجري عليه كراثها وزوجة صالحة قدرصيته ، فهما راضيان بعشهما ،
لا يعرفنا ولا نعرفه .

ولما مات زياد رثاه غير واحد من الشعراء ، وقال فيه صديقه بدر
ابن حارثة

صلى الإله على قبر وطهره عند الثروة يسنى فوقه المور
أدت إليه قریش نعث سيدها فتم كل السنى والبر مقبور
أبا المغيرة والدنيا مغيرة وإن من غرب الدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف مرفقة وكان عندك للسكراء تنكير
ولا تلبث إذا عوسرت معتسرا وكل أمرك ما يوسر تيسير
لم يعرف الناس مذكفت سيدهم ولم يحل ظلاماً عنهم نور
والناس بمدك قد خفت حلومهم كأنما ففتت فيها الأعاصير
قد يقال تلك زفرة صديق محزون لفراق صديقه ، ولكن العواطف
النيلة ، لا يهبها عادة إلا ما هو نبيل حقاً .



محمد بن القاسم الثقفي

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية قس في ناياب التاريخ عن شخصية تمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتي الشهد والفاخ العظيم ، والشاعر الحساس : محمد بن القاسم الثقفي ، الذي شرع في غزو السند في السابعة عشرة من عمره ، وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين ، فأدخل بذلك في الهند الثقافة الإسلامية التي يدين بها في الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليوناً من أهلها . إنها شخصية تجمع إلى قناء السن حكمة الكهولة ، وإلى خشونة الجندي رقة الشاعر ، وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم . وكل صفات اتصف بها العرب في نهضتهم التاريخية الكبرى التي رجعت العالم القديم فتيه من سياته ورسمت للتاريخ مجرى جديداً . وهو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، فهو من ثقيف المشهورة في الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء الزعامة ، ثم هو بن عم الحجاج ، أمير العراق ورجل الدولة الإسلامية في الربع الأخير من القرن الأول الهجري . يلتقي نسبهما في الحكم بن أبي عقيل . ولد في سنة ٨٧٢ ، وقنع الحوادث مئار ، وريح الفتن نكباء ، والسيوف يتجاوب صليلها في فارس والعراق والحجاز وإفريقية ، فجعل غلاماً يتنفس في جو مكفهر عابس ، ولقف صناعة الحرب سماعاً وعياناً ، ثم شاء ربك رحمة منه بالناس أن يكون إلى جانب

هذه الحياة القلقة المضطربة الحائرة حياة أخرى أمته هادئة هي: حياة الأدب الذي
 يتمثل في الشعر الغنائي الرقيق المأثور عن ابن أبي ربيعة ، وجبل ، وكثير ،
 والخيبر وغيرهم من شعراء ذلك الزمان فعشا نظر الفتي الثقي الخائر إلى ذلك النور
 المشرق . فجاءه واهتدى به ، وهفت نفسه العطشى إلى ذلك المورد العذب فوردته
 وارتوى منه ، وبذلك اعتدل مزاجه ، وورقت حواشي نفسه ، وأصبح وهو في
 السابعة عشرة من عمره أشرف ثقي في زمانه كما يقول صاحب الأغاني ، وأقبل
 الحجاج ، وهو هو في فقد الرجال وتمييز الكفايات ، يعقد به آمالا كباراً ،
 ويرشحه على حادثة سنة للأمر الجليل بعد الأمر الجليل .

لم يكد يتصف العقد التاسع من القرن الأول الهجري حتى كانت الفتن التي
 صدعت وحدة الدولة الإسلامية من بعد معاوية قد ركدت ريجها ، فانهت
 ثورة ابن الزبير بالحجاز ، وكسرت شوكة الخوارج بفارس ، وسكنت العاصفة
 الهوجاء التي أثارها ابن الأشعث بالعراق . هنالك عاود العرب حبهم القديم
 للفتح والغلب ، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومنفذها ،
 فتزاقية بن مسلم ما وراء النهر وأغل فيها ، وتوطد سلطان الدولة يلاذ
 عمان ، وغزا موسى بن نصير المغرب ، وقرع أبواب الأندلس نفسها . وقد أراد
 الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتوح الجسام ، فأغزى ابن
 عمه محمد بن القاسم السد التي هي مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والمخالف
 بالخيرات ، والذي يسمى بلاد الهند .

الحق أن الحجاج لم يشكر سياسة غزو الهند ، فقد عرف هذه البلاد عرب
 شرقى الجزيرة منذ الجاهلية . وطالما ركوا البحر إلى شواطئها مستبضعين وتجاراً .

فلما قامت الدولة الإسلامية طمعوا في غزوها وتملكها : يروى صاحب فتوح
البلدان « إن عمر بن الخطاب ولي عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وثمان سنة
١٥ هـ فوجه أعاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان ، فأقطع جيشا إلى ثانة
(قريب من مرقع يومبلى الحاضرة) فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه .
فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ! حملت دودا على عود ، وإنى أحلف بالله أن
لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم . » وتتابعت غارات عرب البحرين من
عبد القيس وغيرها على شواطئ الهند وجزائرها ، وخاصة جزيرة سيلان التي
كان يقال لها اذ ذاك « جزيرة الياقوت ، لحسن وجوه نساها ، فن هؤلا .
العرب من أفلح في المقام بها ، ومنهم من عاد إلى بلاده لعمله يديه السبي الرائع
والمغنم الوافر . هذا من ناحية العرب . أما من ناحية الهند أنفسهم فقد
هاجرت منهم في الجاهلية طوائف إلى رأس الخليج الفارسي وخضعت للدولة
الفارسية القديمة ، فلما مضت البصرة نزلوها وحالفوا من بها من العرب .

فلما كان زمن الحجاج أغرى عماله على مكران نهر السند ، فكلهم كان ينكب
أو يقتل . وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم ، تنزلها قبائل عديدة
قوية تذكر منها الزط والسيابجة والميد والبرهه . وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة
في أخصام الأودية ورموس الجبال . منها الديبل ، وكانت نهر السند قبل كراتشي
الحاضرة ورمهاناذا وراور والملتان . وكانت هذه البلدان قوية غنية بمداينها
وخاصة معبد الملتان . قال البلاذري « وكان بد الملتان تهدي إليه
الأموال ، وتذخر له الذنور ، ويحج إليه السند ، ويطوفون به ويحلقون رموسهم
ولحام عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي عليه السلام . » أما الناحية السياسية
فقد كان يتوزع بلدان السند وقبائلهم عدة ملوك متقاطعي الكلمة محتلي الأهواء .

وكان أقوام سلطانا إبان غزو العرب للسند ملك يقال له داهر ، فهو الذي أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة المزيمة المرة بعد المرة . والطريف أن مصرع هؤلاء القواد لم يجعل الحجاج على الجند في قتال داهر بمقدار ما حمله عليه استغاثة امرأة عربية اعتدى عليها ، وعلى نسوة عربيات كن معها ، بعض قراصين البحر من أهل السند التابعين لداهر .

وذلك أن ملك جزيرة الباقوت فيها يروى البلاذري ، أراد التغرب من الحجاج ، فأهدى إليه نسوة ولهن في بلاده مسلمات ومات آياؤهن وكانوا تجارا . فمرض للسفينة التي كن فيها قراصين من ميد الديبل فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن من بني يربوع : يا حجاج ابلغ الحجاج ذلك ، فقال ليك وأرسل من فوره إلى داهر يسأله تخليبة النسوة . فأجاب بأنه إنما أخذهن لصوص لأهله له عليهم . فأغزى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند ، فكللها قتل . فاحتاج الحجاج وتجرّد لقتال داهر . وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الرى فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى في هذا الشاب من رباب الصدد وبدرك النار . فردّه عن غزو الرى وعقد له على مكران وثغر السند ، وأمره أن يقيم حتى توافيه القوة التي أخذ بعدها لقتال داهر .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش وأسطول . أما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين ألف مقاتل ، منهم ستة آلاف فارس من جند الشام الذين كانوا أعدة الدولة الأموية ومعولها والذين وطّأوا للأمويين أكتاف ملكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وأما الأسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة . ومن هذه خمس مجانيق ضخام ، يقال لأكبرها (المروس) . ويروى البلاذري أنه كان يمد فيها خمسمائة رجل . وبالغ الحجاج على عادته في إعداد الجيش حتى

أنه ... جيزه بكل ما احتاج إليه من الخيوط والمسال وعمد إلى القطن
المجروح فقع في الخل الحار الحاذق ثم جفف في الظل ، قال إذا صرتم إلى السند
فإن الخل بها ضيق فاقعوا هذا القطن . ثم اطبخوا به واصطبغوا ، ثم تقدم إلى
عمد ألا يقطع عنه أخباره بحيث يختلف البريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام .

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز ، سنة ٥٩٠ هـ ، فصار مشرقاً متبعاً
ساحل البحر طوى الخزون والسهول ، وبحوب المهامه والقفار ، ويحدوه ما يحدوه
الشباب الحلى من حب للجد وتعلق بأسباب المعالي ، تغلب على صحارى كرمان
ومكران ، وبلغ الديبل سالماً . ولم يكذب يحط رحاله حتى كان الأسطول قد وافته
بها . فشرع من فورهِ في مهاجمة المدينة . قال صاحب فتوح البلدان : « تقدم الديبل
يوم الجمعة ، ووافقه سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة ، فالتحق حين نزل
الديبل ، وركزت الرماح على الخندق ، ونشرت الأعلام ، وأنزل الناس على راياتهم ،
ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل . وكان بالديبل
« بد ، عظيم عليه دقل طويل ، وعلى الدقل (سهم السفينة) راية حمراء إذا هبت
الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور وكانت كتب الحجاج ترد عليه بصفة
ما قبله واستطلاع رايه فيما يعمل به في كل ثلاثة أيام . فورد على محمد من
الحجاج كتاب : أن انصب العروس وأقصر منها قامة ، ولتكن عمالى المشرق ،
ثم ادع صاحبها ، فره أن يقصد برميته الدقل الذى وصفت لى ، فرمى الدقل
فكسر ، فاشتد طر (جزع) الكفر من ذلك . ثم إن عمداً فاضلهم وقد
خرجوا إليه فزهمهم حتى ردهم ، وأمر بالسلام فوضعت وصعد عليها الرجال ...
فتفتحت عنوة ... وهرب عامل داهر عنها ... واختط محمد للباسلين بها ، وبني

مسجداً ، وأثر لها أربعة آلاف ، ثم سار محمد مصعباً مع النهر يريد داهراً ، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الراور صلحاً . وانضم إليه على أثر ذلك أربعة آلاف من الزط ، وصار كثير من قبائل السند عرفاً له في حربه مع داهر . ثم عبر نهر مهران ، والتقى بداهر وجيشه . وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر بمحمد وجيشه بفتك ذريع . ولكن محمداً اتقى شر الفيلة بقذائف النبط . الملقب يرميها بها ، فهاجت واحترقت هودجها بمن فيها من الجند . واقترب بين الفريقين قتال هائل انجل عن قتل داهر وتمزق جيشه وتراجع فلوله إلى مدينة برهنا باذ . واتقى محمد أثر تلك الفلول فاستولى على مدينة راور فبرهنها باذ نفسها ، ومن ثم زحف إلى مدينة الراور لخاصرها أشعراً ثم دانت له على أن يحقق دماء أهلها وألا يعرض لبدنهم ، وأن يؤدوا إليه الخراج . وقد وفي لهم بشرطهم وبني بالمدينة مسجداً . ثم قطع نهر يباس إلى الملتان ، أعظم بلدان السند العليا ، فاستعنت عليه أول الأمر ، ثم استولى عليها بمائة رجل من أهلها له . ووضع يده على أموال جسيمة كانت بمعبدها البوذي .

كانت الملتان أقصى ما وصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال ، قال البلاذري : « ونظر الحجاج فإذا هو قد أفق على محمد بن القاسم ستين ألف درهم ، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ، فقال : شفيتم غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر . »

أخذت الملتان سنة ٥٩٥ هـ . وعلى أثر ذلك أتت عمداً وفاة الحجاج قفصاً راجعاً نحو الجنوب مستولياً في طريقه على مدن للوك آخرين غير داهر . وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها (الكيرج) استولى عليها عنوة سنة ٥٩٦ هـ . ثم أتاه نعي الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه سليمان ، فلم يرح تلك المدينة .

لا شك أن الحجاج كان موقفا عندما عهد إلى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة الخطيرة . فإن محمدا بجدة سنة وصدق فروسيته قد ملك زمام أصحابه . فلا تسع أن أحدا منهم حدثه فنه بخلاف عليه أو عصيان له . ثم إنه بهذه الخلل نفسها وبرجاجة عقله وسعة حله اجتذب قلوب السند أنفسهم ، فقد عارفوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فلم يتالك كثير من قبائلهم أن أعطاء الطاعة وأخذ جانبه في الحرب كما سبق القول . ويرى إنه عندما شرط عليه أهل مدينة الراور الأيقرب بدم وفي لم بذلك وقال : ما البد إلا ككنائس النصرى واليهود ويوت فيران المجوس وكانت حكومته لإيام حادة رفيقة إذا قبست بحكومة ملوكهم وأمراتهم ، قد تقدم إلى عمله بهذه النصيحة : أنصفوا الناس من أنفسهم ، وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية ، وراعوا في فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تحتلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد . ثم إنه كان مدركا كل الإدراك أن عليه واجبين عظيمين : عليه أن ينشر في البلدان التي فتحها الثقافة الإسلامية ، وأن يصل بين الشرق والغرب الإسلاميين . من أجل ذلك كان إذا فتح مدينة أنزلها بعض أصحابه ، وبنى بها مسجدا ، ومن أجل ذلك قل طوائف من الزط والسيابجة إلى العراق . وأنزل الحجاج بعضهم كسورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم إلى الخليفة ، فأزلمهم أعلاكية وسواحل الشام لينتفع بخبرتهم البحرية في قتال الروم ، كذلك أرسل إلى الحجاج فيلثة سميت ببعضها مشرعة الفيل التي كانت بولسط .

كما بعث إليه أول جزء بآلاف من الجواميس السندية ، فأطلق الحجاج

بعضها في آجام كسكر وكرو دجلة ، وبعث كثيرا منها إلى الخليفة فأطلقها في
الآجام التي بين أظفار المصبة ، واتفق بها سبع تلك الآجام وكانت قد
كثرت وأغاثت السابة . وقد تمت هذه الماشية بالمران على مر الزمن حتى
أصبحت من أسباب ثروته الاقتصادية في الوقت الحاضر .

تلك غزوة محمد بن القاسم للسند . إنها لا شك تذكرنا بنزول الاسكندر
المقدوني لتلك البلاد نفسها في آخريات القرن الرابع قبل الميلاد . فالغزواتان
تشابهان من عدة وجوه : تشابهان من حيث أن كليهما برية بحرية إلى حد بعيد ،
ومن حيث حداثة كلا القائمين وكفائته ، ومن حيث أن كليهما نهج في نشر ثقافته
بالسند نفس المنهج الذي نهجه الآخر ، ومن حيث أن كليهما كان يهدى إلى
أستاذه طرفا من طرف فتوحه ويراسله مستطلعا رأيه ، فالقائمه المقدوني كان
يهدى إلى أرسطو ويراسله ، والقائمه العربي كان يهدى إلى الحجاج ويراسله مصدرا
في بعض المواقف عن رأيه . ولو أن أهل السند الذين غزاهم ابن القاسم
والذين قد يكون منهم من يدين بشرعة التناسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فربما
دأوا في القائمه العربي الحديث انبعث روح القائمه المقدوني القديم .

وبعد فإذا كان مصير ذلك القائمه العظيم ؟ لقد جوزى جزاء سيئا ، وصار إلى
شر مصير ، فقد نكبه الخليفة سليمان بن عبد الملك نكبة كان فيها تلف مهجته
وزوار نفسه . والمصادر القديمة مختلفة في تحليل تلك النكبة : فالصادر الفارسية ،
وهي حديثة نسبيا وغير موثوق بها ، تزعم أن بنات داهر أفضين إلى الخليفة بأن
ابن القاسم عبث بهن ، فاضطرم الخليفة غيظا ، وأمر بمحمد فوضع في أديم بقرة ،
ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ، وفاضت روحه بالطريق . فلما بلغ بنات

نذاهر مصرع الفتى استشعرن الندم وقلن إنهن تجنبن على ابن القاسم ، انتقاماً من
 قتل أباهن وتل عرشه ، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك ، وأمرهن بقتل شر
 قتله : أما المصادر العربية ، وهى أقدم من المصادر الفارسية وأوثق ، فلا تذكر
 شيئاً من أمر النسوة ، ويؤخذ منها أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطرباً
 على الحجاج لأنه كان قد زين للخليفة الوليد بن عبد الملك خلع سليمان من ولاية
 العهد : أما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان أن يشقى غيظه من
 أقربائه ، متأثراً فى ذلك بنظام الثأر عند العرب . وقد أذكرى ثار الحقد والموجدة
 فى صدره زجلان كلاهما قد وتره الحجاج وكلاهما كان متأثراً بالمصيبة القبلية
 بين قيس واليمن : أحدهما يزيد بن المهلب ، وكان أميراً مكيناً لدى الخليفة ،
 والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاء سليمان خراج العراق .
 عزّل محمد عن السند ، وولى مكانه يزيد بن أبى كبشة السكسكى ، فأخذ محمد
 بوقده وسيره إلى العراق مع رجل من بنى المهلب على حال حركت قلوب أهل
 السند ، فبكروا عليه وصوره أهل الكيرج بدينتهم إلى كان منها شيوخه . وقد
 تلقى محمد المحنة صابراً محتسباً ، ولم يكن فى محته أقل شجاعة وصبراً وأتقى منه
 وقت الحرب وحين البأس . والغريب أنه على إخلاص أصحابه له وعطف السند
 عليه لم تعدته نفسه بالخلاف والانتقام . والظاهر أن أيقن أنه قد أدى واجبه
 وأن الحياة قد أصبحت بعد ذلك لغوا وفضولاً لا طائل فيه . وقد جعل يسرى
 عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه . فمن ذلك قوله
 مشيراً إلى أنه لو أراد الثورة لثق على أعدائه نهضه :

ولو كنت أجمعت القرار لو طئت أناك أعدت للوغى وذكرور
 وما دخلت خيل المكاسك أرضنا ولا كان من عك على أمير

ولا كنت للعبد المزوني تابعا فإلك دهر بالكرام عثورا
ولما صار إلى واسط حبيب صالح بن عبد الرحمن فقال :
فئن فريت بواسط وبأرضها زمن الحديد مكبلا مقلولا
فرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا
وعذبه صالح في رجال من أقباء الحجاج حتى قتلهم ، فطلق الشعراء
يرثون محمدا ويذكرون فضائله ، فمن ذلك قول بعضهم :
إن المروءة والديماحة والتدى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سوددا من مولدا
وقال آخر :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ولداته عن ذلك في أشغال
تلك خاتمة قتي قتيان العرب وسيد فرسانهم غير مدافع . فمن مبلغ مسلمي
الأرض حامة والمهند خاصة أن الدعوة الإسلامية العالية التي أغلت بلاد الهند
طوال العصور الوسطى إنما كانت غرس ذلك النقي العربي النيل ؟ فليذكر
ذلك الذاكرون قد قبل الذكرى رفات ذلك الشهيد في قبره ، بعد أن عدم في
حياته من محمد بلاءه أو يرحم شباباه ؟

عمر بن عبد العزيز

٦٢-١٠١ هـ

ود الحكاء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن
الفلاسفة كانوا ملوكا ، إذن لاقترنت السياسة بالأخلاق على أساس ثابت
مطرد ، وتعاونتا جميعا على النهوض بالمجتمع الإنساني ، ولاستحالة عالمنا المضطرب
جنة راضية ونعيم مقبى .

وكثيرا ما كتب الحكاء في نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم وزعموها توفر على
الناس في هذه الدنيا اللذة والسعادة ، وتمنّى عنهم الألم والشقاوة : فبلى ذلك
أفلاطون في الجمهورية ، والفارابي في أهل المدينة الفاضلة ، وتوماش مورفي
أوطوبيا ، كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله .
هذا الحلم الجبل تحقق أو كاد في التاريخ مرة واحدة على ما نعلم ، وذلك على
عهد الخليفة العربي المسلم : عمر بن عبد العزيز ، فهو رجل ألقب إليه المقادير بزم
أعظم دولة في الأرض في زمنه ، ومع ذلك استطاع أن يقدح شهوته حتى كاد
يميتها ، وأن يروض نفسه حتى ردها إلى الرضا بالقليل الأقل . ثم تجرد لإصلاح
رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا .
هذا وذلك قد ترامت همه إلى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع أن يجمع
شعوب الأرض طرأ في نظام واحد يقوم على مبادئ الأخوة والعدالة والمساواة .

(١) الثقافة ، العدد ١٤ ، السنة الأولى ، ١٤٠٤ ، أغسطس سنة ١٩٤٣ .

وقد وفق ابن عبد العزيز وهذا الملمع البعيد توفيقاً من مقداره، بالأجف،
أن عجلت إليه المنية وهو لا يزال في ميعه العمر وعنوان الحياة .

•••

قد اجتمع في تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملاً الوراثة والبيئة معا .
فأبوه عبد العزيز قد ولى مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية وإطلاعه
بأعباء الحكم، وبصره بتألف القلوب . وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسي
الجرىء العارف بنفسية الأفراد والجماعات، والخبير بامتياز الفرص عند إمكانها .
وأما نسبة لأمه، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وكفى
باتسابه إلى تلك الشخصية العظيمة تعريضاً بسبب من أسباب ورعه وجرأته في
الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة في تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة . فقد
ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشب بها على أصح الروايات . فلما ولى أبوه مصر عام
٦٥ هـ حمل إليه، ولبت بمصر زمناً، نعم فيه بحجة أبيه ومشاهدة آثار
الحضارة المصرية والبيزنطية . وهناك دابة فصح شجته التي عرف من أجلها
بأشج بني أمية، فلما بلغ سن التأديب بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وينشأ
تخاً إسلامية مدنية، وكانت للمدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة، يعرف
فيها من يحملها الروح الدين الصحيح ماثلاً في نفر من بقايا الصحابة وكبار
التابعين، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبد الله
بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما يعرف فيها الجانب الأرق من الحياة، بمثل
مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي، وطائفة من المغنين
والقيان يتقدما معبد ومالك بن أبي السمع الغنيان المدينان الشهيران، ثم إن

المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطنًا للمعارضة التي تستند إلى الكتاب والسنة في مقاومة الحكومة الأموية في هذه البنية تخرج ابن عبد العزيز ، فروى الحديث عن حملته ورواته ، ولقف صناعة القناء وأعانه على المساهمة فيها صوت غدى عذب . كما أشرب روح الحكومة الإسلامية القديمة التي كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافًا كبيرًا . إلى ذلك كله كان ابن عبد العزيز قى مطيح الخليفة ثاعما مترفا كمادة فيان بن أمية . يروى أنه أبطأ يوما عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب إبطائه فقال : « كانت مرجلي تسكن شعري ، فكتبت مؤدبه بذلك إلى أبيه ، فبعث أبوه رسولا ظم يكلمه حتى خلق شعره » .

في عام ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بصر ، وكان ابنه عمر قد تم تأديبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام وزوجه من ابنته فاطمة ، ثم ولاده « خنصرة » ، وهي بليدة من أعمال حلب واحة في البادية . طلبت واليا عليها ستين كانتا من أنعم منى حياته ورجاة وزوجه . وقد أعجبه خنصرة حتى أنه عندما استخلف اتخذها منزلا على عادة ملوك بني أمية في إيتارم سكنى البادية على الحاضرة . وفي عام ٨٧ هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلا من هشام بن إسماعيل المخزومي الذي أساء السيرة في أهلها ، ولا شك أن الوليد إنما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم إنه بعد قليل ضم إليه مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميراً على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣ هـ) حكومة شورية

أهوية يمازجها من ناحية الشخصية مقدار غير قليل من الحرص على الترف
والتعم . فآلول قدومه المدينة استلقى عشرة من العلماء يتخذهم نصحاء ومستشارين
يصدر في الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على إصلاح شؤون الحجاز : فهدم المسجد
النبوي وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وأصلح الطرق ، وأكثر من الآبار
فتيسر بذلك الماء في ذلك القطر الظمى ، كما أنه عمل بالمدينة فورا يستقي منها
أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المدينة سنة ٥٩١ هـ وأمر
لفورا بقوام يقومون عليها ، وأن يستق أهل المسجد منها ، فعمل عمر ذلك .
ومن مظاهر بساطة عمر في إمارته بالحجاز أنه جلس يرثل القرآن بصوته
العذب فأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم
ير عمر بأسا بأن يتحى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه أن قاضيه هلى المدينة
استغف الطرب عند ما سمع جارية تنقى حتى أخرجه من وقاره . فزله عمر .
ولكن القاضي المزعول تحدى الأمير لسباع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو
أيضا يستخف . فعذر القاضي وردّه إلى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر
المدينة وكانت السنة محلة وخاف أهل المدينة لسانه وفسدوا أمرهم إلى عمر
فأخرجه من المدينة ونهاه أن يمرض لأحد من أهلها بمدح أو بهجو . أما من
حيث حياة عمر الشخصية في تلك الفترة فكان متزقا مسرفا في الترف ، يرغى
شعره ويسبل إزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر من
الطيب حتى لتصف ريعه إذا مشى مشيته ، والعمرية ، ، وهى مشية كان يقبخر فيها
وعثال ، وملاحتها كانت الجوارى تأخذها عنه .

حدث واحد تضمن على ابن عبد العزيز إمارته على الحجاز : ذلك مصرع
خبيب بن عبد الله بن الزبير : قد هم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغت ههـ ،

وكتب إلى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكه . وقد جزع
هز لذلك جزعا شديدا ، ويقولون إنه ليس المروح سبعين يوما حدادا على
نحيب ، ثم أقنع عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خيب إلى أوليائه ، ومع
ذلك كان يرى أن الله لا بد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان إذا بشره أحدكم
قال : وكيف نحيب ؟

وقد أجاز نعم بأمن وعافية بما ابتليت به الأمصار الأخرى ، ولا سيما
العراق ، من القتل والقلاقل . ولذلك أخذت قلوب ثوار العراق والخوارج قد
على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبد العزيز
ثم لم يكتب بذلك : فكتب إلى الخليفة يتدد بسف الحجاج

وطشه ، . . . الحجاج عليه ، وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة
يجزه مرأق ، العراق وأن ذلك مؤمن له . وقد نظر الخليفة في الأمر مليا ،
ثم رأى أن يشد أزر الحجاج في هذه الخصومة ، فأنراق أخطر من الحجاز .
والحجاج أول بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز
بأمرين : أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعا أن أخرجا من
الحجاز إلى الحجاج كل عراق في الجوامع والأغلال ، وتوعدا كل حجازي
أزل عراقيا أو أجره دارا .

• • •

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مضاعيا للخليفة الوليد ، وقد
سأه أن عزل عن إمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو بعض الطريق :
« أخشى أن أكون بمن تنفيه المدينة » ، إشارة إلى الحديث الوارد في أن المدينة

بقي خيلها . فلما حصل بالشام شغل نفسه بالغزو فراراً من وجه الوليد والنفاس
 الأجر والسوة . فلما توفي الوليد عام ٨٩٦ وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر
 وكان أثيراً عنده يستشير سليمان وينزل على رأيه في كثير من الأمور . على أن
 عمر قلعه أن عزل عن الإمارة على النحو المتقدم : فقد دفعه ذلك في السنوات
 الست التي قضاها بالشام قبل أن يستخلف (٩٣ - ٨٩٩) إلى النظر في حال الدولة
 العربية في أواخر القرن الأول الهجري .

نظر فإذا الدولة الإسلامية قد أبعدت في التخلي عن الصفة الدينية التي كانت
 لها قديماً ، وأسرفت في الاصطباغ بالصيغة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة
 عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان ؟ أليست حكومة
 سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم ؟ لقد أصبح السلطان يعتمد في شد
 أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف للرهب . أما العدل وأما الرقي
 وأما الرحمة : فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب . ونظر فإذا أحوال الدولة قد
 هراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فتحركت أموال الدولة قد استحالة
 ملكاً خاصاً لشي أمية ، وأكثر الضرائب يجي من غير وجهه ، ويصرف في
 غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضي الخراجية التي لا يصح تملكها قد
 استحالت أرضاً عشيرة يملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التي
 مقدارها أقل من مقدار الخراج ، وكثير من الموالى أو مسلمى الأماجم لا يزالون
 مع إسلامهم يؤخون بالجزية لغير ما سبب سوى أن العمال لخطوا في إسلامهم
 معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوم عنها . هذا فوق أن هؤلاء الموالى لم يكونوا
 والعرب سواء في الحقوق ، فكانوا ينزولون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم
 حصاء . ثم إن عدم اتفاق الزكاة في مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء

والمساكين والمرضى والزمي عن جعل لهم الشرع حقا في الصدقات العامة ؛ ثم نظر فرأى بأن الأمة الإسلامية بينها شديدا ، قد توزعت في الفرق المتباغضة والأغراب المتناحرة ، فمن شيعة يطوون الصدور على الإحن لما تألم به بثو أمة من أذى ونسامة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم وإحلال نظامهم بخله ، ومن سواد قد ساءم ألا يسوى بينهم وبين العرب في الحقوق العامة ، ومن مضرة ومحنة وربيعة ، كل يحاول أن يكون له النفوذ السياسي من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير في السلطان نفسه . هذا في الداخل أما في الخارج فرأى عمر أن الجهاد الذي شرع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لمنع العدوان على النفس والمقيدة ، والذي كاث على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة ، قد استحال في زمن الأمويين أداة لتوسع في السلطان . وجر الغنم الوافر ، والسبي الرائع ، حتى قال الشاعر :

الأذهب الغزو المقرب للغنم ومات الندى والجود بعد الملب

نظر عمر في كل ذلك فرده إلى سبب جوهرى واحد : هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذي قامت عليه : أساس الدين ، والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة يمدّها ويغذيها بقوة المعنوية ، والمسك لشئون الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذي أثره في الحاكم شعور قوى بالمسئولية وعمل صادق على إبعاد العباد والترفيه عنهم ، والذي أثره في المحكومين اقتضاء العدل إذا حرموه ، وأتقوا من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهم . الدين عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والإنسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

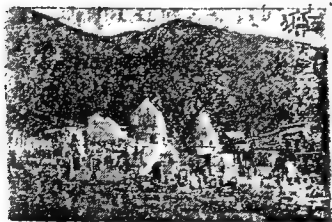
وبينا عمر يرسل الفكر في أنحاء الحياة الإسلامية العامة مترفعا عليها إذا بقى الوقت نفسه قد أخذ ينحضع لتطور نفساني عفيف . لقد أخذ حرصه على الترف

والنعم يَضَعُ رويداً رويداً، وميله إلى الزهد والتفكير يقوى شيئاً فشيئاً، وأصبحت نظراته إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل، لا يبدله شيئاً بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير، كما أصبح دائم التفكير في الموت وقيامه بعد الموت: فالمرت آت لا ريب فيه بالموت برزخ مؤبد إما إلى جنة وإما إلى نار، والمتين يحل كل حال رهن بما يكون عليه المرء في العدة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب.

ماسر هذا التطور العجيب الذي جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكاً زاهداً متصوفاً، تبين ذلك السر في قضية ابن عبد العزيز من جهة، وفي مقدار تأثيره بالحياة الإسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى. لقد كان في عمر نزوع طبعي إلى الزهد، فهو كما رأينا من سلاله عمر بن الخطاب، وكان في طفولته يحاول التشبه بحاله الزاهد عبد الله بن عمر، ولما تورط في أمر خيب لبس المسوح سبعين يوماً يأساً من غضارة العيش، ولذا ذاق الحياة، فلما فصح بالإلحاح عن ذلك أقبل. ثم إن الحياة الإسلامية قد ألت بها في أواخر القرن الأول نزعة زهد جات كرد فعل للبادية التي طفت عليها إذ ذاك: هذه النزعة التي تحولت بعد إلى الحركة الصوفية المشهورة متميزة في طبقة العباد والنسك التي يتكلم عنها صاحب المقصد الفريد طويلاً. وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو في المدينة، فكان من أشد الناس تأثيراً فيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علماً وزهداً وورعاً: هذان هما الحسن البصري ورجاء بن حيوة الكندي. أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة، ولعله قد أخذ عنه كراهية القول بالقدر

الذى يسبب إلى الحسن خطأ. وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك
وكان لذلك أقرب إل عمر وأقوى به اتصالاً .

وبعد ، فلئن كان النظر في الأحوال العامة قد أنتج لعمر ضرورة الرجوع إلى
الدين في إصلاح غيره ، فقد أنتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل
عصره ضرورة الزهد من أجل إصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان
عما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام
يرشحوه للخلافة .



عمر بن عبد العزيز

(٢)

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة
الأموية . ولكن ذبوع فضله وسموه الروحي على سائر بني أمية لفت إليه نظر
أولى الحل والعقد من صلحاء النمام ، أمثال رجاء بن حيوة الكندي وابن شهاب
الزهرى ومكحول الشامي ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدائق مرضه الذى
مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد إليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى
كتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك . ثم أمر فأخذت
اليعة من بني أمية لمن سعى في عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سليمان وأعلن
الأمر إلى بني أمية نجدوا اليعة لعمر على كره منهم (٢٠ صفر سنة ٨٩٩) .
شرع عمر في تنفيذ برنامج الإصلاحى منذ تم له الأمر . ولقد كان له من زهده
ومناصرة العلماء وموازاة أهل بيته : زوجته فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه
نسل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ما أراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة بمثلا
فيه تجرده من كل مظاهر الآبهة وردده إلى بساطته القديمة ، ولا أدل على ذلك من
كلام ابن عبد الحكم قال : ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قريب إليه
المراكب ، فقال ماهذه ؟ فقالوا مراكب لم ترك قط يركبها الخليفة أول ما يلى ،
فتركها وخرج يلتمس بقلته ، وقال : يا مزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال
المسلمين ، وضمت له مرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب

أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلى ، قال يامزاحم اضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بقلته وانصرف إلى القرش والوطاء ، الذى لم يجلس عليه أحد قط وبفرش للخلفاء أول ما يلى من أجل يدفع ذلك برجله حتى يقضى إلى الحصى . ثم قال يامزاحم اضم هذه لأموال المسلمين .

« ويات عمال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويطسرون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر . وكان الخليفة إذا مات فإلبس من الثياب أروع من الطيب كان لولده ، ومالم يمس من الثياب ومالم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك وهذا لنا . قال ، وما هذا ، وما هذا ؟ ... ما هذا ولا سليمان ولا لكم ، ولكن يامزاحم اضم هذا إلى بيت مال المسلمين ، ففعل . فآمر الوزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب والسرايدات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجا بعد أن كان منه فيه ما قد علمت ، وبقيت نخلة وهى الجوارى نعرضن ، ففى أن يكون ما نريدون ففى ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده . فأتى بالجوارى فعرضن عليه كأمثال الدى . فلما نظر إليهن جعل يسألن واحدة واحدة من أنت ؟ ولمن جئت ؟ ومن بعتك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولما كانت وكيف أخذت ، فآمر بردهن إلى أهلن وبجملن إلى بلادن حتى فرغ منهن . فلما رآوا ذلك أيسروا منه وعابوا أنه سيحمل الناس على الحق . »

ثم عمد إلى النظام الإقليمى فأصلحه بأن عزل العمال المتشيعين بزوح الحاجاج ، بزل زيد بن الملب وحبسه فى مال كان للدولة فى ذمته ، ونفى نفر من بنى عقيل أسرة الحاجاج ، وول عمالا جددالم يحفل فى تخييرهم بعصيتهم ولا

بقدرتهم على جمع الأموال، كما كانت الحال من قبل، ولكن بحسب ميراثهم وطهارة
 دمتهم، فكان من عماله: عدى بن أرمطة الفزاري والي البصرة، وعبد الحميد بن
 عبد الرحمن القرشي والي الكوفة، وعبد الرحمن بن نعيم القشيري أمير خراسان،
 وأبو بكر بن حزم أمير المدينة، والسمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس.
 وقد شد أزر الولاية بقضاء عدول، لجعل الحسن البصري على قضاء البصرة،
 وعافرا الشعبي على قضاء الكوفة كما جعل أبا الزناد كاتباً لأمير الكوفة. ولم
 يكف عمر بذلك في إصلاح الإدارة الإقليمية، بل تقدم إلى العمال في أمر
 العقوبات ألا يأمرؤا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولاً.

ثم نفي عمر بالمسائل المالية فرد المظالم، والمراد بالمظالم الأموال التي استولى
 عليها بنو أمية بغير حق، وقد بدأ في ذلك بنفسه، فخرج لبيت المال من كل مال
 لم يرض سبب تملكه، حتى لم يبق له إلا عقار جدير ببلاد العرب بقلعة يسيرة
 فوق عطائه الذي كان يبلغ مائتي دينار في العام، ثم أخذ يتبع أموال بني أمية
 يرد منها ما ليس مشروع للملكية إلى مستحقه، وقد هاج ذلك سخط بني أمية
 عليه، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم المظالم، فلم تكن لغناهم قتاة،
 وأرام أنه لا يحجم عن بلوغ الغاية في التكيل بهم إذا اقتضى الأمر ذلك. يروي
 ابن عبد الحكم أن رجلاً من أهل حمص أتاه يخاضع روح بن الوليد بن عبد الملك
 في حوائث بجمع كان أبوه الوليد أقطمه أياها، فقال له عمر أردد عليهم
 حوائثهم، قال له روح: هذا معي بسجل الوليد. قال: وما يعني عنك سجل
 الوليد والحوائث حوائثهم، قد قامت لهم البينة عليها؟ خل لهم حوائثهم.
 فقام روح والحصى متصرفين، فتوعد روح الحصى، فرجع الحصى إلى عمر،
 فقال: هو أفة متوعدى يا أمير المؤمنين. فقال عمر لكعب بن حامد وهو عي

جرسه : أخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوائته فذلك ، وإن لم يفعل
فأتى برأسه أخرج بعض من سمع ذلك عن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له
الذي أمر به عمر ، فخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا ،
يقال له : قم خلل له حوائته قال : نعم ! نعم ! وخلل له حوائته .

وسار عمر في إصلاح الشؤون المالية على الأساس الشرعي ، فالأموال ينبغي
أن تجي من وجوها وتنفق في مصارفها الشرعية ، فن أسلم من أهل الذمة سقطت
عنه الجزية ، وقد أسقط الجزية فعلا عن كثير من موال خراسان وأهل مصر ،
وقال مقالته المشهورة : « إن الله يثعث عذبا هاديا ولم يعثه جاييا » ونهى عن أن
تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ٥١٠ هـ ، مع عدم التعرض
للحقوق التي اكتسبت من قبل ، والتي وظيفة مالية وظرفها آخر المحتاج بن
يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء إطلاق مالية لم يرد بها
الشرع ، وقد جمعا في كتابه إلى عامله على الكوفة فقال : ولا تحمل خرابا على عامر
ولا عامرا على خراب ، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ،
ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا
تأخذ في الخراج ... أجور الضرايين ، ولا هدية لليروز والمهرجان ، ولا ثمن
الصحف ، ولا أجور الفروج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا
خراج على من أسلم من أهل الأرض .

وقد وسع عدل عمر أهل النعمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ،
فإنه لما شكاه إليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم إلى العشر مع بقاء
جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم إلى العشر ^(١) ، كذلك رد جزية

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٦٢

قبرس إلى ما كانت عليه وقت الفتح ، وألنى ما زاده عليها عبد الملك بن
 مزوان^(١) ، ويزوى البلاذرى أيضا^(٢) ، أنه ، وقد عليه قوم من أهل
 سمرقند فرغموا إليه ، أن تقيه دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ،
 فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى
 بإخراج المسلمين أخرجا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجى ، لحكم بإخراج
 المسلمين على أن يثابذوم على سواء . فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا
 المسلمين . وأبلغ من ذلك في الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق ما رواه
 البلاذرى^(٣) ، قال : قال ضرعة عن علي بن أبي حمزة ، خاصتنا عجم أهل
 دمشق في كنيسة كان فلان أقطعها لبنى نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها ورددها
 إلى النصارى ، ، ويزوى البلاذرى أيضا^(٤) ، أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل
 كنيسة يوحنا في مسجد دمشق بغير رضا النصارى ، فلما استخلف عمر بن عبد
 العزيز شك النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيسهم ، فكتب إلى عامله يأمره
 برد ما زاده في المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك ، وقالوا نهديم مسجدا
 بعد أن أذنا فيه وصلينا ورد يعة ، وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربى
 وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوم أن يعطوا جميع كنائس
 القنطرة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يصفحوا عن
 كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها . فرضوا بذلك وأعجبهم . فكتب به
 إلى عمر ففره وأعطاه . ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة .

(١) البلاذرى ٤ ص ١٥٤ .

(٢) قس ٢٢٤

(٣) قس ١٢٤

(٤) قس ٤ ص ١٢٥ .

أما ما نسب إليه في بعض كتب الفقه من تحامل عليهم ، وأنه كفى إلى
 عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بالولاء من الاضطهاد والتضييق
 عليهم ^(١) ، فغير موافق مع السائقين من سيرته على فرض صحة ، وقد يكون
 نوتا من العقاب كان يعاقب به ذمير الحدود الإسلامية إذا هموا بمظاهرة العدو
 على المسلمين
 فوكما كان غرسا على جباية الأموال العامة من مصادرها الصحيحة :
 فقد كان كذلك حريصا على أن تتفق في مصادرها الشرعية . فن حيث التفت ، قد
 فرض لفدية المقاومة وعيالهم ، عملا بستر عمر بن الخطاب الذي ترك بنو أمية العمل
 بها ، وكتب إلى عامله على الكوفة : « وانظر من أراد من الذرية الحج فاجعل له
 مائة صاع بها » . وفرض لعشرين ألفا من اللوال كانوا ينزؤون بخراسان بنير
 عطاء . وأظهر استعدادا لأن يحمل من بيت المال إلى خراسان أموالا إذا
 كان خراجها لا يفي بعطاء أهلها . ومن حيث أموال الزكاة ، فكانت صدقات كل
 إقليم قسم على عهده في قراء أهله ، وقد قسم في قراء البصرة كل إنسان ثلاثة
 دراهم وأعطى الزمى خمسين خمسين ، وفرض للفقيرات من عوانس النساء ،
 وأعتق كثيرا من الرقاب . وقد كتب إلى أحد عماله « أن اعمل خانات في بلادك ،
 فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوما وليلة ، وتعهدهوا دولهم ، فمن كانت به علة
 فأقروه يومين وليلتين . فإن كان مقطوعا به فقروه بما يصل به إلى بلده . .
 وأمر عماله بقضاء الديون عن الفارمين ، فكتب إليه بعضهم : « إنا نجد
 الرجل له المسكن والحادم وله الفرس والأثاث في بيته » ، فكتب عمر

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٢ .

لا بد للرجل من المسلمين من سكن بأوى إليه رأسه ، وغام بكفيه
 مهته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه . .
 ولما رأى عمر أن ليس للشراء حق في بيت المال جعل يجيزهم من عطائه وماله
 الخاص على قلته ، بالدرام والدنانير المعدودة ، وقد أدرك الشعراء علة تخرجه
 هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير أو الرد أحيانا بغير عطاء ، ولم يقصروا
 في مدحه والثناء عليه .

على أن أهم ميزة تميز عمر بن عبدالعزيز عن غيره من خلفاء الإسلام ورؤساء
 الدول طرا فيما نعلم إنما هي رغبته الصادقة في نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها
 ولكن على العالم بأسره . وليان ذلك نقول إنه عند في داخل الدولة الإسلامية
 إلى الأحزاب التي ناوأت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد
 من إثارة السلم والعافية . فالشيعة استجلب مودتهم بأن منع سب علي بن أبي
 طالب على المنابر ، وبأن رد على العلويين (فدكا) التي رأها حقا قديما لهم اغضب
 منهم . والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والإقناع بالحجة
 والبرهان . فعندما ظهر شاذب الخارجي بأرض فارس أمر عمر الأقباط لاحتج
 يفسكوا دما أو يفسدوا في الأرض ، وكتب في الوقت نفسه إلى شاذب
 يطلب إليه المناظرة في دعواه ، فأخذ إليه الخارجي اثنين من فقهاء الخوارج
 ليناضروا ، وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أوردها إلا ما احتج به عليه
 من إقرار دعيّة يزيد بن عبد الملك بولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان
 من وراء هذه المناظرة الطريقة أن انضم أحد الخارجيين إلى عمر ، أما الآخر
 فعاد إلى أصحابه وأنهى إليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون
 طوال عهده . وأما الموالى فقد قطع أسباب شكواهم ، بأن أسقط الجزية كما

وأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصية القبلية من يمنة . ومضريه وربيعة فقد هدأ من حداثها ، بأن ردع الكمراء الذين كانوا يذكون نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر إلى كفايتهم لا إلى قبائلهم .

أما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز في الأمر مسلحا بدعالم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الإسلامية التي كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلمة بن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على القفول بأموال بعث بها إليه . وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف في هذا الأمر الخطير عند هذا الحد ، بل أتبع الدول عن سياسة العنف بالدعوة السلبية إلى الإسلام . يروى البلاذري أنه لما أقفل الجيوش التي كانت تغزو بما وراء النهر كتب إلى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم . ولما انتقض ملوك السند كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . قال البلاذري : « وقد كانت بلغتهم سيرة ومذهبه فأسلم جيشبة والملوك وتسموا بأسماء العرب ، كذلك كانت سياسته يازاء بربر المغرب الذين أشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما . يقول البلاذري : « ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (رحمه) ولي المغرب اسمعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر مولى بني غزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام وكتب إليهم عمر كتابا يدعوهم بعد إلى ذلك ، فقرأما اسمعيل عليهم في التواحي فغلب الإسلام على المغرب . ويذكر المؤرخ اليوناني ثيوفان أن عمر كتب أيضا إلى الأمير بطور البيزنطي يدعوهم إلى الإسلام .

وكان عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ النيب على فظمتنا الحديث التي

تفرض على الدولة الإشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها . فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله في رواية ابن عبد الحكم ، إن للإسلام حدود وشرائع وسنن فإن أعش أعلكوها وأحلكم عليها ، بل لقد أخذ في ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن محمد الأشعري إلى البادية يفتقها الناس وأجرى عليهما رزقا . ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها . قل السيوطي ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكته ، فإن خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر ابن عبد العزيز أنه كتب إلى الأفاق أن انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه ، وقال في فتح الباري : يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي .

• • •

وبعد ، فإذا كان أثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدت إلى الغاية التي كان يرى إليها عمر . فقد طاف بالامة الإسلامية إذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتهما ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما . يروى الطبري ، وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه ، فأما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب تكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ، ما ردك الليلة ؟ ولم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تحتم ؟ وما تصوم من الشهر ؟ وأصبح الناس وقد شملتهم نعمتا الرضا واليسر . قال دكثير ، يخاطب عمر ويمدحه :

تكلمت بالحق المين وإنما تين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت موعود الذي قلت بالذي فعلت فأسمى راضياً كل مسلم
وروى ابن عبد الحكم قال : وقال يحيى بن سعيد : بعثي عمر بن عبد العزيز
على صدقات إفريقية فأقتضيتها وطلبت فقراء نعطها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم
نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فأشترت بها رقاباً
فأعتقتهم وولأوهم للسلين . .

أجل ، لقد أغنى عمر الناس جميعاً إلا نفسه وأهله . فلم ير ولي قوم أعف
عن ما لهم منه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الحشن والثوب المرفوع
واليت المتهدم منه ومن أهل بيته . ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه
فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرة واحترق جسمه . وزادهما
قدانه في آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعرانه : فقد ابنه عبد الملك ،
وأعاه سهلاً ، ومولاه مزاحماً ، فلم يقو جسمه على احتمال العمل والالام ، فأسلم
الروح بخناصره في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ولما يد التاسعة والثلاثين من عمره .
وقد دفن بدير سمعان قرياً من دمشق .

لا ندري ماذا كان عمر صانعاً له مدله في حياته ؟ أغلب الظن أنه كان يتلافى
موضع الضعف من إصلاحه فيقيم هذا الإصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع
بمجرد موته . ومهما يكن من شيء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على
السواء فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين ، وقد رضى عنه
العلويون وأهدى إلى روحه في أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضي أيماناً من
الشعر حارة جميلة وكان موضع احترام الخوارج وتقديرهم ، ثم إن العباسيين عندما
قامت دولتهم أحترموا قبره فلم ينشروه كما ينشرون قبور غيره من بني أمية ، على
أن أبلغ من وصفه وأبنة رجل كان يحكم الظروف السياسية خصمه العنيد

بل عدوه الأعداء ، ذلك ملك الروم أليون الثالث . أخرج ابن الجوزي عن محمد
 ابن معبد قال : « أرسل عمر بن عبدالعزيز بأسارى الروم فقادى بهم أسارى من
 المسلمين . قال فدخلت على ملك الروم يوماً فإذا هو جالس على الأرض مكتئب
 حزينا . فقلت ما شأن الملك ؟ فقال أو ما تدري ما حدث ؟ قلت ما حدث ؟ قال
 مات الرجل الصالح اقلت من ؟ قال عمر بن عبدالعزيز ، ثم قال ملك الروم :
 لأحسب أنه لو كان أحديهم الموق بعد عيسى بن مريم لأحيام عمر بن عبد
 العزيز . ثم قال إني لست أعجب من الراهب إن أغلق بابه ورفض الدنيا
 وترهب وتعبد ، ولكنني أعجب من كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب . .
 أما نحن فنلحظ فيه خير نزاعاته وأشرف عواطفه : نلحظ فيه حبه للسلام
 وسعيه في توفيره في العالم ، فهو بحق داعية السلام في القرن الأول الهجري
 والثامن الميلادي ، وكفى بذلك مغفرة في الدنيا ، وقربة في الآخرة .



نساء الخوارج^(١)

ينبغي قبل التكلم على نساء الخوارج أن نلم الإمامة بسيرة بالخوارج عامة
فبين للقارىء من هم ؟ وما مبادئهم وآدابهم ؟ وما بداية أمرهم ونهايتهم ؟ فإذا فرغنا
من ذلك انتقلنا إلى الكلام على نسائهم عامة والشبهات منهن خاصة .

فالخوارج فرقة عربية إسلامية قديمة ولعلها أقدم الفرق الإسلامية منشأ
وظهورها . وأصلهم جماعة من جيش الإمام على بن أبي طالب الذى كان يحارب
معاوية بن أبي سفيان في وقعة صفين المشهورة في سنة ٦٥ هـ . فلما اجتمع رأى
الفرقتين المتحاربتين على قبول التحكيم بدل المضي في القتال ، ورجع كل فريق
إلى قاعدته : على إلى الكوفة ، ومعاوية إلى دمشق ، رأت تلك الجماعة أن قبول
التحكيم كان ضلالا من الضلال ، وأن الواجب كان يقضى بأن يعضوا في القتال
حتى ينزل الله حكمه بنصر فريق على فريق ، ومن ثم مقاتلتهم المشهورة . لاحكم
إلا لله . واعتبروا كل من قبل التحكيم مرتدا عن الإسلام ، لا يبره من رده
إلا بالتوبة ورفض التحكيم واستئناف القتال . وقد بدؤوا في ذلك بأنفسهم ،
وأرادوا عليا على مثل ذلك ، فأبى أن يتابعهم على رأيهم وأقام الحجة عليهم .
فما كان منهم إلا أن اعتزلوه ، ونزلوا مكانا بظاهر الكوفة يقال له « حروراء » ،
متأبذين له مجاهرين بالخلاف عليه . ومن ثم عرفوا بالحرورية ، وبالخوارج
لخروجهم على على ، وبالحكمة لقولهم « لاحكم إلا لله » .

(١) خلاصة عاصرة ألفت بمحمد المصطفى بالاسكتندرية في ٨ مارس سنة ١٩٤٨ .

ونلاحظ قبل كل شيء ، أن الخوارج عرب خالص ينتمى أغلبهم إلى قبائل
تيم وحقيقة وربيعة الذين كان لهم في الجاهلية عز ومنعة وبأس فلما جاء الإسلام
والتي يجرانه على الجزيرة اعتقوه واعتقدته قلوبهم بعد أن فطنت به ألسنتهم ،
واستغاثوا منه بوجه خاص مبادئ الديمقراطية التي تلائم مزاجهم وتفق
وتقاليدهم ، وأنزلوها من قلوبهم منزلة مثلهم القليلة التي يغدونها عند الاقتضاء
بمنهجهم وأرواحهم . وقد ألبوا في إقامة الدولة العربية ومد فتوحها وفي نشر
الدعوة الإسلامية أعظم البلاء . وكانوا يظنون أنهم سيضيفون بذلك عزا
طريفا إلى عزم التمدد ، ويضمون مجدا حديدا إلى مجدهم القديم ، فإذا بهم أصبحوا
يرون أن قد ظفروا على أمرهم ، وأن العز كله ، وأن المجد كله ، قد أصبح
لأرستقراطية مكة والمدينة ، فأعادوا حركة الردة جذعة ولكن في صورة
إسلامية لا غبار عليها . فلم يكن موقفهم من التحكيم في حقيقة الأمر إلا ظاهرا
يجنب باطنها ما ذكرناه .

أصبحت الخوارج في حروراء يرون أنهم وحدهم (ومن انضم إليهم بعد)
الفئة المسلبة المؤمنة حقا ، وأن من سواهم من المسلمين كفار يجب جهادهم
وردنهم إلى حظيرة الدين . وقد شدوا حيازيمهم للأمر العظيم ، وشروا عن
سواعدهم للخطب الجسيم ، وأقبلوا على أمرهم في حماسة دينية متفجرة ، وشجاعة
نادرة ، وإخلاص عميق ، وصبر عجيب .

ولكن يميزوا أنفسهم عن سائر المسلمين ، وصلوا إلى تحقيق غرضهم الديني
والديني . صاغوا لأنفسهم مذهبا أو برنامجا شاملا متحداف أصوله وجوهره
ويختلف في الفروع باختلاف الخوارج أنفسهم من حيث الغلو والاعتدال . فأما

من الناحية السياسية لجميع الخوارج يرون الشورى وأن الخلافة حق لكل من اتصف بصفاتها وحوى ما يؤهل لها من قوى وزهد وشجاعة ، ولا عبرة بعدم بالجنس والنسب والعريّة والأعجية . أخذوا ذلك من قوله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، بل لقد ذهب بعض فرقهم إلى إمكان الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة لأن الناس يتوازعون وتكافون باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففي ذلك ما يكفي لردم عن الظلم وصدم عن الجور وعدم الإنصاف .

ثم إن لخوارج من ناحية العقيدة المحضة آراء في معنى الإيمان والمعاصي . يكفر منها وما لا يكفر ، وفي التقية ، وفي إسرار الإيمان وإظهار الكفر عند الحرج وخوف الفتنة ، هل تجوز أو لا تجوز ، وفي غيرهم من المسلمين هل هم كفار عقيدة أو كفار نسمة ، وفي معاملتهم والنزوح منهم وتزويجهم وموارثتهم ، هل تجوز أو لا تجوز . هذه الآراء مبنية في أخبارهم مقررّة في توازنهم ولهم قهّاء مجتهدون يبينون لهم الحلال والحرام ، على حسب اجتهدهم وفقهم ، كما لهم شعراء بلغاء ينشرون مثلهم وعواطفهم في شعر بلّغ سيار .

والخوارج جميعا يتصفون بأخلاق عظيمة وصفات نيرة منها الزهد في الدنيا والحرص على طلب الشهادة ويعرأون من الكذب ، ولهم في ذلك نوادر طريفة وأخبار عجيبة .

فمن الأمثلة الدالة على شدة زهدهم ، ما يروى من أن زياد بن أبي سفيان بعد أن قتل عمرو بن أذية الخارجي سأل مولاه عن ميرته فقال أأطلب أم أخصر ؟ فقال له بل أخصر ! فقال : ما أتيت به بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط !

ومن أمثلة شجاعتهم أن منهم من طمن في الحرب فأقنعه الرمح لجمل يسى
فيه إلى قاتله وهو يتلو قوله تعالى : وعجلت إليك رب لترضى . . .

ومن أمثلة استمساكهم بالصدق ما يروى من أن أحد زعمائهم وهو مرداس
ابن أدية أدخل حبس عبيد الله بن زياد أمير العراق فرأى صاحب السجن شدة
اجتهاده وحلاوة منقلبه ، فقال : إني أرى لك منها حسنا ، وإني لأحب أن
أوليك مروفا . أترأيت إن تركتك تبصرف ليلا إلى بيتك ، أتدليج إلى ؟ قال :
نعم ! قال فكان يفعل ذلك . ولج عبيد الله في حبس الخوارج وقتلهم . فلما كان
ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدرى
ما أصنع هؤلاء ، كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم قتلوا قاتله . لأقتلن من في حبسي
منهم . وأخرج السجن مرداسا إلى منزله كما كان يفعل . وأتى مرداسا الخبر . فلما
كان السحر تها للرجوع . فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت
قتلت . فقال إني ما كنت لألقى الله غادرا . فرجع إلى السجن . فقال قد علمت
ما عزم عليه صاحبك . فقال السجنان : أعلمت ورجعت ١٩ .

ولفرط شجاعتهم في الحرب وشدة حملاتهم واستقلالهم كانت أعداد يسيرة
منهم تهزم جماعات كبيرة من جيوش الدولة كما حدث في واقعة آسك إذ هزم
أربعون من الخوارج ألفين من جند الدولة الأموية . وفي ذلك يقول شاعر
الخوارج :

ألفا مؤمن فيما زعمتم وهزمهم بأسك أربعونا ؟
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

.....

فن أجل الديمقراطية المتطرفة التي كان يقول بها الخوارج في أمر الخلافة

قد أسخط الخوارج بنى أمية وقريشا وأرسترا طية العراق حيث تعددت فرقهم وانتشرت تعاليمهم وعظم نفوذهم . ومن أجل تكفيرهم سائر المسلمين واستحلالهم منهم ما يستحلون من الكفار قد أثاروا عليهم سخط العامة جميعا . ولقد تجردت الدولة الإسلامية لقتالهم والعمل على استئصالهم وحاربهم حربا طاحنة لا هوادة فيها دامت نحو قرن ونصف قرن من الزمان . حاربهم على يوم النهروان وأوقع بهم هزيمة منكرة . وقد جر انتصاره عليهم إلى اغتيالهم إياه على ما هو معروف . وحاربهم زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة . وحاربهم الحجاج بن يوسف بنفسه ويقواد كبار أشهرهم المهلب بن أبي صفرة . وقد خضد الحجاج شوكة الخوارج الغلاة المعروفين بالأزارقة والصفارية وقتل كبار زعمائهم أو خلفائهم أمثال نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وشيب . كما حوربت الخوارج النجدية في شرق بلاد العرب وقتل زعيمهم نجدة وأبوفديك . أما الإباضية وهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا فلم يلبأوا إلى العنف كما فعلت الفرق الخارجية الأخرى . لذلك احتملتهم الدولة الأموية فقتلوا من الإبادة وبقوا حتى يومنا هذا في أنحاء من العالم الإسلامي وخاصة بلاد المغرب وعمان وشرق إفريقيا .

ولما اضطرب أمر الدولة الأموية ظهرت الخوارج مرة أخرى في الحجاز واليمن وشمال إفريقيا ، ثم قامت الدولة العباسية فذهبت ربح الخوارج بذهاب دولة العرب وقيام دولة عصيتها من الأعمام . واستحال الخوارج قطاع طرق ومتلصصة ، وكانت آخر خروجة مشهورة لهم خروجة الوليد بن طريف الشيباني في الجزيرة وأرمينية وذلك على عهد الرشيد . وبقت بقية منهم إلى زمن المتوكل على الله العباسي . ثم ينتهى أمرهم ونعمد حركتهم فلا نخس لهم صوتا بعد ذلك .

ويجهم . إن الحوار لم يؤتوا من قبل مذهبهم اليسرى ، فذلك المذهب ديمقراطي
 إسلامي لا غير عليه . ولم يؤتوا بالطبع من قبل غيرتهم الدينية وورعهم
 واستقامة وأخلاقهم ، فذلك كان مثار إعجاب الرأي العام الإسلامي وخاصة رأى
 المثقفين منهم أمثال الإمام مالك بن أنس وأبي العباس الميرد صاحب كتاب
 « الكامل » وإنما أتى القوم من قبل تعظمهم في الدين وعدم سائر المسلمين كفارا
 خارجين من الأمة وانعدام الروح السياسية عندهم . فذلك الذي جر عليهم وعلى
 مذهبهم البوار .

ونساء الحوار يشاركن رجالهم في كل ما ذكرنا من فضائلهم من تقى وورع
 وشجاعة وأدب واجتهاد .

ولو أن الخصوم المرأة وهو أبو العلاء المعرى استحضر عند نظمه قصيدته
 الثائية الكبرى سير نساء الحوار ما قال :

وإن تعط الإناث فأى يؤس تبين في وجوه مقسمات
 يردن بعولة ويردن حلياً ويلقن الخطوب ملومات
 ولئن بدافعنا يوم حرب ولا في غارة متشمسات
 ودفن والحوادث فاجمات لإحداهن إحدى المكرمات
 وقد يفقدن أزواجهن كراماً فيا للنسوة المتأيمات
 يلبن أعاديا ويكن عارا إذا أسين في التهضبات
 ولئن لسناء الحوار بذكر طائفة من مشهوراتهن يستين منها القارىء
 صدق وصفنا لهن .

(١) فنهض فقام بنت علقمة من نيم الرباب وكانت من أهل الكوفة . وهي التي أراد عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب الزواج منها فقالت له : لا أقنع منك إلا بصدق اسمي لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل عليا . فقال لها : لك ما سألت ؟ فكيف لي به ؟ قالت تروم ذلك غيلة . فإن سلمت أرحت الناس من شر ، وأقت مع أهلك ، وإن أصبت صرت إلى الجنة ونعيم لا يزول . وفي ذلك يقول ابن ملجم :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم
ونحن نعرف ما صار إليه أمر ذلك الفتاك من قصاص عاجل عادل .

(٢) ومنهن البلعاء التميمية وكانت كما يقول أبو العباس المبرد من مجتهدات الخوارج : وكان أبو بلال مرداس بن أدية قد لقيه صاحب له فقال : يا أبا بلال إني سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلعاء ، وأحسبها مستوخذ . فغضب إليها أبو بلال ، فقال لها : إن الله قد وسع على المؤمنين في الثغية ، فاستترى فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك . قالت : وإن يأخذني فهو أشق بي . فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان يسبني . فوجه إليها عبيد الله بن زياد فألقى بها قطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق . فربها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلعاء أفرج إليها ، فظفر ، ثم عض على لحيته وقال لنفسه : ولله أليب فسا عن بغية الدنيا منك يا مرداس .

(٣) ومنهن أم كهس : كان عن قتل ابن زياد من الخوارج رجل يقال له كهس ، وكان من أبر الناس بأمه . فقال لها يا أمنا ألولا مكانك لخرجت

قالت : يا بني اقد وجهك لله ، فخرج فحارب قتل مع جماعة من أصحابه ،
قالت فيهم أم الجراح العدوية ، وهي من نساء الخوارج ، ترثيهم وتخطب قائلهم
ابن زياد :

وما بعد مردلس وعروة يتنا وينكم شيء سوى عطر منثم
فلست بناج من يد الله بعدما هرفت دعاء المسلمين بلا دم
(٤) . ومنهن بنت عروة بن أدية ، قالوا لما قتل ابن زياد عروة بن أدية بعث
برأسه إلى ابنته . فجاءت وجهته مطروحة بين يدي ابن زياد ، فقال لها : أنت
على دينه ؟ قالت : وكيف لا أكون على دينه ، وما رأيت قط خيرا منه ،
فأمر بها قتل مع أبيها .

(٥) ومنهن جذعة ، قالوا خرج رجل وامرأة ومعهما سيفان لحكما في
مسجد البصرة ، (أى قالوا لاحكم إلّا لله) ثم أخذت المرأة نحو بني سليم ، وأخذ
الرجل نحو رجة بن تميم ، فراها قد بعثت منه ، فناداها : يا جذعة اقربى
منى ، قالت : إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قتلها الناس .
(٦) ومنهن المرأة التي أرادت أن تار لمقتل نافع بن الأزرق كبير الخوارج
الآزارقة والمقتول في وقعة دولا ب بالأهواز سنة ٦٥ هـ قال سلامة الباهلي :
« قتلنا نافعاً فطالبني بآره امرأة كانت تدعوني إلى المبارزة ونحن قاتل عبيد الله
ابن الماحوز »

(٧) ومنهن أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة على رأى أو بعض من كان
يقاتل معه على رأى آخر . روى الأصمهباني بإسناده قال : « إن امرأة من الخوارج
كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم
وجها وأحسنهم بدنيهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك .

فأخبرني من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز
أحمل رأساً قد سفت حملة وقد ملك دغنه وضله
الائق يحمل عني قله

قال وهم يقدونها بالآباء والأمهات فأرأيت قبلها ولا بعدها مثلاً، وفي أم
حكيم هذه وفي وقعة دولاب يقول قطري :

لعمرك إن في الحياة زاهد وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
من الحفريات البيض لم ير مثلاً شفاء لئى بث ولا لسقيم
لعمرك إن يوم ألطم وجهها على ثائبات الدم جددت لقيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان قى في الحرب غير فقيم
إلى أن يقول :

فلو شهدتني يوم ذاك وخيلنا تيسح من الكفار كل حريم
رأت قبة بأعوا الآله قوسهم بمنشات عدن عنده ونعيم
(٨) ومنهن جبهة أم شيب رأس الخوارج الصفرية ؛ وغزاة زوجته .
قالوا لما اشتدت الحرب بين شيب وبين المهدي بن يوسف أمير العراق كانت
جبهة أم شيب وغزاة زوجته تقاتلان معه . وتقدت غزاة له إن هي دخلت
الكوكة عاصمة المهدي أن تعد إلى المسجد الجامع فعلى فيه وتلو سورتي
البقرة وآل عمران . ودخل شيب الكوكبة وخرج منها المهدي هارباً ، وقد
وفت غزاة يومذاك بتدورها . ويشير إلى ذلك شاعر من الخوارج يقال إنه
عمران بن حطان بقوله يعير المهدي فراره من غزاة :

صدعت غزاة قلبه بفوارس تركت كتابه كأس الدابر
أسد على وفي الحروب نعامه ربداء تفر من صفيير الصافر

هلا برزت إلى غزاة في الرغى بل كان قلبك في جناحي طائر
ألقى السلاح وخذ وشاحي معصر وأعد لمزلة الجبان الكافر
ثم إن الحرب استوفت بين شيب والحجاج فقتل جبهة أم شيب وكانت
قد قتلت قتالا شديدا حتى قال الناس :

أم شيب ولدت شيبا هل تلد الذية إلا ذيبا ؟
وقتل كذلك زوجته غزاة ، وأحتر رأسها قال الحجاج عند ذلك : والله
ما قوتل قبل اليوم ولا قبل موت هذه !

(٩) ومنهن امرأة حبي بها إلى الحجاج وبحضرة مولاه يزيد بن أبي مسلم
وكان يستمر برأى الخوارج ، فكلّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد :
« الأمير وذاك يكلمك ، قالت : « بل الول لك أيها الفاسق الرديء ، قالوا
والرديء عند الخوارج هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكنمه .

(١٠) ومنهن امرأة تسمى مريم كانت تقاتل مع أبي حمزة الخارجي الذي
خرج بالحجاز ، وكانت تقاتل مع زوجها ، فقتل زوجها وقاتلته وهي ترتجز :
أنا ابنة الشيخ الكبير الأعم من سال عن اسمي فاسمى مريم
بعت سوارى بسيف غنم

(١١) ومنهن الفارعة ليلي بنت طريف الشيباني . روي أن الوليد بن طريف
الشيباني خرج في سنة ١٧٨ هـ في خلافة هارون الرشيد ، بالجزيرة وأرمينية ، وقتل
بسمال الرشيد واستطاع شربه في تلك الجهات استطارة النار في المشيم
وجبي الأموال ، فسير الرشيد إليه يزيد بن يزيد الشيباني فقاتله فقتله ،
فصحبتهم أخته ليلي بنت طريف مستعدة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس
ففرقت . قال يزيد قائد جيش الرشيد ودعواها ، ثم خرج إليها فضرب بالرمح

قطاة فرسها ثم قال « اعز بي عرب الله عليك » فاستحيت وانصرفت . ثم رث
أخاها الوليد بهذه المراثية التي تعد من فاخر الشعر العربي وناصحه :

بَلْ تَبَانِي رِسْمٌ قَبْرُ كَأَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَوْقَ الْجِبَالِ مَنِيْفٌ
تَحْمَنُ جُرُودًا حَاتِمًا وَنَاقِلًا وَسُورَةً مَقْدَامٍ وَقَلْبٌ حَصِيْفٌ
أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْجَنَى كَيْفَ أَضْمَرْتُ قَتَى كَانَ بِالْمَعْرُوفِ غَيْرَ عَنِيْفٍ
فَإِنْ يَكُ أُرْدَاهُ يَزِيدُ بِنَ مَزِيدٍ فَيَارِبْ خَيْلَ فَضَاهَا وَصَفُوفٍ
أَلَا يَا قُفُوءَ النَّوَابِغِ وَالرَّدَى وَدَهْرٍ مَلَحَ بِالْكَرَامِ عَنِيْفٍ
وَالْبِدْرِ مَزَيْنِ الْكُوكَبِ قَدْ هَوَى وَلِلشَّمْسِ مَهْمَتٌ بَعْدَهُ بِحَسُوفٍ
فِي الشَّجَرِ الْخَائِبِ وَمَالِكِ مَوْرَقَا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيْفٍ
قَتَى لَا يَجِبُ الزَّادُ إِلَّا مِنَ التَّقَى وَلَا الْمَالُ إِلَّا مِنَ قَتَا وَسِيُوفٍ
وَلَا الْخَيْلُ إِلَّا كُلُّ جُرْدَاءٍ شَطْبَةٍ وَكُلُّ حَنَانٍ بِبَيْدِينَ عَزُوفٍ
فَلَا تَحْزَنْ يَا ابْنِي طَرِيْفَ فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ نَزَالَ بِكُلِّ شَرِيْفٍ
قَدْ نَاكَ قَدْ نَاكَ الرِّيحُ قَلْبَنَا فِدَيْتُكَ مِنْ دَهْمَانَا بِالْوُفِ

واعتمر الرشيد في تلك السنة في شهر رمضان شكر الله على قتل الوليد

طريف .

...

كانت غزاة خاتمة نساء الخوارج اللاتي ظهرن على مسرح الحوادث العامة
ونقلت الينا أخبارهن أو أطراف منها . وكل من ذكرنا عنهن يتصف بصفات
الشجاعة والجراءة والغيرة الدينية والثبات على المبدأ ، هذا الى ثقافة عالية ملحوظة
تسلك غير واحدة منهن في عداد مجتهدي هذه الفرقة وخطبائها وشعرائها .

والمرأة الحارضية إنما تحتفظ في كل ذلك بتقاليد المرأة العربية الصليمة إن

قبل الإسلام وإن صدر الدولة الإسلامية . فاما قبل الإسلام فقد بلغني التي
كانت ملكة عظيمة على بلاد اليمن والتي راسلها سليمان ملك بني إسرائيل ،
وقد قص القرآن الكريم قصتها في سورة النمل ، فليرجع إليها .

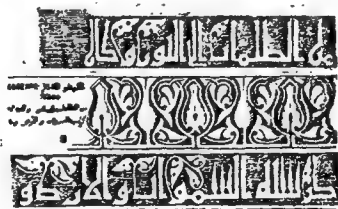
وقد الزباء ملكة تدمر وقد ساجلت الامبراطور الروماني أوريليان حربا
شديدة في القرن الثالث الميلادي . كما تعد سجلا بنت الحرث التميمية التي
قادت الجيوش في حرب الردة لقتال الخليفة أبي بكر الصديق . وأما صدر
الدولة الإسلامية فتذكر على سبيل المثال نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة
الخليفة الثالث عثمان بن عفان وكانت عند زواجها منه جميلة وسيمة وفي
عنقوان شبابها ، على حين أن زوجها كان شيخا قد جاوز السبعين من عمره ،
ومع ذلك فقد كانت وفية له حيا وميتا . فهي التي قامت تدود عنه يوم الدار
فتفتح أحد قلة عثمان يدها بالسيف فأطار أصابع يدها ، فلما قتل عثمان وأراد
معاوية خطبتها إعجابا منه بثغرها فبا يفرون عمدت إلى أسنانها فتمتها بخاتم
في إصبعها لينهب جمال ثغرها فيصرف عنها معاوية ، وقد كان ذلك .

ولا ننسى عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوجة الرسول عليه السلام وقد
جمعت من الحديث ووعت من الفقه ما جعلها عمدة المحدثين والفقهاء ، ولقد
قادت الجيوش في وقعة الجمل واستهدفت للموت حتى ليروون أن الجمل الذي
كان عليه هودجها صار مثل القنفذ لكثرة ما وقع فيه من السهام في تلك الوقعة .
ثم تبرز المرأة العربية الخارجية فتحفظ بهذه التقاليد طوال مائة وخمسين
عاما أو تزيد فلما تحولت الحال في الدولة الإسلامية وغلب رجال العرب على
أمرهم على أيدي موال الفرس ومالك الترك وعادوا إلى بواديهم يعيشون رعاة
إبل وغنم أو متلصصة وقطاع طرق . فكذلك كان شأن المرأة العربية ، فقد غلبت

على مكاتها ومنزلتها ، غلبها جوارى وسربات الأعاجم من فرس وترك وروم
وصقالة فعادت إلى الانزواء والخنول بعد نباهة الذكر وعلو القدر .

وعاھر جدير بأن يلحظ في هذا المقام أن مجد المرأة العربية ، قد صاحب مجد
الدولة العربية ، ولا شك أن بين الأمرين اتصالا وثيقا . فالمرأة العربية الخارجة التي
وصفناها من نوع المرأة التي أنجبت أولئك القواد العظام والجنود البواسل والإداريين
الكبار الذين شادوا الدولة العربية الإسلامية القديمة ورفعوا عمادها ،

أم شبيب ولدت شييا هل تلد الذيبة إلا ذيا !
فلما صار الأمر إلى ما صار إليه انحط المستوى الأخلاقى للمرأة المسلمة
بانحطاط المستوى الأخلاقى العام . يروى أن المعز لدين الله الفاطمى لبث
زمنًا يتهب الإقدام على فتح مصر ، فلما قيل له إن نساء قصر الأخشيد
مستترات ولا يعان بالفضيلة قال : الآن فتحت مصر ، وسير من فوره إلى
مصر جوهرًا بحمكة المشهورة ؟



الأدب العربي المصري

تاريخه ، إهمال دراسته

١

تألفت منذ أشهر بمدينة القاهرة جماعة من أعلام التاريخ وأسانيده ، والغرض من تأليفها دراسة التاريخ المصري وإذاعته بين جمهور المثليين بإلقاء المحاضرات التاريخية أو نشرها في مجلة خاصة بها . ومن أمانى تلك الجماعة التي ترجو أن تحققها الأيام وضع كتاب كبير في تاريخ مصر ، يكون مرجعا للقراء وعمدة للباحث في التاريخ المصري .

تربة شريفة ، وعمل جليل ، له في تكوين قوميتنا المصرية وتقويتها أثر غير ضئيل . على أن قومية الأمة إنما تقرب من حد الكمال حتى عرفت الأمة تاريخها . ولما غير متصور . وذلك بأن يدرسه أبناءها من جميع نواحيه السياسية والمادية والأدبية . فإنا إذا اعتقدنا أن الأمة كانت حتى ، واعتقدنا كذلك أن أحسن التواريخ ما صور لنا ماضي الأمة أتم تصوير ، فلا بد أن نناق مع القياس المنطقي فنقول : إن التاريخ نفسه يجب أن يكون من حيث تصويره الأمة كأننا حينها ذا جسم وروح . وما الجانب الجناني للتاريخ إلا ما كان منه متعلقا بالسياسات والماديات . أما الجانب الروحاني فإما كان متعلقا بالأدب وما ينسب إليه من العلوم .

(١) مقالة نشرت بمجلة المنور ، عدد ١٧١ : ١٦٠ سبتمبر ١٩١٨ ، وقد تصدنا بنشر هذا المقال والذي يليه مجرد اثبات تاريخ الفكرة لا أكثر .

وهيات أن يفقه قارى. كنه تاريخ أمة من الأمم إذا اقتصر على الجانب
الجنائى من تاريخها وأغفل الجانب الروحانى . خذ لذلك مثلاً أمة الإغريق
القدماء . لحياة هذه الأمة السياسية علوة بالعبود والفتاصر . ولو أنك أردت
الحكم عليها من تاريخها السياسى لجمعتها فى أخريات الأمم التاريخية . ولكنك
إذا ما قرأت أديها فبهرك ما ترى من روعة وجمال لم تلبث أن تنسخ حكك
وترفعها فوق أمم الأرض مكاناً عليا .

فلا بد لمن يريد أن يفقه تاريخ أمة من الأمم أن يطالع فى صحيفتها الأدبية
نزوات عواطفها ، وحركات أفكارها ، كما يطالع فى صحيفتها السياسية نظام
حكومتها وتحرك جيوشها وتعاقب أسرها الحاكمة عليها .

من أجل ذلك نرى أن عمل جماعة التاريخ المصرى فى حاجة ماسة إلى عمل
جماعة أخرى ، تتوفر على جمع الأدب العربى المصرى من شعر ونثر ، ثم دراسته ،
ووضع تاريخ له تكون حقله بتاريخ أدب اللغة العربية العالم صلة تاريخ الأدب
الأمريكى بتاريخ أدب اللغة الانجليزية العام .

لقد طال العهد على إهمال الأدب المصرى وتاريخه ، حتى أصبح أكثرنا
يعتقد ألا أدب لغة العربية المصرية . ومصدر ذلك الاعتقاد فى رأينا أن أغلب
الكُتُب العربية والأفريقية التى وضعت فى تاريخ أدب اللغة العربية قد أغفلت
الأدب المصرى . ولا نعلم كتاباً عربياً يعلم من ذلك التقدير إلا كتاب « أدب اللغة
العربية » لبرجى بك زيدان . على أن مؤلف هذا الكتاب إنما عطف على الأدب
المصرى فى العصور الأخيرة ، لأنه جزء متمم لأدب اللغة العربية لا لأنه
قائم بنفسه .

وسنين فى مقال تال أسباب ذلك الإهمال إن شاء الله .

الأدب العربي المصري وتاريخه

أسباب إهمالها

٢

يناقش مقالنا السابق ضرورة العمل على جمع تراثنا الأدبي ووضع تاريخ له يدرس في المدارس ثانويًا وعاليًا. ووعدنا أن نبين ماصرف أقلام الكتاب الأقدمين والمحدثين عن الأدب المصري. وما نحن أولاء في القارىء بما وعدنا.

لقد كان السبب الأساسي لذلك التقصير الأدبي في نظرنا: الاعتقاد القديم العام بأن الأدب المصري أحط منزلة وأقل مقداراً من أخويه العراقي والأندلسي. فليس في مصر إذا عدت الشعراء يوم الفخار من يساي جرير أو أبانواس ولتبنى وابن هاني، ولا من الكتاب والفلاسفة من يشق غبار عبد الحميد وابن المقفع وابن سينا وابن رشد. ذلك الاعتقاد إن يكن على وجه الإجمال صحيحاً فإنه لدى التفصيل لا يسلم من مرة الخطأ وركوب الاعتساف. ولو درس الأدب المصري القديم حق دراسته لارتفع أرقام وانخفض آخرون، ولكن للأدب العربي عامة نظام غير نظامه المهود.

فلنقل الحقيقة المرة على علائها: لنعتقد مع الأقدمين بأن الأدب المصري أقل منزلة وأقل مقداراً من أخويه العراقي والأندلسي. فاصدر تلك الحجة وهذه القلة؟ لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن ننظر إلى حال مصر السياسية من

(١) نشرت بالعدد ١٧٢ من مجلة السفور سنة ١٩١٨.

لكن الفتح العربى إلى محتم القرن الثامن عشر ، أى إلى مبدأ النهضة الحديثة . وذلك لاستحكام العلة بين فساد تلك الحال سياسيا وقصر الادب المصرى فى عهدهما . لقد تعاقب على مصر فى تلك المدة حالات سياسية ثلاث : فكانت مصر إما ولاية تابعة لغيرها ، كما كانت زمن الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى عباس ، وإما مملكة مستقلة تحكمها خلافة شيعية كما كانت زمن الخلافة الفاطمية وإما مملكة تابعة لخليفة أجنبى وخاضعة لحكومة غير مصرية كما كانت زمن الأيوبيين والمماليك وولاء الأتراك العثمانيين .

ذلك الاستخذاء السياسى وهذا الاستقلال المقرون بالخضوع لخلافة شيعية قد أثر فى الادب المصرى أسوأ التأثير .

ذلك بأن الادب عامة إنما يركز فى دور العزة وأمكنة السلطان ويذوى فى مواطن الذلة والخضوع . والآلة على ذلك كثيرة متعددة .

فالادب الإغريق علا وامتد نوره زمن حرية الإغريق السياسية ، وخذت جذوته بالفتح المقدونى . والحياة العلمية الزاهية التى كانت بالإسكندرية إبان حكم البطالمة إنما تآذى إليها الاعتلال والموت بالفتح الرومانى . ثم إن الادب من شأنه أن ينبسط ظله فى أرض ولادة أمورها يحرسون عليه . ولكن ظله ينقبض إذا كان فى أرض حكمها لا يتنشقون للغة أهلها وأهملهم طعاما ، كما أن الأندلس حين فتح المسلمون الأندلس ، وكانوا أقواما من هج البربر لا يكادون يفقهون من أدب الأندلسيين وحضارتهم شيئا . وبعد هذا كله فالادب الإسلامى سقى المذهب وبأن أن يزهر ويؤثر أكله فى ظل حكومة شيعية العقيدة .

فأنت ترى أن الادب المصرى قد نكب فى الزمن الماضى من ناحية

الحال السياسية نكبة شديدة ، نكبة أثرت في قدره ومقداره وصرفت عنه
أقلام المؤرخين إلى الأدب المشرق الفخم والأندلس العذب . وليس ذلك
بموجب . إنما العجيب أن نحى نحن المحدثين على سته آباءنا ونعتقد اعتقادهم في
أدبنا القديم . ثم لا نقف عند هذا الحد ، بل نبسط سلطان اعتقادهم على أدبنا
الحديث مع أنه ممانيا هي به غيرنا إن قاتلنا المباهاة بأدبنا القديم .
وبعد فإننا بناء قومية والواجب يقضى علينا بأن نجتمع شمل أدبنا المشتت وندرسه
فهل يحجب رجال الأدب في مصر دعوة الواجب كما أجابها من قبلهم
رجال التاريخ ؟

البعث ...

تُنتبط أشد الاغتياب بمظاهر الحياة التي دب ديبها ومرى تيارها في العالم في العام المنصرم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، فكل قطر إسلامي قد هب بعد طول الرقاد، ومحا بعد نوم مستغرق عميق. فأهل أندونيسيا الذين لا تعلم جمهرة المسلمين عنهم الشيء الكثير قد قاموا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها يطلبون حقههم الطبيعي في الوجود وهو الحرية والاستقلال. والهند في قلق واضطراب طال أمدهما. وإيران وتركيا تعانيان كلب جبار قوى وخصم ألد عنيد. والعالم العربي قد نهض يجمع شتاته ويطامن بين أجزائه ويسوى صفوفه استعدادا لارتجاع مجد دائر وعز قديم. وفلسطين قد اعتدل فيها ميزان الأمور وأخذت كفة العرب في الرجحان بعد أن مالت بها كفة الصيرونية أو كانت يميل. والمغرب قد أخذ يرسل الصيحة تلو الصيحة مناشدا أعضاء الجامعة العربية ألا يسقطوه من عدادهم وأن يسطروا عليه جناح محبة وعاطفة خنان. والسودان في حركة تزدن بانبعاث الحياة في جثمانه.

هي حياة إن شئت فسميها بالنار الكامنة في الحجر الصلب، فلما اقتدحها زناد الأحداث إذ هي قد تطاير شرورها وتوشك أن يكون لها الملبس وضرام. وإن شئت فسميها بالحياة المستكنة في الحبة أو التواة فما هي إلا أن توافرت لها أسباب النمو فإذا هي شجرة باسقة مورقة فيناثة توشك أن تنخرج أنضر الزهر وتحمل

أطيب الثمار . أو بالبخار المتبث في الهواء لا تحسه العين ولكنه متى تراث له أسباب التكاثف والاندقاد إذا هو وذاذ متساقط إلى الأرض يوشك أن يكون مطراً هطالاً تسيل منه الأودية والقيعان وتغمر الرواد والتجاد .

وأى شيء ذلك الذى اقتدح هذه النار الكامنة واستبقت تلك الحية الهامدة وعقد ذلك البخار الميثوث ؟ إن شئت قل هو تحكم شراذم من المولتدين في ملايين من الأندونيسيين ، وإصرار الإنجليز على التمسك بالهند وجهرهم بأن الهند ألمع ذرة في تاج دولتهم المترامية الأطراف ، وشدة وطأة الروس على إيران وتركيا في غير تخرج ولا استحياء ، وخطر الصهيونية الذى جعل من فلسطين القطب الذى تدور عليه رضى الجامعة العربية ، وإغراق المستعمرين من الفرنسيين ومن إليهم من الأسبان والitalians في إذلال المغاربة وإماتة ما فيهم من شعور بالهزة والكرامة والاستقلال .

على أن ذلك كله ما كان ليؤثر أثره لو لم يكن في المسلمين ذماء من روح وأثارة من يقين وبقية من صدق الإيمان . الحق أن المسلم ، مهما قست عليه الحوادث وتحيفه صرف الزمان ، قوى الشعور بكرامته ، شديد الاعتزاز بعقيدته ولقته وتراثه وماضيه الضخم ، خلال تنزع إلى أعراق قديمة قسم التاريخ ، بل لعلها أقدم من التاريخ .

في القرآن الكريم آيات وقصص كثيرة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يحيى الموتى ، فهو جل اسمه حاشر الخلق أجمعين يوم القيامة ومحاسبهم على ما كسبوا وما اكتسبوا ، وعارضهم على الجنة والنار كل بحسب استحقاقه وما قدمت يداه . وهو سبحانه قديميت من عباده من يشاء مراتم مؤقثاً ثم يسه

ليكون نفسه ولغيره من الناس آية وعبرة . من ذلك إمامته عزيراً ثم بعثه إياه بعد مائة عام . وقد يلقي الله النوم على جماعة بعينها منين من السنين ثم يعينها إياه من ذلك إلى أن لكل رجال زماناً لا ينبغي أن يسبقوه أو يتخلفوا عنه ، وهو يورد مثلاً لذلك قصة أهل الكهف والرقم . وقد يحيى سبحانه حيواناً بعد إمامته إحياء معجلاً سريعاً ، إشارة منه إلى حكمة بالغة ، من ذلك إحياء الطيور الأربعة التي أمر إبراهيم الخليل أن يذبحها وقطع أو صالحها ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوما ، فلما فعل أنت إلى الطيور سرعاً مشياً وطيئراً ، قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، وأعلم أن الله عزير حكيم ، ويقول المفسرون إن هذه الطيور الأربعة كانت طاووساً وديكاً وغباباً وحمامة . ويقولون إن في القصة إيماء لطيفاً إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يأتي بإمارة الشهوات والذخارف التي هي صفة الطاووس ، والصولة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المنتصف بهما الغراب ، وقلة الرغبة في الترفع والمصارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام .

ترى هل أمات الله الأمم الإسلامية أو التي عليها نوما ثقيلة حقبة من ر م ن بجاتها عندما غيرت ما بأنفسها من صفات الشر وأنشأت تتحلى بصفات الخير ؟

أكبر ما نأمل أن يكون الأمر كذلك ، فيكون ما تشاهد في أنحاء العالم الإسلامي من مظاهر الحياة بداية لمستقبل مجيد تتم به الأمم الإسلامية وتستفيد منه الإنسانية جمعاء .

كشاف

أبرمة الحبشي ٢٠	ابن عبد الحكم ١٦٤، ١٦٦، ١٧٢
إبراهيم النخعي ١٩٥	١٧٣
أبرويز ٨٦	ابن هلق ١٩٠
الأبلة، انظر البصرة	ابن هشام ١٥، ٤٩
ابن الأثير ٣٤، ٣٦	أبو أحمد ٥٠
ابن إسحق ١٠٩، ١٠٨، ١٩، ٤٢، ٤٥	أبو بكر ١٨، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٦٢، ٧٨، ٩٠، ١٠٩
١٢٣، ٥٥، ٤٩	١١٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥
ابن الأشعث ١٤٦	١٢٦، ١٦١، ١٨٦
ابن الجوزي ١٧٤	أبو بكر ١٣٣
ابن حزم (أبو بكر محمد) ١٦٦، ١٧٢	أبو تمام ١٠١
ابن الدغنة ١٨	أبو جعفر الأصمغانى (الوزير) ٢٥
ابن رشد ١٩٠	أبو جهم بن هشام الخزوي (أبو الحكم)
ابن سعد، محمد - ٣٣، ٧٣، ٧٤	١١٠، ١١٠
١١٥، طبقات - ١١٥	أبو الحسن السعدي ١٠٩
ابن سعيد ٧٦	أبو حمزة الخارجي ١٨٤
ابن السواد ١١٤	أبو ذر القناري ١٠٨، ١١١، ١١٢
ابن سينا ١٩٠	١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦
ابن شهاب الزهري ١٦٤	أبو رافع ٢١
ابن عباس ٥٥، ١٢٥	أبو الزناد ١٦٦

أبو سفیان بن حرب ١٨٠، ٢١٠، ٢١٤، ٤٩	أبو الحیثم بن التیہان ٤٥
١٢٥٠، ١٣٤٠، ١٣٢٢، ١٢٨٠، ١٢٧	أثینا ٨٨
أبو طالب ٤٠، ٣٥	أحد ١١٢٠، ٦٢، ٢٣، ٢١، ١٨
أبو العاص بن الربیع ٣٦، ٢٤	أحد لطیف السید ٩٣
أبو عامر سید الأحایش ٢١	الإخشیة ١٨٧
أبو عامر الراهب ٤٤	أردشیر ٨٦
أبو العباس المبرد ١٨١، ١٨٠	أردوان الإشتانین ٨٦
أبو عید الثقفی ٧٩	الأرقم بن الأرقم الخزومی ٢٣، ٢٢
أبو عید الله ١٢٦	٢٥، ٢٤
أبو عیلة بن الجراح ١٢٥٠، ١٢٢٠، ٧٧	أرمینة ١٨٤، ١٧٩، ٨٦
أبو العلاء المعری ١٨٠	الأزرق ٢٠
أبو فدیك ١٧٩	الأزد ١٣١
أبو قیس ٥٩	أسامة بن زید ٧٦
أبو لؤلؤة ٨٤	أسیرطیون ٨٩
أبو موسى الأشعرى ١٢٨، ١٢٩	الاستقاء ٧٤
١٤٠٠	آسك ١٧٨
أبو نعیم ١٧٢	الإسكندر ٥٢
أبو نواس ١٩٠	الاسكندرية ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢
أبو هالة هندی بن زوارة الحمیری ٢٨	١٩١، ١٠٩
أبو هريرة (أبو هر) ١٢٣، ٦٩	الإسلام ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥
١٢٤٠	٦٥، ٦٤، ٥٨، ٥١، ٤٤، ٣٩

الاصباح ١٨٢	١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٢
اصطخر ٨٥، ١٣١	١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٧
الاصمى ١٤٣	١١٣٥، ١١٣٩، ١٤٥٠، ١٧١، ١٧٢
افريقية، المغرب ١٤٥، ١٧١، ١٧٣	١٧٥، ١٧٦ الدعوة الإسلامية
أفلاطون ١٥٥، ٩٤	١١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٨، ٢٣
الأفلاطونية الحديثة ٨٨	٤١، ٤٢، ٥٣، ٥٨، ٦٧، ١٢١، ١٢٥
	الشرق العربي ٦٤ العصر الإسلامي إلبا ٥٢
	١٢٢ البلاد العربية، الأمة العربية آل بربون ٥٢
	الأمة الإسلامية ١٠٦٤، ١٠٧، ١٠٧، الإمامة ٢٦
	١١٥، ١٢١، ١٦٥ الحكومة أليون الثالث ١٧٤
	الإسلامية ٦٦ الشريعة ١١٠، ١٢١، أيج ٤٧
أم الجراح العدوية ١٨٢	١٦١، ١٦٧
أم حكيم ١٨٢، ١٨٣	أسلم (قيلة) ١٩
امرؤ القيس ١٠١	أسلم مولى عمر ٦٨، ٦٩
أم سلة ٥٥	اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ١٧١
أم شيب ١٨٣، ١٨٧	آسيا الصغرى ٨٦
أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن	السيد الحميري ١٢٥، ١٢٦
الخطاب ١٥٦	أشعانيون ٨٥
أم كلثوم بنت النسي ٢٢، ٢٣	أشور ١٠٢
أم كهس ١٨١	أشوريون ٨٩
	أمهات ١٧٢

١٠٢	١٩٤
٩٥٤	١٦٦٠١٤٦
٩٧٠٩٥٠٩٤٠٩٣	١٩٤٠١٩٣
١٠١	٢٨
٧٠٠٤٧٠٢٩	١٥٦
١٠٣٠١٠٢٠١٠١٠٩٩	٤٦٠٤٥٠٤٣٠٤٢
١٤٧	١٢١٠١١٥٠١١١٠٥٧٠٥٥٠٥٣
٤٤	٩٩
١٠	٩١٠٩٠٠٨٨
١٤٩٠١٤٧	١٦٩٠١٦٨٠١٦٧
١١٢٠٥٠٠٤٩٠٤٧٠٢٣٠٦	١٧٣
١٤٤٠١٤٣	١١٣٠٤٢
١٠٦	١٨٢
٩٥	٨٩
١٥٠٠١٤٧	٤٤٠٤٣٠٤٢٠٤١٠٢٠
١٤٧	١٣٥
١٣٣	١١٧
١٢٩٠١٢٨٠١٢٧٠١٠٩٠١٠٦	١٨٦
١٢٨٠١٢٧٠١٢٦٠١٢٣٠١٢١٠١٢٠	١٤٧
١٦٦٠١٤٧٠١٤٢٠١٤١٠١٤٠٠١٣٩	٨٥
١٦٩	

البطالة ٩١٠٥١	بنو جعش ٤٩٠٤٦
بعث ٤٣	بنو جمع بن أمية بن خلف ١٠
بغداد ١٢١	بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة
البيع ٦٣ ٦٩	١٨٠١٥
بكر بن عبد مناة بن كنانة (بنو بنو حارثة ٦٩	
بكر (- ١٩	بنو سلة ٦٩
بكر بن وائل ١٣١	بنو سهم ١٠
البكرية ١٠٦	بنو عامر ٧
البلاذري، صاحب فتوح البلدان ٤٨، بنو العباس ١٤٠ انظر: عباسيون	
١٥٠٠٧٥٠١١٢٣٠١٤٠١٤١٠١٥٦	بنو عبد الأشهل ٦٩
١٨١٠١٦٨٠١٦٧٠١٥٠٠١٤٩	بنو عبد الدار ١٠
بلال بن رباح ٤٨٠٢١	بنو عبد شمس ١٠
البلقاء التميمية ١٨١	بنو عبد مناف ١١
بلقيس ١٨٦٠٦	بنو عدى ١٢٥
بنو أسد ١٠	بنو عقيل ١٦٥
بنو إسرائيل ٦	بنو فزارة ٢٠
بنو أمية، الدولة الأموية ١٤٠ ١٥٧٠	بنو قريظة ٦٩٠٤٣
١٦٠٠ ١٦١٠ ١٦٤٠ ١٦٦٠	بنو قصي ٩
١٦٩٠ ١٧٣٠ ١٧٨٠ ١٧٩٠ ١٩١٠	بنو قينقاع ٤٣
بنو تميم ١٣١	بنو غزوم ٢٣
بنو تميم ١٢٥	بنو المصطلق (عن خزاعة) ١٥٠
	٥٣٠١٩

بنو المطلب ٢٩٠٢٥	تركيا ١٩٣ ، الترك العثمانيون ٨٩
بنو مظهر ٤٦	التصرف الفارسي ٨٨
بنو المنيرة ٢٠	قل قباني ١٨٥
بنو التجار ٤٨	ميم ١٨٢٠١٧٦
بنو نصر ١٦٨	تهامة ١٣
بنو النصير ٥٠ ، ٤٣	التوراة ٢٨
بنو نوقل بن عبد مناف ١٠	توماس مور ١٥٥
بنو هاشم ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ١٢٥	ثعلب (جل) ١٩
بهته ٧-	ثقيف ٢٠ ، ٤٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٥
بهرام الأول ٩٠	١٤٥ ، ١٤٧
بهرام جوين ٩١	ثور (جيل) ٤٧ (غار) ٥٨
بومباي ١٤٧	تيوقان ١٧١
بيت المقدس ٨٦	جارية بن قدامة السعدي ١٣١
بيت المال ١١٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠	جامع عمرو (الجامع العتيق) ٤
بيت مال البصرة ١٣٠	الجامعة العربية ١٩٢ ، ١٩٤
البيعة ٤٢ ، بيعة العقبة ٤١ ، ٤٢	الجاهلية ٦٧ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٢٠ ، العصر
تانة ١٤٧	الجاهلي ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٥
تبوك ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٢	١٤٦ ، ١٤٧
التار ٨٧	الجبانة ٨٠
تدمر ١٨٦	جدير بن مطعم ١٠
الترك ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٨٦	جدة ١

الحافظ بن عساكر ١٤٣	الجرع ٨١
حبش، أحاشيش ١٣، السودان ١٤	جرمين دويلد ٩٦
٢١٠٢٠٠١٩٠١٨٠١٧٠١٦٠١٥	جرير ١٩٠
الحبشة ١٤، ٢٩٠٣٧٠٢٢٠٢٠٠١٤	جزعة ١٨٢
حبش (جبل) ١٧٠١٥	جزيرة العرب، الجزيرة، بلاد العرب
الحسن البصري ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦	قلب البلاد العربية ١٠١، ٢٤٠، ٢٦٠
الحج ٢٤، ٤١، ٤٤، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٥	٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧
٦٦، ٦٧	٨، ١٠، ١٤، ١٦، ١٧
الحجاز ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٥٧	الجزيرة ١٨٤٩٧٩
٦١، ٦٣، ٩٧، ١٤٥، ١٥٧، ١٥٩	جستيان ٨٨
١٨٤	الجسر (وقه) ٧٩
حجر اسماعيل ٥٩	جولاء ١٢٧، ٩٢، ١٢٩٠
الحجر الأسود ٦٦	الجل (وقه) ١٢٠، ١٨٦
حجر بن عدي الكندي ١٣٤، ١٣٨	جميع بن حاضر الناجي ٦٨
١٤٠، ١٤٣	جبل ١٤٦
الحجون ٤٩٣٥	جهجاه الغفاري ٥٣
الحجاج بن يوسف الثقفي ١٤٥، ١٤٦	جيزة ١٨٢، ١٨٤
١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣	جينة ٧
١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥	جوة ٩٤
١٦٧، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٤	جوهر ١٨٧
الحديثة ١٨، ١٩، ٥٤، ٥٥، ٥٨	جيشة ١٧١
الحديث ١٢٣، ١٣٥، ١٥٧، ١٥٩	الحارث بن عامر بن نوفل ١٠
حرواء ٧٥، ١٧٦	الحارث بن كلثة ١١٧، ١٢٤
الحسن بن علي ١١٨، ١٢٢	الحارث بن محمد الأشعري ١٢٨

خراسان ١٢٩٠ ١٢٦٠ ١٢٨٠ ١٤١٠	حسن بن ثابت ١٦٠
١٦٦ ١٦٧ ١٦٨	حفصة بنت عمر ١٢٢٠
خراسان بن أمية الخزاعي ١٩	الحكم بن أبي عقيل ١٤٥
خزاعة ١٦٠ ١٩٠	الحكم بن أبي العاصي ١٤٧٠
الخزرج ٤١٠ ٤٢٠ ٤٣٠ ٤٤٠ ١١١	حكيم بن حزام الأسدي ١٠ ٢٨٠
خزيمة ١٦	حلب ١٥٧
خناصرة ١٥٧ ١٧٤	الحلة ١٢
الحنيني (المدينة) ٢٢ ٦٢ ١١٢	الحليس بن ذبآن ١٨
الحندق (العمري) ٨١	حزة بن عبد المطلب ١٨ ٢٤
الحليج القمارسي ١٤٤	حمص ١٦٦
الحوايج، الحوزية، الحسكة،	حنيفة ١٧٦
الأزرق، الصفوية، الإياضية	الحيرة ٨١ ٨٢ ٨٧
التجدية ١٤٦ ١٥٩ ١٦١ ١٧٠	الحاوير ١٨٥
١٧٩ ١٧٨ ١٧٧ ١٧٦ ١٧٤	خالد بن الوليد ٢٠ ٢٣ ٧٧ ٧٨ ٨٤
١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣	خبيب بن عبد الله بن الزبير ١٥٨
١٨٥ ١٨٤	١٥٩ ١٦٢
الخوروق ٨١	خديجة بنت خويلد ٢٣ ٢٦ ٢٧ ٢٨
خويلد بن أسد بن عبد العزى ٢٧	٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤
خير ٢٠	٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠
خير ٨٦	الخرايج: الخيرية ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨
خيزران ٢٥	١٦٠ ١٦٧
دابق ١٦٤	الأرض الخرابية ١٦٠ ١٦٧
دار الإمارة ١٤٤ ١٤٣	الأرض العشرية ١٦٠ ١٦٧
دار الزرق ١٤١	١٦٧ ١٦٠

ملوك با ٨٢	شاور بن مجير السعدي هـ
الصليب الاعظم ٨٦	شبيب ١٨٤٠١٧٩
منعاه ١١٤	شراف ٨٠
صوب ٤٩٠٢٤	الشريف الرضي ١٧٣
الصين ١٠٣	الشعب ٤٩٠٢٩٠٣٥٠٢٨
صيرفية ١٩٤٠١٩٣	شعب الحره ١٠٩
ضمرة ١٦٨	الشعي (عاصر) ١٦٦٠١٤٣
الطائف ١٥٧٠١٢٧٠٤٠٠٢٣٠٢٠	الشمية ٣٩
الطبري ٨٢٠٨٠٠٤١٠٢١٠١٩٠١٨	شكشير ١٠١
١٧٢٠١٣١٠١٢٣٠٨٢	الشهر ستان ١٢٦
طرابلس ٩٥	شوب ١٧٠
طبيعة بن عدي ١٠	شيع بن ربيعة ١٠
طلحة بن عبيد الله التيمي ١٢٩٠١١٠	الشيخ النجدي ١١٠١٠٩
الطلحان (دار -) ١١٠	شيزاز ١٤٩٠١٤٨٠٨٦
طجة ١٠٣	الشيعه العلويون ١٤٠٠١٣٦٠١٢٥٠٨٤
عائشه ١٢٩٠١٢٤٠١٢٢٠٤٨٠٤٤٠٢٧	١٧٣٠١٧٠٠١٦١
١٨٦	صواب ٢١
العاخذ لدين الله الفاطمي هـ	صاحب الاغانى ١٤٦٠١٢٥٠٢٠
عاصر بن الطفيل ٧	صاحب لباب القول ٢١
عاصر بن فيرة ٥٨٢١	صالح بن عبد الرحمن ١٥٤
عاصر بن لوى ٢٧	صالح بن كيسان ١٥٧
العباس بن عبد المطلب بن هاشم ٢٤	الصحابه ٥٦٠٥٣٠٥٢٠٤٧٠٤٦٠٣٩
٧٤٠٧٣	١٥٦٠١٢٣٠١٢٢٠٦٧
العباسيون ١٩١٠١٧٩٠١٧٣	الصفاء ٢٣٠٥٩٠٥٨٠٢٣
عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي ١٦٦	صفين ١٧٥
عبد الرحمن بن أبي بكر ٤٩٠١٥	صقاله ١٨٧
عبد الرحمن بن أبي بكره ١٣٠ و ١٣٢	

١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٩	عروة بن أدية ١٨٢
١٢٨ ١٢٧ ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤	عروة بن مسعود الثقفي ٢٣
١٦٤ ١٤٧ ١٤٠ ١٢٩ ١٢٩	عصفان ٤٧
١٦٩ ١٦٧ ١٦٢	العصور الوسطى ١٥٤
العمرية ٢٠٦	عضل (بنو الهون بن مدركة) ١٦
عمر بن أبي ربيعة ١٠١ ١٤٦	عنيف ٢٤
عمر بن عبد العزيز أشع بن أمية .	العقبه ٤٩ ، - الأولى ٤٢ ، ٤٥ ، -
١٥٩ ١٥٨ ١٥٧ ١٥٦ ١٥٥	السكرى ٤٥
١٦٥ ١٦٤ ١٦٣ ١٦٢ ١٦١	المقد الفريد ١٦٣
١٧١ ١٧٠ ١٦٩ ١٦٨ ١٦٧	عقيل بن أبي طالب ٤٩
١٧٤ ١٧٣ ١٧٢	عك ١٥٣
عمر بن أدية ١٧٧	علي بن أبي حمزة ١٦٨
عمر بن أسد (عم خديجة) ٢٨	علي بن أبي طالب ٣٣ ، ٢٤ ، ٤٦ ، ٤٨
عمر بن الحنظلي ١٢٤	١٢٩٠ ١٢٦٠ ١١٩٠ ١١٨٠ ١٠٦
عمر بن خنثر ٢٧	١٣٨٠ ١٣٢٠ ١٣١٠ ١٣٠
عمر بن العاص ٧٠ ٧١ ٧٧ ٩٥	أبو تراب ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨١
١٢٨ ٩٦	عمان ١٤٦ ، ١٤٧
عمر بن علقمة ٤٩	عمار ٢٤
عمر بن عرف ٤٧	عماس ٨٣
العواء ٧٤	عمران بن حطان ١٨٣
عياش بن خليفة ٧٦	عمر بن الخطاب (ابن حنمة) ٦ ،
عيسى ٣٤ ١٧٤	٢١ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٧
عيلام ٨٥	٧٠ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤
عين شمس ٩٥	٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠
	٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠٦

الفراغة ٥	الفراغة ٤٧
الفردوس ٩٤	غزاة ١٨٥ ١٨٤ ١٨٣
الفردق ١٥٨	النسابة ٨٧
الفرس ٥ ٦٢ ٧٩ ٨٢ ٨٤ ٨٦ ٨٧	غنى ٨٠
٩٥ ١٣١ ١٣٢ ١٤٠ ١٨٦ ١٨٧	غفار (من كنانة) ١١١ ١١٢ ١١٦
فرنسا ٥٢	الغنى ٥٠
الفسطاط، مصر القديمة ٤ ، ٥	غوبة (دى-) ٩٧
الفقه ١٣٥	الغاراني ١٥٥
فلسطين ٥ ٨٦ ١٩٣ ١٩٤	فارس، إيران ٧٧ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٥
فلهاوزن ١٣	٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩١ ٩٢ ١١٤
الفي- ١١٠ ١١٢ ١١٣ ١٢٢ ١٦٩	١٢٨ ١٣٠ ١٣١ ١٣٣ ١٤٠
فينقية ١٠٢	١٤٦ ١٥١ ١٥٤ ١٧٠ ١٩٣
القاسية ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٩٢	الفارعة بنت طريف ١٨٤
القاسم بن النضر ٢٢	فاطمة بنت النضر ٢٢ ٢٣
القاهرة ١٨٨	فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني
قبا ٤٧ ٤٨	حامر لوى ٢٧
قبرس ١١٢ ١٦٨ ١٦٩	فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ١٥٧
قنية بن بنت مسلم ١٤٦ ١٦٨	١٦٤
قنية بنت نوفل ٢٨	فتح الباري ١٧٢
قديد ٤٧	الفتة الكبرى ١١٦
قديس ٨٢	فذك ١٧٠
قرآن ٦ ٧ ١٢ ٢٣ ٤٦ ٤٧ ٨٧	فدياس ١٠١
١٠٧ ١١١ ١٢٤ ١٢٩ ١٥٧	الفرات ١٠٩ ١١٩
١٥٨ ١٨٦ ١٩٤	

كليب (أعر مهمل) ٨	قريش ٦ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٤
الكناسة ١١٠	١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢١ ٢٢ ٢٤
كنانة ١٦ ١٨ ١٩	٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٥ ٣٧ ٤٠
كنيسة يوحنا ١٦٨	٤٣ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٩ ٥٢ ٥٥
الكوفة ١٠٦ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢	٥٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢
١١١ ١١٠ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢	١٢٥ ١٢٨ ١٤٤
١٢٤ ١٢٣ ١٢٠ ١١٩ ١١٤	قسططنية ٨٦ ١٧١
١٤٢ ١٤١ ١٤٠ ١٣٩ ١٣٨	قصي بن كلاب ٨
١٨١ ١٧٥ ١٦٩ ١٦٧ ١٦٦	قطام بنت علقمة ١٨١
١٨٣	قطاري بن الفجاءة ١٧٩ ١٨٢ ١٨٣
الكيانيون ٨٥ ٨٩	قبيعان ٥٩
الكيرج ١٥٠ ١٥٣	قيس ١٥٣
لجنة التأليف ٩٤	قيصر ٢٤ ٧٧
مادى ٨٥	قيصر روسيا ١٠٧
ماسيرو ٩٦	كراتشي ١٤٧
المزلفة قورهم ٥٥	كثير ١٤٦
مالك بن أبي السمح ١٥٦	كربلاء ١١٧ ١١٨
ماني ٩٠	كرمان ١٣١ ١٤٩
مالك بن أنس ١٨٠	كسرى ٢٤ ٧٧ ١١٤ ١٣١ الأكرة
ماوراء النهر ١٤٦ ١٧١	١٤٠
للأوردى ٢١	كسكر ١٥١ ١٥٢
متحفون ٢٨	كشف الغم ١٠٦
المتبي ١٩٠	كعب بن حامد ١٦٦ ١٦٧
الموكل ١٧٩	الكمة، بيت الله ٨ ١٨ ٢٣ ٢٤
الثاني بن حارث ٧٧ ٧٩	٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٥ ٦٦
عارب (نو-) ٦٩	محمد بن أبي بكر ١٣٠

محمد بن القاسم الثقفي ١٤٥، ١٤٦	السور بن عزيمة ٧٠
١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢	المسيحية ٨٨، النصارى ١٥١ ١٦٨
١٥٣، ١٥٤	ميلة ٩٧
محمد فريد أبو حديد ٩٣، ٩٤	للشرق ١٣٣
محمد بن معبد، ١٧٤	مصر ١ ٦٤ ٧٧ ٧٩ ٨٦ ٩٣
المدائن ٨٦، ٨٧	٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ١٠٢ ١٠٣
المدائن ١٤٠، ١٤١، ١٤٢	١٠٦ ١٠٩ ١٣٠ ١٥٦ ١٦٧
المدينة، يثرب، ١، ٩، ٢٠	١٨٧ ١٨٨ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢
٢٧، ٢٩، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥	مصعب بن عمير ٢٤ ٤١
٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٣	مصيصة ١٥٢
٥٤، ٦١، ٦٣، ٦٩، ٧٠، ١١٠	مضر ٢٧ ١٧١
١١١ ١١٦ ١٢١ ١٢٨ ١٥٦	المطعم بن عدي ٤١
١٥٨ ١٥٩ ١٦٢ ١٦٦ ١٧٦	المظالم ١٦٦
مراد الثالث ٢٥	معاوية بن أبي سفيان ١٢ ٢٥ ٧٠
مراد بن أدية ١٧٨ ١٨١ ١٨٢	١١٢ ١١٣ ١٢٠ ١٢٢ ١٢٤
للروة ٢٣ ٥٨ ٥٩ ٦٦	١٣٥ ١٣٦ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠
مروان بن الحكم ١٥٦	١٤٦ ١٧٥ ١٨٦
مريم (- بنت عمران) ٣٦ ١٢٥	معبد ١٥٦
مريم الحارثية ١٨٤	المعتضد ١٢
مزامح مولى عمر بن عبد العزيز ١٥٩	المزلايين الله ١٨٧
١٦٤ ١٦٥ ١٧٢	معقل (نمر) ١٤٠
مزدك ٩٠ ٩١ ١١٤	المغرب ١٤٦
المسجد النبوي ١٥٨	المغيرة بن سعيد العجلي ١٢٦
المسعودي ١١٠	المغيرة بن شعبة ٨٠ ١٢٨ ١٢٣ ١٢٤
مسلم بن عبد الملك ١٧١	١٢٨ ١٤٣ ١٧٩
	المغيرة (شعبة غلاة) ١٢٦

المقداد ١١٠	الميد ١٤٨
المقوقس ٩٥ ٩٦	ميرة غلام خديجة ٣٠
مكتبة الاسكندرية ٩٥ ٩٦	ميشيل أيجلو ١٠١
مكران ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩	ناتك بنت الفرافصة ١٠٧ ١٨٦
مسكة ١ ٨ ١٢ ١٥ ١٧ ١٨ ١٩	النابغة ١٠
٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦	نابليون ٥٢
٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣	ناتق بن الأزرق ١٧٩ ١٨٢
٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠	ناب ٥٢
٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧	نيه بن الحجاج المخزومي ١٠
٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤	التجاني ٣٩
٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١	نجد ٩٠ ٤٧
٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨	نجلة ١٧٩
٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥	نجرانية السكوة ١٦٧
٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢	النجم الأشرف ١١٧ ١١٨
٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩	١١٩
٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦	النساطرة ٨٨
٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣	النضر بن الحارث ١٠
١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠	النظام الثلاثي ١٢٢
١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧	نقبة بنت منه ٣١
١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤	النفر ٧٠
١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١	النمري ١٤٦
١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨	نهارند ٩٢
١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥	نجم البردة ١٠٦
١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢	النهران ١٧٩
١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩	النوى ٨٨
١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦	
١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣	
١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠	
١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧	
١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤	
١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١	
٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨	
٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥	
٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢	
٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩	
٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦	
٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣	
٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠	
٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧	
٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤	
٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١	
٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨	
٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥	
٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢	
٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩	
٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦	
٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣	
٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠	
٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧	
٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤	
٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١	
٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨	
٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥	
٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢	
٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩	
٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦	
٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣	
٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠	
٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧	
٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤	
٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١	
٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨	
٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥	
٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢	
٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩	
٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦	
٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣	
٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠	
٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧	
٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤	
٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١	
٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨	
٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥	
٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢	
٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩	
٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦	
٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣	
٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠	
٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧	
٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤	
٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١	
٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨	
٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥	
٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢	
٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩	
٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦	
٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣	
٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠	
٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧	
٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤	
٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١	
٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨	
٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥	
٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢	
٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩	
٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦	
٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣	
٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠	
٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧	
٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤	
٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١	
٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨	
٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥	
٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢	
٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩	
٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦	
٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣	
٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠	
٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧	
٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤	
٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١	
٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨	
٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥	
٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢	
٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩	
٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦	
٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣	
٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠	
٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧	
٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤	
٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١	
٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨	
٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥	
٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢	
٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩	
٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦	
٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣	
٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠	
٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧	
٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤	
٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١	
٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨	
٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥	
٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢	
٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩	
٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦	
٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣	
٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠	
٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧	
٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤	
٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١	
٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨	
٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥	
٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢	
٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩	
١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦	
١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣	
١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠	
١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧	
١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤	
١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١	
١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨	
١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥	
١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢	
١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩	
١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦	
١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣	
١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠	
١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧	
١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤	
١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١	
١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨	
١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥	
١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢	
١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩	
١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦	
١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣	
١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠	
١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧	
١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤	
١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١	
١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨	
١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥	
١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢	
١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩	
١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦	
١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣	
١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠	
١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧	
١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤	
١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١	
١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨	
١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥	
١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢	
١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩	
١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦	
١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣	</

الوليد بن طريف ١٧٩ ، ١٨٤ ،	أثيروز ١٦٧
١٨٥	النيل ١٠٩
الوليد بن عبد الملك ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٧	لامانس ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٢
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥	١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦
الوليد بن المنيرة المخزومي ٢٣	عبده بن وهب المخزومي ١٦
وليريان ٨٧	الهجرة ٣ ، ٩ ، ٥٧ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٩
الياقوت (جزيرة) ١٤٧ ، ١٤٨	١١٢ ، ٥١
مربوع ١٤٨	مرقل ٩٥
بجعي بن سعيد ١٧٣	المرير ٨٣
يزدجرد ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٢	هشام بن اسماعيل المخزومي ١٥٧
يزيد بن أبي كبشة السكسكي ١٥٣	المند ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩٣
يزيد بن أبي مالك الدمشقي ١٧٢	١٩٤
يزيد بن أبي مسلم ١٨٤	المون بن خزيمة بن مدركة ١٥
يزيد بن عبد الملك ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥	موازن ٥٥ ، ٨٠
١٧٠	مولدة ١٩٤
يزيد بن يزيد التلياني ١٨٤ ، ١٨٥	المباطلة ٨٧
يزيد بن المهلب ١٥٣	واترلو ٥٢
اليحافية ٩٧	واسط ١٥١ ، ١٥٤
يعلى بن معاوية ١١٠	وادي العقيق ٤٧
الجماعة ٩٧	الواقدي ٢٣ ، ٧٢
العين ٧ ، ١١٤ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٨٦	رثينة ٢٨ ، ١٠٨ ، ١٥١ ، أصحاب أوثان
اليهود ٢٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ١٥١	أهل شرك ٤٢
اليهودية ٤٢	وسى (قاتل حمزة) ٢١
يوحنا النفوسى ٩٦ ، ١٦٨	ورقة بن نوفل ٢٨ ، ٢٤
يوليوس قيصر ١٠٧	الرجلة ٨١
يوم الدار ١٠٥	
اليونان ، الاغريق ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٨٩	

القسم الأول
عصر الدولة العباسية

أبو العباس «السفاح»

هل تلقب بالسفاح وهل كان سفاحاً للدناء حقاً؟

كان أبو العباس للقب بالسفاح أول خلفاء بني العباس ؛ ولّى الخلافة عام ١٣٢ ، وتوفى عام ١٣٦ ، وكان شاباً لم تزد منه وقت أن توفى على ست وثلاثين سنة على أكثر تقدير . جميل الخلقة ، وسيم البنية ؛ يقول فيه الطبري إنه « كان ذا شجرة جسدة ، طويلاً أبيض ، ألقى الأف ، حسن الوجه والهيئة » . ويروي ابن الأثير أنه « نظر يوماً في المرأة ، وكان من أجل الناس وجهاً ، فقال : اللهم إني لا أقول كما قال سليمان ابن عبد الملك : أنا لك الشاب ، ولكني أقول : اللهم عرني طويلاً في طاعتك عتماً بالساقية ! »

وكان أبو العباس متصوراً ضعيفاً ، حسن للشارية لأهل بيته . روى اللسودي أنه كان قبل الخلافة قديراً علقاً ، وافق أن رآه أم سلمة الخزومية ، أرملة سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فأعجبت به ، ورأيت الزوج منه ، فاعتذر بضيق ذات يده ، فأرسلت إليه من الليل ما وفي بحق الصديق والمهدي . وقد حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يقسرى . فلما صارت إليه بالخلافة ، وسبق إليه الدنيا ، وفي لها كأشد ما يكون الوفاء ، والبر بالهدى .

وكان أبو العباس مقتصداً في معيشته ، لم يخرج له أئمة الملك وعظمة الباطن من حد السلطة في مأكله ومشربه وملبسه ؛ وقد أحصوا ما خلف من الثياب ، فإذا هي تسع جباب ، وبأربعة أقمعة ، وخمسة سراويلات ، وأربعة طيالبية ، وثلاثة مظارف خبز . تلك ثياب رجل ولك مشارق الأرض ومنازلها نحو خمس سنوات .

في الخاتمة : عدد ٧ سنة ١٩٢٩ أكثر حقاً مما جلا وعلمنا في الموضوع وقد سجل كل ذلك في مجلتي الثقافة والرسالة في السنة المذكورة .

وكان أبو العباس كريماً مطاعاً ، يقول فيه السعدي : « وكان إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً » ، ويقول فيه : « وكان لا يضرف عنه أحد من ذمائه ولا مطريه إلا بصة من مال أو كسوة ، ويقول لا يكون سرورنا مسجلاً ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً » .

وكان طروباً « يطرب من وراء الستور ويصيح بالطرب له من اللتين : أحسن والله ! فأعد هذا الصوت ا » . (للسعدي) .

وكان أشد الخلفاء حياءً لمسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما العجب من يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ، قال له أبو بكر المذلل : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك بحالة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسبح سخفاً ويروي قصصاً » . (للسعدي في مروج الذهب) .



فهل صحيح أن هذا الخليفة الشاب الجميل اللطيف ، الرقي ، الكريم ، الطروب ، للفتنص الحريص على مسامرة الرجال ، كان قتيلاً للناس سفاكاً لدماء البشر ؟ وهل صحيح أنه إنما قلب بالسفاح لكثرة ما سفع من دماء وأزحق من أرواح ؟ وهل صحيح أن الطبيعة البشرية تنسج فتناقض والتباين إلى هذا الحد ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة بالإيجاب ليثير الدهش ويستغف العجب ؛ ومع ذلك فهذا ما أجابت به روايات تاريخية كثيرة متأخرة وحديثة . وقيل أن تعرض تلك الروايات التي تصور أول خلفاء بني العباس في تلك الصورة البشعة ، تبين للمنى الاصطلاحي والغموي فقط « السفاح » ، ثم تعرض الروايات القديمة والمعامرة لأبي العباس ، لتري كيف تصور شخصية هذا الخليفة .

إن لفظ « السفاح » وصف عربي قديم جرى مجرى التلم ؛ فم السفاح التخلي الذي كانت رئيس تطلب في يوم الكلاب الأول . ويقول فيه ابن دريد في كتاب الاختصاص : « وإنما سمي السفاح لأنه ينفج للزلا أي صباح يوم كاطمة ، وذلك لأصحابه : فأنلوا فإنكم إن هزمتهم مُم عطشاً . قال الشاعر :

وأخبرهم الفلاح ظناً بنبيه : متى ورثت جبال الكلاب نهلاً . . .
وهناك الفلاح بن جند مائة الشاعر ، ويزنق ابن دريد على اسمه بقوله : « والفلاح
تقال من صنعت لاء صفحا إذا صيحه » . قالرب إذا لم تطلق هذا الوصف اصطلاحاً
على من يسفك الدماء كما يقادر إلى القمن ، وإنما لحظت في إطلاقه معنى آخر
مخصوصاً عليه . . .

وأما لغة فهذا الوصف يقع على جملة معان ، منها السفك فدماء ، ومنها للمطاء ، ومنها
الانفصاح القادر على الكلام . (اللسان مادة سفح) . فلي أى هذه للمانى تحمل لقب أبى
العباس ؟ إن الرواية التاريخية وحدها ، هي التي تبيّن هذا اللنى . فهم يقولون إن أبى العباس
لقب بالفلاح أخذاً من قوله في خطبته للشهورة التي خطبها أهل الكوفة غداة
بجوع بالخلافة . . .

« يا أهل الكوفة ! أتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أتم الذين لم تنفروا عن ذلك ،
ولم يشككم عن ذلك تحمل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأناكم الله بدولتنا ،
فأتم أسد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستمدوا فانا
الفلاح لليخ والثائر للير ! » فليحظ من هذه العبارة أنه يطلب أهل الكوفة الذين أفاض
عليهم من الأوصاف الكريمة ما أفاض ، وأنه قد زاد في أعطيتهم ؛ فلي يتأتى له أن يقول
لم يبق ذلك إنه سفك فدماء ؟ هذا بعيد ، والأقرب إلى البيان والبلاغة أنه إنما أراد أن
يقول لم إنه لأوليائه كريم مطاء ولأعدائه ثامر مير . والعارف بأساليب العرب الخطابية يعلم
أنهم في مثل هذا اللقام ، مقام الترهيب والترهيب ، كثيراً ما يوردون للمانى للثبات ؛ وهذا
من قبيل قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » أخف
إلى ذلك أنه لا يحمل بحقيقة إسلامى يقول إنه تحدر من أكرم أرومة ، واشتق من أشرف
نمة ، أن يصور هذه تصوراً جاهلياً مضراً دون محاشاة ولا تحفظ . وهذا بالتأنيب
الحقاه الإسلاميين كلها أنها ألقاب جمة وأسماء حسنة توحى بمعاني الإيمان واليمين والمداية
والرشاد .

ولكن هذا التحليل البيانى لا يكون شيئاً إذا كانت الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة

تسد إلى أبي العباس عن المحدثات القليلة ما يتوَّع أن يوصف بالسفاح على معنى السفك
للدهاء . والواقع أن الرواية التاريخية القديمة والحاضرة لا تكاد تخل شيئاً من ذلك . بل
حتى لا تذكر لفظ السفاح مطلقاً عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين ؛ ومن شاء أن يضيق
فذلك فليرجع إلى كتاب « الأخبار الطوال » لأبي حنيفة البديري المتوفى عام ٢٨٢ هـ ،
وتاريخ الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ ، فيجد أن كلا للزخين لا يزيد عند الإشارة إلى
أبي العباس على قوله : « أمير المؤمنين أبو العباس » وأكثر من ذلك أن رواية هذين
للزخين ، وكلاهما من حيث الإسناد تكاد تصمد إلى عصر أبي العباس نفسه ، لا تضيف
إليه من حوادث القتل ولثة التي تمت في هذه شيئاً . والمراد بحوادث القتل ولثة التي حفل
بها ذلك العصر قتل العباسيين الأوائل بني أمية غدرًا وصبرًا . بل تولى كثير ذلك رجال غير
أبي العباس . فيقول الطبري : « وفيها (أي سنة ١٣٢) قتل عبد الله بن علي عن قتل بنهر
أبي فطرس من بني أمية ، وكاثر اثنين وسبعين رجلاً » وعبد الله بن علي هذا من الخليفة ،
وكان علي الشام ، ونهر أبي فطرس بلسطن . ويقول الطبري كذلك : « وفيها (أي
سنة ١٣٣) قتل دواود بن علي من كان أخذ من بني أمية بمكة ولديته » ودواود هذا آخر
لأبي العباس ، وكان علي الحجاز والمين . فانت ترى أن الرواية التاريخية القديمة تصب
وكل بساطة جرائم قتل الأمويين برجلين اثنين ما عبد الله بن علي ودواود بن علي . فإذا
رجعنا إلى الرواية للحاضرة لأبي العباس نفسه وجدناها موزدة للرواية التاريخية . وهذه
الرواية للحاضرة هي تلك القصيدة للزرة البليغة التي روى بها ابن أبي شبة القتيبي مواليه من
بني أمية ، والتي يقول في مطلعها :

قول أمية لما رأيت نشوري عن الضجج الأرض
وقلة نوى على مضجعي لدى حمة الأمين النمس
أبي إمامك ؟ قلت للمسلم عروون أبك فلا تبلى ا

ويقول فيها سدياً للواضع التي قتل فيها بنو أمية :

أغض للداغ قتل كذا وقيل بكنوة لم ترمس
وقتل عروون باللاتية من من يرب تحيرها أغض

والبزابين غوس فوت وأخري بنهر أبي غارس .

أولئك قومي أناخت بهم غواب من زمن مهنس .

وكذا وكثوة ورج واللاتان أسكنة بالمجاز ، وهي التي قتل صندعا دلود بن علي من قتل من بني أمية . والزبان موضع واقعة الزاب التي قاتل الجيش العباسي فيها عبد الله بن علي ونهر أبي غارس ببليطين وهو الذي قتل عنده عبد الله بن علي الأمويين غديراً وصيراً كما ذكرنا . ولا يذكر الشاعر وهو يمدح معارح قومه الحيرة ولا السكوة ولا الأنبار وهي للرواح التي تزلها أبو العباس في خلافته ؛ فالرواية الباصرة . والرواية القديمة تطقان براءة أبي العباس من دماء الأمويين وعملان غيره وزرها .

• • •

ولنعرض الآن بالأعجاز الروايات المتأخرة والحديثة . وتزيد بها الروايات التي ظهرت منذ القرن الرابع إلى أيامنا . فليحظ قبل كل شيء أن تلك الروايات على وجه العموم تلقب بأبي العباس بالفلاح ، مخافة في ذلك الرواية القديمة . وهي تمت ذلك الخليفة بالفلاح على أنه سفك قال ، فصاحب كتاب الأغاني الذي ينسب إلى بني أمية وللتوفى عام ٢٥٦ يبنون فضلاً في كتابه (ج ٤ ص ٩٢ - ٩٦) بقوله : « ذكر من قتل أبو العباس الفلاح من بني أمية » ، ويذكر أبو الفرج فصله هذا على قصة سيفي الشاعر ، فيزعم أنه دخل على أبي العباس بالحيرة وعنده يوه هاشم ويتر أمية فأنشده قصيدته :

أصبح للبك ثابت الأسس باليهليل من بني العباس

ويقول فيها محمداً الخليفة على الأمويين :

لا تحيلن عبد شمس عثراً ولطين كل رقعة وغراس

نخروهم أظهر التمسود منهم ودهم منهم كحز للوأس

قال خنيزكون أبي العباس ، وأسر بن في مجلة من الأمويين فأهدوا ، وتزيد رواية أبي الفرج أن الخليفة أسير بسباط فيسط على جوم الأمويين وجلس فوقه يأكل ، فشا فرخ من الأكل أسيرهم فالتوا في الطريق ، فكانت الكلاب تحرم بأرجلهم ، إلى آخر مذكور وجه الله . ويورد ابن الأثير للتوفى سنة ١٧٠ فيمن الشعر والمطابقة ، ولكنه يضيف

النسر إلى شاعر آخر هو دبل بن عبد الله والحادثة إلى عبد الله بن علي ، إلا أنه يقب على ذلك بقوله : « وقيل إن سدياً أشد هذا للنسر للفتح ومه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم » .

فأنت ترى أن ما نصت عليه الرواية القديمة بكل وضوح وجلاء ، وعرته إلى عبد الله بن علي في يوم نهر أبي ظرس قد عزاه أبو الفرج إلى أبي العباس ، وتورد فيه ابن الأثير بين النقي والإثبات . على هذا الخلط والاضطراب تقوم الرواية المتأخرة التي تصور أبا العباس شخصية قوية بشدة تذكرنا بشخصيات تبتكر خان وهو لا كو ويسود لك . . وقد اتهم للزورخون المحدثون هاتين الروايتين ؛ فمنهم من أخذ برواية أبي الفرج مثل قاتل الأتاني في كتابه « تاريخ الخلفاء » ، ومير الإنكليزي في كتابه « تاريخ الخلافة » ، وللرحوم الخضرى بك في تاريخ الدولة العباسية ؛ ومنهم من أخذ برواية ابن الأثير مثل للرحوم جورجي زيدان بك في الجزء الرابع من تاريخ المتمدن الإسلامي .



أما بعد ، فإننا لم قصد إلى الدفاع عن أبي العباس دفاعاً مطلقاً ، ولكننا أردنا إضفاء من طريق البحث العلمي . وعندنا أنه إذا كانت يد قد برئت من فناء المؤمنين فلهذا لم تبار من دم ابن هيرة الذي استتره أخوه أبو جعفر من منعه بواسط على الأمان . فإن أبا العباس لم يجز أمان أبي جعفر ، وقتل ابن هيرة خذراً ، ناسياً قول صاحب الشريعة الحمدي : إن ذمة للمؤمنين واحدة يميز عليهم أديانهم . ولم يكن أبو جعفر في الحق أدنى للمؤمنين ، بل من أعلام وأشرعهم . والرواية القديمة تنزوي إلى أبي العباس هذا الحادث دون أية موارد ، ولكن ذلك لسرى لا يسوغ أن يوصف بأنه سفاح للدماء ، وهو ما نصبتنا أنفسنا عليه عنه .

حتى أن يقال إن أبا العباس كان الظليقة وهو المشول الأول من جرائم عماله . ولكن يرد على ذلك بأن الضر كان عصر زعازع وهزلعز ، وأن أبا العباس كان مغلوباً على أمره لعنه عبد الله بن علي بالتراب ، ولأبي مسلم بالشرق ، ولم تصف الخلافة والسلطان لأخيه

أبي جعفر من بعده إلا بعد أن تخلص من حزين الجبارين وقد انتم الله منها على يديه
أشد الاعتقاد .

تري هل ثبت أبو العباس على هذا التمهيد ؟ وهل خرج منه كما دخله ، فكان أولا
وأخرا ذلك الخليفة الشاب الرسيم الضيف ، الرفق الكريم الطروب القصد الحرير على
محادثة الرجال ذوي القول ؟
أكبر القائل أن قد فعل ؟

هارون الرشيد^(١)

بين التاريخ والقصة

هارون الرشيد شخصية من أشهر شخصيات التاريخ الإسلامي ، وأكثرها تداولاً على الألسنة ، وأشدها شيوعاً في الأدب العام . ومع أنه شخصية تاريخية بحجة قد أسبغ عليه القصاص ثوباً خائفاً من زخرفته ورواقه ، وتناوره الوضع والأحداث من نواح عدة ؛ فالتبس وجه الحق فيه على جمهور التأديين ؛ ولم يسل من الرمق أسره غير واحد من الخاصة أنفسهم وزيد في هذا البحث أن تعرض لتلك الشخصية بقدر ما يسع المقام كما يصورها التاريخ الثابت أولاً ، ثم كما يصورها القصاص ثانياً ، وأن نبين بعد ذلك مدى الاتصال بين التصويرين .

- ١ -

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى المهدي بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . أما أمه فأم ولد اسمها الخيزران . وكما كان أبوه وجده من أقوى الرجال إرادة وأشدم شكية ، فقد كانت أمه جروح النفس وكانت إلى ذلك موفورة الحظ من السلم ؛ أخذته كايروي العلوي عن الأوزاعي إمام أهل الشام . ولد هارون باري سنة ١٤٨ هـ وذلك أيام كان أبوه والياً على خراسان من قبل المنصور . فلما جاوز حمد العقوبة دفع به أبوه إلى يحيى بن خالد البرمكي ليتولى الإشراف على تربيته وتثقيفه فأنشأه يحيى على آداب ملوك الفرس من بني ساسان ؛ فكان هارون يحب العبيد والنقص ؛ ويلبس بالبروس والصولجان والشرنخ ، ويشهد سباق الخيل في ميادين السباق . أما تربيته فقليل وصيغه هو إلى الآخر القسوى مزودب ولده الأمين تربيته كيف علم ؛ وكيف كان يعلم ولادة المهدي في ذلك الزمان ، فهو يقول فيها : يا أحرار ! إن أمير المؤمنين

(١) السياسة الأسبوعية (سنة ١٩٣٢) (٢) .

فقد دح إليك مربية فضة ونمرة قلبه . فتصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة . فتتمكن له بحيث وضعت أمير المؤمنين وأمره القرآن ؛ وعرفه الآثر ؛ ورواه الأثر ، وطعه الفخ ، وبقصره مواقع الكلام وبعده . ولست الضحك إلا في أوقاته ، وعنده يتعظيم مشايخ بني حاشم إذا دخلوا إليه ، وروى مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تخزن بك ساعة إلا وأنت مستمع فيها قائدة تبيده بلأها ، من غير أن تحرق به ضيعة ذهنة ، ولا تمن في مستأجته فيسجل الفراغ ويألفه . وعرفه ما استطلعت بالقرب وللأينة ، فإن أباهما فضلك بالثقة والنظرة .

فلما ترمع واشتد ساعده أخذ أبوه يدربه على فنون الإدارة والحرب ، فأقره الروم مرتين في سنة ١٦٣ هـ ، ١٦٥ هـ وفي سنة ١٦٣ هـ . ولأه على اللرب كله وجعل على رسالته يحيى بن خالد . وفي سنة ١٦٦ هـ أخذ له البيعة بولاية الهند بعد أخيه موسى المادى وكتبه (الرشيد) ثم لم بأن يقدمه على المادى في الخلافة لما رأى من مخايل كفايته ومقدرته ؛ ولكن موته فجأة في عام ١٦٩ هـ فانه عن إختار ما أراد .

فلما تولى المادى حاول أن يجمع حارون ويبيع لابن له صغير ، ولكن حارون أبى أن ينزل عن حقه ، وشد أزروه في ذلك مريبه وكان يحيى بن خالد . فغرضها المادى لأول من الاضطهاد ؛ حتى طالب حارون قسماً بالطلع وأخيراً لم يتبع يحيى من الملوك ، وحتى حارون من الضياع ، إلا موت المادى فيلة في الحرم من عام ١٨٠ هـ وبذلك أصبح حارون خليفة على الدولة العباسية .

- ٢ -

كان الرشيد عندما آلت إليه الخلافة شاباً في مقتبل العمر ، موقور الثقافة ، تام الفروسية سم الحياء ، ودين الطائفة . هذا إلى علاحة وصف بها ؛ فقد كان أبيض طويلاً وسيما ضيقاً . فهو بذلك قابل لصل نظير إذا وجد ما يوجهه إليه ، وفضل الشر إذا صادف ما يصرفه إلى الشر ، والتورية أن يكون في مثل حاله إنما يصدر عن نظام الحكم الذي تكون الدولة قائمة له وبحكومة بمرجبه . ذلك بأن لأظمة الحكم تأثيراً في أخلاق الناس حكماً كانوا أو محكومين . وقد لحظ هذا المذهب كل من كتب في السياسة والأخلاق من هذه الإفریق

القديماء حتى وقتنا الحاضر . فما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غير ما على عهد الخلفاء الأوائل . خلافة العباسيين تختلف عن خلافة أبى بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم ولكن يسلطوا هذه النظرية الصفة الإسلامية زعموا أن الخلافة موروثة عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الوراثة ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها . وفى هذا الذى يقول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذلك بكان لى للنبات وراثه الأصنام ؟

ويقول أول خلفائهم فى خطبة التى خطبها الناس عند مبايعتهم بالكوفة : وأعلموا أن هذا الأمر فىنا ، وليس بخارج منا حتى نسله إلى عيسى بن مريم عليه السلام . ويقول للفرس من خطبة له : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم برفيقه وتأيدوه . وحاربه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأحليه بإذنه ؛ قد جعلنى الله عليه قلا ؛ إن شاء أن يقتنى فتحنى لإصطانتكم وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقتلنى عليها أقتلنى ... ولكن فترك ملى التفسير الذى أجاب الخلافة على عهد العباسيين فتكنى بأن نورد بعض خطبة أبى بكر التى خطبها على أرض بيته ، قد قال : أيها الناس ! قد وليت أسركم ولست بخيركم فإن أحببت فأمينونى ، وإن أسأت فقومونى ... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإنما عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... كما نورد الشعر الذى خاطب به الحليظة عمر بن الخطاب بعد أن بوجع ، قال :

أنت الإمام الذى من بد صاحبه أتى إليك مة اليد النعى البشر

لم يؤذوك بها إذ قدموك لها لكن لأغصهم كانت بك الأثر

وكا ورت الرشيد الحكم بموجب النظرية للذكورة ، قد ورت بالإضافة إليها ما يصح أن يستمر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط وهو شئ أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعاية فى بلاطهم ، يحف بهم جم فقير من الحاشية والحجاب والحراس والتملمان والنساء والجواري . وكثيراً ما كان

بلاط فارس بهذا الخليط مبعث اللسان والفتن السياسية كما يرى من تاريخ الآخرين من السياسيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السوء في الشئون العامة لأول ظهوره ، فقد ذهب للهدى والمخادى ضحية مكاييد وبرت لم في نفس بلاطهم . حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط يحكم تكوينه ذو جو صالح للفساد والمكاييد . ذلك هو النظام السياسي الذي أصبح الرشيد خليفة بقرضه وفي حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذي يحكم في ظله قويا كان من أقوى أسباب الاستبداد والظلم . وإذا كان ضعيفا كان من أقوى بواعث الفتنة والاضطراب .

وهذا بالدقة ما يثبت تاريخ الدولة العباسية ، فالتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالنصور والهدى والرشيد والتوكل كانوا حيازة طاعة . أما التأخرون الذي يوصفون بالنصف فقد كانوا الأعياب في أيدي أهل البلاط ونساء القصر ، يصرفونهم كيف شاموا وشامت أهواؤهم .

— ٣ —

على أن الرشيد لم يقبل دفعة واحدة أمر هذا النظام ، فصر منه وحدانية عهد الحكم يحولان بطبيعة الحال دون هذا التبدل السريع . لذلك نجده كالمتروك بأنه لم يبلغ بعد أن يضطلع بشئون تلك الدولة الخطية ، يفرض الأمر كله إلى أستاذه وزوجه يحيى بن خالد البرمكي ، وقد بلغ من تخفيه به وإعظامه له أنه كان لا يتلو به إلا « يا أبت ا » .

ويحيى هذا هو يحيى بن خالد بن برمك . وكان برمك في مبدأ أمره سادن معبد بونى قديم بمدينة بلخ يقال له (التوبهار) ثم اعتنق الإسلام في أواسط الدولة الأموية واتصل بمعبد الملك بن مروان وابنه هشام ، ويقال إنه شفى هشاماً من مرض كان به . وقد اشترك ابنه خالد في أمر الدعوة العباسية وأبلى فيها ثم استوزره للنصور لأمانة رأيه وكفايته وإن كان ذا ميل أممية لم تخف على النصور . وقد ورث ابنه يحيى فضائله وكان لذلك أثراً لدى الهندي . فلما تولى الرشيد أطلق يده في شئون الدولة فاستعان يحيى في إدارتها بأولاده الأربعة الفضل وجعفر وموسى وعبد وكلهم كاف قدير . وقسم أمور الدولة بينهم وصار يرسل عليهم في معالجة الحوادث الخطيرة . فالفضل هو الذي استنصحه يحيى بن عبد الله العلوي الذي تار

جلبيرستان ، وإلى موسى وجعفر يرجع الفضل في القضاء على فتنة العرب بالشام .
والخلاصة أن البرامكة خلبوا على كل شيء في الدولة وأداروها بإدارة حسنة ، ولكنهم إلى جانب ذلك قد شلوا سلطان الرشيد حتى كادت شخصيته تفتى فيهم .
وبلو البرامكة وهم أسرة فارسية كما تقدم القول ، علا شأن التنصر الفارسي عامة ،
وتحقق ما كانت موالى القرامن ترى إليه من إسقاط الدولة الأموية العربية ، وإقامة الدولة
العباسية التي كانوا عدتها وعمل عصيتها .

وقد أدرك العرب بوادر هذا الاغتيال منذ قامت الدولة العباسية فكأوا يسيرون عن
منازلتهم لها وسخطهم عليها بالثورة حيث يكثر عدم وخضة بالجزيرة والشام ومصر .
فكان الخلفاء العباسيون الأوائل يلقون ثورتهم بالشف وتفرق الكلمة جيد استطاعتهم
لهم أن العرب أنصار الدولة الأموية القابضة . لذلك نجد قادة العرب يدلون عن الثورة
إلى الدعاء واصطناع الخنز .

كان بنو هاشم على رأس الحزب العربي بينداد ، وكان يمثل هذا الحزب يلاط الخليفة
بخصمان الفضل بن الربيع والبيدة زبيدة .

أما الفضل فكان رجلاً واسع الطامع ، سم الدعاء ، قادراً على اللبس والرقبة ، حافداً
على البرامكة ، والذي يقرأ مدائح أبي نواس فيه يرى أنه كان يستعين بالشراء على قسب نظر
الرشيد إليه .

من ذلك قول أبي نواس مخاطباً الرشيد :

قولا لهارون إمام المدي عند احتفال المجلس الخاشد
أنت على ما بك من قدرة قلبت مثل الفضل بالواجب
ليس على الله يستنصر أن يجمع العالم في واحد

وكان من ذلك أن استجابه الرشيد في عام ١٧٩ م كان محمد بن يحيى اللومكي ،

أما الزعيم العربي الثاني إذا صح هذا الوصف فلم يكن غير البيدة زبيدة خبيثة أبي
جعفر النصور وزوج الرشيد وأم ولده محمد الأمين .

وهي امرأة حليّة الراعب موفورة الثقافة شديدة البهاعة بقبها المشاي وكان الرشيد رحلها ويصرف لما كانتا للتأزّة . وكانت هي أيضاً مباحدة للولعة منتبهة على يحيى وكان إليه أمر النصر فكان بذلك يضيق عليها ويتمادى على أخذ أوامرهما حتى إنها شكته إلى الرشيد فلم يرد الرشيد على أن عتب على يحيى في ذلك .

ومهما يكن من شيء فقد تركت العائنة بين العرب والعجم إذ ذاك في أمر ولاية العهد فأما العرب فكانوا يحرمون أشد الحرص على أن يعقد الرشيد البيعة بولاية العهد لحمد الأمين العربي الأيوبي ، في حين أن القرس كانوا يحرمون على أن يكون الذي على الرشيد في الخلافة عبد الله للأمن القاسي الأم .

وقد حار الرشيد في الأمر حيرة شديدة . وأخيراً غلب عليه النفوذ العربي فبعد البيعة بولاية العهد لحمد في سنة ١٧٥ وكتبه « الأمين » فكان ذلك سبباً في أن يجد القرس في الأمر حتى اضطر إلى أن يبايع بولاية العهد لابنه عبد الله في سنة ١٨٣ على أن على بعد الأمين واتبه « للأمن » ثم أوعز إلى الشعراء وإلى عمه عبد الملك بن صالح أن يطلبوا إليه البيعة بولاية العهد لابنه القاسم فعملوا ففعلها له في سنة ١٨٦ على أن على بعد الأمين وللأمن وكتبه « للزمن » . فكلوا ولم يمتنع من البيعة لابنه للشمع إلا كونه أمياً وغير متعلم بخلاف أخوته للذكورين .

ثم بدا له تنقذ الأمن على الأمين فتم بأن يقدمه عليه في ولاية العهد ، ولكنه لم يفعل وكل الذي صنع أن قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة للذكورين ، فجعل للأمن الأقاليم الشرقية التي ينسب عليها النصر العارسي وللأمين الأقاليم الغربية التي ينسب عليها النصر العربي . وجعل الجزيرة والقفور لابنه للزمن .

ثم لحظ الخطر الذي يهدد الأقاليم الشرقية فأوصى للأمن على وسلاح كثير تقوية له وجعل إليه أمر للزمن إذا آلت إليه الخلافة ، إن شاء أمضى فقد يمه وإن شاء نقضه . وجعل الخلافة بعده لمن شاء . ولكن يترك هذا النظام صحيح في سنة ١٨٦ واستصحب ابنه « الأمين » وللأمن . فكلما كان بمكة كتبت حروفاً ثلاثة لمنسب فيها لليناق على ابنه أن يعرض كل منهما حتى أخيه عليه ، كما أخذ العهد على وجال الدولة أن يكونوا على من بدل . وبغير حق

بعد . ثم أمر فنان البهتان الأولان في جوف الكعبة تركيزاً لها وتغنياً لثانها .
 لاشك في أن ذلك النظام القبيح وضعه الرشيد لأسر الخلافة من بعده لا يشرف مقدرة
 السياسية كثيراً فهو متعنى خطأ الرأي وفساد التدبير . وإن الفتنة التي وقعت بعد بين
 الأمين والأمين ، والتي صدعت وحدة الدولة السياسية حيناً من الزمن لتقع تحتها على طاق
 الرشيد غصه . لقد حرص الرشيد في وضع النظام المذكور على إرضاء الأهواء المختلفة بدلاً
 من أن يجعلهم الحزم ويتوخى مصلحة الجماعة . وقد لحظ ذلك معاصرو الرشيد غصه .
 قال شاعر من شعراء ذلك العصر :

رأى للأك للهذب شر رأى بقسمة الخلافة والبلاد
 رأى ما لم يتعبه جـلم لثيب من مغالقة السواد
 أراد به ليقطع عن بينه خلاصهم ويحذوا الروداد
 قد غرس المداوة غير آل وأورث شمل أقتهم بدوا
 فويل للربة عن قليل قد أهدى لها الكرب الشداد
 متجري من دعائم بحور زواجر لا يرون لها شادا
 فوزر بلائهم أبداً طيه أغيا كان ذلك أم رشادا



وعلى أثر انصراف الرشيد من حبه للذكور راع العالم الإسلامي بمحدث لا تزال
 أسبابه على الرغم من كثرة ما كتب وقيل فيها مبهمة غامضة ، ذلك لإقاعه بالبرامكة في
 عام ١٨٧ . لقد تعددت الروايات الواردة في تحليل هذا الحادث الحزين ولكنها كلها لا تنفي
 خطة الباحث . فالرشيد لم يصرح لمرط دهائه بسبب نكته البرامكة ، وترك الأمر يتعذر
 إلى الأجيال من بعده لتراً غامضاً . ومن جهة أخرى فإن البرامكة لم يرتكبوا جرماً واضحاً
 دافعاً عنهم يمكن أن ينتبه السبب المباشر في نكبتهم . قالوا إن السبب في هزيمتهم
 بمقتضاهم بالأموال واحتيازهم الضياع الطارة ، وهو سبب غير وجيه لأن من يقدر على انتزاع
 رطلينج والأرواح أقدر من باب أولى على انتزاع الأموال . وقدلوا إله الزندقة وعدم النصيح

للإسلام ، وهو أمر لم يصح لأهلته الرشيد إقامة للعبة على البرامكة واستشارة للرأى العام الإجمالى عليهم . وقالوا إن السبب تشييمهم للمؤمن وسبيهم فى ظل الدولة إليهم وإعانتهم بحى ابن عبد الله العلوى على الثورة بالرشيد . وهو سبب غير وحيه لأن البرامكة إنما عارضوا بالدولة السياسية وبنوا ذروة الجدل فى ظلها فإذا يحملهم على التضحية بذلك والمخاطرة فى أمر قد يتحقق وقد لا يتحقق ! ثم هو على فرض تحققه لن يزيلهم شيئاً غير حاصل فى أيديهم بالقتل . وقالوا إن زواج جعفر بن يحيى من العيلة أخت الرشيد واتصاله بها سرّاً رغم حظر الرشيد ذلك عليهما ، وهذا السبب عندنا خرافة شعوية زيفها ابن خلدون فى مقدمته . وسنعرض لما فى موضع آخر من هذا البحث .

إن الذى ترجحه ، ولا سييل فى هذا الموضوع سوى الترجيح ، ونرى أنه السبب الجمهورى فى إيقاع الرشيد بالبرامكة إنما هو استنارهم بالسلطان حتى كادوا يخلعون الرشيد . وقد قلنا أن حكومة الرشيد حكومة استبدادية مدعومة بفسكرة قهية اجتلبها السياسيون لاجتلاباً ليكنوا لأعضهم . وللتبديل لا يطق أن يشاركه إنسان فى السلطان الذى يراه حقه للشروع . ولا سيما إذا كان فى مثل دهاء الرشيد وشدة اعتدائه بنفسه ، ولم يصير الرشيد فى مبدأ الأمر على غزو البرامكة إلا لصبر منه وقد تجاربه . فلما صلب عوده وانست خبره وشرب بحقه لم يعد لصبر عنده موضع ولا مصلح .

وقد وجد خصوم البرامكة من العرب وعلى رأسهم الفضل بن ربيع وكاتب البرامكة إسماعيل بن صبيح ، مجال الحاية واسعاً ، فقبولوا يجيئون فيه ويوضعون فأوهوا الرشيد بما يصح أن يخبره السبب للبشر فى إيقاعه بهم ، أو هو أن البرامكة على اتصال بخزائن التى انبثت منها الثورة بالأموين ، وأن الجيش الضخم الذى حشد الفضل بن يحيى هناك لتأمين الحدود الشرقية فى الظاهر إنما هو فى الواقع لأسر أبل وغرض أعظم . وأن موسى بن يحيى على اتصال بخزائن وأنه يكاتب أهلها ليسر إليهم ويخرجهم عن طاعة الخليفة . وصارت الكتب ترد على الرشيد غلابل من توقيع أصحابها كالسهم للسومة يرى بها فى الظلام ، وكلها تحذر الرشيد من البرامكة وترى أنهم على وشك أن يدفعوا به فى هاوية بييدة القرار . كل ذلك آثار هو ليس الرشيد ، وجده يهتد أن الأمر يتبين وبين البرامكة هو عين

بالجلاء ، وأنه أمر حياً أو موت . وإذا بلغت الحال تلك للذي قاله كل الويل لأولئك
والذين جزوه بإحسان وغداً يوفاء . بقدر نبهوا عنه من لا ينهم ولا ينهم .

لا شيء أدل على أن الرشيد قد استكمل الهداء والحزم والتعصم وأن نظام الحكم الذي
موصفاً قد عمل فيه عمل تصانغ منه جيلاً عتيقاً ، من سعيه في استرداد سلطته والتكثيف
بالبرامكة ، قد سار في الأمر بحذر شديد لتأصل بالجمهور مباشرة وجعل يعني بما يحبه ، من
إصلاح لنظام المال استعان فيه بقاضية أبي يوسف ، ووفر على التزويج والحج في الواكب
مما تافهه رايكاً ونشياً ، واصطناع الطبقة للسكر من قهواء وعلاء وشراء ، وإغراق للأموال
على الناس وبخاصة في حجة التي حجها عام ١٨٦ ، والأخذ الشديد لنفسه مقتدياً في ذلك
بمحمد للنصور . وقد تم له ما أراد فقلت مكانته في القنوس وتشتدت حية الناس له . عند
ذلك تفكر البرامكة ولكن في حيلة ولحتراس ، بقا عاد من الحج وكان يمكن يقال له
(المر) قريب من الأتباع أخذ أوامره في ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال متابعي
البرامكة واستعفاء أموالهم . ثم إنه أمر بقطع حية جعفر ونصبها على جسر بغداد الثلاث ،
ويطيط العذاب على يحيى والفضل حتى ماتا في السجن ، ونعى الثراء عن أن يروا البرامكة
أمويد كروم في شيزم ، وتوعد من يفعل منهم ذلك . وتقول للصادر القارسة إن الرشيد
قتل البرامكة نحو ١٢٠٠ نفس ، ولكن للصادر القارية . وهي الأقوى لا يؤخذ منها ذلك
بالحق أن البرامكة إنما نكبوا في سلطانهم وأموالهم بدليل أن ذريتهم بقيت بعد هذه
الذكارة أجيالاً طوالاً .

وقد ظلت حية جعفر منصوبة على جسر بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه إلى
بغداد عام ١٩٣ فأمر بإزالتها وإسقاطها . يقول صاحب الخبر في كتابة رواية عن بعض
معاصري الرشيد « دخلت الديوان فظفرت في بعض فداكر البواب ، فرايت فيها أروية
سألت ديوان (١) فمن خلعة لجعفر بن يحيى للوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرايت تحت ذلك
عشرة قراريط من غطاء وباري لإحراق حية جعفر ويحيى فنجبت من ذلك » .

قد شق الرشيد نفسه بتكبة البرامكة ولكنه لشق ذلك بقتل الثغالي ، فإن
بطلان خطر التي أصاب دولاب الإدارة العامة وعدم كفاية آل الرعي الذين سلبوا البرامكة

كل ذلك اضطر الرشيد إلى دوام الحركة غربا وشرقا لإخلاء الثورات التي كان يهدد من قبل بإلقائها نازحتها إلى البرامكة، وقد أدرك الرشيد خطأه، ولكن بعد أن سبق السيف العذل فاشتهد به القدم وتوبيع الضير وأخذت سمته تضعضل، وسلط عليه الأرق؛ فلذا نام فقوم مزروع بالأحلام للفرقة. وغدا محتاجا إلى من يمسره في جوف الليل لينق منه الوحشة كما أصبح محتاجا إلى من يدخل السرور على قلبه الرجل: فانخذ مضحكا اسمه ابن أبي مريم اللدني، وصار يرتاح إلى الوعد والوعيد في الدنيا، فلذا وعظه ابن السكك أو أنثيده أبو السباعية خشم قلبه وفاشت دمعه. حل أن شر ما ابتلى به الرشيد بعد ذهاب البرامكة فتور العلاقة بينه وبين رعيته، قد أصبح خروفا سرهوا بعد أن كان مهيئا محبوبا. وصاروا يشبهونه بالدمى في قلبه وغفرت. قال أبو نواس وقد مر بعد ذهاب البرامكة بدور آل الربيع:

مارى الدهر آل برمك لما أن رى ملكهم بأمر فظيع

إن دهر المربع هذا ليسى غير راع فقام آل الربيع

حق ابتلاءه، فأنهم أصبحوا يستطيلون حياته ويستنون زوالها. فلما إته لما سار سنة ١٩٢ إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الصنم «سار» الصباح الطبري قال له يا صباح أما أظنك ترائي أبدا فغما له. قال ما أظنك تدرى ما أجد، قال الصباح: لا والله. فعدل عن الطريق، واستظل بشجرة، وأمر خواصه باليد فكشف عن بطنه فلذا عليه عصاة حرير، قال هذه علة أكتنها الناس كلهم، ولكل واحد من ولدي على رقيب، فسرور رقيب للأمن، وجبرائيل بن عتيشوع رقيب الأمين، وما منهم أحد إلا وعصى أغشى ويستطيل دهرى. وإن أردت أن تعلم ذلك قل ساعة أدع بداية فيأتوق يبرقون أبغف ظفوف يزيد علقى. فأكرم على ذلك. فدعا له بالبقاء. ثم طلب الرشيد دابة لحماها بها على ما وصف، فنظر إلى الصباح وركبها.

ولم تطل حياة الرشيد، قد اشتعلت به العلة في خرجته هذه وما خلقه حتى إته لما حي. بأخى رافع بن الليث قتله شر قتلة وم بأن يفعل مثل ذلك بطييه جبرائيل بن عتيشوع لأنه أخطأ في علاجه فولا أن للوت عاجله بمدينة طوس فدفن بها، وكان ذلك في جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هـ.

إذا كان الرشيد لم يوفق بوجه عام في مجال السياسة الداخلية، فإنه كان على عكس ذلك في ميدان السياسة الخارجية، فقد أظهر فيه نشاطاً وصرورة وكفاءة تشهد له بالبراعة الدبلوماسية. كما يؤخذ من المصادر العربية التي تعرضت لعلاقة بالدولة البيزنطية ومن المصادر الأوربية التي تعرضت لعلاقته بشرلمان ملك الدولة القرمجية. فقد كان في العالم الإسلامي والعالم المسيحي إذ ذاك أربع دول كبيرة: اثنتان إسلاميتان متعادلتان هما الدولة العباسية والدولة الأموية بالأندلس واثنتان مسيحيتان متعادلتان كذلك هما الدولة البيزنطية والدولة القرمجية وكانت الحرب متصلة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية؛ من أجل ذلك نجد الرشيد يحسن التنوير الشامية والجزيرة ويتولى بنفسه غزو الروم ويفرض الجزية على ملكهم لإرضى وملكهم فتور لتدنى جاء بعدهم. وكذلك كانت العلاقة مقطوعة في القرب بين شرلمان وأمرؤ الأندلس. وقد أسفرت هذه الحال عن تحارب بين بيزنطة والأندلس وتحارب متله بين الدولة العباسية والدولة القرمجية. ولكن لم يتم اتفاق بين بيزنطة والأندلس، في حين أن الرشيد وشرلمان تبادلوا السفارة والمدية، وأجرم بينهما اتفاق لا تدرى مضمونه بالتحقة. غير أن قرآن الأحوال يدل على أن الرشيد تصمد بحماية حجاج أوربا القرمجية من عدوان البيزنطيين عليهم بيت للقدس، وكانوا يخافون في مذهبهم الذي أهل أوربا القرمجية، كما جهد شرلمان ألا يبين بيزنطة على الرشيد، وأن ينهر على الأندلس، فغالب عليه منها تولى حكمه باسم الرشيد. قالوا: ومن أجل ذلك بحث إليه الرشيد بخطة رسمية وعلم عباسي.

وقد انتفع الرشيد وشرلمان كلاهما بهذا الاتفاق، فأوغل الرشيد في أرض الروم، كما أوغل شرلمان في شمال الأندلس وشرقا مع إقراؤه المال للسلين على ما غلب عليه. ويذهب للزوخ الإخباري بكل إلى أن الرشيد أصبح يتشبه على فتور البيزنطى بالحرب، ويضربه على شرلمان بالسياسة قد حاز من سعة الملك ما يغرق ملك الإسكندر المقدوني.

ومع ذلك لم تكن السيلة بمناعتها الزوج الجمال الذي ظهرت فيه براعة الرشيد ومقدرته
الإنشائية . إنما سطعت النواحي الثيرة من نفس الرشيد في مجال العلم والفن ، وهو في
ذلك يشارك غير واحد من عظماء التقديرين للشيخين أمثال الإسكندر وفرديك الأكبر
ونابليون ولويس الرابع عشر وكبار سلاطين آل عثمان . وكان الرشيد نفسه من أوجد رجال
عصره علماً وفناً وأديباً . كان لا يفي في تحصيل العلم حتى يجد أن يستخلف . يقول
السيوطي : إن للأمون أخذ الحديث عن أبيه ، ويقول رواية عن القاضي الناضل : « ما أعلم
أن ملكاً رحة قط في طلب العلم إلا الرشيد ، فإنه رجل يوليه الأمين والأولون إسماع اللوطاً
على مالك رحة الله . قال وكان أصل اللوطاً ببيع الرشيد في خزنة المصريين ، قال ثم رحل
ببإيعاز السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية فسمه على ابن طاهر بن عوف
ولا أعلم ثالثاً لهذا » . والرشيد شعر رقيق وصل إلينا بعضه . فمن ذلك قوله يرثي جارية له
اسمها حيلانة :

فأرت عيشي حيث فارتقتها فما أبلى كفيما كانا
كانت هي الدنيا ففارت في قريحا فارت دنياها
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بك ذلك إنسانا

على أن غير الرشيد في هذا المجال ليس بأقلوه الشخصية ، ولكن يأتيه على العلماء
والفناء والشراء والموسيقين واجتذابه إليهم إلى العاصمة بما كان يرفدهم به من الطائفة الجسام
ليكونوا جالة هوبدها ، وعدداً هو واسطته . وقد خلقت بغداد في عهد بأقطاب العلم والأدب
وفن ، حتى كان الرشيد لا يسمع على ما به واحداً أوجه منهم ليلاً ونهاراً . من هؤلاء المسموعين
وأبو عبيدة الرازي ، والفنانيان ، والكسائي ، النحوي ، والرائسي للزورخ ، وأبو برزخ النخعي
وسروان بن أبي حفصة ، ومسلم بن الوليد ، وأبو النخعي وأبو نولس والعباس بن الأحنف
وكنهم من غرول الشراء . وقد تانت النساء الرجال في ذلك اللبدان فكثير الجوارى
الأديبات وكان للسيدة زبيدة مائة جارية كلهن يحدن حفظ القرآن .

وكان الرشيد يتقدم لكل طبقة من هؤلاء جلساً خاصاً ، فقلما جلس بجسطة معهم فيه ولا يأخذ أن يتعلم فيه منهم ، والشراء مجلس يسمع فيه أشعارهم ويتقدمها ويميزهم عليها بالجزائر السنية . وللمتدين مجلس يسمع فيه الرشيد غناهم من وراء حجاب ، فإنما سرُّ ما يسمع وطرب أمر فرفت الستارة للفرقة بيته وبينهم واستأنس به أهل المجلس : ومن كبر مفتي ذلك العصر إمامهم وإسحق الرضائي وابن جامع .

وكان لفراسطة ولألا الربيع مجلس من هذا القبيل . قال للسودى : كان يحيى بن خالد ذابحاً ونظر له مجلس يجمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل . فقال لم يحيى وقد اجتمعوا عنده قد أكثرتم الكلام في الكون والظهور ، والقدم والحدث ، والإنبات والنقي ، والحركة والسكون ، واللهاة واللبانة ، والوجود والعدم ، والجبر والطرفة ، والأجسام والأعراض ، والتبديل والتحرير ، والكيكية والكيكية ، وللصاف والإمامة أنصحنى أم اختيار ، وسائر ما يورد من الكلام في الأصول والفروع ؛ فقالوا الآن في الشئ على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سئله فيه وخطريه . قال : . . . كان لهذه المجالس العلمية أثر كبير في تكوين اللغة العربية وتهذيبها وبث النهضة العلمية الإسلامية ، وقد اعتنى الرشيد في هذا . ثم سرت عادة هذا إلى الأندلس فكانت من دواعي رقة الأدب الأندلسي وعذوبته .

- ٦ -

تلك شخصية الرشيد كما يعرفها التاريخ أو كما تصورنا لنا الصفحات الكثيرة التي أفردتها تاريخه وأخباره كبار المؤرخين وأصحاب القرايم كالطبرى والسمرى وأبى الفرج الأصفهاني . فعلى في جلته شخصية حاكم متبدي متغير ، فيه ضعف الاستبداد وقوة التسامح . فهو حريص على الأبهة والعظمة ، قليل الاتزان في تصرفاته ، إن رضى بلغ غاية الرضا وإن سخط كان طائش السيف ، مغرط القوة ، لا يعرف القفو عند القدرة ؛ حقود ، غير قادر على الحب الصحيح والولاء الصادق ، ولكنه مع ذلك سياسى ماهر قد ترك دولته وهي أقوى وأعنى ذول الأرض ؛ ثم هو فوق ذلك كله من أكثر ملوك الأرض حباً للعلم والفن والأدب وأشد تشجيعاً للعلماء والأدباء والفنانين .

فذلك هو الرشيد في التاريخ ، أما الرشيد في القصص فإنسان آخر ، هناك طائفة من اللوح والنوادر والقصص منشورة في بعض كتب التاريخ والأدب ، وفي كتاب « أعلام الناس » للأثيري وفي كتاب (ألف ليلة وليلة) وهي في جعلتها تصور لنا الرشيد رجلاً صاحب رتبة وتهاون ؛ ضيف النخوة والغيرة على حرصه ، يشغى بحارمه ويخفيه قاضي أبو يوسف ويغافل به بنته ؛ قد اصطغ أبانوس ، وصبر على عبثه وبجونه وأقن به في أن يدخل على حرته وشغل يحضر البرمكي حتى أصبح لا يطيق فراقه وحتى كان يجلس معه في قباب يضمها مناء ، وحتى عقد له على أخته البسة التي كان لا يطيق فراقها هي أيضاً بد أن يحظر عليها أن تلبس إلا ما الحق أن هذه الأخبار كلها مفتحة موضوعة وأنها أثر من آثار الشعبية التي نحاول لسط من قدر الخليفة الذي أوقع بالبرامكة ومن أقدر رجاله التابعين ؛ وإلا فالديوان أبي نواس شبه وما بال كتاب الأغاني لا يكادان يشتملان على خبر واحد يفيد انقطاع أبي نواس إلى الرشيد وبراءته عليه بمثل ما ترويه للوح والنوادر الآفة الذكر ؟ يقول ابن منظور صاحب لسان العرب في كتابه « أخبار أبي نواس » وقال بعض للترجمين ممن يحيط علماً بأحوال أبي نواس : إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ؛ وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين ، ولا شك أن في هذه الرواية مبالغة كما يرى من يتصفح شعر أبي نواس . فقد مدح أبو نواس الرشيد واعتذر إليه ، ورداه .

وهناك حكايات أخرى ولادة في (ألف ليلة وليلة) تصور لنا الرشيد في صورة ثالثة : تصوره أبا رعيته وحياً محباً للفتن والآداب ، يستدعي الرواة والشراء فيقصون عليه طرائف الأخبار وينشدونه روائح الأشعار فيجيزم بالجوهر السنية ؛ كما تصوره حاكماً عادلاً قروباً ميسوط السلطان على الإنس والجن ، ساحراً على مصلحة رعيته يتخفى هو وجعفر البرمكي ومسروور السيف في زى تجار غرباء وينزلون إلى شوارع بغداد وأحيائها يتعرفون أحوال الناس وعمال الحكومة ، فيطلبون على أمور عجيبة وشئون غريبة ، فإذا كان القند واستوى الخليفة في مجلسه أرسل في طلب من يكون قد أثار في القلية للامية عجه أو غضبه فيعاقب القند ويثيب المحسن ، ويزوج الصانقين ، ويصلح بين الخصامين .

هذه الحكايات كتب أغلبها في بنگلاد ومصر في العصور الإسلامية المتأخرة من عصر الرشيد أي إبان اضطراب الدولة الإسلامية وانحطاطها . فكان مقتصراً أن يشيدوا بالمصر الإسلامية التي هي عصر الدولة العباسية الأولى . فنصروا عصر حكومة أبيه قوية عادة ، وعصر سريّة شخصية يحد فيه كل من المالح والطالح حاجه وأربه . وقد اختاروا الرشيد دعامة قصصهم دون غيره من الخلفاء لأن الرشيد قد أصبح بمجلسه ومساوئه أشهر الخلفاء على الإطلاق . فشخصية الرشيد هنا شخصية عصر أكثر مما هي شخصية إنسان .

وما نخرج إليه نفس التورخ في هذا اللقائ أن شخصية الرشيد التي تصوره الحكايات المذكورة ، لا تتعارض في جوهرها مع الناحية العلمية من حياة الرشيد التاريخية ، ناحية الجود والكرم وحب العلم والقرن . هنا قطعاً تلتقي شخصية الرشيد التاريخية بشخصية القصصية فتعلم الثانية على الأولى مقداراً غير قليل مما كتب لها من الرواء والروعة والخلود .

أم المحسنين

السيدة زينة *

هي زينة بنت جعفر بن أبي جعفر النصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . وإسمها في الأصل فاطمة العزيزة ، ولكنهم ما تسمى بأم جعفر ، وإنما قيلت بزينة لأن جدها النصور كان يرقصها وهي صغيرة ويقول : يا زينة يا زينة ايا زينة ا وذلك لسننها وبهاضتها ، فزينا هذا لقب وغلب عليها .

ولدت سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت في مدينة النصور نشأة الأسيرات القليلات في ذلك العصر ، ففتحت أحسن ثقافة ، وأدبت أكل تأديب ، وهذا إلى عقل راجح ، وذكاء متفرد ، وإرادة قوية ، ومن أجل هذه الخلال كلها اختارها الخليفة المهدي زوجاً لابنه هارون ، فأعزى بها في عام ١٦٥ هـ . ومن ذلك الوقت إلى أن توفيت في سنة ٢١٦ هـ ، كانت مجيدة زينة ألم شخصية نسوية في العالم الإسلامي كله ؛ ولها من حيث الشهرة والسكانة التاريخية لا تقل عن زوجها الرشيد . وما أمر سخرية الأتباع بهذا العامل الجبار الذي تارح القياسرة ، وأذل الجبابرة ، عندما تضع يراؤه في النفوذ والبطان والشهرة في الحياة وبعد الموت امرأة هي زوجة السيدة زينة . وقد شهدت زينة في ندى حزين ما ما من الأحداث الجسام ما شهدت ، وذلك من إقبال السد وإجارة ما ذات ؛ ومع ذلك بقيت هي هي ، سيدة جليلة ، ومملكة عظيمة .

مثل أول مشكلة واجهتها زينة عند زواجها من الرشيد ، هي نفس المشكلة التي تواجهها كل امرأة تكون في مثل حالها ، وهذا مثل زوجها . لقد كانت قصور بغداد عامة

والرشيد خاصة حاضرة بالجمال الأشوى المجلوب من كافة أقطار العالم الإسلامى للتزوع الأجناس
والأكران واللغات ؛ فقبها ما شابت الدين من نساء جيلات لاحصر لمن ، من بين عربيات ،
وقارميات ، وروميات ، ومغريات ، وصقلييات ، جنهن بل كلهن ملك عين الخليفة شه ،
وهو بعد شاب فى مية الصبا وعشرون الشباب ، فوق ما كان فيه من تبحر وتزوع إلى
الإستبداد بكل شيء فى سلطانه ؛ فكانت زيدة تحشى بطيعة الحال أن تغلبها على قلب
والرشيد من عنفها تكون من هؤلاء النساء أربع منها جالا ، وأكثر خلاية ، وأشد ذكاء ؛
اولسكنها مع ذلك عرفت كيف تروض زوجها الشاب المرح المجلوب ، وكيف تحل نفسها
من قلبه بالحل الأول . بكل ذلك فى رفق ، ولطف ، وكيلة ، وحسن تأت للأمر ، وبصر
تام بمداخلها ، ومخارجها . روى صاحب « الأغانى » أنه كانت ليحيى بن خالد البرمكى
بنارية فاقه الحسن بارعة الأدب والثناء تسمى دنانير ، وكان الرشيد يكثر من السير إلى دار
يحيى كيسما ، حتى أنها واشتد إعجابها بها . وعلت زيدة بالخبر فشكته إلى عروته ،
فصاروا جميعا إليه فأتوه ؛ قال : ما لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أرى
فى خاتما ، لا سمعها فإن استجعت أن يؤلف خاتما ، وإلا فقولوا ما شئتم ؛ فقاموا إلى دار
يحيى حتى سمعوا عنده ، فشدوه وحادوا إلى السيدة زيدة فشدوا عليها ألا تلج فى الأمر ،
فقبلت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جنود ممن أسهت أولاده للأمن وللشتم وصالح .
ومن هذا القليل ما يروى من أن الرشيد غضب عليها يوما ، ثم رضاه ، فأبت أن
تروض عنه ، فأرق ليلته ؛ ثم قال : انرشوا لى على دجلة أقصاوا ، فقد ينظر إلى الماء وقد
لواى فيه زيادة محبة ، فسمع من بيد منبأ يقضى بهذه الأيات :

جرى السيل فاستبكتنى السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين خيمت أنه يمر بواد أنت منبته قريب
يكون أجابا ماؤه فإذا اتبعى إليكم تلقى طيكم فيطيب
فيا ساكنى شرق دجلة كلهم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
فقال الرشيد من النصيحة التى فيها التناء ، فقيل دار ابن اللبيب ، فبعث إليه :
أن ابست باللقى ، فإذا هو الزبير بن دحان ، فأله من الشعر ، فقال : هو لعباس بن

الأحجف ، فأحضر واستنشده فأشده إياه . ونيل الرزير ينفيه ، والباس يشده حتى أصبح الصباح ؛ وقام فدخل إلى السيدة زبيدة ، فسألت عن سبب دخوله فرفقه ، فوجهت إلى الشاعر بألف دينار ، وإلى التي بثناها . ولا شك أن الأمر كله كان مدبراً ، وأن زبيدة كانت صاحبة هذا التدبير اللطيف .



بهذه اللقطة وتلك البقعة عرفت زبيدة كيف تروض ملكها الشاب وتعلمه من جماعه وكيف تضمن ولاده لها وإخلاصه لها . ولأنها تعلمتها البقرة الطائفة وساورها المزاج بمن كن يخالها على قلب الرشيد ، فأكبر الظن أنها كانت هي التي تخرج من اللدان مهزومة مغلوبه على أمرها . على أن زبيدة لم تتأ أن تكون منزلتها من قلب زوجها مؤسسة على ما أوتيت من جمال وحسب ونسب لحسب ، بل أحبت أن تكون عديته في الثقافة والفن والأدب ؛ فإذا كان الرشيد تحبه بلاغة البشارة فليكن بيئته قادرة على أن تذيب الكتب التي ترفع إليها بتوقيعات حسان . روى الجاحظ قال : « خيرني جعفر بن سديد قال : ذكرت لسروين مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى ، فقال قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حوائث الكتب وأساقها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعاني ، وتلك جعفر بن يحيى وعمر بن مسعدة ، فالأول ممن يضرب بهم النزل في البلاغة والثاني من أبلغ كتاب للأمن . وإذا كان الرشيد شاعراً بطبعه ، أو على أقل تقدير عالماً بالشعر عارفاً بحمده وورده ، فليكن هي كذلك ، ولتأذن لكبار شعراء العصر أمثال أبي النعمان ونصيب وسلم الظاهر وأشجع السلي بالإشادة في حضرتها ، ولتقد شرم بند خير عارف بالشعر . ولتجز الحسن منهم ، ولتدل القصر على موضع قصيره . وفي كتاب « الأغاني » أخبار كثيرة تدل على قبول هؤلاء الشعراء لقدحها وتروم على حكمها .

وإذا كان الرشيد مولداً بماع للموسيقى والتناء ، شديد الإقبال على كبار اللشغلين بهذين الفنين الجليلين فليقتد به زبيدة في ذلك . والمحق أنها بلغ من عنايتها بالموسيقى والتناء أن أنشأت في قصرها ما يشبه أن يكون مهوداً موسيقياً ؛ فكان عندها مئات الجوارى يأخذن الصنافة عن أكبر شيوخها أمثال إسحق اللصلي ، وطوبى ، ومخارق ، وأضرابهم . وكانت

نإذا بلنفة أن متنيا مشهورا وضع لنا جديدا أمرت جوارها فأخذته عنه . وقد دفت ذلك
سنة ثلاثمائة ألف درهم ثم ألبس أسود عبيد الفتاة . وكثيرا ما كانت تفرض بضاعتها في هذا
الجال على زوجها في شلات تبيد ترتيبها وتسيقها فيجب بها أيا إيجاب .



وإذا قد أصبحت السيدة زينة غلطة على الرشيد مالكة زمامه ، تصرفه كيف
شامت فيقتاد لها كل احتيا . قد غرت قلبه من جميع أفعاله ، والويل لرجل على مصالح أمة
إذا غرت المرأة قلبه وملكته عليه زمام أمره . إنها لا تلبث أن تجده مطيها إلى السيطرة
على مصالح الأمة نفسها ، توجهها على حسب أهوائها ووفق أهوائها ، لا على وفق ما تقتضيه
الصلحة العامة نفسها . والسياسة من الأمور التي تستهوي أفئدة النساء الجليات للوعود
الظلمة ، ومن لا يحسن من التورط في مأزقها إذا ما وجد السيل إلى ذلك سهلة
ميسرة . وسلمهن في مجال السياسة ، كسلمهن في مجال الحب ، مضنيات أثلاث ...
وقد ذاب قرآن حيث يقول :

ولا تلك الحناء قلبه وإن ملكها رقة وشباب

وقد وجدت زينة سبيل الفرض لتسياسة الدولة بمهدة ميسرة ، فركبتها غيرة هياة
ولا مقردة ، وقد تعرضت لأذى أمور هذه السياسة وأشد عسكرا ؛ وشقى بذلك ولاية
المهد أولا والأخذ بنصر الحرب العربي ثانيا .

قد رزقت زينة من زوجها ولها عمدا الأمين ، ومع أنه لم يكن أكبر أجداد الرشيد
ولا أعجبهم ، فإن أمه كانت خريصة على أن يكون الخليفة بدأيه . وقد أخذت تسعي
إلى ذلك سعيًا حثيثًا ؛ فعلى أنها تدفع الشراء إلى مدح محمد والإشادة بذكوره ؛ وأنها تستقل
سائر أهلها على الرشيد لصلحة ولها . وما زالت كذلك لا تترك لها حمة ، حتى نزل الرشيد على
مسيرتها وعقد البيعة ولاية المهد لحد ، على أن تكرر الخلافة لأخيه عبد الله للأمن من
جده . وقسم الدولة بينهما ، وكتب بذلك وثائق أودعها جرف الكعبة تركيذا لما فيها من
مهد أخذت على الآخرين وعلى رجال الدولة أجمعين .

على أن الأمين هاشمي الأبرين ، وهو بذلك يمثل الحرب العربي في الدولة العباسية

فذلك العهد . أما أخوه للأمن هارنق الأم ، وهو بذلك يمثل خروجه من القوس الذين أقاموا الدولة الباسية ، وكانوا للصرفين الحقيقين لأموالها . فيبقى أن نجد من غوهم ، وأن يرفع من شأن العرب ، ليكون خليفة للقبيل ضحية عربية قوية يستند إليها ويستند بها أزره . وهنا نجد زيادة تسهل على تنحية المنصر القلوس عن إدارة الدولة العليا ، بآفة في ذلك بالبرامكة بطيعة الحال . ويظهر أنها كانت لا تريد أكثر من ذلك ، ولكن الرشيد بالغ في فهم ما أوحى به إليه ، وذهب في الأمر إلى أبعد من الفاية التي كانت تربي إليها زيادة وبنو هاشم ، فكتب البرامكة كتبهم للشهيرة في عام ١٨٧ . والنتيجة في ذلك واقعة لا على السيدة زيادة ، ولكن على الرشيد ، فهو الذي لم يحسن تقدير الأمور ، ولا وضعا في مواضعها .



بقت السيدة زيادة ذروة مجدها في أخريات عهد الرشيد . فلما توفي سنة ١٩٢ بكبه أمر بكناء ؛ فقد كان زوجها ومصدر عزها وسلطانها ، ولكن مرزاها من فقد أن أصبح ولدها الأمين الخليفة من بعده ، فانتقلت أسباب سلطانها إليها آخر ، كانت قصارا لسوء حظها .

قد ذب ديب الخلاف بين الأمين وأخيه للأمن ، وتقام الشر بينهما . وقد حرصت زيادة على أن يصنع الجور بين الآخرين ، ولكن للتقدير جرت بغير ذلك ، فالتصير للأمن ، وقتل الأمين على شر حال ، فسكان ربه زيادة قادحا وخطيها جليلا ، إلا أنها تملكست وتعمدت وجعلت تروض نفسها على أن تنظر إلى الأمور نظرا هادئا ، فهل للأمن إلا معتبها ، إن فاته أن يكون ابنها حقا ، فليزله من نفسها هذه التركة ، وليسأله على هذا الاعتبار . ويتقبل الأمن من خراسان إلى بغداد ، ويرف لما حقا أول الأمر ، ويصدها بيرة وصلته ، ثم لا تلبث أن تعرف في وجه الجتوة والنفور منها . فتتلف للأمر على عاداتها القديمة في معالجة الخلاف الذي كان يتشأ بينها وبين الرشيد ، فتطلب إلى أبي السامية الشاعر أن يقول شعرا على لسانها فيه عتاب للأمن على جناحه لها ، ويضع الشاعر هذه الأبيات للملوة تبعاً وتوجها :

ألا إن رب العرش ذي اليد . ويؤنس بالآلاف طورا ويهد .
أمايت رب العرش ذي اليد . فقلت للأندلس والله أحد .
وقلت لرب العرش ذي اليد . قد بقيت والحمد لله على يد .
إذا بقي للأمن على فرسيد . ولي جسر لم يفتد وعبد .
ثم أمرت غارقا للثني أن يتقى للأمن بهذه الآيات ، فقال للأمن من لطيف فرقه ،
بفكي ورق لها ، وقم من وقته ودخل إليها ، فأكب عليها يقبل عليها ، وقال لها : يا أمه !
ما جفوتك تصدا ، ولكن شملت منك بما لا يمكن إغفاله . قالت : يا أمير المؤمنين إذا
حسن رأيك ، لم يوحش شئك . وأتم يومه خدعا .

ومها يكن من تطف للآمن لها ، قد أدركت زيدة أن قد انقضت زمانها ، ودالت
دولها ، ولم تعد تفكر إلا في كيف تخرج من الحياة العامة مللة موفورة الكرامة . وسرعان
ما سمعت لها فرصة ذلك . فتد ما بنى للأمن بيوران بنت الحسن بن سهل تولى السيدة
زيدة تشترك في العرس ، وتفق في ذلك أموالا ضخمة ، ولكنها في الوقت نفسه توجهت إلى
العرس أن تدفن لها للأمن في الخروج الحج ، فلم يتردد للأمن في إجابة هذا الطلب .



من الناس من إذا تشكر لم الزمان خضعوا واستكانوا وعبرهم اليأس من كل شيء في
الدنيا ، فيصيحون أمواتا وهم أحياء ؛ ومنهم من يحاول أن يثار لنفسه من جده العار فيعيش
لنفسه ونفسه فقط ، فيصيح بذلك أنايا أترأ مستهلكا غير متح . أما النفوس القوية الكبيرة
فهي التي ترى فرص العمل الصالح غير محدودة ؛ فهم أشبه بالسيل الدافع إذا اعترضته عتبة
استدار حولها ومضى في طريقه . من هذه النفوس الكبيرة خس السيدة زيدة ، فإنها لما
أدركت أن حياة الملك والسلطان قد آذنت بالزوال أو زالت بالقصل ، توجهت نحو عمل الخير
فانضحت أسنم الآتي لسل الخير لا أحد ملدها . ولقد انطقت في اتجاهها الجديد بنفس
الحية التي كانت تتلفع بها في صدر حياتها نحو أبهة الملك ومجد الدنيا ؛ فهجرت السياسة
بجائنا ، وكذلك تركت حياة الفن والأدب الذين لم تعد ظروفها الجديدة مواتية لها ، واستبدلت
بكل ذلك صنع الخير واللعرف ، وقد تسدلت أن تكون في برها ملكة مسلمة حقا . فزلاء

الجواري للثنيات أصبحن يرتن القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، حتى قد كان يسع من قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن . وهذا على حدود الدولة الإسلامية غزاة سرايطون للدفاع عن الدولة بمجهم وأرواحهم ، فلترفه عنهم وفتنشى . لم الربط والحصون يقيمون فيها . من ذلك زمانا بنخشان ، أنشأه على حدود بلاد الترك في آسيا الوسطى ، وأنشأت عنده حصناً مجيماً ، يقول ياقوت : إن الناس لم يروا مثله . ثم هاجم أولاد حجاج بيت الله الحرام يقرون أعظم للشاق في اجتيازهم بلاد العرب ، ففتنشى ، على سائقي هذا الطريق الآبار المطوية والبرك العظيمة التي تخزن فيها المياه ليستقي منها الحجاج . وقد حبت السيدة زبيدة وشهدت موقع مكة بين جبال سود عايلات عاريات من الماء والشب ، وعايقت مايلقاء الحجاج من العنت في الحصول على الماء ، حتى إن الراوية لباع في موسم الحج بدينار ذهباً ، فرأت السيدة أن من أقرب القرب إلى الله أن تيسر وصول الماء من المل إلى الحرم ، وعلمت أن بأرض المل هبتاتبع من جبل شائع يقال له ماد يمد عن مكة بنحو ثلاثين ميلاً . فأمرت السيدة للهندسين بقبب الجبال وإرسال مياه هذه الثنين إلى مكة ، فتم ذلك ؛ وأتقت على عمل هذه الثنين مايزيد على سبعمائة ألف دينار ذهباً ، وهو عمل هندسى عظيم هائل كما يصفه للؤرخون . ومن طريق مايتصل بذلك من الأخبار أنه لما تم عمل العين اجتمع للبائشرون والعمال لبسها ، وأخرجوا دقارهم لإخراج حساب ماصرفوه ، وكانت في قصر عال مشرف على دجلة ، فأخذت آلة ثمر منهم ورمتها في النهر وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب . فمن بقى عنده شيء من المال فبه له ، ومن بقى له شيء عندها أعطينه « ، وأبستهم الخلع والشايف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين .

هذه الثنين هي عين زبيدة التي لا تزال تعرف بهذا الاسم ، والتي تستقى منها جوع الحجاج حتى يومنا هذا . لقد ذهب ملك السيدة زبيدة ، وذهب حبسها ونسبها وهبتها ونجدها الدينوى . أما مبرتها الذهبى فباقية على وجه الدهر يذكراها بها الأكرون ، وفي ذلك فليتنافس للتناسون .

بين هرون الرشيد وشارلمان*

وجلا العالم في آخريات القرن الثامن والقرن التاسع — كيف حدثت المغارة
بينها — اختلاف للزخمين في علامات الرشيد وشارلمان — الاعتبار
الفرص الإسلامي لهذه العلاقات .

ليس من شك في أن هرون الرشيد وشارل الكبير هما رجلا العالم في آخريات
القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع . الرشيد يمثل الشرق بعديته للزخمة أبلشد
وعظمت التي بلغت أوجها ، وشارل الكبير ، أو شارلمان كما دوج للزخون على تسميته ،
يمثل الغرب الأخذ إذ ذاك في الاسترلو على أن تزوج القبائل الجرمانية من مجالتها في
أوربا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية الغربية ، والأخذ بذلك الأسباب التي جعلت منه
في النهاية باعث دول أوربا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية
والثقافية للعروة .

وليس من شك في أن كلا من الماعلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تخدير . قد
كانت بغداد منتج السباح والتجار الوافدين إليها من مختلف الأقطار ، وكان لا يخلو الأمر
من أن يجري على لسان هؤلاء الوافدين في أسواقها وأنديتها وبلاطها ذكر الماعل القرنبي
الكبير . وكانت مدينة آخن هي كذلك مقصد السباح والتجار واللاجئين السياسيين
الواردين من الشرق ومن قسطنطينية ورومية والأندلس فكان لا يخلو الأمر من أن
يحدث هؤلاء وهم باسطة الدولة القرنمية عن الحروب الناشئة بين بيزنطة والباسيين وعن
أخبار الأمويين للخليين على الجزيرة الإسبانية ، وعن النصر للوزر التي أحرزه الرشيد على
الميوش البيزنطية في هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك كان من شأنه أن ينقل إلى كل من الماعلين عن الآخر صورة مبهمة غامضة ،

ولكن ترى هل كان الأمر مقصوراً على مجرد البيع أم هل تعدد إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما كما يتخطر أن تكون الحال بين رجلين توزعا بينهما أمر للشرق وأغرب ليهدهما ؟

أما المصادر العربية فشكت من ذكر أية علاقة بين الرشيد وشرلان سكوتنا مطلقاً ، في حين أن المصادر الفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتراك العلاقة السياسية والودية بينهما وتبديء القول في ذلك وتعيده ، فاريخ للملكة الفرنجية *Annales Regni Francorum* وسيرة الإمبراطور شرلان *Vita Caroli Magni Imperatoris* والنظمومة البروقة *Poeta Saxo* كلها تروى نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلان والرشيد ، وكان شرلان هو الهادي ، في كل منها بالاستغفار ، ولم يرد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلاً .

• • •

وكانت السفارات طريقاً للأمد لبد ما بين للشرق وللترب وصعوبة الانتقال بينهما في ذلك الزمان ؛ فالسفارة الأولى استغرقت ما بين عامي ٧٩٧ و ٨٠١ ، وذلك أن شرلان يبعث في أواخر عام ٧٩٧ وفداً مؤلفاً من سفيرين فرنجهين يقال لأحدهما سيجستد وللآخر لثيفرد ومعباً ترجان يهودي يجيد العربية اسمه إسحق ، وبعث شرلان إلى الرشيد على لسان الوفد يلتبس أموراً يطلب على القن أنهما ثلاثة :

(١) أن يعود الرشيد إلى شرلان بالقيام على الصالح السياسية فيما يطلب عليه شرلان من أرض الأندلس ، وأن يمد شرلان أزر الحزب القائم بالدعوة السياسية في تلك البلاد التي اقتطعها بنو أمية عن ملك بني العباس .

(٢) أن ينفذ بين العالمين حلف وتعاون من شأنه أن يطلق يد شرلان في ملك بني أمية بالأندلس ويطلق يد الرشيد في ملك الدولة البيزنطية بالشرق .

(٣) أن يسجل الرشيد زورل بيت القديس وحجابه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحبه ، وأن يعفيهم من القيود والتكاليف التي وضعا الرشيد

إذ ذاك على أهل القبة ، وأنت عيسى أولئك الزوار والحجاج من عدوان الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

وتقول المصادر القبطية المقدمة للذكر : إن الوفد عاد من بندااد يحمل مواثيق الرشيد على ما طلب شرلمان ، وأن سبستد وتشفرد توفيا أثناء العودة ، فساد اليهودى وحده . على أن الرشيد لم يكنف بصرف وفد شرلمان مكرما بل رد على السفارة بسفارة مثلها ، فأوفد إلى شرلمان سفيرين أحدهما إبراهيم بن الأغلب الذى صار إليه أسر إفريقية . ، وبث معها إلى شرلمان بهدية تليق بمقام المهدي والمهدي إليه . فيها عطور ونحف شرقية غنية وفيها ساعة مائية دقيقة وقيل عظيم الخلق يكنى بأبى العباس . وتقول المصادر القبطية إن بطرك بيت المقدس أوفد في نفس الوقت إلى شرلمان راحبا يحمل إليه عطا ومفتاح القبر المقدس ومفاتيح مدينة أورشليم نفسها ، واعتبرت المصادر ذلك بمنزلة حل لملحة على بيت المقدس وحمايته إلى الساحل القبطي .

أما السفارة الثانية فابتدأت عقب انتهاء السفارة الأولى ، فقد أوفد شرلمان إلى الرشيد في عام ٨٠٢ (١٨٦ هـ) وفداً كان من بين أعضائه رجل اسمه راد برت ، ولا نعلم بالذقة للقرض من إنشاء هذا الوفد ، ولكننا نعلم أن راد برت المذكور توفى أثناء عودة الوفد إلى مدينة آخن ، وأن الوفد بلغ هذه المصمة عام ٨٠٦ هـ . وأن الرشيد قبل هذه السفارة بسفارة مثلها بأن أوفد رسولا تسميه المصادر عبد الله ووجه معه إلى شرلمان بخمسة غنينة من القصب وبخينة فاخرة الصنع . ويقال إن الخليفة المذكورة هي التي أخرج فيها بد جثمان القديس كوثبرت للدفون في كاتدرائية درهام ، وأنها لا تزال مرجوة ، وأنها قد طرزت عليها صور سمك شرقية كما طرزت على حاشيتها بالخط الكوفي الجميل عبارة « لا إله إلا الله » .

وتذكر المصادر القبطية سفارة ثالثة بث بها شرلمان إلى الرشيد في عام ٨٠٧ هـ ، ولكن الرشيد لم يرض حتى يرد عليها بسفارة من قبله فقد توفى بعد ذلك بسنين ، فتولى الرد عنها ابنه المأمون عندما استتب له أمر الخلافة وذلك حوالي عام ٨١٣ هـ .

ولقد أحصى للزورخ الروسى يارتولد ما تبقى حتى يومنا من التحف والمدايا التي وجه بها الرشيد إلى حديقته شرلمان فإذا هي تشتمل على الأشياء الآتية : بوق من الصاج محفوظ

في مدينة آخن ، وسيف محفوظ بمدينة وانا ، وصنية من الذهب بحلة قطع الزجاج المختلفة الألوان وعليها صورة طيسر الأول مصنوعة من البلور . وهذه الصنية محفوظة في دير سانت دينس ، وقطع من قلع شطرنج شرق محفوظة في الدير المذكور ، وأبريق من الذهب محفوظ في دير كيتون طيسر ، وتنان شوكلات من الفخار الشوك الذي يقال إنهم ألبوه وأس السيد للسبح عند صلبه .

هذه خلاصة ما ترويه المصادر القبرجية عن العلاقات السياسية والدينية بين الرشيد وشرلمان . وقد اختلف المؤرخون الأوروبيون المحدثون من أوائل القرن التاسع عشر حتى وقتنا هذا في شأن هذه الرواية اختلافا شديدا ، فمن يصدق لها ويكتب فيؤكد ، فيؤكد إلى تكذيبها إلا في القليل مما أنت به . وريغو وبريه وبكل يصدقونها وإن اختلفوا في تأويلها . ولكل من الفريقين حجة يمد بها إلى النطاق عن رأيه . وأما ما يجمع به الفريق الأول سكوت المصادر العربية الطالقة عن ذكر أي شيء يحصل بهذه العلاقات . ويذهب هذا الفريق إلى أن للمدعي الذي قال إن الرشيد بعث بها إلى شرلمان إنما اختلها اليهودي إنسحق ، وأن من السهل أن يتزل الرشيد عن شيء من حقوقه السياسية لشرلمان . وأما ما يجمع به الفريق الثاني انسجام الرواية المذكورة مع الأحوال الخيرية العامة في ختام القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع . ويلاحظ بعضهم في هذه العلاقة البداية التاريخية للعلاقة فرنسا بالشرق الأدنى ، تلك العلاقة التي تمت وتطورت حتى انتهت بالاحتلال الفرنسي على سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وعن على وجه السوم يرى رأى الفريق الثاني الذي يبتدئ بالرواية القبرجية ، وراها خروج علاقة سياسية نشأت فضلا بين الدولتين السياسية والقبرجية . ولا حجة بسكوت المصادر العربية ، فالمصادر العربية تكاد تهمل ذكر علاقات الدولة الإسلامية الخارجية أصلا . أما . وليس يصح في مقام التبرير التاريخي أن يرضى دليل زعماني ممكن ومتقول فضلا من أجل دليل سلبي أو ظني . ثم إن سياق الحوادث العامة في أواخر القرن الثامن يؤيد الرواية القبرجية إلى حد بعيد ويظهر الرواية العربية في مظهر التضمير . فالمعرض لحوادث الشرق

واقرب تلك العهد وللتفح للاق دولها بعضها بعض يرى أن الدولتين الإسلاميتين
 السياسية والأمنية الأندلسية كانتا أبداً في تكايدة وخصام مكم ، ولكن بدل عليه أداة
 كثيرة لا يتسع للقلم لسردها ؛ كما يلاحظ أن الدولتين النصرانيتين الكبيرتين اليزنطية
 والفرنجية ، كانتا تقفان بعضهما من بعض نفس للوقوف الذي كانت تقفه الدولتان الإسلاميتان
 بعضهما من بعض . وكانت البابوية منحلزة إلى جانب الدولة الفرنجية ، وذلك بسبب
 الخلاف للذهبي بين كنيستي القسطنطينية ورومية ، وبسبب الثورة التي بنها البطريركة
 على عبادة الصور ، وسخط البابوات على هذه الثورة . ثم إن الحروب التي كانت تقع بين
 الدولتين السياسية واليزنطية في الشرق كان يقع ما يشبهها ويشاكلها في الغرب بين الدولتين
 الأمنية والفرنجية . فطبيعي والملاحظ أنه يتم نوع من التماثل على أقل تقدير بين أموري
 الأندلس والباطرية بيزنطة ، وهو ما تصرح بمصولة المصادر الغربية الأندلسية وبخاصة كتاب
 « فتح العليب » القري . وطبيعي كذلك أن يبعث هذا التماثل تماثله على أقل تقدير
 بين ملوك الدولة الفرنجية وخلفاء الدولة السياسية ، وهو ما تصرح به المصادر الفرنجية التي
 سبق ذكرها . قد ظهر إذن أن سكوت المصادر الغربية عن أمر العلاقة بين شرلمان
 والرشيد لا ينهض دليلاً على انقضاء هذه العلاقة .

ثم إن الأحداث الدولية التي وقعت في الشرق والغرب في ختام القرن الثامن وبداية
 الفتح بما يؤيد الرواية الفرنجية . قد حل شرلمان من حيث هو « حليف » الرشيد على
 شمال شرق الأندلس ، وأنشأ التتر الأسباني على السلد الجنوبي الغربي قرناً ، واستبقى
 عليه عهده من المسلمين ، واستولى على برشلونة عام ٨٠٢ ، وأنشأ علاقات سياسية بينه وبين
 مجال التتور الأسبانية مثل سرقسطة وغيرها . كل ذلك في نفس الوقت الذي شذ فيه الرشيد
 الرواة على ملك الدولة اليزنطية براً وبحراً ، وحل عقور على طلب الصلح والرضا بأداء
 الجزية وذلك عام ٨٠٤ .

يقى أن نوضح القارى الاحبار الشرعى أو « التكنيف القانونى » العلاقة بين الرشيد وشرلمان ، وهو الأمر الذى أشكل على بعض المؤرخين المحدثين مثل برعينة ، فقام من نصوص الرواية الفرنجية أن الرشيد قد نزل لشرلمان عن حقوقه على الأندلس وبيت المقدس ، غير أن الكاتب الإنجليزى بككر قد وفق إلى فهم الأمر على حقيقته ، قد أدرك أن الخلافة هى الولاية الكبرى فى الدولة الإسلامية ، وأن ماسواها من الولايات منفرج عنها وتاج لها ، فمن حيث الولايات الأندلسية لم يزد الرشيد على أن جعل شرلمان « والياً » عليها من قبله . ولا يستلزم على ذلك بنصرانية شرلمان ، قد جوز الفقيه (كالمادورى فى الأحكام السلطانية) للخليفة إقراره أمانة النصب والاستيلاء ولو كان الناصب غير مسلم تزولا على حكم الضرورة وبشرط أن يرعى الناصب مصلحة من فى إمرته من المسلمين . وأمانة شرلمان على الولايات الأندلسية هى فى واقع الأمر من قبيل إمارة النصب والاستيلاء للذكورة . أما ما عاتق بيت المقدس فالباحث الخبير بأنظمة الدولة الإسلامية لا يرى فيها أكثر من أن الرشيد عهد إلى شرلمان فى رعاية الشؤون الدينية لهذا البلد بدلا من ولاية الأمر الفيزنطينيين ، وهو أمر يتفق وما جرى عليه المسلمون منذ قامت الدولة الإسلامية حتى وقتنا هذا ، قد جروا على أن يستندوا لإدارة شؤون أهل القمة الدينية إلى رجال من أهل القمة أنفسهم . وإنهم لم يكن ثم هل لسلطان الرشيد على بيت المقدس إلى شرلمان ولا إنشاء لحماية فرنجية على ذلك البلد قلدها شرلمان . بل إن حقيقة الأمر أن شرلمان قد وضع نفسه فى المألين موضع تاج من أتباع الرشيد وعامل من عمله . وربما كانت الخطة المتأخرة التى بحث بها الرشيد إليه هى الرمز للمادى لتلك السيادة وذلك المنحصر .

فيذا عرفنا أن العلاقة السياسية التى وصفناها قد استمرت حوالى عام ٨٠٠ ، وأن البابا قد تزوج فى العام المذكور شرلمان لأميراطوراً على الدولة الرومانية الغربية — على أن يستند منه العون للمادى — وأن الإمبراطور قنور البيزنطى قد رضى فى عام ٨٠٤ بحمل الجزية

إلى الرشيد ، استبان لنا أن الرشيد لم يبد في عام ٨٠٤ (١١٨٨) خليفة للمسلمين نجيب ، بل قد أصبح من الوجهة النظرية على أقل تقدير السيد الأعلى للعالم المسيحى ، وذلك لسير الحق منزلة لم يتلها ملك قبله ولا بعده على الإطلاق .

وقد يكون طريفاً أن نلاحظ أن العلاقة بين الرشيد وشرلمان قد نمت وازدهرت واتمرت في أواخر القرن الثامن الميلادى ، ففى ذلك تتضمن رداً علينا سادراً من أجماع الزمن على دعوى المدعين بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . قد انتقيا وتعاظما عند أكثر من ألف عام على نحو قد يجب له أربع مائة سنة لقرن العشرين .

الرشيد وأبو نواس

شخصيتان معروفتان مأثورتان عند الخاص والعام ، ومسودتان من وجوه كثيرة أوجب شخصيات السالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري : الأولى شخصية شاعر عربي أجمعى الأصل تناعت فيه فلسفة الأماجم الإياحية القائمة على الاستهزاء بالواضعات والقائد ، وعلى الاستنماع بالذمة ، مشروعا وغير مشروعا ، مقبولا ومردوها ، ثم راجع يصوغ هذه الفلسفة البائرة للبيرة في شعر سهل بليغ لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . فندا بحق إمام شعراء مذهب الذمة في الحرية وحال لو أنهم على الإطلاق . أما الشخصية الثانية فتشخصية ملك عربي تناعت فيه فلسفة سياسة ذلك الزمان القائمة على الاستبداد ، والجبروت والعصية ، والعقيدة الجالسة ، مع ما يمتاز به العربي للترف عادة من رقى القلوب ، ودقة الإحساس ، ولطف المزاج .

وإذا كانت فلسفة أبي نواس قد عادت عليه بتخرق الخلق ، وشذوذ الشهوة ، فقد عادت على الرشيد فلسفته بصلابة الرأي وجود العقيدة والتهالك على كل ما يمسك عليه سلطان خيرا كان أو شرا . من أجل ذلك نستحيز أن نصير تصويرا غريبا شاع في أوروبا في أواخر القرن الماضي Fin. desiècle وأعداء تكتائب الألمان الأشهر ما كسر نوردو طابعا عليها خاصة ^(١) فنسى أبا نواس « شاعر آخر الزمان » والرشيد « ملك آخر الزمان » كذلك . ولأشهر ما شاعت الأدلة أن يفارق كل منها هذه الدنيا في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري .

جئت بين هاتين الشخصيتين السجيتين جولم الزمان والمكان واتقن ؛ ولكن باعلت بينهما مقتضيات فلسفة كل منها . فتحدثت الصلة بينهما بين السلب والإيجاب ، والوجود والعدم ، وهذا هو الترتف مع فلسفة الرجلين والتفق مع الثابت للثقيقن من

(٥) مجلة الهلال أغسطس ١٩٣٦ .

(١) في كتابه « الأعمال » Degeneration : الباب الأول ومؤلفه التحلل من بيود الرف والأخلاق .

أنت على ما بك من قدرة . قلت مثل القفل . والراجل
ليس على الله . بمشكر . لأن يجمع العالم في واحد
نفعي في الواقع مدح في الفضل بن الربيع ، وقد أوردها جامع ديوان أبي نواس على
أنها كذلك .

فلما دالت دولة البراسكة وقامت دولة آل الربيع واستبد الرشيد بالأسر دار أبو نواس
مع تلك الدوار وأقبل يمدح رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الخليفة فيه ، وكان ذلك بدء
اتصال الأدب بالرشيد . ومن أوائل ما مدحه به قوله من قصيدة :

إني حلفت عليك جيد آية . قبا بكل مقصر . وعلم
قد أختيت الله حق قاته . وجدت نفسك فوق جيد للفق
وأخفت أهل الشرك حتى إله . لتخافك النطف التي لم تخلق .
وصناعة الشراء إن أختيتها . فقت وإن أكتفها لم تنفق .

وقوله من قصيدة أخرى :

تبارك من ساس الأمور بطله . وفضل هارونا على الخلفاء
نميش بخير ما انطويانا على الفتح . وما ساس دنيانا أبو الأمان
إمام يخاف الله حتى كأنما . يؤمل رؤاه صباح مساء .

وقوله من قصيدة ثالثة :

هارون أتنا اختلاف مودة . ماتت لما الأخاد والأضخان
في كل عام غزوة ووفادة . عبت بين زواجا الأقران
حج وغزوات بينها الكبرى . بالوصلات شمارها الرخدان

وهذا الشعر كله يدل على أن أبا نواس إنما مدح به الرشيد عند ما ظهر الرشيد بظهور
البأس والجيروت ، وعند ما غدا غمرا مرهوبا لا تؤمن بواقعه ، وعند ما جد في جيد
الروم وأذل عاملهم ، وعند ما أصبحت بضاعة الشراء رهن مشيئة ، إن شاء تنقذ وإن شاء
كسدت . والرشيد إنما ظهر بكل ذلك جنب إقصائه بالبراسكة . بل إن المصادر التاريخية
نفسها تبيننا على تاريخ القصائد الثلاث المذكورة . فالراجح أن القصيدة الأولى مدح بها

أبو نؤس الرشيد عام ١٨٧ عند ما انتصر الرشيد على القصور التي تطل على البحر (١) أما القصيدة الثانية فثبت أن الشاعر نظمها عام ١٨٩ عند ما أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لإبنة القاسم وقبيل بالزنجين (٢)، وأما القصيدة الثالثة قبلها عام ١٩٠ عند ما أخذ الرشيد قلنسوة مكتوبا عليها « غار حاج » (٣).

على أن هذه للدأخ وغيرها من شعر أبي نؤس في الرشيد لم تعد أن تكون من قبيل الشعر الرسمي الذي يقال في القلوف والقبليات الخاطمة. وليس فيها ولا في طائفة شعر أبي نؤس ما يفيد أن أبو نؤس تجاوز في علاقته بالرشيد هذه الحالة إلى أن يكون من شعراء البلاط فضلا عن أن يكون من جلساء الرشيد وتذاته. بل ليس في شعر أبي نؤس ولا في الكتب من أخباره ما يفيد أنه كان ينشد الرشيد شعره إنشادا على نحو ما كان يفعل بعض صاعديه إنشال أبي القاسمية وسروان بن أبي حفصة مثلا (٤). فقد كان ثم أمور تحول بين أبي نؤس وبين هذه القاية. لقد كان أبو نؤس قبيح الصورة، ماجنا، سكيرا، متها في شه مقايعاجات السكر وخمواخير، يشرب الخمر ويبث بالظلم، وكان يصرح بكل ذلك في شعره وخاصة خمرياته حتى شاع أسبه في بغداد. ثم إنه قد خاض في أمر الصبية العرية وتقلب فيها قلبا متكررا، فادعى أول الأمر نسب الزنوية وهما الذين ثم عاد قاضي نسب اليمن وهما للزنوية بقصيدة قوية أولها:

ليست يداد غفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم صار شمويا ويرى من القرب قاطبة وهجاء وادعى لأخيه (٥). وسبب ثالث قد به عن الاتصال بالرشيد، هو فساد عقيدته وزندقته ومجاهرته في شعره بأراء التنزية. فهذه الأمور كلها لم تكن لتجعل الرشيد يقبل على أبي نؤس ويأذن له في غشيان حضرته وإنشاده، وهو بعد أخريس على مظهر الإسلامى، للزمت في أمر العرض والشرف، القصور بنسبه القرمي للزاري القرمي. ولحق أن الرشيد بمن حيث هو خليفة للسلين وحارس الدين والآداب، لم يتردد في الضرب على يد أبي نؤس، وفي أن يجه من حين لآخر بمعنى

(١) القليبي ج ١٠ ص ٩٢ - ٩٣ - (٢) ج ١٠ ص ٩٦. (٣) القليبي ج ١٠ ص ٩٩

(٤) القليبي ج ١٠ ص ٩٦ - ٩٣

(٥) أنشأ أبو نؤس الورقة ٨٠ من النسخة المحلية المخرقة يد الكتب العسرة.

الغلاب ؛ فقد روي أنه جبه في شرب الخمر^(١) وأنه جبه بلويلا بسبب قميده التي هاجها
الزارية ، وأنه جبه كذلك من أجل جبهه بالزينة وعقائد التنوية ، وكان جواده وأعدائه
من جلداء الرشيد يعنون فيه عند الخليفة من هذه الناحية الدقيقة الحساسة . روي^(٢) أن
الرشيد جلس مجلسا وأفاض من حضرة في الطيور من شراء المحدثين ، إلى أن اتصل
الذكر بالحسن بن هاني فتمسز عليه سليمان بن جعفر ، فقال : يا أمير المؤمنين اكفر بالله .
لا يرمي عن منكرك ولا يأف من فاحشة . وقد غي إلى أمير المؤمنين خيره . قال :
يا أبا عمر أكل تروى عنه من ذلك شيئا ؟ قال : نعم أقوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظرًا في الدين ما الأسر لا قدر صبح ولا جبر
ما صبح عندي من جميع القى يذكر إلا للوت والتغير
ثم أشده قوله أيضا :

ياح ليلاني بمضمر السر وذلك أني أقول بالسر
وليس بسيد ذلك جميع وإنما للوت بعض السر

استشاد الرشيد غضبا . وقال : على باب القاعة . يا فضل الا يفوتك التزنيق
وفى إلى أبي نواس بطير فشاخ في الأرض ، فلم يقدر عليه أحد . قال رجل من جلداء
الرشيد : إن أذن أمير المؤمنين أشده من قول هذا القاص ما هو أشنع مما سمع . قال :
هات أقال : قوله في غلام نصراني :

نمر فأستحيك أن أتكلما ويشيك زهو الحسن عن أن تلمأ
ويتهز في نوبك كل عشية قضيب من الريمان شب متما
بمبك أن الجسم قد شفه الغنى وأن جنوى فيك قد ذرفت دما
أليس عطيا عند كل موحد غزال صبحي يصب ملأ
خللا دخول النار بعد مصيره عجلت مكان الله عيسى بن مريم

(١) أخبار أبي نواس ص ١٠٩ من الجزء الأول للطبري .

(٢) أخبار أبي نواس الورقة ١٠١ من نسخة المطبعة دار الكتب المصرية .

لـ قازداو حنق الرشيد عليه . قال : يا أمير المؤمنين اراشع من ذلك ، قال : هل ا
فأشده قوه في غلام نصراني :

وملحة بالسذل ذات نصيحة ترجو إجابة في مجون ماروق
بكرت تيمرقي الرشاد وحمى غير الرشاد ومذهبي وخالقي
فأجبتها كنى ملامك اتنى غفار دين أنة وجثالي
والله نولا اتنى متخوف أن أجلى

وقطع الإنشاد ، قال له الرشيد : بماذا ، وبك ! فاستغف ، قال : وبك !
بماذا ؟ قال :

..... يا نام جور فاسق

قال فضج المجلس بأهله . وأنكر الرشيد منه . ثم قال : امض ! فقال :

تجبت في دينه ودخلته يميمرة من دخول الرماق
إني لأعلم أن ربي لم يكن ليخصم إلا بدين صادق

١ . قال الرشيد للفضل بن يزيد بن النصور : إن لم يأت هذا الكلب في اللطيق لتفكرن
قولا وضلا . فوجه الفضل (في طلبه) من صاحبه ، فأخذ وأودع اللطيق ثم أعانه الفضل بن
الربيع إلى أن أطلق ، قال في ذلك :

الله فرج لي برأى لا فضل من خلق الكبول
وأقاني تحت الشبا وقد آيت من للتفيل

والظاهر أن أبا نولس قال في ورطته هذه يستطف الرشيد قصيده التي يقول فيها :

بفسوك لا يحوطك عدت لا يل بفضلك يا أمير المؤمنين

فلا يتمذون على عفو وست به جميع الصالينا

على أن الرشيد لم يكن بأربيل الذي يخفى عليه مكان أبي نولس من الأدب والشعر
خاصة . فقد كان الرشيد منه ذا جسر بالشعر عليا بمراتب الشراء شديد العطف عليهم
والرعاية لهم . وكان في قرارة نفسه عظيم الإعجاب بمن أبي نولس مؤثما بأنه أمام شراء زمانه

غير مدافع . قال إسماعيل بن صبيح^(١) لآل الرشيد : يا إسماعيل ابني وصيفة مليحة
فطنة شكلة حلوة متكلمة طريفة عذبة تسقي ، فإن الشرب يطيب من يد مثلاً . قال : قلت
يا سيدي اعل الجبد . قال : أجل قول هذا الديار أمامك - يريد أبا نواس - وامثل
فيها ما حدث في مثلاً . قلت يا سيدي وما قوله ؟ قال :

من كف ساقية ناعيك ساقية في حسن قدوني ظرف وفي أدب
كانت لرب قيان ذى صيانة بالكشح محذوف بالكشح مكشوب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها وأفسدت في تمام الجسم والعصب
وجئت بخفى لاحظ فأججشت وجرت الوعد بين الصدق والكذب
نمت فلم ير إنسان لها شهماً فيمن برا لله من عجم ومن عرب
تلك التي لو خلت من عين قيمها لم أقض منها ولا من حبا أربي

من أجل هذا التقدير التقى المحض كان الرشيد لا يبلغ من عقوبة أبي نواس للبلع الذي
يقضيه نص الشرع . فكان يجازيه على مجونه ، واستهتاره ، ويجامسه بالمعاصي في شعره ،
بعبود الحبس . ومع ذلك كان إذا كتب إليه أبو نواس من السجن يستعطه ، أو شفع عنده
شقيقاً ذا خطر ، أقال عثرته وقيل شفافته فيه وأسر بخلية سيده . بل قد بلغ الأمر بالرشيد
أن ازعج عندما أرفج أهل بغداد بأن أبو نواس قد قتل . قال يوسف بن الهادي^(٢) : قال
أبو نواس عنا وعن إخوانه غيبة طويلة ، فلم نعلم له خيراً وجعلنا نسأل عن أسره فلم نعلم له
أثراً . حتى مضت له سنة فظنوا أنه قتل ، وبلغ ذلك الرشيد قال : والله إن صح أنه قتل
لأقبحنا قاتله ولو كان محمداً (يريد ابنه الأمين) انظروا كل من هجم من الناس فاكثروا
اسمه وأرغموه إلى ؟ فارتجت بذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول إذا نحن به قد واثق .
فقلنا له : يا أبا علي ! قد قبت هذه التبية عنا فمستأ وقلنا بك الشنون . قال : كنت في
بيتى . قلنا : ألم نسمع بضناك وقول الرشيد فيك ؟ فلم يبق أحد من إخوانه إلا عذله ،
وقالوا : إن في هذا ترميماً لنفسك للأفان ، فأنشأ يقول :

(١) أخبار أبي نواس لمرقة ٦٩ من النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية .
(٢) أخبار أبي نواس : لمرقة ٦٨ من النسخة الحالية المخطوطة بدار الكتب المصرية .

...باني لى شىء عن العالين ... الروح والرحمن واليهامسين

إلى آخر القصيدة :-

وجه القول أن أبا نواس كان يحرص على أن يخلد بعض شعره بنظمه في تلك الشخصية الساطعة الثلاثية ، شخصية الخليفة هارون الرشيد . ولكنه كان يعلم الأسيل له إلى الاتصال بتلك الشخصية فوق هذا القدر . فكان يمدح الرشيد ويستطفه ولكن « من بعيد » . أما الرشيد فكان يقدر فن أبي نواس ويحب به أشد الإحباب ، ولكنه للأسباب التي سبق ذكرها كان لا يستطيع أو لا يريد الذهاب إلى أبعد من حد التشدير والإعجاب ، فكان يسبح شعره ويثني^(١) ويحب به ، ولكن « من بعيد » كذلك . تلك حقيقة الصلة بين أبي نواس والرشيد وذلك مقدار مداها .

على أن هناك طائفة من الأخبار ترمي أن أبا نواس كان وثيق الصلة بالرشيد ، وأنه كان يدخل عليه ويحاله ويتأمله وأنه كان ملازماً قصره وأن له وقائع وتواد مع حرم الرشيد وجواربه . ونعني أن بعض هذه الأخبار يصح إذا وضعنا مكان « الرشيد » فقط « الأمين » فلا شك أن أبا نواس كان ملازماً قصر الأمين يتأمله ويحاله ويشاربه ، إلى حد أن استغل للأمن تلك الصلة في التشجيع على الأمين بخراسان^(٢) عندما امتحنت الفترة بين الآخرين . وقد دعا ذلك الأمين آخر الأمر إلى التشديد على أبي نواس في ترك الحمر وإلى حبسه عند ما كان يصرى أمره . وقد أشار أبو نواس إلى ذلك في شعره . وقد يكون بعض هذه الأخبار صحيحاً كذلك إذا وضعنا مكان اسم أبي نواس اسم « ابن أبي سريم اللذي »^(٣) وكان رجلاً مضطراً كافكها منقطعاً إلى الرشيد في أواخر حياته يليه ويفرج همومه بشكائه وطريف أحاديثه .

(١) ديوان أبي نواس : جلد ١ ص ٧٣ (طبع الطبعة المسموعة) .

(٢) أخبار أبي نواس : الورقة ٥٢ (من النسخة المحلقة) .

(٣) الطبري ج ١ ص ١١٤ .

وهناك مجموعة أخرى من الحكايات والقصص تدور حول العلاقة بين أبي نواس والرشيد وقد أبدعها الخيال في الصور الإبداعية المختلفة. هذه الحكايات لا نجد لها أثراً ما في كتب الأدب والتاريخ القديمة كالأغاني والقصص الفريد، ولكنها حلت بها كتب القصص وخاصة كتابي « ألف ليلة وليلة » و « أعلام الناس » وهي تصور أبا نواس في صورة رجل مضحك يفكه الخليفة بأشعاره الطويلة للرجلة ويضحك بتواضعه للسلطة. ولما أجاد واضع هذه الحكايات السبك نسبها إلى ابن أبي مريم الذي للذكور، ولكنهم نسبوها خطأ إلى أبي نواس. قال ابن منظور صاحب « لسان العرب » ومؤلف كتاب « أخبار أبي نواس »^(١) : وقال بعض الترجين من محيط طحا بأحوال أبي نواس « إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وإنما دخل على محمد الأمين ».

وإذا كان ابن منظور قد بالغ على ما يظهر في تنبيهه عن أبي نواس رؤية الرشيد فلا شك أن عبارته فيها دون ذلك صادقة الصديق كله.

مع أبي نواس الزاهد*

شعرت من أيام بضيق في الصدر ، وخرج في النفس ، وما أكثر ما يضيق صدر
الإنسان وتخرج منه في هذه الأيام التي لا تنفك تتأدينا وتروحننا بآتياء حروب تكراء ،
وتقاتل شعواء اقتاتلت ديوان الحسن بن هاني* الشيرباني نواس ، لعل أجد في دعاياه
ونظراته المازلة المازلة يهيم الحياة غمرا عما دهمي ، ومخرجا عما نزل بي .

وأقبلت أنظر في غمرة لا تخبرني بها أفروء أو أقرأ فيه ، فرائته يشتمل على أحد عشر
بابا ، في غمضه مع للشراء ، وللدمج ، وللرائي ، والكتاب ، والمجاء ، والزهد ، والبرد ،
والخمرات ، والمجون ، وغزل اللوث ، وغزل للذكر . وما أسرع ما استوقف نظري أن
يكون الزهد من بين أبواب الشعر التي طرعا أبو نواس . وقلت في نفسي : يا مجيأ .
أبو نواس للابن المجاء ، والكثير المريد ، يكون ناسكا وزاهدا . هذه ظاهرة غريبة
طريفة ، وناحية من حياة ذلك الشاعر خطيرة ، لم ألق لها بالأ من قبل ، ولعل غيري لم
يلق لها بالأ كذلك . فالتألف للشهور عن الحسن بن هاني* أنه مشتهر مسرف على نفسه ،
قد ضجت من استهزائه حانات الكرخ ، وديارات الرق .



وضعت باب الزهد وأخذت أقرأ فيه وأقرأ ، حتى أتيت عليه قراءة ، فإذا هو يقع في
بضع عشرة صفحة كبيرة ، وإذا موضوعاته هي نفس الموضوعات التي يقول فيها الزهاد
عادة : من أسف على تضييع ما يجب على اليد نحو خالقه ، وترك الأتجار بالنسب والانتساظ
بالموت ، والتزهد في الدنيا ، والتحذير منها ، والتذكير بالبعث بعد الموت ، والتخويف من
يوم الحساب . ولقد وقع في نفسي أن هذا الباب ربما كان موضوعا على أبي نواس ، وأن
الشاعر قد نمحله كما نمحل كثيرا غيره من الشعراء . فاعلمت قراءة الباب في ضوء ما أعلم من

صناعة أبي نواس ، فبرفت فيه الصناعة القنواسية نظماً وروحاً . ثم رمت أفق الملاهي
على الراجح التي عنيت بترجة أبي نواس وذكر أخباره ، فوجدت غير واحد من آئمة النقد
للبحرین لأبي نواس يشنون التناء الجم على بعض زهدياته . فهذا الجاحظ يقول : لا أعرف
من كلام الشعراء كلاماً هو أوقع ولا أجسن من قول أبي نواس :

أية نار قدح القنابح وأى جد بلغ للزح
قد در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح
يا أبي القتي لا اتباع للموى ومنهج الحق له واضح

وهذا أبو النعمانية أكثر الشعراء قولاً في الزهد يقول : قد قلت عشرين ألف بيت في
الزهد ، ووددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قلها أبو نواس وهي :

يا نواسي توغر وتغز وتصب
إن يكن سالك دهر إن ماسرك أكثر
يا كبير الذنب غر لك من غورك أكبر

وهذا الخليفة للأمن يقول : لو سئلت الدنيا عن نفسها فخطبت لما وصفت نفسها إلا
كاوصفها أبو نواس في قوله :

إذا لم تمن الدنيا لبيب تكشفت له عن عذو في ثياب صديق

وإذا فرغ زهديات أبي نواس هي زهدياته حقاً . فإلى حدث يا ترى حتى تحول هذا
الأيقوري القلاب في مذهب القلة إلى أقصى حدوده ، حتى استحال زاهداً ناسكاً ، وحتى
أصبح يصرق القول في أمور الزهد والتهوى ، ولزوت والبعث ، والتواب والعقاب ، بعد
أن لبث دهرًا طويلاً يسخر شاعريته في نعت الكاس والطاس ، والقلان والجولوى ، وحبو
الناس والتهمج على مواضع الضعف منهم .

الآن أبا نواس قد مل ارتكاب العاصي ومقارفة الذنوب ، وكل شيء طال فهو لا عالة
محل ؟ قد يكون ذلك ، فهو الذي يقول :

وقد تبهزت مع التوبة بدلوم وأسمت سرح اللهو حيث أسماوا

ولفت ما بلغ امرؤ بشبابه . فإذا مضارة كل ذلك أيام

٣٠ لم أن تقدم السن ونذر للثيب فوهمه فلبس على سر هذا التحول ؟ وما كان الأمر كذلك ، فليس من شك في أن أبو نواس تفرغ على قول الشر في الزهد منذ أن جاوز العشرين من عمره . ولعمري إن خمسين سنة من عمر أبي نواس لتعدل مبعين أو ثمانين من عمر رجل ودع الحياة عاصفها ، ثم هو بعد الذي يقول :

لله در الشيب من واصل وتامض لو حذر الفاضح

أم أن أحدث الزمن وعبر الدهر ، وما شهد أبو نواس في آخريات حياته من نكبة الهزيمة ، وموت الرشيد ، وولوع المداوة بين الأمين والأمون ، ومقتل الأمين على شر حال ، حتى السبب الأقوى في اعتقاده أن الدنيا خدعة قرارة ، لا يأمن مكرها قوى ولا ضيف ، ولا ينجو من غدرها غنى ولا فقر ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فهو الذي يقول :

يا رب وجه في التراب عتيق ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب ومجدة ويا رب رأى في التراب وثيق
ألا كل شيء هالك إلا نكاح ودون سب في المالكين عريق
قل قريب القار إليك وأصل إلى منزل تأتي المحمل سحيق
إنما تمنى الدنيا ليب تكشف له عن عدو في طيب صديق

ومها يكن من شيء ، فلهذا الأمور كلها متفرقة أو مجتمعة ، لا تكني وحدها في تسليل زهد أبي نواس ونفسه . وأرى أنها كانت تقع على غير موقع إذا لم تصادف من شيء آخر بها ، هذا الاستعداد هو ضالة الباحث في هذا التحول في حياة شاعرنا الكبير ، وهو لأمر الذي أحب أن أنه عليه وأنت النظر إليه .

لقد كان أبو نواس على الرغم من إسراره واستهواره مؤثما في قرارة نفسه ، وللصية لا تنافي الإيمان - في شرعة العقل على أقل تقدير -

ولإيمان أبي نواس حصرتان اثنتان : الاعتقاد القلبي ، والنظر العقلي . أما الاعتقاد القلبي فأبو نواس لفنان عبقري من غير نزاع ، وعبقرة الفنانين لا يجان لم الإبداع والإلمام

إلا يخرج من الإيمان غرقه في ذلك الإصراف وتلك الرضادة التي غطاهما فيها يحجبون من شروئهم ودمهم وغير ذلك من شروب النمل الجليل .

أما الصدر الثاني وهو الخطر القتل ، فذلك أن أبا نواس لم يكن فتاكاً عبرياً غريباً ، بل كان فرق ذلك حالاً متكاملاً من علوم زمانه ، من لغة وأخبار وحديث وقصة وفلسفة ؟ وقد ورد في شعره ذكر الجبر والقدر والتماني والتجديد ، والجزء الذي لا يتجزأ ، والطائفة من أخبار القدماء وصدر الإسلام وطاء المسلمين . وقد بلغ من شأنه في ذلك أن ود بعض العلماء للمسلمين له الأخذ به ، لولا ما عرف به من محبون وانحرف عن الجادة ، ولا يطمح من يقرأ أخباره وخبرياته ومجربياته أن يجد في مواضع كثيرة منها تصريحه بأنه يؤمن بالله واحد قهور رحيم ، من ذلك قوله وهو في مستقبل عمره وجدة أمره :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإني بالغ رباً تفسس مسورا
تصبر إن وردت عليه ضراً وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تمض قدلة كنيتك بما تركت مخافة القتل السرورا

ولننظر القارئ كيف يحتم قصيدة له ضمنها ما شاء من ذكر مناسبه واستناده ، فهو يقول في ضمنها :

حتى إذا التيب فاجاني بطلته أفيح بطلته شيب غير سبخوت
قد خدمت على ما كان من خطل ومن إضاعة مكتوب للواقيت
أدعرك سبحانهك اللهم فاعف عنوت إذا العلاء من صاحب الحوت
ويروي الخطيب في تاريخ بغداد أن أبا نواس خرج في أحد له إلى مكان طيب
تجه ، فجعل أصحابه يصفون الجنة وتعيمها ، وللمامى التي تعمل دونها ، كل ذلك وأبو نواس
صاكت ، ثم قال :

يا ناظرأ في الدين ! ما الأسر ؟ لا قدر صح ولا جبر
ما صح على من جميع النوى تذكر إلا للوث والتسير

قال فانهضت الجماعة من قومه ، وأطالت توبيخه . فقال أبو نواس : ويلكم ! إني والله لأعلم ما تقولون ، ولكن المجنون يفرط على ، وأرجو أن أؤب ورحمني الله .

روى الواقعي أن أبا نواس كان دائم الاستصحاب لقوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطروا من رحمة الله ، إن الله يفر الذنوب جميعاً » ، إنه هو القنور الرحيم . كما أنه اختار من بين المذاهب الكلامية التي ظهرت إذ ذاك مذهباً يلائم حاله ومزاجه . لقد كان الخوارج يكرهون صاحب الكبيرة . وكان للفرقة برونه بمنزلة بين الكفر والإيمان . وكان أهل السنة والجماعة يعتبرونه مؤمناً فسقاً بارتكاب للملص . أما للرجلة فكانوا يقولون إنه لا تضرع الإيمان مصيبة ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وكانوا يؤمنون بفور الله لكل مؤمن بخاص . ومن ثم اختار أبو نواس عقيدة للرجلة ، وعبر عن عقيدته هذه في مواضع من شعره :

قل لمن يدعى في العلم فلسفة . حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر القنور إن كتب أسراً خرجاً . فإن حظرك في الدين لأزداء
غير أبي علي الإمامة والتفسير يط . راجح الحسن يغفر الله

•••

وإذا فالسائل التي ذكرناها من مسألة للملص وتقدم السن وتنازع الأحداث ونهدم القوي ، قد وقعت من نفس أبي نواس موقفاً ، وصادفت من نفسه استغداداً . غير أن الفضل في هذا الموقوع وفي توجيه أبي نواس وجهة الصلاح وإخراج إيمانه عن القول إلى الفعل يرجع إلى رجل كان بينه وبين أبي نواس صلة صداقة وإحباباً معاً ، ذلك هو الفضل بن الربيع وزير الرشيد بن الأمين ، فقد نبه أبو نواس الرشيد على كفاية الفضل بن الربيع بقطوعة من شعره تذكرة في ديوانه ، فعرف له الفضل تلك اليد ، فلما ولي الأمين الخلافة أوصل إليه أبا نواس ، فلما وقعت للفترة بين الأمين ولأمنون ، وندد للأمنون في خطبه بالصلة التي بين الأمين وأبي نواس ، اشتد ذلك على الأمين ، حتى قدم بقتل أبي نواس ، ثم بدا له فأمر به إلى السجن ، وشدد عليه في ترك الخبر ، ثم خلاصه من السجن الفضل بن الربيع بعد أن استنابه . وقد أشاد أبو نواس بهذه اليد التي أولاه إياد الفضل في شعره بأما إشارة :

أبا العباس ما ظني بشكري . إذا ما كنت تنقو بالذم
وإن والقي حاولت مني لمسوح دفت إلى طم

وكلت أبا سوى أن لم تظني رحباً أو أرو من نارهم
وقال - ولا يخلو قوله من تصور فكاهي لشخصه في طوره الجديد :
أنت يا ابن الربيع أزمقني الله لك وعودتيه وانظر عاد
فأرعى باطل وأضر جمل وتبدت عفة وزهاده
لو تراني ذكرت الحسن البصري في حسن سمته أو قتاده
للسايح في ذراعي والصحف في لبق مكان القلادة
وإنما شئت أن ترى طريقة تصجب منها مليحة مستفاده
فأدعني لا عدت قوم مثل وتظن لموضع الجادة
ترأركم من الصلاة بوجعي توقن القصر أهما من عبادة
لو رأها بعض الزائرين يوماً لأشترها بعد ما لشهاده
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتني على يديك العادة

أما وقد تاب أبو نواس توبة نصوحاً ، وأرعى باطله ، واستقامت طريقته ، فقد أحب
أن يتوج حياته بحجة إلى بيت الله الحرام ، يحويها خطاياه ، ويفتح بها صحيفة من حياته
تحت يضاء ، أمل ألا يكتب له فيها إلا كل ما هو خير له . وانتبه فرصة خروج حاميته
وزاعيه الفضل بن الربيع الحج ، فخرج في صحبة . وقد حج أبو نواس في صباه أيام كان
فتى من فتیان البصرة ، ولكن شتان بين المحجج . فقد حج بالأسى لأرغبة في مؤنة ،
ولكن من أجل جارية بصرية اسمها (جان) أحبها وتيمم حبها ، فلا علم بحجها فخرج في
أمرها ؛ وأما هذه المرة فحج حجاج نائب منب إلى الله . والرواة يتحلون حجة الأولى تلبية
نظمها أبو نواس ولهم بها من سمها من المحجج . ولكن لا شك أن ذلك غلط من الرواة ،
وأن تلك التلبية الحارة إنما نظمها أبو نواس في حجة الثانية . وعاشم لدى تلك التلبية الجميلة
التي يصح أن تكون نشيداً للحج لمن أراد الحج نشيداً . قال أبو نواس :

المنيا ما أهدك ا مليك بكل من ملك
لييك قد ليت لك ليك إن الحمد لك
وللك لا شريك لك

ما خاب عبيدك أنك أنت له حيث سميتك
ولذلك يا رب عبيدك ليك إن المحسنة لك
ولذلك لا شريك لك

كل بي وسميتك وكل من أهل لك
صحيح أو فني فلك ليك إن المحسنة لك
ولذلك لا شريك لك

وقيل لما أن حلك والبايعات في القوم
على جهورى لتلك ليك إن الحمد لك
ولذلك لا شريك لك

يا خاطئاً ما أهنتك عجل وبادر أمك
واشم بخير علك ليك إن الحمد لك
ولذلك لا شريك لك

ويروى أبو نواس من جهة فلا تطول حياته ، بل يشتمل عليه مرضه الذى مات فيه
سنة ١٩٨ هـ على أرجح الروايات عندنا . وكانت طه على ما يؤخذ من وصفه لماعة الليل :
صب في قضاء خلأ وعلا وأرائى الموت عضواً فضوا
ليس من ساعة مضت لي إلا قصفتى بمسرها لي جزوا
دعيت جلتى بطاعة ضوى وتذكرت طاعة الله رضوا
لطف ضوى على ليمسما وأيا م تليين لسيا وطوا
لهم أماناً كل الإساءة قال هم صفوا حسبا وقرأ وضوا
وما تسمع أعيان بحداد بانتهاء طه حتى توافوا إلى داره يعودوه ، وكان من بينهم
الإمام الشافعى الذى كان إذ ذاك بغداد . وروى الخطيب البغدady أن صديقاً لأبي نواس
اسمه محمد بن نافع قال : كان أبو نواس لي صديقاً فوفقت بينى وبينه هجرة في آخر عمره ،
ثم يلتقى وقته فضايف على الحزن ؛ فيها أنا بين النائم واليقظان ، إذا أنا به ، قلت :

أبا نواس ! قال لا ت حين كنية ! قلت : الحسن بن هاني ! قال نعم ! قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بأبيات قمتها تحت نبي الرسالة ، فأنتب الله ، فلما أحسوا بي أمضوا بالكاء ، قلت لهم : هل قال أخى شعراً قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم ، إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا أعرف ما هو . قلت : أفأذنون لي فأدخل ؟ قال فدخلت إلى سريره فإذا ثيابه لم تحرك بعد ، فرفعت وسادة فلم أر شيئاً ، فرفعت أخرى فإذا برقعة فيها مكتوب :

يا رب ! إن عطلت ذنوبى بمكة فقلت بأن عذوك أعظم
إن كان لا يبرجوك إلا بحسن فن ألقى يدهو وبرجو الجرم ؟
أدعوك ربُّ كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فن ذا برسم ؟
مالي إليك وسية إلا الرجا وجيلى عذوك ، ثم أنى مسلم
وقد أدركنا نحن في مطرنا للؤذنين يهتفون بهذا التوسل على اللآلئ في الأسفار .
فسلام على أبي نواس مفتتاً مبدعاً ، وسلام عليه في الناسكين القراءدين .

كتاب الوزراء والكتاب

للجهشياري*

أهدي إلى زميلي وصديقي الأستاذ مصطفى السقا من أشهر مضت ، نسخة من كتاب
« الوزراء والكتاب » لابن هيدوس الجهشياري للتوفى عام ٢٢١ هـ . وقد أخرجه للناس
هو روزميلاه الأستاذان لإبراهيم الأيلري وعبد الحفيظ شاي في حلة عربية تشيية ، ومطبوعا
لأول مرة بمطبعة الحروف .

ولم تمكني كثرة العمل في العام الدراسي للتصميم من أن أفرغ قراءة هذا السفر
النفيس ، وإن كنت قد رجعت غير مرة إلى نسخة الأوربية للطبعة بالزيك ، وكنت
حاربا بنفاة قدر الكتاب وعلاقته العلمية .

وقد استرحت في هذه الأيام من عناء العمل الرسمي ، وأصبحت حرا أقرأ ما أشاء متى
أشاء . وقد رأيت أن أقرأ الكتب التي وردت إلي ، والتي اقتنيها ، على ترتيب ورودها إلى
واقتنأت لها ، فكان كتاب الوزراء والكتاب أحقها بالتقديم على كل حال .

•••

والكتاب يتناول الكلام على خطط الكتابة والوزارة في الدولة الإسلامية منذ
قيامها إلى زمن الخليفة للأمن السياسي ، وما من أم خطط الدولة الإسلامية تلك العهد .
ومع أن المؤلف قد أدار كتابه على هذين النظامين فهو من حين لآخر يفصل كلامه بإشارات
ونكت واستطرادات لما قيمة علمية عظيمة عند من يمانى الأدب العربي والتاريخ الإسلامي
في صدر الإسلام ، هذا إلى أنها سهلت تناول الكتاب وخلت عليه رواء القصة وجاذبيتها .
ولقد وفق الأستاذة الناشرون للكتاب في نشره على الناس إلى حد جيد ، فوضوا له
مقدمة ترفق القارىء بالمؤلف وبأصل الكتاب ، وضبطوا لأن جيد استطاعتهم ، وحققوا

وشرحوا ما يحتاج منه إلى تحقيق أو شرح ، ثم ذيلوا الكتاب بتهامس ضافية استوعبت
الأعلام الواردة في الكتب وموضوعاته ، وردته إلى جنبه ردافه دقة وفيه استقصاء .

ومن عاذني عند ما أقرأ كتاباً طويلاً أن أتناول قلم الرصاص فأقيد بهامشه ما ين
لي من فائدة طيبة ، وما عسى أن أستدركه على المؤلف أو الناشر إن كان ثم موضع للاستدراك .
وقد جريت على عاذني هذا عند ما شرعت في قراءة « كتاب الوزراء والكتاب » فلما
فرقت منه قراءة وجدته قد قادت بهامشه جملة تحقيقات وملحوظات واستدراكات ، منها
ما احتفظ به لنفسى وأعدته لدراسي ، ومنها ما هو في حقيقة الأمر قد تلقى في بعض
مواضعه أو استدركه على تحقيق الأستاذة الواردة به . وقد لا يغفل هذا البصيف من
التحقيقات من الفائدة لتبصر من قراءة الكتاب ، فأنا أنشبه على هذا الاعتبار وحده .

١ - بناءً على متن الكتاب في ص ٩٩ ما مؤداه أن زاذان فروخ كان كاتب عبد الله بن زياد ،
وقد علق الأستاذة على ذلك بقولم : « لله عبيد الله بن زياد » والصحيح الثبت أنه
عبيد الله بن زياد لا لعبد الله (الطبري : المجموعة الثانية ص ٤٨ : من الطبعة الأوربية) .
٢ - وجاء في ص ١٦٨ : « وهو إذ ذاك بارز والدار » يريد المؤلف تحسنة للكان الذي
مات به الخليفة المهدي العباس . وقد علق الأستاذة على هذا الاسم بقولم إنه محرف ، وإنهم
لم يروا في أسماء الأماكن ما يقرب منه إلا ما ذكره للسعودي في أول ترجمة للمهدي من أنه
خرج إلى موضع يسمى « أروزن والزان » قلده محرف عنه . وأقول إن القلط محرف ،
لا شك في ذلك ، إلا أن الطبري ويقوت إسحاق اللوزج اللقي مات فيه المهدي « بارز
بمسيدان » فإن لم يكن الاسم محرفاً عن هذين القطين معاً ، فلا أقل من أن يكون قد
خلص لنا من كلام الطبري ويقوت اسم القرية التي هلك بها هذا الخليفة وهي « الرذ »
الواقعة بالقرب من مسيدان . وجاء في المتن في ص ١٩٣ : « ولوزير البروضو شرهيجو به
عبد بن الأشعث » مكلم الذئب » الخواص وهو :
تَهَمُّ عَلَيْنَا بِأَنْ لَدَيْكَ كُلُّكُمْ . هَذَا لِمَنْ سَرَى أَيْكُمْ يَكِلُ الدُّنْيَا .

فكيف لو كلم الليث المصور إذا تركتم الناس ما كولا ومشروا
هذا السويدي ما يسوى إياوته يكلم القليل تصيداً وتصويها

ويروى : « هذا السنيدي » فصر به محمد بن الأشعث ثمانية سوط .

وقد علق الأستاذ على هذا الخبر بقولهم سويد تهنير تحير ليد بالكسر بمعنى الذنب .
وقد أوردوا في آخر الكتاب رواية كتاب البرقة لهذا الشعر وهي تقول (هذا السنيدي)
وعندي أن رواية كتاب البرقة هي الرواية الصحيحة وتزيد رواة الأغاني « ج ١٨ ص ٢٨ »
كما يزيد على الشعر خمسة ، فإن السنيدي تصور سدي والسدي هو الرجل للنسب إلى
السدد وكانت القبة تجلب في ذلك الزمان إلى العراق من السدد .

على أن في الخبر لذكر آغا أعلاماً أخرى منشؤها تعريف النسخ من غير شك ،
فقره « وزير الرومي » خطأ وصوابه « وزير الرومي » وهو فاضل كان معلماً وصديقاً
لدعليل وكان معروفًا ببراءة أوزان شعره . وقد ذكره بهذا الضبط صاحب الأغاني في موضعين
من كتابه ، ولحقه فيهما هذا للتشعر قرن الأعلام القرن عموماً غير من كتاب الأغاني ، كما
ذكره بهذا الضبط أيضاً كما يقول الأستاذ في المائتين صاحب كتاب البرقة ولعله أراد
والرجوع إلى أصول الأبيات مما جاء في هذه البراجع وأنخذوا بما جاء في الأصل الذي قبلوا
وهو الكتاب ، وما جاء في فهرست ابن النديم وهو كتاب يحشو بالحروف والتعريفات
و محمد بن الأصبغ المراد في الخبر لذكر محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث « د ور
وجع القاري » إلى سيقا لأن لوجه يدور على جعفر هذا الذي ولي خراسان الرشيد .

ويؤيده من موضع « ملك القرب » من الجلة أنها صفة لابن الأشعث ، مع أنها لقب
جدا لابن الأشعث ، وكان رجلاً من خزاعة على عهد النبي (ص) . ولم في تكلم القريب
إلى قصة أورد صاحب الأغاني (ج ١٨ ص ٣٧) ، وإنا فبارة النص يعني أن تكون
هكذا : ووزن الرومي شعر يهجو به جعفر بن محمد بن الأشعث . من بين ملك القريب
الطراحي الخ .

وجاء في المتن في ص ٢٥٦ : « وكان يكتب التصنيب أبو عبد الحميد بن هارون البغدادي
لأنه لكتاب البلدان وغيره من الكتب » وقد علق الأستاذ على ذلك بقوله :

« البلاذري هو أبو بكر ، وقيل أبو جعفر ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان » .

والحقبة أن البلاذري صاحب كتاب البلدان لم يكن وله بعد وقت أن كان الخليفة بمصر ، أي حوالي سنة ١٨٧ هـ .

وأبو عبد الحميد بن داود اللذكوري الطبري ، إنما هو جده كما يؤخذ من نسب البلاذري الوارد في ترجمة البلاذري منسوبة للقريني وولادة في مقدمة كتاب فتوح البلدان . قال : « هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود الهنداني الكاتب ، ويسمى بالبلاذري » ، وإنما عبارة هذا الظاهر لا بد أن تكون هكذا : « وكان يكتب الخليفة أبو عبد الحميد بن داود (جده) البلاذري مؤلف كتاب فتوح البلدان » الخ .

وقال المؤلف في ص ٢٢٩ : « وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم في هدم إرباب كسرى » ، والظاهر أن هذا وهم من المؤلف ، فالمرور بالقرار أن قصة الشروع في هدم إرباب كسرى إنما تعاقب إلى التصور وخالفه بن برك ، لا إلى الرشيد ويحيى . (الطبري المجموعة الثالثة ص ٢٢٠ ، والآخرى ص ٢١٧) .

• • •

وعلى الأستاذة على قول المؤلف في ص ٢٧ : « يا أمير المؤمنين ، إنك لو بشت الوليد يفسد الأموال بين الناس ما رضوا عنه » فكيف تبته جالياً ... ولكن وله المأون والمصروف يمكن ذلك له شرفاً وذكرًا » . قالوا : « للمأون الجبايات والظالم ، وله يريد بالمأون والمصروف ولاية القضاء والقبض » . ونصير « المأون » بهذا المعنى إنما يصدق في المصروف الإسلامية للأخوة . فأما في صدر الإسلام فالمأون كانت عبارة عن الأموال التي كان يسلطها أصحاب الطاعة الرسمي فوق عطايتهم ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : « ألا وإن قريشاً يريدون أن يخذلوا مال الله سموات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حتى قلا » . (الطبري ، المجموعة الأولى ص ٢٠٢) .

ومنه قول القائل :

فمن ضربنا الأزد بالرق والحي من وجهه الرقي

وابن سبيل قائد الفئاق . بلا معونات ولا أرزاق
(الكامل للبرد ص ٧١ طبع أوروبا) .

ولا شك أن إحصاء اللال على هذا النحو مما يكسب مثل الوليد بن عبد الملك شرقاً
وذكراً كما يقول النص . وانظر أيضاً في هذا السدد : كتاب فتوح البلدان صحيفة ١٨٧ من
الطبعة الأوربية

جاء في ص ٥٧ : « قاتوق سليمان كتب عمر وهو على قهره يبرئ أسلمة بن زيد
ويبرئ يزيد بن أبي مسلم » . وقال النشرون استدراكاً على هذا : « وظاهر أنه يريد
يزيد بن الهلب » . والواقع أن للزلف يريد ما يقول والصلوب في جانبه ، ولكن الأساندة
أخذوا برواية آخرها ابن حنبل في كتاب التقييد ، ومؤداه أن سليمان بن عبد الملك
حبس يزيد بن أبي مسلم ، فبقى في حبسه مدة خلافته وخلافة جده مع أنه لم يقل واحد
من أئمة مؤرخي للشرق بهذا الحبس الطويل : لا الطبري ولا ابن الأثير ولا ابن خلكان
الذي خص ابن أبي مسلم بترجمة وافية . بل يقول ابن خلكان ما يستلزم سليمان أن يزيد
في جامعة لغارده فوجده قوى المارضة ، وكشف عن ذمته فلم يعلق عليه شيء ، فاستحال
سخطه عليه إلى شبه إيجاب به ، حتى تقدمم بإتخاذ كاتباً له لولا أن يخطه عن ذلك بعض
جائزى مجله . ثم إن يزيد بن أبي مسلم عزى نفسه بعد البرئ بالاشتراك في النزو ،
فلما ولي عمر بن عبد العزيز وعلم بذلك أمر بوجه من النزو ، وهو ما يفرضه الجشيارى في ص
٥٥ . فالأخذ برواية صاحب القديوم أن للزلف قد تناقض في أخباره وهو غير صحيح .

جاء في ص ٨١ من مقطوعة لمجد الكاتب هذان البيتان :

فليت تقرر من عبدة لها في الضمير ومن هامل

تقضت غرايات سكر الصبا ورد التقي عن لباطل

فضببط انشراح تقرر باقاف اللثانة من فوق ، وعندى أن الصواب والأبلغ أن قرأ
تقرر) باقاف للوحدة ، من قرة السحاب إذا مطر وفرغ ماؤه . وضبطوا عن بضم أوله
وثانيه على أنه جمع عنان ، وأرى الأفضل أن قرأ (عَن) بفتح أوله وثانيه ، بمعنى اعتراض ،
ولا سيما أن ميويه ينكر أن يكسر عنان على غير أفعلة ، (لسان مادة : عن) .

وأورد للزلف في ص ١٢٥ مقطوعة من الشعر ليد بنى المجلس مضمومة الروى ،
وأولها :

أمن سمية دمعُ العين مفرووف . لو أن ثامتك قبل اليوم مفرووف .

ومنها هذا البيت :

لا تيك عينك إن الدهم ذو غير . فيه خررق ذى ألف ومألوف

وقد ضبط الأستاذة قوله (مألوف) بالكسر وقالوا إن في البيت إقواء ، ثم قالوا :
والظاهر أنه دخيل على هذه الأبيات لأنه غير وارد في التصديقة للنسوبة إلى عنترة (في
ديوانه وفي كتاب الأغاني) . أما أن يجمع على كتاب الجهشيارى بكتاب الأغاني والديوان
للمنسوب إلى عنترة فهذا ما لا يجوز ؛ فكتاب الجهشيارى أقدم وأوثق من كتاب الأغاني
فهنا عن الديوان للنسوب إلى عنترة ، وهو يورد لنا للمقطوعة المذكورة في ضرورة من أقدم
صورها ويزورها إلى قائلها الحقيقي ، وهو بذلك يصحح خطأ وقع فيه صاحب الأغاني وجامع
الديوان للنسوب إلى عنترة . وأما أن في البيت إقواء فهو ما لا لزوم . بل إن ضم (مألوف)
هو للعين والواجب إذا رأينا قول الشاعر في صدر البيت (إن الدهم ذو غير) ، فيكون
معنى الكلام إن الدهم ذو أحوال . طورا يفرق الآلاف ، وطورا يحسم . ويكون
(مألوف) مطوفا على قوله (خررق) ويكون معنى الإلف مثل مجرود ومقول بمعنى الجهد
والعمل . وإذا استبعد الأستاذة ذلك أفلا يمكن أن يقال إنه محرف عن (تأليف) ؟ وأيا
ما كانت الحال فإن أرى البيت منسجما مع سائر أبيات للمقطوعة معنى ووزنا وواقية .

وعلى الأستاذة على لفظ (التوبهار) الوارد في ص ١٩١ بإيراد كلام لياقوت بين
فيه أنه كان بيتا للبرمكة في بلغ يظنونه ، وأنهم كانوا يضاغرون به بيت الله الحرام ، وأن
معنى التوبهار البهار الجديد ، إذ كانت ستمهم إذا بنوا بناء جديدا أو شربا كلوه بالبهار
وهو الرمان . ولكن البحث على الحديث الذى قام به بارتولد (دائرة المعارف الإسلامية
مادة برمكة) وبقوات (رسالته عن البرمكة ص ٢٨) يدل على أن التوبهار كان معبدا
بوزن ، وأن لفظ (توبهار) سنسكريتي الأصل مؤلف من (نوقا) بمعنى جديد و (توبهارا)
بمعنى بيت أو معبد ، وقد كانت الهند توبهارات كثيرة . فإن كان لا بد من إيراد ما قاله

كتاب العرب من هذا البيت ، فيحسن أن يرفع ذلك بما يراه البحث العلمى الحديث
إتماماً لقائمة .

وجاء فى متن الكتاب فى ص ٩٩ : « وما يشبه خير عبد الله بن سوار هذا » وخلق
الأساتذة على ذلك بقولهم [فى الأصل : « وما يشبه خير هذا عبد الله » الخ . والسبب يقتضى
تأخير « هذا »] . ولست أرى مع الأساتذة ذلك فتقديم اسم الإشارة على التّم للشار إليه
وارد فى الكتب القديمة ، فصاحب التخرى يقول : « وهذا خالد هو جد البرامكة »
(ص ٢١٠ من الطبعة الأوربية) ويقول : « وكان هذا سفهًا رجلاً مجرباً » (ص ٢٣٢)
وأظن أن قوله « رجلاً من العربية » وإذا فلا داعى إلى تغيير عبارة النص بالتقديم والتأخير .



ذلك ما قبله على هذا الكتاب الفيس ، وإنى أرجو أن أكون قد قضيت بذلك
بعض مؤلفه وحقق نأشره وحقق قرأته . وأقول فى ختام بحثى إن ما أخذته على الكتاب
موله أكان من ناحية اللز أم من ناحية تعليق الأساتذة ، لا يكاد يذكر بحساب ما فى
الكتاب من سبل القائمة ، وما فى عمققات الأساتذة من عظيم الإجابة والإيمان .

أبو العلاء السياسي

وُلد أبو العلاء للرعى سنة ٥٣٦ هـ وتوفي في سنة ٥٤٩ هـ . قد ولد ، ونشأ ، وشب ، وابتلى ، وشاب ، ومات ، في زمن كان فيه العالم الإسلامي كله عاقلاً بأفراح الاضطراب السياسي ، مليئاً بالآفات الاجتماعية والأخلاقية . ففي أقصى الغرب كانت الأندلس قد تقلص عنها ظل الدولة الأموية ووقفت في القوضى التي سببت تكاليف الأسبان عليها وعلمهم على انقراض أطرافها . وشمال أفريقيا أصبح بعد زوال أموي الأندلس وانحلال القواطم إلى مصر نهياً مقسماً بين دويلات عربية وأخرى بربرية كانت لا تخرج متداخلة متناحرة . ومصر والشام كانتا خاضعتين للدولة الفاطمية وهي دولة على عظم شأنها ، كانت تنفذ إلى دعاية باطنية سرية ، ظهرت آثارها في أيام الحاكم والمنتصر . على أن الدولة للذكورة أخذ شأنها بعد المائة الرابعة بضعف وبخاصة في الشام ، مما جعل ذلك القصور نهياً لأحزاب القبوادي القريبة منها وتلوقت الروم من جهة الشمال . وجزيرة العرب كانت قد عملت فيها تعاليم الزنج والقرمطة قلب على أهلها التخلص وقطع الطريق والسطو على قوافل الحجاج . وفي العراق وفارس كان سلطان الخليفة البساسبي قد استحال إماماً لا معنى له وكان الأمر كله بأيدي بني بويه للخلفين على الخليفة وعلى البلاد . وكان حكم هؤلاء ملؤه التعسف والاستبداد والظلم ، هذا إلى إضمار بعضهم على بعض ، ووقوع الفتن في بغداد بين عصبيتهم من الفيلق وبين الجند الأتراك . إلا أن الحال في أقصى الشرق كانت خيراً منها في سائر الأقطار الإسلامية ، قد قامت به دولة قوية عملت على التفتح والتوسع ونشرت الإسلام في الهند ، تلك هي الدولة الفخرية المشهورة . على أنها كانت دولة قامت واتمت بحمد السيف ، فكان للأولاد مستنداً في أغلب الأمر من قصة السلاح وبريق السيوف ، والتمسك أن العالم الإسلامي في مصر للذكورة كان قد انحدر نظامه واندم منه الزواجر السياسي والديني أو كاد ، فانتشر الفقر واليأس ، وعم الظلم والفساد ، وأكل القوي الضعيف .

عاش أبو العلاء في ذلك العصر وتأثرت فيه الحسنة بما آلت إليه أحوال الناس وخاصة منذ عاد من بغداد سنة ٤٠٠ هـ ولزم داره بالمرّة يصف ويُدرس لتلاميذه الذين كانوا يقدون عليه من مختلف الأقطار للأخذ عنه . وقد صور في نثره ولزومياته تلك الحال تصويراً وحيّاً ولكنه يليخ . انظر كيف يصف تطاول أعراب الجزيرة والشام إلى اقتسام البلاد بعد أن صف أمر السعديين وما شمل الشام ألبتذ من الإحسان بسبب عدولهم ، فيقول :

أرى حلياً حازها صلح ورجال مستان على نيلنا
وحسان في سلقى حلياً يصرف من عزه أبقا
فلما رأت خيلهم بالنيل ثمانا على جيشهم حلقا
ومت جامع الرمة السبعا م فأصبح بالهم قد خلقا
وما فتح الكعاب السبعا ه عام على غضب فقا
وطال تتخيل ظم يذكر وظل أسير فما أطلقا
وكم تركت أهلاً ووحده وكم غادرت سدياً علقا
يسأل في الحلى عن ماله وما تقول في طائر حلقا ؟

ويقول أيضاً في هذا المصنف :

ألقنا بلاد الشام إلت ولادة تلاقى بها سود الخطوب وجرها
فلورا نذاري من سيمة ليها وحيثما تصادى من ربيعة نمرها
وددت بأن في غيبة قازد تصانفي الأروى فأكره قرها
فإنى أرى الآفاق دانت لظالم ينز بنايلها ويشرب خمرها

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إلى أبو العلاء رسالة ينهيه فيها عن الخروج للحج في عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، وأن الجهاد في تلك الحال خير من الحج ، فما كتب به إليه : « وسفر مولاي إلى الحج في هذا العام حرام بسل ، كما حرم صوم عيد القطر ، وحظر على الحرم تضيغ بقطر ... وهو - أدام الله نمكيته - أمين من أمناء المسلمين ، يعرف الشركة ، ويستعيد اللأمة ، ويحصن ماوى من سور أو شرقات ... ومن لحياطة الرعية بدمايك للدر .. وإجراء السعد

لمنظها والنذر ؟ - وحلب - جرسها الله - قد صار فيها رباطا يفتنم ، وجواز يرغب فيه
ويقتاس ، ولا يلبث أن يزول بانقضاء المدة ، وعودة الجامع كافة الروم إلى كرسية
من برزنية .

ويقول في فساد الأمر بالمجاز والثام والعراق :

أما المجاز فما يرجي للقام به لأنه بالمرار الحس محترز
والثام فيه وقود الحرب مشتمل - يشبه القوم شدة منهم المحز
وبالعراق ويبض يستل دما وعارض بقتل الشر يرتجز
ويشير إلى حقيقة أمر صاحب الرمح بالبعرة والتمسكة بالبرين فيقول :

إنما هذه للذاهب أنبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤا

فمضى القوم مئة لا يوقو ن لدمع الشاء والحناء

كانت نام بمسح الرمح بالبعرة والتمسكة بالأحبا

وهو لا يبره برين الهوة التزوية ولاؤها ويقول في ملكها الشهيدين محمود ومحمود :

محمودا لله وللحمود خاتمه فد عن ذكر محمود ومحمود

ملكنا لو أتي غيرت ملكهما وعود حلب ، أشار القمل بالعود

وكا تشير هذه آيات إلى علم أبي العلاء بأحوال للشرق الإسلامي فإن رساله إلى

ابن حزم الأندلسي وداعي الدعوة الصليبية وكلامه على ابن حزم الأندلسي في رسالة التفران ،

كل ذلك يشير إلى اتصال أبي العلاء بالشرق الإسلامي اتصالا بمرقه . وأبو العلاء يحمل

حكمه على للشرق وللغرب بالقوضى السياسية والفساد والبعد عن الإصلاح في قوة :

وجدت النفس في صمخ ومرج تحولة بين مصمزل ومرج

فشأن ملوكهم عريف وزرف وأحباب الأمور حياة خرج

وقم زعيمهم إهم سلب مال حرام النهب أو إحلال فرج

وأبو العلاء يعبرح بأن الأمة القربية في هذه القوضى وذلك الفساد إنما هي نظام لللك

للتبند القشوم القائم على القهر والظلم والوقمة والدعاء :

ورنى الناس بالدهاء فإيدك جيبيل يقضد طوع وهاء
 فإراقلان جيد لـ سديقه لا يكذبوا ما فى البرية جيد
 فأقوم نال الأمانة بالناس وقبهم بصلاته مصيد
 وهو رباً بفسه أن يكون ما كان من هذا القليل :

لا كانت الدنيا طيس سرنى أنى خليقم ولا عمودها
 ما سرنى أنى إلم زمانه تلقى إلك من الأمور مقال
 أسر إن كنت عموداً على خلق ولا أسر بآنى لك عمود
 ما يصنع الرأس بالتيجان يتقدما وإنما هو يد للوت بلود

وما أختار أنى لك يجيى إلى لال من مكس وخرج

وهو يك إلى إصلاح الطنة للشددين طركا شتى من الترفيب والترهيب . فارة
 يجب إليهم التوى والصلاح :

والناج تقوى الله لا ما دعوا ليكون زيدا للأمر الفاضل
 يا مشرع الرمح فى نيفت مملكة خير من للارن الخطى مسلح
 وتارة يخوفهم عواقب الظلم ورواقه :

خف دعوة للظلم فى سرية طلفت لجات بالذاب قنازل
 عزل الأمير عن البلاد وماله إلا دعاء ضيقها من عازل
 والظلم يحمل بعض من يسى له وعمل قتمته بنفس الظالم

وتارة يحذرم تصرف الأعداء وتقلبها بالناس وهما وتفضا :

أيا وإلى للصر لا تظلمسبن فكم جاء ملك ثم انصرف

لا يفتح لك الجبار من قدر ينهر لطل ما أبدى وما جاسا
 ولو غدا الكوكب للرمح فى يده كالسهم وأخذ اليرجيس ورجاسا

وتارة يسلك طريقته السنية فيذكرهم للوت الذي يأتي على جميع الناس فلا يبق
منهم إلا يوم وذكريات أعلم :

حوادث الدهر ما تنفك غادية على الأيام ربابها وتليس
أوت بكسرى ولم تترك مرزبه والمناذر أودت والقوايس
أردت حينما وحشت بالردى حسنا وولجت آل عباس بجنس
على أن أبا البلاء ينهب إلى أبد ما ذهب في تليل القوسى والفساد، فيبين أن البلاء
البيدة والسبب المجرى في ذلك أن للوك والتلحين لم يدركوا أنهم في حقيقة الأمر عمل
الرعية وأجرأوها وخذلها وأن الشوب مستقر السلطان ومستند :

مثل للقمام فكم الحاضر أمة أيرت بغير صلاحها أمرؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أيرؤها

إذا ما تبينا الأمور فكشفت لنا وأسير القوم قوم خادم
ومر ذلك بغير الفتاة غضب الأم وعودة الشوب :

أعاذل أن ظلمت للوك ضمن على ضفنا أعظم
تسنت قريش إلى ما خطت ولستأر للوك والهم
وعل ينكر القتل أن تد قيد باللك غانية غلم ؟
وما ظفر الملك في جيش سوى ظفر بالردى يعلم

لو بحث للتصور نأى إلى مدينة التليم لا تسلى

قد سكن القفر بنو هاشم واحتل لللك إلى العلم

لو كنت أدرى أن عظام ذلك لم أقتل أبا مسلم

قد خدم الدولة مستنصحا فأبنت شعبة الظالم

ما دام غير الله من دأبهم فأغضب على الأعداء أسلم

فأبو البلاد بقر للبدان السيليين الأساسين : سلطنة الامة، وانتخاب ولاية الأمور،

وهو من أجل ذلك يفتي على القيمة مذبحهم اليسرى في القول بأن لفظة نص وتوقف
وليست بشورى ، ويحدد برأيهم في الإمام للتتظر :

• قالوا سميت كما يعلم عاقل يرى أحاديثا بهم صاروا
• والأرض موطن شره وضلالتهم ما أصبحت يمرور يوم فاروا

على أن ويمرقلية أبي العلاء حصل اتصالا وليقا باعتقاده في الاعتدالية الإسلامية
فواء أكانت وثيقة به . وذلك من حيث الزكاة . أم إسلامية تاريخية . وذلك من
طبع عبس الأرض وتوزيع قتلها على المسلمين فيها منه فهو يقول في أسر الزكاة :
وأحب الناس لو أطروا زكاتهم لما رأيت بين الإطام شاكيا
ياغوت ما ألت ياغوت ولا نصب فكيف تصبر أقواما منا كذا ؟
لأن عمن تصبر اليك قد تصبروا والضاكين فرط الجهل يا كذا
لا يترك قلبه لغيره من نال في الأرض تأييدا وتمكينها
ويقول في أسر الأرض :

للك في من يفتقر ينال مني يردده قبرا وتضمن فيه الدركا
لو كان لي أو لنوري قيد أمة فوق القربا نلت الأسم مشركا

الأرض لله ما استجبا الخلل بها أن يدعوها دم في الدار أضيف
تتلعثوا في عواري فيتهم نيل خطام وأرماع وأضيف
إن خائفوك ولم يمرر خلاصهم شرأ فلا بأس أن الناس أضيف
واليت الأخير يشير إلى أن أبا العلاء لا يرى بأما يقام القديم على قدمه إذا كان
تغييره يمر إلى شر .

ولأبي العلاء رأى في كيف تحقق (الليوتويا) أو الجماعة السياسية للثانية . وهو
يضمن رأيه هذا قوله :

• أن أكلهم فضلا واعتبروه لافلا يخافون ولا خليفهم

لا تروا أموركم أبدى لنا من إذا روت الأمور اليكم

وهذان البيتان ينظران إلى ما قال به النجاشي من أنطوارج لعل أبي العلاء ،
قد أجسوا على أنه لأحبة الناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتفحصوا فيما بينهم ،
فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحلم عليه فأقلوه جاز .

أما بعد ، فسكم ود الحكام من قديم لورول العلاقة بشئون الناس ، ومن حين الحظ
أن في سيرة أبي العلاء أحواراً ترجح أنه ولي بشئون الليرة فلما - فهدى أنه عندما عصت
لليرة على صالح بن مرداس أمير حلب ، سار إليها صالح وعاصرها وأبرق أهلها بالمحصار ،
فقال الناس أبا العلاء أن يخرج إلى صالح ويكلمه في رفع الحصار ، فخرج أبو العلاء إلى
ظاهر الليرة ولقي صالحا وكلام رقيق أرفق غس صالح فأمر بالكف عن القتال وقال
لأبي العلاء : « : وهبناك » . وظاهر هذه العبارة يحتمل أن صالحا قد غدا عن الليرة من أجل
شفاعة أبي العلاء . كما يحتمل أنه قد وهبها لأبي العلاء فلما وأنه أقضه لها على نحو ما كان
مألوفاً في الدولة الإسلامية في ذلك الزمان . على أن الذي يرجح الاحتمال الثاني نص صريح
ولرد في رحلة الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، قد زار الليرة في عام ٤٣٨ هـ ووصف في رحلته
ما شاهده فيها قال ما ترجمه (وكان بها رجل ضرير يدعى أبا العلاء ، وكان أمير البلدة ،
وله من النعمة والسيد والتقدم ما يستكثر . وكان جل أهلها كالسيد له ؛ إلا أنه سلك طريق
النسك وتردى بيرجد في بيته ، وكان يأكل كل يوم نصف من من خبز الشعير لا غير .
ويبلغني أنه ضحك بابه ، ويقول عنه نوابه وعمله أمور البلدة إلا فيما يهم فيرجعون إليه . وهو
لا يمنع أحداً عما آتاه الله ، ويعصم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل عنه بشيء من أمور
الدنيا وقيل له : إن الله خولك ما ترى من المال والنعمة ، فلماذا تعلى الناس وتبذلهم
ولا تمتنع أنت بنفسك ؟ قال : ليس لي منه إلا ما أتبلغ به من القوت نجس . ولما وصلتها
كان حيا يرزق ^(١)) ولقد ضمن أبو العلاء بعض لزمياته الاعتراض الواردة في النص المذكور
وجوابه عنه قال :

سوت لي غنى أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التوسيل
 وإنهاى بالمال كف أن يطل ب متى ما يقتضى التوسيل
 ويقول التوبة خوك ك كذبتهم لغوى التوسيل
 إن حبك التقدير كالليل تيرا فليفضض العطاء والتوسيل
 لا تعمل على اشتزان فسا لب در الصفر أو ميت عويل

لذا ضحت هذه الأخبار ، ولا غللا لإحصية ، يكون أبو البلاد قد ظنر تحقيق آرائه
 السلية التي صورها آخا ، ويكون الخط قد اعتقاد من بين الثلاثة جيما ، فحق على
 يديه لمدة قصيرة من الزمن ، خيالاً من أروع أخيلهم ، وحلماً من ألد أحلامهم .

ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء المعري

يقول أبو العلاء في بعض لزومياته :

ما كان في هذه الدنيا جزو زمن إلا وحسدى من أخبارهم طرفا
فهو يدعى أنه ما من أمة وجدت في هذه الدنيا إلا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف
شيئا من تعاريف أحوالها . والحق أن أبا العلاء لم يسطع للباقية ، ولم يركب متن الشطط
عندما ادعى هذه المعري . فقد أدرك من أول أمره أن جماعة الجاهلية التي لحقت منذ طفولته
لا شك ما عتته من معرفة الطبيعة الإنسانية من طريق البيان والشاعرة ، غير أنه ظن إلى أن
في وسعه أن يتدبر ما تفوق عليه هذه الآفة المحبوبة من طريق الإطلاع على عناصر الإنسانية
السطور في تاريخها ، فالطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بتدبيرهم العبد أم
قرب : ذلك أصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم نجد زجاده ولما عند رجوعه من بغداد
إلى بلده ، واعتزله لزوم قاي عبيد وهو يته . فإن أبا العلاء لم يرد بالبرقة أن يضرب بينه
وبين الناس حجابا كثيفا بحيث لا يروهم ولا يرونه ، وإنما أراد بالبرقة أن يكون يتجوز من
غناظهم وملاستهم ، وأن تتاح له حرية درس أحوالهم ونظهم ومجارب أمورهم دون أن
تتمذ إليه أيديهم ، ودون أن يرضوا له بما يوجب له شغل الخاطر وهم القلق وقتة النفس .
فكانه أراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى ، ناحية الإطلاع
على أخبار الماضين منهم والقائرين ، أي من ناحية الإطلاع على التاريخ . على أنه إذا كانت
الضرورة هي التي قصت على أبي العلاء . بالإطلاع على التاريخ فذلك سبب آخر حجب هذا
العلم إلى عقل شاعرنا الفيلسوف وقليه . ذلك أن التاريخ قد يكون آلة العلوم وأشدها امتناعا
حتى ورد الإنسان ساحة وقلب محتامه فهم ذكي وقلب سليم . هو موكب الأمم ومعرض
الحياة الإنسانية ، فيه تبيين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة ، وفيه تظهر أسباب عظلة

الشعوب وأسرار أمتحلالها، فيه حكمة الحيلة واضحة لا لبس فيها ولا إيهام . فإذا كان أبو البلاد قد أقبل على التاريخ بطرح صحائفه ويستخرج هبة فإن ذلك إنما كان عن ضرورة أول الأمر ثم من حب له وشغفه به أخيراً .

على أن اطلاع أبي البلاد على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بمحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ما وصلت إليه في أيامه أى من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس الهجري . فإذا كانت حدود هذه الرواية ؟

تتبدأ بعدد الرواية التاريخية العربية في القرن الأول الهجري ثم تمت غوراً مطرداً وتتمتعت تنوعاً ينافي في القرون الثلاثة التالية . فتدونت أخبار العرب قبل الإسلام وأخبار الأمم التي كان العرب اتصال بها كالفرس ، والروم ، والهند ، والمصريين ، والأقباط وكل ذلك كالمدخل إلى التاريخ الإسلامي ، ثم دوت سيرة الرسول عليه السلام وأخبار الخلفاء والفتوح وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وما تفرع عن الأخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالطاهيرية والساسانية والتمنوية والبويهية والمجانية وبسببها في الغرب كالطالونية ، والأشعرية ، والإدرسية ، والفاطمية . وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر أكرمها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذي عتده للأخبارين خاصة . وقد علم لنا من هذه المؤلفات شيء غير قليل ذكر منه كتاب السيرة لابن إسحق تهذيب ابن هشام ، ومغازي الواقدي ، وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة ، والبيهقري ، والبلاذري ، واليعقوبي ، وتواريخ الطبري ، والصولي ، واللسودي ، وأبى الفرج الأصفهاني ومسكويه . لا شك أن أبا البلاد اطلع على جل هذه الكتب إن لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب الخبرة واللاذقية وحلب ودار العلم بدمشق . ولا أدل على صحة اطلاع التاريخ العام وأخبار العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامي من كثرة استشهاده في نثره وشعره بالمواد التاريخية كثيرة رامة ، ففي الرسالة التي يبرئ فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة عن أخيه ، نجده يسرد أسماء الأنبياء من آدم إلى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن ففوك الحيرة وعسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل الشهرة والوعظة ويبان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن إلى الموت والافتناء . ونجده في « رسالة الغفران » يخبر في القصيدة السينية التي قالها على لسان النبي « أبي هنرش » كيف

استوى هذا الجبل في جباله كثيرا من خلق الله ملائكة وغير ملائكة إلى أن بث الله فيه عمدا (ص) قائم به وصديق واشترك معه هو وقوله من الجن في غزواته بئر ، وأحد ، والندق ، كما اشترك بند في وقائع اليرموك والجبل وصفين والنهران . وكثيرا ما ورد أبو الهلاء في « رسالة النفران » تليحات وإشارات إلى الشرق والغرب الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزة ومرجئة كما ذكر الزنج والفرسطة والخارن أبي عبيد والنصور الجني والحلاج ومن الطريف أنه ساق في آخر رسالة النفران كلاما على الدلائل والسمات الإسلامية ، فيه تفصيلات لا نجد لها في كتب التاريخ التي بأيدينا . وتفيض « القزوينيات » بكثرة كثير من ملوك الفرس والروم والمغول والهنود وحوادث الدولة الإسلامية ولو كانا من نحو محمود ومسعود والنزوين والإشيد وأبيه طنج وجد جف كما تذكر خافان وخان وآل (ع) أبلك .

وكا وجد أبو الهلاء في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي مادة انتفع بها إلى أبعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتحصيل منه للنشور والظنوم ، قد وجد في حوادث عصره مادة عظيمة أكتسب شرفه ونثره حيوية عجيبة ، وأمد بها أمانة على شكرين رأيه في السياسة وتظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع أن نقول إن شعر صيد وصدر كوكبه الولد في ديوانه « سقط الزند » يصل اتصالا وثيقا بحوادث عصره ، بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفي وسع من يقرأ « سقط الزند » و « القزوينيات » أن يتبين صورة واضحة لحوادث الشام خاصة في زمن أبي الهلاء .

كانت مرة الثمان مملوكة من الإقليم اللوف « بالواسم » والواقع على تخوم الدولة الإسلامية على ملكة الروم . وقد أصبحت حلب إذ ذاك قاعدة تلك الإقليم ، وكانت متنازعة بين متأخري أسراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية للصيرية فيطلب بنو حمدان على أسرارهم ويستولون الفاطميون على حلب ، ولكن سرعان ما اهتوت الفاطميين أسرة عربية بدوية هي الأسرة للرادية ، فاستولى على حلب سنة ٤١٤ هـ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس السكلاوي . وقد نبت للمرة حلبا فيها اختلف عليها من الأحوال ، فلك نجد أبا الهلاء يمدح أسراء حلب على اختلافهم من حمدانية وقاطمية ، فيمدح الأمير سعيد الدولة الحمداني بالقصائد الأولى من « سقط الزند » كالتصيدة اللامية الأولى التي مطلعها :

أمن وغد القلاص كشفت حالا . ومن عند القلاص طلبت مالا
كما يمدح ولادة القاطنين على حلب في قصائد أخرى منها السنية التي مطلعها :
لولا نعمة بعض الأراج الدرس ما عاب حد لاني حادث الحبس
ثم إن أهل اللرة تلوا على صالح بن سرحان بسبب اللرة التي أهدتها خاله نصراني ،
فذهب إلى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالوا قاروا بالخمار وأنهبوا حاويه
وهدموا ، وإلى هذا الحادث يشير أبو العلاء بقوله في التزوييات :

أنت جامع يوم البروبة جامعاً . قصص على الشهاد بالمراسمها
فلم يقوموا ناصر بن لصوتها . نكثت سماء الله تعمر جرحها
فهدوا بناء كان يأوى فازه . فواجر أقت فتواحش خرها
والضاحل الخطب عند ما أشار على صالح وزيره النصراني « تادوس » وكان
مستقلاً على أهل اللرة باحتلال سبعين رجلاً منهم ، وسار صالح إلى اللرة فأخرج إليه أهل
اللرة إلى البلاد شفيحاً تشبه صالح وأطلق له الأسارى السنين سنة ٤١٨ هـ ، وإلى ذلك يشير
أبو العلاء بقوله في التزوييات :

تقيت في منزلي راحة . ستر العيوب قيد الحد
ظلمت في السر إلا الأقل . وهم لوجي فرق الحد
بعت شفيحاً إلى صالح . وذلك من النوم رأى فد
فيسع في سبع الحمام . وأسمع منه زئير الأسد
فلا يسمي هذا النفاق . فكيف تفت عنة ما كد

وباحتملال غزو القواطم في الشام أصبحت الشام كلها قبائل العرب التبعية من
لبن الجزيرة إلى حدود مصر ، وخاصة قبائل كلاب وطي وعامر ، وإلى ذلك الحادث
يشير أبو العلاء في آياته القافية التي أولها :

أرى حلياً حازها صالح . ورجال سنان على جلقا^(١)

وإذا كانت هذه الأشعار تصور لنا المحاولات البارزة بالشام في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، فإنها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية أبي العلاء ، ناحية به لوطنه يفرقه ، وحرته لما يصيب هذا الوطن ، واستعداد لأن يخدمه بفرقة الأدبي عند الاقتضاء ، نوى أشعار تأتلف وشره التي قاله وهو في بغداد ينشوق بلده للفرقة .

على أن لوطية أبي العلاء مظهر آخر ، قد كان للشام في زمنه عدو أجنبي يحسن القرم للاقتضاض عليه . ذلك العدو هو الروم ، وكان الروم بعد زمان سيف الدولة والحيث الأمر بالشام قد استولوا على أطاكية سنة ٣٥٠ ، واستولوا بعد على اللاذقية ، وذلك في أيام لموطورم فتصور فخراس ، ثم أخذوا يمدون أعينهم إلى حلب . وكان سيد الدولة المحدثي وولاء القاطنين يداومونهم بعد طاعتهم . وهنا نجد أبا العلاء يسخره لا غلطة وطنه غيب ولكن غلطة العالم الإسلامي كله ، فهو في مدائح لهال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ، فيخاطب الأمير سيدها المحدثي (٣٨١ - ٤٢٩) بقوله :

خفت للعين وقد نزلت سحاب تحمل النوب القتلا

وقيت عيالم إذ كل حين تصد سواد ناظرها عيلا

بوقت لا يطين اليث فيه سائرة ولا السيد اختلا

وبقوله :

إلى حارم قاد الفتق حواجا لما من نسلنا بالكفا زوال

بني البدر هل أقيم للحرب مرة وهل كف طعن عنكم وتضال

وهل أظلت سم الليال عليكم وما حان من شمس النهار زوال

وهل ظلت ثقت التوامي عواليا رجال ترمى خلفهم رجال

فإن تسلموا من سورة الحرب مرة وتصمكم ثم الأوف طوال

ففي كل يوم غارة مشمعة وفي كل عام غزوة وزوال

إلى أن يقول في الخليل :

يرون دماء الروم وهي غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال

وقد علم الروي أنك حظه على أن بعض الوقوف يحال

وكان الشيخ أبو الحسين بن ستان أحمد ورواه حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو البلاد ينهيه عن الحج في علمه ويريه أن الروم طلب بالرماد ، فمن ذلك قوله : « وسفر مولاي إلى الحج في هذا العام حرام بئس كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على الحرم تضيغ بطن ... وهو أدام الله تمكينه ... أمن من أمانه المسلمين يعرف الشوكة ويستعيد الإثمة بوجع من ماضي من سور أو شرطت ... ومن لحاظه الرحمة بمدنيك للدر ... وإجراء السد يلفظها والقدر ، وحلب جرسها الله قد صار فيها رباط ينتم ، وجازي يرض فيه وينافس ، ولا يلبث أن يزول بانقضاء المدنة ، ومعرفة الجاهل كلة الروم إلى كوسيه من برظية » .

تقصائد أبي البلاد الواردة في « سقط الزند » وللتصديق مدح أسماء حلب للمناضلين للروم تجرى بحرى قصائد الغنى للروقة بالسيفيات والقصائد الروميات لأبي قراس الجذاني وهي نسخة من من حقائق ملحمة الحروب العربية الرومية ، على أن أبا البلاد كما يخيل إلينا كان يلحظ فيها بينه وبين نفسه أن روح الجهاد قد فتر عند المسلمين وعند قومه خاصة وأنهم أمام استيلاء الروم وكلهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم . وقد أحس أن يميز عن هذا الاعتقاد الذي استقر في نفسه من طريق الكتابة والرمز فنظم تلك المجموعة الثرية من القصائد للروقة « بالدرجات » والوارد في آخر « سقط الزند » فالدرج أداة وقاية لاسلح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا غننا في تحليل إنشائه هذه القصائد فإن يكن غننا صادقا فقد أبدع أبو البلاد الرمز وأجاد الإشارة .

ويستعرض أبو البلاد جملة أحوال العالم الإسلامي لعهده ، فيرى حالاً لا تسره من ظلم ، واضطراب ، وقر ، وطمأن . ويحشد في أن يطلب تلك الحال فيذهب إلى أن للوك والتضليل لم يتركوا أنهم في حقيقة الأمر خدام رعائهم وأبرارهم ، وأن الشعوب مستقر السلطان ومستبد :

مل للناس فكم أعاشر أمة امرت بغير صلاحها أمرأوا
ظنوا ارضية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أبرأوا
ويرى في علاج القدر أن يؤخذ الناس بأداء الزكاة للثروسة عليهم شرعاً :
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت نبي الإعدام شاكينا

«أقوت ما أنت بأقوت ولا ذهب فكيف نجبر أفراما ما كنا
و يرى أن الأرض لله لا يصح تملكها :
الأرض لله ما استعيا الحلول بها أن يدعوها وهم في الدار أضيق
تصغرهم في هوارى فيضهم قبل سطام وأرماع وأسيق
و يرى أن في إمكان الناس أن يصلوا إلى «اللجنة الخاصة» أو «اليوتوبيا» أو الجماعة
السياسية التالية إذا سلكوا طريق التمسك وجامعة الاعتدال :

إن أكلتم فضلا وأغقم فض . لا قلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أموركم أيدي الناس من إذا ودت الأمور إليكم

• • •

وكا وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه والمعاصرة مادة غزت فيه الأدبي وأعانت على
صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وقد وجد فيه كذلك مادة لأرائه الفلسفية
الخاصة به . قد عرض تاريخ الأفراد والترك والأمة وما يختلف على الناس من أحوال فوجد
كل قلب لا محالة متنبها إلى العدم والفتنة ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بسلسلة حبس
مبهكة خبيثتها الضمور . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم يرق في سحر الناس سوى جهود عقيدة :

حردت الدهر ما تنفك عادية على الأنام بالباس وتلبس
لوت بكسرى ولم تترك مراربه . ولئن سافر أدوت والقوايس
زلفت حيا وحسب يهوى حسنا . وواجهت آل عيسى بعبس

والليل والنهار عند شقا قراض ياتيان على كل شيء :

الصبح أصبح والظلام كما ترد أمم حال
ينهار لانت ويسلكا ن إلى الورى ضيق للمالك
أمدان يتقرب من سرا به فأبه ذك
حلا للمالك عن رضى فاض إلى خان وآك

والشر ، لا الخير ، هو الغالب على الناس .

والأرض موطن شره وضئان ما أصبحت بسرور يوم فارد

هذه فلسفة التاريخ عند أبي اللؤلؤ وتشير إليه . . هو تغيير رجل متشائم لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسيراً . وهو من أجل ذلك يستجمل القضاء والقدر ويتبع من الزواج القدر هو وسيلة النسل وبقاء النوع .

تواصل حول النسل ما بين آدم ودينى ولم يوصل بلوى به .
وهو سى* القطن بالناس زاهد فيهم :

وزهدنى في الناس عرفتى بهم . وطلى بأت الملائين هباء

•••••

نبتك من خلاط الناس فاحذر أثاربك الأدنى واحذر
وإن أنا قلت لا تحمل جرئاً فخر أنا الفاسق وانصرنى
إلى أى شىء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل إن مزاج أبي اللؤلؤ للتأثر بحياة القى أخذ منه بها بعد عودته من بغداد موعدة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لآفة تلك الحال . فهو إنما أخذ منه بحياة الزهد والتشقق البالغ بعد أن بلغ الأربعين وبعد أن استكمل خبرته بالناس . إننا نخبره بالناس وفي التقديم وفي زمنه فى حلة تشاؤمه . على طه بالتاريخ كما وصل إليه وكأمره .

قد كان علم قدماء اللؤرخين من الإغريق والرومان والإنسان وحياه قاصراً قصوراً بينا
قد بنوا الرواية التاريخية على حية الفرد أو الأسرة أو القمية أو للدينة أو طبقة بينها ، ومن شأن التاريخ إذ ينبنى على هذا الأسس أن يكون قائم اللون مليئاً بأخبار القن والتورات وظلم الإنسان للإنسان واستعباد الطبقات بعضها البعض . فلما اطلع فلاسفة الإغريق والرومان على هذا التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في ذلك نظريات أفلاطون والرواقيين والأبيقوريين وصنيق ومارك أوريل . ففهم من رأى أن العالم يتقلب في أدوار زمنية يفتح كل منها بصرفه محيد ثم لا يزال يتدلى ويضغ حتى يحتم بحال فوضى وانمحلال ، ثم يفتح دور آخر وهم جرا . ومنهم من رأى الإنسان محدود القدرة مضروباً بينه وبين قوى لا أحد لقدرتها هى الآلهة بطلاق لا سلطان له عليه . ففضة

فلاسفة الإغريق والرومان تمة حزن وبأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام ، ثم جاءت
المصور الوسطى الأوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يزعمون أن هذه الدنيا دار
بلاغ وأن الآخرة هي دار القرار وأن السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وأن الحياة الآخرة
هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضعفاً بالحياة وأصبح شعارهم الزهد فيها
وتعنى الخلاص منها . والرواية التجارية الشرقية لا تختلف في أخصائصها العامة عن الرواية
الغربية . والمجتمع الشرق القديم لم يختلف اختلافاً جوهرياً عن المجتمع الإغريق الروماني
القديم ، ومن ثم كانت نظرة حكماء الشرق نظرة بأس وحزن وتشاؤم . وبفكرة الأدوار
التي نحدثنا عنها عند مفكرى الإغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتتح
بمعجى تى أو رسول وتنتهى بقيام آخر الزمان والاربعان بحياة مستقبلية يتم فيها اللؤم ويخلد وهي
خير ما يترعى به اللؤم عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا .

لم يلحظ القدماء على العموم أن الإنسان ابتداءً ضعيفاً ثم صار بقوة واجتهاده وقوة
إرادته يرقى شيئاً فشيئاً ، ولكنهم خصوا ببنائهم ضعفه أمام عوامل لا سلطان له عليها مثل
القتضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقاته بخالفه سبحانه وتعالى .

وبعد : فأبو الملاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج التفكيرين القدماء من للشارقة والمغاربة
على السواء لأن الملة واحدة في المثلين . على أن تشاؤمه وبأسه ينطويان على حب حقيق
للإنسان والإنسانية . وإذا كان أبو الملاء شديد الرقن بالحيوان فلا شك أنه كان في أعماق
نفسه أشد رفقاً بالإنسان .

السلطان بين الدولة

محمود الغزنوي*

٣٨٧ - ٤٢١ هـ

علم من أكبر أعلام الشرق ، رفع عار الإسلام عالياً وقاد في أوائل القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس دولة عظيمة انتظمت الركن الشمالى للدين من الهند ، وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس ، ونشر لواء العدل في تلك الدولة للقرابية الأطراف وناصر فوق ذلك العلوم والفنون والآداب متفصرة فلما نجد لها مثيلاً في التاريخ .

والسلطان محمود من أجل تركى ، وقد ظهر الجنس التركى على مسرح التاريخ الإسلامى في أوائل القرن الثالث الهجرى عندما انتصت سوية الخلفاء العباسيين الاستظهار بالترك على القلوس الذين كانت لهم مطامع قومية قوية ، وعلى العرب الذين صيرتهم خصيتهم القبلية أداة لا يستبد عليها في سوية الدولة وتدير أمرها .
ولترك في تاريخ الدولة الإسلامية صفحتان عجائبتان كل التباين ! صفحة مظلمة حالكة الإظلام تضيئها في استبداد الجند التركى بالخلفاء العباسيين في القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، وإذلالهم أياماً لإذلال ، عزلاً وتولية وسجناً ومئة وتذليلاً . أما الصفحة الأخرى فشرقة رائحة الإشراف ، تضيئها في قوة اعتقادهم للإسلام وشدة إخلاصهم له ، وفي انتصارهم للذهب الذى بد أن استلمت عليه للذاهب الأخرى من تشيع وباطنية واعتزال حتى كادت تقضى عليه وتذهب به كل ذهاب ، كما تضيئها في شدة ذاهبهم على نشر الإسلام في الأقطار الوثنية ، ومكافئهم أعداء الدولة الإسلامية من الروم والصليبيين والشار ، فالغزنويون وأتباعهم نشروا الإسلام ديناً ودولة في الهند ، والسلاجقة ردوا إلى للذهب

(*) ولد في سنة ٣٦١ هـ وتولى الحكم بفترة سنة ٣٨٧ هـ وتوفى في سنة ٤٢١ هـ . والغزنوى نسبة إلى مدينة « غزنة » عاصمة أفغانستان الإسلامية الحديثة ، وتقع جنوبى مدينة كابل الحديثة .

لنسى لغوته واعتباره ، وصلوا الروم ، وتنازلت أنيابكهم الصليبيين في الشام وكسروا شوكتهم وقضى عماليك مصر على قتال الصليبيين بالشام وصلوا القطار عن مصر وللترب فأسدوا بذلك حجة مذكورة مشكورة إلى للدولة الإسلامية والدنية الأوروبية على السواء .

من هؤلاء الأتراك ملوك اسمه ناصر الدولة سبكتكين ، كان عاملاً على أفضانستان للدولة السامانية القارسية القائمة بما وراء النهر . وكان سبكتكين رجلاً حليماً شجاعاً ، وسع حدود ولايته من ناحية الغرب بأن حصل على إمرة خراسان من مولا الساماني ، ومن ناحية الشرق بأن غزا إقليم القنجاب وعزم ملكه المنذرى جيال ، وأقام فيه حكومة إسلامية في مدينة يشار ، فلما توفي في سنة ٣٨٧ هـ خلفه ابنه محمود الذي تكلم عليه .

ورث محمود من أبيه نشاطه الجلم ، وعبرته العسكرية ، هذا إلى طموح عظيم وفيرة ذهنية لا سمعة لها ولا رياء .

وبعد محمود شبه عند توليه ملك غزنة في محيط سياسي مفكك الأوصال ، مقدام الغيوان ، ولقد كانت الدولة السامانية تتألم سكرات الموت تحت ضربات التتراك الأيلسكغانية ، وكانت الدولة البويهية بخارس تئن أربح ما ضاهاه دولة من جراء اختلاف المملكة وتفرق الأمراء . ثم يتردد محمود في أن يخلع طاعته للدولة السامانية المحضرة ، ويدمر الخليفة العباسي القادر بالله ، ويوسع رقعة ملكه على حساب السامانيين والبويهيين جميعاً ، حتى آل به الأمر إلى أن أصبح ولدت الدولتين معاً حتى وجهه للتقريب .

ولقد عرف في الخليفة العباسي القادر بالله فضله وغيره وبعد حتمته فتح عليه لقب السلطان يمين الدولة ووالى أمير المؤمنين ، فأصبح يلقب بذلك اللقب واشتهر به في التاريخ . ويقول ابن الأثير إنه أول من لقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله ^(١) .

على أن السلطان محموداً كان أكبر من أن يقع بولاية غزنة وما ضمه إليها من فتوح

(١) يقول المستشرق الإنجليزي لينول إن لقب « سلطان » لم يظهر على عمدة محمود التتوي ، وإن أول من تلقب بهذا اللقب من الأسرة التتوية هو إبراهيم بن محمد بن (٤٥٩ - ٤٩٢ هـ) مقتدياً في ذلك بالسلاجقة الذين كانوا السابقين إلى اللقب بقب سلطان كما يؤخذ من حراسة السلة الإسلامية (كتاب الأسر الإسلامية ص ٢٨٦) .

حتى في واقع الأمر قروح بلاد إسلامية . . . لقد حفرته حية الدببة واعتراف الخليفة العباسي
بإسلامه إلى أن يوجه قواه وجيوشه إلى أنظار وثنية تناغم ملكه على بلاد الهند .

وكانت الهند إذ ذاك عالماً قائماً بذاته يكاد يكون في عزة عن سائر العالم بشعوبه
وثقافته وقضائده وعاداته . ثم إن العرب حاولوا إبان قروصهم الكبرى الأولى فتح بابها
فغزوها من ناحية مصب نهر السند على يد قائدهم للشاب العربي محمد بن القاسم الثقفي ،
فبلغ في غزواته للثلاث . ولكن هذه الغزوة على أهميتها من الناحية التاريخية لم تسبها محاولات
أخرى لتتوسع في الهند إلا في بقية العصر الأموي ولا طوال العصر العباسي الأول .

وكان الأندلس ادخرت شرف استئناف هذا المشروع للظهير والسير به أملاً بعيداً ،
لمنعصر التركي والسلطان محمود الترمزي بالذات . فلقد نذر أنه أن يكرر عن محاربه إخواته
في الإسلام من سامانيين وبويهيين بأن ينزوا للهند كل سنة ويشحن في أرضها حتى يملأ
فيها كلمة الإسلام أو يبلل عذراً . . .

.. وقد كان السلطان محمد أن يعنى بنذره كما ساعدته الظروف وواتته الأحوال . فبما بين
سنتي ٣٩٢ و ٤١٦ هـ غزاهما لا يقل عن سبع عشرة غزوة . فكان ينصب من جبال
أفغانستان على سهل الهندستان في جنوده الأتراك الأشداء ، بحمولم القنطرة وأسلحتهم
للمؤفورة ، وتظامهم الحربي البديع ، انصباب السيل البانغ فيمير الأنهار الصلاب ، ويسلك
القتار للدوية ، ويفتح للذن الحصينة ، ويغزب للبايد الوثنية ، ويكسر الأصنام الهندية ،
لا يبال تباً ولا نصيباً . ثم يكر راجعاً إلى غزوة ممثلة الين من السبي الرابح ، والغنائم
المثالة ، مما حوته سائب المنود من كنوز الذهب والفضة وذاخر الجواهر وقشائس الأعلاق .
وقد انجلى هذا التزو للتياج عن امتلاك السلطان محمود إقليم البنجاب وقشمير ،
وسيطرته على مملكة كجرات الواقعة على المحيط الهندي .

ودخل المنود في دين الله أفواجا ، وترك فيهم السلطان القانع من يعلمهم أصول الدين
الإسلامي وبلقنهم مبادئه ، فرسخ الإسلام من ذلك الوقت في بلاد الهند ، وأصبح ديانة
قومية ، ثابتة للدينام ، قرية الأسس ، على نحو ما تشاهده الآن في دولة باكستان الحديثة .

أثبت السلطان محمود أنه ذلك القناع الكبير والقائد للفتن الكبير.. نبدأ أنه في مجال
الحمل السلي لا يقل روعة وإشكالا عنه في مجال الحرب والجلاء ، بل لعل جانب العمل
السلي من سيره وما يشتغل عليه من تشييد البناء ، وتنظيم الإدارة ، ومساندة العلوم
والفنون والآداب ، أبل شأنا من جانب المروءة العسكرية وأبعد أثرًا .

جدد عمارة للشهد بطوس وهو الذي فيه قبر علي بن موسى الرضا وقبر الخليفة هارون
الرشيدي ، وأحسن عمارة كما يقول ابن الأثير . وبنى في غزنة مسجدا عظيما ، بناه بالحمام
وحجر الصوان ، وأضاه بمصاييح الذهب والفضة ، وفرش أرضه بالبيسط الفاخرة . وجلس
جلب الماء إلى عاصمته بقناطر خاصة ، وجعلها بكل ما يعمل به للذن من مختلف الرافق ،
والتي به في ذلك رجال دولته ، فاحتلت غزنة في عهده من حال مدينة خاملة إلى حال
عاصمة من أعظم عواصم العالم الإسلامي .

ولكن أسرى رضا السلطان محمود إلى أملا مغفرة طمع إليها أمثاله من مؤسسي الدول
الجولما أنه كاتب شديد العناية بمصالح رعيته ، حريصا على نشر لواء العدالة بينهم . فبنى
الاتحاد بأن العدل أساس الملك ، وقد وصفه بهذه القضية للكبرى ابن الأثير في تاريخه ،
والوزير السلجوقي نظام الملك في « سياستنامه » والأمر الثاني وله العظيم والفرد والقانون
والآداب ، أسس في غزنة جامعة كبيرة ، وتب لأساتذتها الرواتب ، وأجرى على طلابها
المزايا ، وأمدّها بمكتبة حوت من قانس الكتب النادرة والكبرى . ولقد كان ذا حرص
عجيب على أن يختص به إلى بلاطه وعاصمته أعظم العلماء والفلاسفة والشعراء والكتاب
والفكرين ، مستخرا في سبيل ذلك جاهه وماله ما . وقد اتفق في عهده سقوط الدولة
السامانية ، واضطراب أمر فارس وال عراق وصيرورة كثير من رجال العلم والفلسفة
والأدب ، شبه مشردين لا يجدون ملجأ ولا نصيرا . فاستجاب كثير منهم لرغبة السلطان
الفرزى العظيم . واجتمع منهم ببلطه عدد عظيم ، منهم أبو الريحان البيروني صاحب
التصانيف التي لم يؤلف مثلا في تاريخ الهند وبيان عقائد أهلها وعاداتهم والتي
لأورخ الذي وضع « الكتاب المينى » في سيرة السلطان محمود . وأبو الفتح البقي الشاعر
للشعر ، والإمام أبو منصور الغالي صاحب « بقية الدهر » وكان السلطان حريصا

على لجذب الرئيس أبي علي بن سينا ، ولكن ابن سينا كان يمشي بواحد السلطان وحده
مواجهه علم يجب عليه وبالغ في التفتي عن عيون الرجال الذين يشبه السلطان ليبحث عنه
ويشتاخصه إليه .

وكا أخذ السلطان بناصر علماء العرب وشعرائهم ومؤرخيهم وكتابهم ، فقد ناصر
كذلك شراء النهضة الأدبية الفارسية الإسلامية فكان يزين بلاطه بمنهم المنصرى والفرسى
والمسجدي والأسدي والنصاري وخاصة أبا القاسم الفردوسي شاعر إيران بالأكثر .
وقد فردوسي مع السلطان محمود قصة ترضى خلافاً في مقام آخر ^(١) .

تلك سيرة السلطان محمود الفردوسي بالإيجاز الشديد . ومنها يتبين أنه يند بحق من أعظم
أعلام التاريخ الإسلامي . وقد توفي في غزوة سنة ٤٢١ وورد ابن الأثير بعض سيرته فيقول
« كان عين الدولة محمود بن سبكتكين عاقلاً ، ديناً ، شجاعاً عنده علم وسعة ، وصف له
بكثير من الكتب في فنون العلوم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقتل
عليهم ويستظمهم ويحسن إليهم ، وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم كثير
الفتنوات ملازماً للجهاد إلى أن يقول « ولم يكن فيه ما يباب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ
الأموال بكل طريق » .

ثم يقول في حليته « وكان ربةً عليه اللون حسن الوجه ، جميل العينين ،
أحمر الشعر » .

ولا شك أن السلطان محموداً كان حريصاً على جمع المال ولكن بما يهون من قد ابن
الأثير له من هذه الناحية أنه لم يكن يتفق للمال الذي يجمعه على نفسه ومقاتله ، بل كان ينفقه
في إعداد الجيوش المبرزة وتشييد الباني الثغافة ونشر لواء العدل ، وخدمة العلم والعلماء .

(١) انظر للمل الآن من الفردوسي .

١ - الفردوسي

(٢٢٥ - ١١١١ هـ)

احتفلت الأمة الإيرانية في أكتوبر الماضي بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن المفارقة بذلك الذكرى مقصورة على الإيرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم للتجسر شرقه وغربه ، فأوفدت ثمان عشرة دولة كبيرة إلى إيران من يمثلها في الاحتفال بذكرى الفردوسي ، وزاد بعضها من قبيل الجامعة للإيرانيين والتنويه بشاعرهم فاحتفى بذلك الذكرى احتفاء خاصاً في عروصه . فلذلك الألمان في برلين ، والإنجليز في لندن ، والفرنسيون في باريس ، والإيطاليون في رومية . وما قريب تحو مصر حذوم فتهب ذكرى الفردوسي أسبوعاً من الزمن يحدث فيه بالقاهرة فر من فضلائها عن حياة الفردوسي وشعره ، وعن أثر قومه في عالم الفن والأدب . وأريد بهذه التاسبة أن أعرض في هذا المقال وفي مقال آخر آتٍ لسبب حقارة القوس وغير القوس بذكرى الفردوسي . وسنرى أن البحث يكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً . شخصية استماعت من جهة أن تستنقد قومية ولغة كان يتنازعها البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بتصويب موقور في ميراث العالم الأدبي الباقي على مر الزمان .

هو أبو القاسم الحسن بن علي الفردوسي ، وكناه (الفردوسي) لقبه الشعري ، قد جرت عادة القوس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالقاضي ، وملك الشعراء ، وبهكم الشعراء وهكذا^(١) . ولد على رأي بعض القاتح حول عام ٣٢٥ هـ بقرية من قرى مدينة

- (١) أنصح مفسر هذا المقال من محبة الإفادة للقرية في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ هـ . وما دام قصد في بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الفنية فليس ذلك من شأننا ، إنما قصدنا إلى التحدث عنه من حيث كان حياته تلي خرواً على الحال السليبية في تكميل الوسط الإسلامي في القرن الرابع الهجري . ومن ردة شيرة الشاعر فيه فليتنسها في طائها ونعمة الشاعر ، ومقدمة (مول) ترجمتها القرنية وكتاب يروكه عنها ، ومقدمة الدكتور عبد الوهاب عزلم ترجمة البنداري الرمية للشاعله .
- (٢) وقيل في تاليه غير ذلك (آخر للدخل إلى الشاعله الدكتور عزلم .

طوس بخرسان يقال لها (باز) ، وورث عن أبيه ضلعا كانت تنزل عليه في صدر حياته كفايته من اللال . وتعلم في حدائقه ما كلن يخلقه أمثله من أبناء الدهاقين في ذلك الزمان ، غنق الأهلية والبرية . وشغف في صباه بقرص الشعر الفارسي والتوفير على مطالعة القصص الفارسي القديم . فأنشأ كل ذلك عنده اعتداداً بقومه واعتقاداً لمذهبهم الشي . وشدا شيئا من آراء التكلمين من المثرة ، فشا فارسي الموى ، شبي للذهب ، معتزلى الرأى .

كان أمر خراسان في ذلك الوقت إلى الدولة السلانية ، وهى دولة فارسية من الدول التى حست سلطان الدولة البابية بضعف السلطة المركزية في بغداد اجلاء من القرن الثالث الهجرى . وقد جهد السامانيون في بث الروح القوي الفارسي مستعينين على ذلك بما للخارج والأدب من لقوة في إذكاء الروح القوي عامة . فقتل وزيرهم الفارسي الأمير منصور الساماني تاريخ الطبرى إلى الفارسية ، وقدم عالمهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور الفرسى في جمع أخبار الفرس القدماء في شكل تاريخ شعبي فارسي من أقدم عصورها إلى الفتح الإسلامى ، فهد الفرسى بالأمر إلى أربعة من الفرس المروءاتيين فجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المخطوطة في قلاع فارس ، وفى خزائن اللوابة والبعالين . ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه « شاعنامه » أى « كتاب الملك » ، وكان ذلك حوالى عام ٣٤٧ هـ . وأراد السامانيون أن ينهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله ، فهد الأمير روح بن منصور الساماني بطله شعرا إلى فنى فارسي شاعر يمزى بالحقى . فأخذ الحقى في ذلك فظم منه ألف بيت ثم هلك غية حوالى عام ٣٦٦ هـ .

المطلع الفردوسى على شاعنامه للنور وعلى ما نظم الحقى منه من نسخة أعاره إلهام حديق له يقال له (كرى) . وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الحقى ، وضادف ذلك هوى في نفسه ، فأمثل الإشارة وعكف على ظم شاعنامه من حيث انتهى صاحبها ، فقصى في ذلك ثلاثا وعشرين سنة أتم فيها نسخة شاعنامه الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كهراء الفرس الظاهرين بأرض أصبهان يقال له أحمد الخالنجانى ، فأجاره عليها بمائة ييرة .

في تلك السنين العلول ، تبدلت الحال في خراسان لاضطراب أمر الدولة السلجوقية القوية المهيمنة ، وعمرها ما يروى البلاد عامة عند التأذن بنهب دولة وقيام أخرى . فأعلنت للرافق العامة وخاصة سرائق الري ، والبلاد بدء بلاد زراعية ، قسح الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، وثابت ملك الأرميني شدة تفرغ عليهم مما أداه الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوس بطبيعة الحال من مخيمات النخلة الاقتصادية ، وزاد ضيقا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب الخفى ، واضطراره إلى أن يستكن في غيره النظر في شؤون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً في تربيده في شعره للشكوى من الفاقة وتبكر الزمان . وقد اضطر آخره الأمر إلى مساة أصدقائه ، فأعانه منهم غير كرام النفوس أوفياء القلوب ، كذاثم عن صنيعهم بأن نوه بذكهم في الشاهنامه . والحق أن الفردوس ، وقد فقد الاعتناء بأرضه أصبح يرى أن من حقّه على الناس أن يكافئوه على جوده الأديّة بمال يزوج منه ابنته الوحيدة ، ويتفق منه على قلب في شيخوخته . وطلق ذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدي إليه الشاهنامه فيعيزه بمجازة بحق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملك الجليل في شخص السلطان محمود التتوي .

والسلطان محمود التتوي أوسع ملوك الإسلام قلبك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الإسلامي على الإطلاق . قد شاد بهزموه وهت ملكاً عريضاً وسع سهل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وخراسان ، وأصبحت قاعدته (غزنة) بمساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعضائها الأعلام من أمهات المدن الإسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط في مدينة أسيوية في وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بيزنة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفاً بالعلم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الإسلامية ليقبضهم بحضرة ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قريبهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التي طمّنت الآفاق . ومن العلماء الذين حذلت بهم غزوة على عهد ، البيهقي والنسفي للزرخان ، والفارابي الفيلسوف . وأبو الفتح البستي الشاعر العربي ، والمسجدي والنصري والفارسي ، وكلام من سباق شعراء الفرس في الإسلام . وكان الرئيس أبو علي بن حنينا قد قصد حضرة السلطان ثم بدا له فسدل عنها إلى سبعة أخرى . وكان السلطان كما فرغ من حرب وأقام بمحيطه مهوداً ، جلس إلى

فأولئك الطاء يحذهم أو يستع إلى حديثهم ، وهو في تصيده الطاء ومباعدته بهم يذكرنا
بجيف القوة الحداثي ، والحكم للتمصر الأندلسي ، وبرودريك أنأ كيرماك بروسيا ،
ولويس الرابع عشر ملك فرنسا .

١٤ : ذلك هو الملك الجليل الذي رآه الفردوسي صهري فزاده . وعطأ أماله . فأخذ بيد المدة
للأجتماع حضرة والاعتراف من فيض جوده . فخلل راجع للشاعنة ، مطامنا بين أجزائه ،
ملكلاً ما يخص منه ، مستدر كاً ما قامه في نسخة الأولى ومخلياً قصوره بيتح سنية يعطوق
بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى في ذلك إحدى عشرة سنة ، قد فرغ من إعداد
النسخة الثانية للشاعنة عام ٤٠٠ هـ وبلغت عدة أبياتها ستين ألفاً .

١٥ : توجه الفردوسي إلى غزنة ومعه راويته ونسخة الشاعنة ، فلقى وزير السلطان الرئيس
الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان متنبياً بنشر القارسية ، فأبلغته حضرة السلطان .
وأطلع السلطان على الشاعنة ، ولا ريب أنه أدرك أنه ثمرة مجهود عقل خبير ، ولكنه مع
ذلك لم يقبله بقبول حسن . وأرويات القديعة بحجة على أن الوشاية والكيد قد عملا عليها
لأن إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر مدأ . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم ،
فليس من شك في أن ذلك السلطان التركي نلسم الذي أخفق من الجهد في إعلاء كلمة الإسلام في
المند ما أخفق ، والذي كان نصيراً للسنة ، وخمياً للباطنية والسنرة ، هذا السلطان لم يسجبه
أن يشيد الفردوسي بمجد حازه القوس أيام مجوسيتهم ، كما لم يسجبه أن يفتخ في بوق النصية
القارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التي وقعت في القديم بين إيران وطوران ، كما
لم يسجبه تشييع وجهه بأرأه الهالة على اعتزاله . كل ذلك قد بالسلطان عن أن يميز الشاعر
بالبائزة التي كان يتوقها ، والتي كان يعلق عليها آملاً كبيراً . فيقال إنه بحث إليه بشرين
ألف درهم فقط مكافأة له على مجهود خمس وثلاثين سنة فيما قال .

١٦ : لكن الفردوسي لم يكن بالرجل الذي يحتمل هذا التقصير في حقه . فقد جرى السلطان
شر جزاء . فيقال إنه دخل حماماً فلما خرج منه شرب قعداً ، ثم قسم عطية السلطان بين
الحاني والتدعي . وبلغ ذلك السلطان فهاج غضبه ، وهم بأن يعطش بالشاعر ، فلذا الفردوسي

بالفرار من غزنة ، وظل مختبئاً بمدينة حماد مدة أشهر ظم فيها مائة بيت من الثمر بها فيها
السلطان جاء لادعاً موحجاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها
الإسفيد شهر يار فأكرم مثواه وطيب خاطره ، واعتذر إليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض
عليه كما ينبغي ، واشترى منه جو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم بما ذلك المبيع من الشاهانابه
محوماً . بيد أن الفردوس رأى أنه غير آمن على نفسه في طبرستان لأنها داخلة في حكم
السلطان محمود ، فخرج عنها إلى البرق البري ونزل على أميره سلطان الدولة الهوسى .

ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهي من قصص القرآن الكريم . والفردوس
يصرح في صدر هذه القصة بأنه نظمها تكديراً عن إغاثته حموه في نظم الشاهانابه ، للى
بأساطير القوس الأولين ، ولكن يظهر أنه إنما أراد ينظم تلك القصة أن يلام بينه وبين
البيتة البرية التي أدى به تطوافه إليها .

ومها يكن من شيء ، فلا شك أن الفردوس رأى فيه غريباً بالبرق ، وأن سراج
حياته يوشك أن ينطفئ ، وأحب أن يوافيه أمله في يسقط رأسه ، قريبا من ابنة بين أهله
ومشتره ، وهو انخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان
قد نسي أو تنسى ييلاط غزنة . فخرج من البرق شاجماً نحو طوس ، فبلغها شيخاً ثانياً
مهدود القوي قد جاوز الثمانين .

وتذكره السلطان محمود في ذلك الوقت ، وذلك أنه كان راجعاً من الهند إلى طابسة
ملكه ، ففرض له دثرف قلعة حصينة ، فأرسل السلطان إلى التار رسولاً أن « ليت غذا ،
وقدم الطاعة ، وأخدم حضرتنا ، واليس التشريف ، وأرجع » فلما كان القدر ركب السلطان
وإلى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الليندى . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلاً قال الوزير
« ترى ماذا يحمل من الجواب ؟ » فنقل الوزير بيت من الشاهانابه معناه « إذا لم يكن
الجواب كالأريد ، فأنا والجزز والليدان والفراسياب » قال السلطان « لن هذا البيت الذى تنبئ
الشجاعة منه ؟ » قال « للسكنى أبى القسم الفردوس الذى اجتمعت النساء حفاً وعشرين
سنة وساجنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسنت بما ذكرتى ، إني ليحزنى أن يحرم عفاى
هذا الرجل الحر ، ذكرتى في غزنة لأرسل إليه شيئاً » فلما قدم الوزير غزنة ذكر السلطان ،

فقال السلطان « من لأبي القاسم يستين ألف دينار يطاها نيفي » ، ويحصل على الإبل السلطانية ، ويسترد إليه .

غير أن القدر السافر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ما وصلت الإبل التي تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الفروج (٤١١ هـ) ، وأنه بينما كانت الإبل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر .

ولرأى رسل السلطان أن يتفجروا الهدية إلى ابنة الفردوسي ، ولكنها اعتذرت من عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان أن يفتق اللال في بعض وجوه اللير ، فغسروا به رباطا للبهادين على حدود إقليم طوس . وكذلك نفى السلطان عن حقه آخرة الأمر تهمة التصغير في حق الشاعر الكبير . لأن ادعى مدح أنه ظله في الأولى فقد أنصفه في الثانية ، ودل بذلك على خسر كبيرة وسلم عظيم .

ذلك بالأخصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي . وهي حيرة فصح عما أوتيه ذلك الشاعر من قولة تمثل في صدق عزيمته ، وتبعده عنه ، وعظم غايته ، ولها مفعده . كأنها تفصح عن صفته القوي يدور في خلة مزاجه ، وكثرة تشكوله من العاقبة ، وتبرمه بالناس والزمان ، ثم في ندمه في مطلع قصته الثانية على ما أتفق من جهده وأصاع من عمره في نظم ملحده الأولى . على أن ذلك كله ليس منطاد تعظيم قومه لذكركه ، إنما منطاد ذلك هو الصنيع الجليل الذي أمداه إلى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة .

وليبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن إلى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حمل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وحاصروا إستانبول ، حتى كانوا قد حضروا على ملك آكل ساسان ، وصيروا فارس إقليبا عن أعالي الخلافة العربية . وانتشر الإسلام بحسب ذلك في فارس حتى كاد يفتق على الدين الزرديشتي ، كما انشرفت العربية بين الفرس حتى أغلقت الهلوية وكانت تعمرها .

فقبل الفرس الإسلام من طواعية نفس وطيب خاطر . أما القومية فقد جعلوها من أجل الاحتياط بها مجاهداً ضليلاً . وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة فلم

بها للولاي زمن الدولة الأموية ، إلى مؤامرة قناترين عليها من بطولرج والشيعة ، إلى ثورة عامة انجلت عن سقوط الدولة الأموية العربية ، وقيام الدولة العباسية التي كانت فارسية في أكثر أوضاعها العامة ، إلى استقلال سياسي يسره ضعف السلطة المركزية بتداد ، إلى مهي حيث في أن يكون فارس وجود قوى صحيح
إلى هذا الجهود للضم الوجه إلى الاحتفاظ بالقومية ، قام الفرس بمجهود آخر واقع من أجل إيهامهم وتسليم لمستحلبا في بلادهم
قد طفت العربية على القهولة في العصر العربي الأول طغيانا كان من أمره أن انحصر استعمال هذه اللغة في حدود إقليمية ضيقة في فارس وخراسان وطبرستان ، ولم تفل القهولة في مساهلة هذه من التأثير العربية ، فقد أصبحت تكتب بالخط العربي ودخلتها ألفاظ وتمايز عربية أحياتها إلى طور جديد من تاريخها ، عرفت فيه بالفارسية الحديثة .
ويشبه السور القوي عم استعمال اللغة المذكورة في تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنحى من بعضها ، كما يؤخذ من قول المتنبي :

مناني الشب طيا في اللاني بمنزة الريع من الزمان
ولكن التق العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لار بترجان

وقد عول ساسة الدول الثلاث : الطاهرية والصفارية والساسانية ، على أن يحملوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فشجوا الشراء على النظم بالفارسية ، وأمر السامانيون بتدوين تاريخ قومي الفرس ، ونظم بهذه اللغة كما تقدم القول .

وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزه الفرس في أسر قوميتهم ولتهم ، فإنهم كانوا في أواخر القرن الرابع بحاجة إلى مدد أدبي ممتاز يثبت في القومية الفارسية روحا قويا ، وبشت دعائم الفارسية الحديثة وينبضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسي قومه بهذا للد .
فالتعنه يى بأهل عبارة وأبلغ تصوير تاريخ الفرس القدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . فلك أنفى في حلة ناطله — وهذا أمر متقطع النظر — ملحمة قومية ،

ولم يمض طویل زمن حتى غذا « قرآن القوم » على حد قول صاحب « اللؤلؤ السائر » .

تقد أدى الترددوسى « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح فضله على قومه ولنته
بأنيا ما بقى قومه ولنته . وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه فى هذه الأيام فأحسنوا
ذكراه ، وشادوا فوق رفاته بناء عاليا ، وهذا جهد مشوبة الى لليت . وإن الإنسان ليزكر
فى هذا اللقام دانتى الإيطالى ، وكورياس اليونانى ، فكلاما أذكر الروح القوى فى بلده ،
وجدد بمجوده الخالص دأرس لنته ، هذا بثره ، وذلك بشعره .

٢- الفردوسى

تممة^(١)

ينت في مقال السابق الذى من أجله يكتب القرس الفردوسى ويعدونه شاعرهم القوى
قلت إن الفردوسى بنظمه « كتاب اللوك » الذى يضم بين دفتيه تاريخ القرس الأقدمين
وأساطيرهم وآدابهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، عدد قوى ، رسم
للأولى حدوداً واضحة ، وشرع لقائية منها كانت تسير فيه حتى يومنا هذا . والفردوسى
بهذا الصنيع الجليل قد هيا السيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة في تاريخ
الشرق الحديث .

ولكن ما السبب في أن شعوباً أخرى غير القرس تغفل بالفردوسى وتغله ، ولم تتعاش
أن تملن ذلك بالاحتمال بذكره الألفية ، وجواب هذا السؤال موضوع هذا الفصل .

• • •

يعد الفردوسى هذا طاء الأدب وفناء شاعراً قصصياً من شعراء الطبقة الأولى ، فهو في
شعبته هوميروس ودانتى وماتن . والشاعر القصصى النظم هو الذى يفتى ملحمة أى منظومة
قصصية طويكة بليغة يتجدها قومه غيرة أدبهم . وحظ هذه المنظومة من الذبوع والانتشار
يتوقف على نوع موضوعها . فإذا كان الشاعر قد اخترع للوضع اختراعاً ومخيلة تخيلاً لم
أفرغ عليه بعد ذلك سلة من بلاغة وقوة تصويره ففى ملحمة محدودة الذبوع ، يقبل على
قراءتها خاصة الأدياء . وللقصصين وأساتذة الأدب في اللباسات . ومن هذا المنصف
« الكوميديا » لدانتى « والجنة للقرنة » لماتن . أما إذا ألت الشاعر موضوعه من
الحكايات الشائعة في قومه ، وأساطيرهم التى يبتدونها ، وأغانيتهم التى يفتنون فيها بذكر

(١) يتضمن هذا الفصل البحث فى ألفت بلغة الفرية في مؤتمركم الألفية الفردوسى للتخندق
طهران سنة ١٩٣٤ . وهو البحث الوحيد الذى أتى في ذلك المؤتمر بلغة الفرية ، وكان عنوان البحث
« العلاقة الأدبية للشاعرة » .

ما اختلف عليهم من الأحداث ، ثم عرض ذلك كله عرضاً شريفاً قوياً بلياً ، وكان في ذلك فلسوف النظرة يتناول العام من تحايا الخلاس فيصير العالم وهو يصور قطرة منه محدودة . ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومشرقه ، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه ، وإذا فعل الشاعر ذلك فقد كتب للمعنى القديم والخلود . وسرعان ما يحل الحديث اللوحي المحكم محل القديم البحر للفرق ، فنسخ للغة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التي تصور عالمها ، وعلى سر الزمن تنفذ للغة من حدود الخلية والإقليمية وتنتج في آراء العالم للتدين وتتحيل آراء أديبا عاليا . وأشهر ملأهم هذا النوع ، الإلياذة والشاهنامة التي نحن بصدد الكلام عليه .

والشاهنامة يستمرى اهتمام غير واحد من خاصة اللغويين ، فالتوى يطالع فيه صنعة وأخذه من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعي يجد فيه عوناً على تصور المجتمع الفارسي القديم ، وسيرة أخلاق القوم وعاداتهم ومواضعهم ، وتلقى بالأساطير القديمة ينفع به أخصاؤها بما في دراسة للهولوغيا الإيرانية وللقارة ، ومؤرخ الأديان يستخلص منه صورة مجلة لعقائد الإيرانيين القدماء ، وللؤرخ السياسي يرجع إليه في دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيه صدى قوياً لملاحة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والبر . والقنان الذي تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعاني وقوة التصوير يرى في الشاهنامة مثلاً عالياً لكل ذلك . فالتردوسي يعرج في سماء البلاغة حتى يمسى النجم ، وهو في الوقت نفسه يحاطب الناس بألوف حديثهم ومتملوف معانيهم ، ثم هو وصال مبدع ، إذا تصدى لوصف واقعة حرية أراك ميدان القتال ، وجلا على عينك ما يجري فيه من كروفره وهجوم وتخيذ ، وأراك السيوف تلعب ، والرماح تشرع ، وأسمعك تصاول السككة ، وصهيل الخيول ، وأنين المجرى ، وصورك ظفر الثالب وهزيمة للثوب . فإذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس الدعة والأنس مثل لعينيك أسباب السرور ، ودواعيه ، وأدواته ، ونقل إليك ما يشيع في المجلس من صفاء النفوس ، وتجاوب القلوب ، فإذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم ، وعطف الأب ، ووه الماشق ، ووه الزوجة ، وإخلاص الصديق

قد أهدك القردوسى قوام الفن وملاكه ، أدرك معنى الجليل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يبرهنهما .

* * *

على أن الناحية الأخلاقية من الشاعرة ، هي عندي أهم نواحيها وأبسطها على التقدير العلم بها . فالقردوسى لم قصد إلى أن يكون مؤرخاً ، ولا إلى إظهار بلاغته ، بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب ، تلحظ ذلك في الجانب التعليمى من كتابه ، فالقردوسى لا يبرح واعظاً وشرشداً ومعالجاً ، سالكا خيراً طريق الحقيقة وحيثا طريق الجواز ، وتلحظ ذلك القصد أيضاً في خلو الشاعرة خلواً مطلقاً من الألفاظ والمباني التي ينبوعها الأدب والذوق السليم ... بهذه اللزجة يصح القول بأن « كتاب الملوك » تسمى كتاب يتأدب بمطالعة الناس في كل زمان وكل مكان ، وإذا كانت « الإلياذة » تسمى فيها عاطفة الحياة والنضب للحق ، وقضية الأيثار والاعتصار لفتيف ، وإذا كانت « كوميديا » دانتى تعرقاً بطريقها الرمزية أى أساليب أخيلة يؤدى في الآخرة إلى الترواب وأبها يؤدى إلى العقاب ، وإذا كانت « الجنة المفقودة » تنوى الروح البتقى في غش القارىء ، فإن الشاعرة يرى إلى تهذيب النفس وتكليفها .

وفلسفة للشاعرة الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الإيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد .

والإيمان عند القردوسى ليس ذلك الشعور الذى يخاطب ضمنا النفوس وخورة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالقردوسى يصدق أن يظهر أبطال وملوك عند استكمال أسباب العزة والمجربوت في مظهر النفس والافتقار إلى عون الله ومدحه بمبائة منه في توكيد ضرورة الإيمان في الحياة ، ورغبة منه في كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شررة القلوب البانية . ولتمثل ذلك من الشاعرة : فقد ما خرج للوك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لقتل ابنه (سياوخش) جل يدعو الله تعالى أن ينصره على عدوه يقول الشاعرة^(١) : « وبعد ذلك اقتسل كيخسرو ودخل متعبداً لم ، وجعل طول ليك

يَضْرَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَتَوَلَّى وَيَتَرَخَّلُ وَيَتَرَخَّلُ بِالْقَرَابِ وَيَسْتَمِرُّ عَلَى أَفْرَاسِيَابَ ، وَيَسْتَمِرُّ بِهِ عَلَيْهِ ، قَطْعَ لَيْلَةٍ تَكُ بِالْجُودِ قَدْ تَعَالَى وَالْعَدَاءُ ، قَدْ أَتَمَرَ عَلَى خَصْمِهِ مِنْ وَجْهِهِ وَأَعْيَادَ طَلَابِهِ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ يَسْتَعِينُهُ وَيَسْتَعِينُهُ . يَقُولُ الشَّاعِنَةُ « فَأَغْتَسِلُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَأَخْذَ كِتَابَ الزُّنْدِ وَخَلَا بَعْضَهُ فِي مَكَانٍ خَالٍ وَلَمْ يَزَلْ طَوَّلَ لَيْلَتَهُ سَاجِدًا قَدْ تَعَالَى يَكْبِي وَيَضْرَعُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَيَقُولُ : « إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ الضَّعِيفَ ، لِلْوَجْهِ الْجِسْمِ وَالرُّوحِ طَائِفَ الدُّنْيَا ، فَسَلِّحْهُ دِمَالًا وَقَصَارَهَا ، وَقَطِّعْ حَبِيلَهَا وَمَحَارَهَا ، طَالِبًا لِأَفْرَاسِيَابَ الَّتِي أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا سَلَّكَ بِغَيْرِ طَرِيقٍ الْهَدَادِ ، وَسَلَّكَ بِغَيْرِ الْحَقِّ دِمَاءَ الْعِيَادِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِجُودِكَ وَقُوَّتِكَ ، فَكُنْ مِنْهُ . وَإِنْ كُنْتُ عَنْهُ رَاضِيًا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، فَاصْرِفْ عَنْهُ ، وَأَطْنِ مِنْ قَلْبِي فَائِزَةً عِدَاوَتِهِ وَقَفْ بِي عَلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ وَالنَّوْجِ الْقَوِيمِ . » وَعِنْدَ مَا غَرَّ التَّلَاجُ أَسْفَنْدِيَارَ وَأَحْبَابَهُ فِي طَرِيقِ « هَنْتِيُور » الرَّعْرِ الشَّاقِ ، وَوَجَدَ ذَلِكَ الْبَطْلَ لِلتُّورِ شَهَ أَمَامَ قُوَّةٍ لَا يَقْبَلُهَا فِيهَا ، لَمْ يَسْهَ إِلَّا أَنْ يَسْلُمَ أَسْرَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَوْلُ شَاعِنَتِهِ : « قِيْنَا هَمَّ كَذَلِكَ إِذْ أَظْلَمَ الْجُورُ وَاشْتَدَّتْ الرِّيحُ ، وَنَشَأَتْ سَحَابَةٌ أَرْقَبَتْ وَأَرْدَعَتْ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِبِلَالِيهَا ، تَهْلُ عَلَيْهِمُ التَّلَاجُ هَيْلًا ، حَقٌّ امْتَلَأَتْ الْأَوْدِيَةُ ، فَصَاحَ اسْفَنْدِيَارُ ... » وَقَالَ : قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْنَا الْأَمْرُ وَلَيْسَ بَيْنُنَا الْآنَ رَجُوعٌ وَلَا قُوَّةٌ ، وَلَرَأَى أَنْ تَلْبِغًا إِلَى مَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ الْكَاشِفُ لِقَضَرِ الْقَادِرِ عَلَيْهِ ، فَاجْتَمَعُوا وَرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ وَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُبْتَهِلِينَ ، وَدَعَوْهُ دَعْوَةَ الصَّادِقِينَ ، فَسَكَتَ الْمَوَاءُ وَاجْتَلَّتِ السَّمَاءُ .

وَالْأَصْلُ الثَّانِي مِنْ أَصُولِ تَفْسِيفَةِ الْأَدْبِيَةِ « كِتَابُ لِلْمُلُوكِ » أَتْقَامُ بِالْوَجَابِ ، وَالشَّاعِنَةُ يَعْنِي بِهَذَا الْأَصْلِ الَّتِي هُوَ قَوَامُ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَةِ أَمَّ عَيَاةٍ . فَأَعْظَمُ مُلُوكِ الشَّاعِنَةِ أَنْفُسُهُمْ بِرَوَاجِيهِ ، وَوَجَابَ لِلْمُلُوكِ فِي رَعِيَّتِهِ الْعَدْلَ ، وَالْحِلْمَ ، وَالسَّخَاءَ ، وَتَرَكَ الْاِسْتِغْدَادَ . فَإِذَا مَا حَادَ لِلْمُلُوكِ مِنْ هَذَا الشَّيْءِ « جَعَتْ الْأَلْيَانُ فِي الضَّرُوعِ » ، وَلَمْ يَأْرَجِ لِلْمُلُوكِ فِي النِّوَافِجِ ، وَشَاءَ أَنْ يَرَبَّاقِي الْخَلْقَ ، وَصَارَتْ الْقُلُوبُ قَاسِيَةً كَالْحَجَرِ الصَّلْدِ ، وَعَالَتْ الذَّنَابُ وَضَرَبَتْ بِالْإِنْسِ ، وَتَخَوَّفَ ذُووُ الْعُقُولِ مِنْ ذَوِي النِّوَافِجِ وَالْجَهْلِ . وَعَدَّ كَسْرِي أَنْوَشَرَوَانَ لِابْنِهِ هَرْمِزٍ حَافِلَ ذَلِكَ الْأَدَبِ السُّلْطَانِيَةِ الَّتِي تَنْصَحُ صِرَاحَةً عَلَى مَا يَجِبُ عَلَى ذَلِكَ نَحْوُ شَهْ وَمَعْمُورِيَّتِهِ .

وبطولة أبطال الشاعنة تستند إلى شعورهم القوي بالواجب . انظر كيف لم يهتم
طلب (جيتو) بإخاذه (بيترن) وكان أسيراً منزلاً في مطبوعة مظلة بأرض طولان .
وقوله له (لأنهم فإن لا أسط السرج عن الرخس حتى أخذ بيد بيترن وأضما في يدك)
وانظر خطاب جيو للذك كخسرو (أيها للذك ابن أي ما ولدتي إلى لحايتك ، وتعمل
للكاره فيها هر سب واحك . وهأنذا أشد وسطى في امتثال أمرك ، ولا أسلك إلا سبيل
خدمتك ولو أمطر الهواء على ناراً ، وتحولت الأشجار في عيني شفاراً) وقول (اكشهم)
ليترن وهو محمود بروحه (أيها الحبيب للنافع لا تعمل على نفسك كل هذا ، فإني أشد على مما
أنا فيه . واسترجع رأسي بانرك ، واجتهد في حل إلى حفرة للذك ، فإن قبلى بنيتي ،
وقاية أمني ، أن أتروده بنقرة ، وأقر عيني بطلته ولو لحظة ، وإذا مت بعد ذلك مت
وليس في قلبي حسرة ، فإن لم أولد إلا لغوت ، ومن أدرك أنه فكأنه لم يمت ، وأيضاً
تجهد فلعلك تستطيع أن تعمل هذين العدوين الذين أهلكهما الله على يدي إلى للسكر ،
وإن لم تدر فاحل رموسها وعدتها حتى تعرضها على للذك ، ليم أي ما هلكك في
غير شيء .)

وروعة شخصية المرأة في الشاعنة تقوم على وفور حظها من الأثوة والوفاء لزوجها ،
يدل على ذلك نواح (تهبته) على أنها (سهراب) ووفاء (متيرة) لزوجها (بيترن) في
معتة مع أن إياها كان للسلط على عذابه .

وكما تعرض الشاعنة للقيام بالواجب من حيث هو قضية أساسية للحياة الخاصة فإنها
تدل بالأشعة المحسوسة والواقع للادية كيف يؤدي الواجب . فينبغي أن تؤدي الواجب على
بأحسن آداب السلوك من جد ورق ، وسهولة خلق وضبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل
من ذلك من الحوار التي دار بين طلي الشاعنة (رستم) و (أسفنديار) عندما اشتد بينهما
الجدال وحى الختام ، فهو حوار يتم عن نبل خلق وسراوة نفس . وقد بلغ من دقة حس
الفرديوسي ورقة قلبه أن أوجب علينا الرضاء لمن أحسن إلينا ولو كان حيواناً أحم . انظر بأبي
قلب وأية شمائل مخاطب رستم التزلة التي كان طرده لها سبباً في وقوعه على عين ماء روى
منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو مخاطبها بقوله : (لا زلت يا غزاة الريف ، ضيئين إلى

الظل الوديع ، وتكرمين في الزلال المين ، وتغلبين بين الرد والياسمين ، وأما قوس
رأيتك أنجاسه ، فلا زالت منقطعة أوارده ، فإنك سددت رمقي وشفيت غلتي .

والأصل الثالث من أصول حكمة الشاعر الأديبة طهارة القلب ؛ والقرودوس يحثنا
في غير موضع من كتابه على أن نتق من قلوبنا أدواء الحقد والحسد والبغية . يقول رستم
لاستيفار : « ... وطهر قلبك ببغية الرجوة من «نس الداء الدفين» والقرودوس لا يكتفى
بأن يندب قارئه إلى تطهير قلبه ، بل قد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً طريقة
العرض الدرامي التي تلحظها في أكبر لللاحم والقصص . تلحظها في آثار هوميروس ،
وسفوكليس ، واسخيلوس ، وشكسبير ، وملان ، ودستوفسكي . وذلك أن بسد الشاعر
إلى حادث رائع مقطع ، فيعرضه عرضاً فيضاً قوياً ، فيهب بذلك قلب القارئ ويغنمه ،
فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء الذي يصبره المريض على مضى ، ولكبه تكون فيه سلامته
حتى عنه ؛ وقد بلغ القرودوس ببلوك هذه الطريقة أسى غايات الفن ، وأتى من رائع القصص
ما يشغل القلب حسنه ، ويسحر قلب يانته . انظر كيف يعرض قصة قتل رستم ابنه سهراب
على غير علم منه بأنه ابنه ؟ يقول الشاعر : « ... ثم تلوثا الحرب ، وتطاعنا حتى انتشرت
ركبوس زمامهما ، فاستل كل واحد منهما سيفه ، وتصارفا ، وكأن النار تخطر من سيوفهما ؛
ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما ، فدا أيديهما إلى عوديهما ، وورفهما ، وجلا يضاران
ويقتاران حتى غرقت الأذراع الموضوعة على أكتافهما ، وقطعت التحافيف على خيلهما ،
فهنصفا ، ووقت دواجمها ، وبقيتا من الرق غريقين ، ومن البطش محترقين ، فوقف الأب
من جانب ، والابن من جانب آخر ، ينظر أحدهما إلى الآخر . فياجميا كيف انسدت
دونهما أبواب التصارف ، ولم تحرك بينهما عروق التئسب ؟ والإبل مع غلظ أكبادها ،
تصطف على أولادها ، والطيور في جوار السماء ، والحيتان في قعر الماء لا تتذكر أولادها
وأفراسها والإنسان من فرط حرصه تخفى عليه فتنة كيدته ويستفكر قوة عينه ولا ينزع
إلى ولده ! »

ثم يقول رستم : « لم أر قط قتلاً بهذه الصفة ، وقد انقطع رجائي من رجولتي ، فلما

ما استأفا القتال ، قال سهراب لرسم وهو يحمل أمه أبوه : « إنى أرى أن نضج الجرشن ، ونطرح السيف ، ونكف عن القتال ، فإن قلبي يميل كل الليل إليك ، وإن وجعني ليعمره الحياء منك » . ولكن يغيب رجاؤه ، ويعود الأب وابنه إلى اللبازة ، فينقلب الأب ويصرع ابنه ، ويغم على صدره ، ثم يذبحه ذبحاً ، ثم يقين له ، وقد سبق السيف العذل ، أنه إنما ذبح ابنه ، فيشق جيبه ، ويضرب صلبه ، ويقتض شره ، ويندب ولده ، ويعاود استنقاذه من برائن اللوت فيسبزه ذلك ؟ ويموت سهراب ، فتتد لوعة الحزن في صدر رسم ، ويصيح من فرط الغلاب : « من القى أصيب بمثل ما به أسبت ؟ ومن القى فبح مثل ما به فحيت ؟ قلت ولدى حين شاب رأسى وانقضى عمرى ! » .

إن القارئ ليتابع مشاهد هذه القصة وقلبه يتوثب في صدره فرقا وذهرا . فلذا بلغ الكارثة الأخيرة قد لا يملك دمه أسى وسرنا . وهذا القدي قصد إليه الشاعر رغبة منه في أن يمكن فيه لماتلق المنور والرحمة .

ولا يفت الفردوسى عند هذا الحد من تطهير قلب قارنه ، بل يمتد في أن يروض من نفسه ويكبح من جاحها بأن يحلها قلب هذه الدنيا ، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد يسوء ضلالت النفوس ، ولكنه لا ينال من قوى النفوس القوية مثلاً ، وهو على عادته يسد إلى أخرى شخصياته فيجعلها مناط فلسفته رابياً بذلك إلى أن تأخذ الدنيا كما هي فتفرج بها إذا أهملت في غير اغترار بها ، ولا تأسى عليها إذا هي أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية لترجع فلسفة الرواقين الذين يريدون أن تتجرد من العاطلة جملة ، فلا ترحح ولا تحزن ، ولا تنضب ولا تضب . انظر كيف يصف الشاعر مصير تلك أفراسياب عندما قلب الزمان له ظهر الجن ، وتجهم له وجه القدر ، قال أمره إلى أن وقع أسيراً في يد رجل عابد فتد وثاقه واضطره إلى أن يخاطبه بقوله : « أيها البائد ! ما تريد من رجل اختفى في منارة خفية ؟ » فلما عتبه البائد على ما احتجب من أوزار قال : « بهذا جرت على أفلام قضاء الله في الأزل ، ومن المصوم في هذه الدنيا الضلالة من الزلل ؟ » . ثم إن مصير تلك دارا وانقيال عبيده له قريبا يدمه إلى الإسكندر ليحرق بحرق حديث أفراسياب من حيث الدلالة على قلب الدنيا ، وهي تربنا الفردوسى جبريا يرى أن الإنسان لا يملك لنفسه مع القدر خفاً ولا ضراً .

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، فليقل بالنقل أن يرفضها ويزهدها فيها . والزهد في الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاعنة الأخلاقية ، والفردوسى لا يأبى جهداً في صرف القلوبنا عن أن تنشأ بالدنيا ولكن في غير إخلال بالواجب الذى يفرضه علينا ويجوزنا إليها . انظر إلى تصويره الحال للثورة تلك كيف سرز حدتنا اقتبضت عنه : وأزعم النخل عن تلك : والغباب في الأرض ، قد عهد إلى ابنة : وودع أكابر الدولة « ثم سار ... وصحب رؤوس الإرتانيين ... إلى أن عهد إلى جبل : فأقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج في أثره نساء الإرتانيين ورتالما زهاء مائة ألف نس ، فيكون ويتجهون حتى طن بصياحهم وعويلهم السهل والجبل . ثم جد أسبوع أشار تلك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال : إن أماننا على ما لا ماء فيه ولا حطب ، فأصرف دستان : وزسم وجوزرد ، ولم ينصرف عنه البقون ، فصار لك ، وساروا منه حتى وصلوا إلى ماء ، فزفوا هناك ، وقال لهم لك : إذا طالت الشمس غداً حان وقت الفارقة ، فباتوا ليتهم عند القين . ولما كان الثلث الأخير من الليل : قام لك ودخل القين : واقتل ثم ودعهم وقال : « إن التلج غداً يد عليكم الطريق فلا تهتدون إلى الرجوع إلى إرلان ، ولما طالت الشمس ركب لك ، وغاب عن أعينهم » .

وحديث الإسكندر لك الشاب القامح الطلوح مع أهل مدينة البرامنة للفقهاء عن الدنيا ، والراضين منها بأيسر أسرها يرى إلى أى حد يذهب الفردوسى في تحرير فلسفته القائمة على العزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .



وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت تقارئ السبب في تقدير غير القرس للفردوسى ولشاعنته ، وأتم هذا البحث بأن أثبه على أن مظهر هذا التقدير قديم ، قد ترجع انتفع بن علي البندارى الشاعنة إلى الحرية القصصى في أوائل القرن السابع الهجرى^(١) ، وأن الشاعنة قد نقل إلى أشهر المدن الأوربية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم في غاية ابدقة والنباهة والإشفاق .

(١) وقد نشر زميل الدكتور عبد الوهاب عزلم هذه الترجمة نشرأ طبعاً غنياً ومن هذه الترجمة اختبنا القصص الواردة في هذا الفن .

سيرة أحمد بن طولون

لابي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي^(١)

هذا مختون سفر جليل مؤرخ مصري من أهل القرن الرابع الهجري هو أبو عبد الله ابن محمد المديني البلوي ، وضع في سيرة رجل من أقوى الشخصيات التاريخية الإسلامية هو الأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية المشهورة . وقد انضمت خطوطه هذا الكتاب من مصر إلى الشام على ما يظهر أيام كانت مصر والشام توليان ملكاً واحداً ووطناً واحداً . ثم استقرت في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، إلى أن قبض الله لما للزورخ البهجة الأستاذ محمد كرد علي بك ففضض عنها غبار الخمول والنسيان ، وأدرك من فوره قيمتها العلمية ، فكشف على إعدادها فنشر ، ثم عرضها للناس في معرض على قتيب . فكان ذلك المجد منه وهو في شيخوخته للبركة خير عدية يقدمها إلى مصر التي رعت زمتاً في صباه وصدر شبابه ، كما كان مثلاً جيلاً من أسنة الوفاة وتأدية الأمانات إلى أهلها . وفيه فوق كل ذلك إشارة لطيفة إلى اشتباك العلاقة الثقافية بين مصر والشام من عهد بعيد .

ظهر هذا الكتاب القيم ، والحرب الحاضرة قد بدت أشراطها ، ودوت في الظاهرين نذوها ، فلم يحضل الأجاء . ولزورخون لظهوره كما كان ينبغي ، وشغلوا عنه بما شغل به الناس عامة من أهوال الحرب وخطورها . فكان ذلك الإجمال الذي لم يضلوه من بعض ما جاءت به الحرب الحاضرة من إثم ، واحتشيت من أوزار .

• • •

وتعتبر سيرة أحمد بن طولون البلوي بحق تما من النصوص الأساسية الخاصة بالدولة الطولونية تضم إلى المصادر التالية التي وصلتنا في هذا الموضوع للمام ونفى بها سيرة أحمد ابن طولون لابن الجاية للترقي سنة ٣٣٤ ، وقد وصلتنا ملخصة بقلم ابن سيد التري ،

(١) نعرف في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية في مايو سنة ١٩١٣ .

وكتاب «الكفاة» لابن الداية كذلك ، وكتاب ولاية مصر وقضاها المكندى للتوفى سنة ٣٥٠ ، وأخبار سيويه للمصرى الحسن بن زولاى للتوفى سنة ٣٨٧ ، بل إن سيرة البلوى لتمد تقدمها وتضم إليها التوفى أم مرجع لتاريخ الدولة الطولونية عرف حتى اليوم .



والكتاب كما نشره الأستاذ كرد على بك يستعمل على مدخل بقلم الأستاذ الناشر ضمنه الكلام على المؤلف وتأليفه ، وعلى أصل المخطوط الذى طبع منه الكتاب ، وعلى أحد بن طولون كما صورده البلوى . ثم على ذلك متن الكتاب ويقع فى ٣٣٠ صفحة متوسطة تناولت سيرة ابن طولون من أول أمره إلى وفاته . ثم على المتن فارس ضافية ، وجدول تصحيحات لأخطاء وقت فى الكتاب أثناء طبعه .



ومن يقرأ «سيرة أحمد بن طولون» للبلوى قراءة بحث وتحقيق ، تعرض له أمور محمل للنظر من غير نزاع . فأولاً من هو البلوى الذى ينسب إليه وضع هذه السيرة ؟ يغيرنا الأستاذ كرد على بك فى مقدمته مستنداً إلى ابن النديم والطوسى والذهبي وابن حجر أنه قتيه عربى الأصل حدث عاش فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وأنه كان شيعياً إمامياً ، وربما كان إسماعيلياً . وأن مؤرخى رجال الحديث من سنيين وشيعية يرمونه بالكذب ووضع الحديث . فإذا صح أنه شيعى فما الذى حدا به ألا كان مذهبه إلى أن يؤلف سيرة أمير تركى سنى متشدد فى سنيته ؟ يذهب الأستاذ كرد على بك إلى أن ابن طولون ربما كان يصر علقاً على الإسماعيلية سياسة منه واستظهاراً بهم على تشييد دولته ، وأنه كان يكتم هذا اللطف تقيّة منه ، فأحب البلوى أن يميزه علقاً بظن ، فكتب سيرته . وعن مخالف الأستاذ الجليل فيما ذهب إليه ، فليس فى سيرة أحمد بن طولون ما يستفاد منه من قرب أو بعد أنه كان يميل إلى الشيعة ، وخاصة الإسماعيلية ، ويرغب فى استئناسهم ، بل إن فى سيرة البلوى نصوحاً صريحة فى شدة ابن طولون على العلويين والطالبيين . من ذلك قوله طويلاً اسمه بنا الكبير ناز عليه^(١) . وتنكيله بابن الصوفى وهو طالبي يست عليه ثورة كبيرة بالصعيد^(٢) . ويرى اليعقوبى أن ابن طولون أخرج الطالبيين من مصر إلى المدينة ، ونكل

بواحد منهم لأنه يختلف عن الخروج^(١) كما يذكر الكندي أنه لما غضب أحد بن طولون على أخيه موسى أمر هذا وكان بطرسوس بليس البياض إعلاناً منه بجهل إلى الشيعة^(٢). هذا عن دعوى عطف ابن طولون على الإسماعيلية. أما إسماعيلية البلوى، فالأمر فيها أصبح واضحاً بعد أن بين السيد الزنجاني - وهو الحجة الثابت في تاريخ التشيع - أن الأصول القديمة لم تنسأ إلى دعوه الإسماعيلية، وأن صاحب الفهرست قد خلط بين الداعين إلى للذهب الإسماعيلي والداعين إلى غيره من مذاهب الشيعة^(٣). بقي أن يقال أن البلوى كان إمامي للذهب، وهو ما ذهب إليه عالم آخر جارج التميمي هو الأستاذ إيفانوف^(٤). فإذا صح ذلك فلا حرج أن نشبهه لم يبعده كثيراً ولا سيما في ذلك العصر عن هدى السنة والجماعة. ويمكن إذن أن نضم إقدام البلوى على وضع سيرة أمير تركى سى.

والحق أن البلوى إنما صنف سيرته لا ليرضى ترعة مذهبية خاصة، ولكن ليرضى قبل كل شيء ميوله الأدبية، فهو أديب بارع فوق كونه واعظاً وقيماً وعظماً كما وصفه ابن النديم. رأى في سيرة أحد بن طولون أرواح رجال العالم الإسلامى في النصف الثانى من القرن الثالث بحالاً قلته وبيانه، ورأى مادة البحث متوافرة له وفي متناول يده، ورأى في الوقت نفسه أن السيرة التى حررها ابن البداية معيبة من الوجهة الفنية، فست به حمة الأديب للنتاز إلى أن يكتب هذه السيرة على نحو أتم وأدق وأجمل مما جاء في سيرة ابن البداية. وقد صرح بفرضه هذا في مقدمة السيرة حيث يقول :

«... وأنت قرأت كتاب أحد بن يوسف فلم يكن موقفه منك القرض الذى إليه ذهبت، ولا للذى الذى له نغوت، وأنت تريد ما هو أكبر منه شراً وأكل وصفاً، وأن أحد بن يوسف كان يمر في شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها وأنه كان يخط أخباره» إلى أن يقول : «وقلت ما هكذا أرتخ الناس الأخبار، ولا عليه نظم الآثار. وقد امتثلت أمرك فيما أردت الخ»^(٥).



(١) الكندي في حاشى من ٦٣ من السيرة.
(٢) السيرة من ٣٦٥.

(١) السيرة حاشى من ٦٣.
(٢) السيرة ٣٦٥ - ٣٦٦.
(٣) السيرة من ٣٩ - ٣٤.

ونم رسالة أخرى ، وهي مدى العلاقة بين كتاب الهوى الذى نحن بصدده وملخص سورة أحمد بن طولون لابن الهياة كما هو وارد فى كتاب الغرب لابن سعيد وكما نشره للبشرى فولري سنة ١٨٩٤ ، أن التشابه بين البكتابين قوى جداً غير أن كتاب ابن الهياة مجهول ، وكتاب الهوى مفصل ويحوى بعض زيادات لم ترد فى كتاب ابن الهياة .

يمثل الأستاذ كرد على بك هذا التشابه السجيب بأن الهوى سبطا على مطول ابن الهياة (القنود) ونقل فصوله بغير حساب . ويقول إن العليمة جازته على ذلك بأن قبضت له مؤلفاً آخر هو تقي الدين القرزى سبطا على كتابه . ولمسرى قد لا يكون محميا كل السجيب أن يسطر مؤلف من القرن التاسع على مؤلف من أهل القرن الرابع ، إنما السجيب حقا أن يسطر الهوى وهو من أهل القرن الرابع على ابن الهياة وهو معاصر له ، ولعل الرجلين تلاقيا وعرف كلاهما الآخر .

أما نحن فنرى لذلك التشابه السجيب شيئا غير الذى يراه الأستاذ كرد على بك ، وذلك أن كلا اللذين فيما نعتقد استمد كتابه من نفس المصدر الذى استمد منه الآخر . ذلك المصدر هو ديوان الإنشاء للمصرى .

لقد جعل أحمد بن طولون الرسائل ديوانا تختم فيه الكتب بعد أن يمررها البكتاب ويهرضوها عليه ^(١) وأعلن قلن أن ديوان الإنشاء كانت تحفظ فيه سوى الرسائل الرسمية محاضر مجالس ابن طولون بعد عرضها عليه كذلك .

يدل على ذلك قوله لكتاب استكتبه : « إني جعلتك صاحب خير على أقاتلى فانظر كل ما يعرجى بيني وبين من يخاطبني من كان من الناس من صغير وكبير ، فأكتب خطابه وجوابي ، وخطابي إياه وجوابه لي ، وأعرضه على بالشيء » ^(٢) .

وربما كانت تحفظ فى ديوان الإنشاء دواعى التقارير التى كان يرفسها إلى الأمير كتابه وظلانه وأحباب أخباره . من ذلك ما حدث به نسيم الخادم قال : « كان أحباب الأخبار يرفسون إلى مولاي رقاعا أن أقوام تكون سيلا لاصطفاهم وقلمهم » ^(٣) . ومن ذلك ما حدث

(١) السيرة ص ١١٢ .

(٢) السيرة ص ١٠٠ - ٢٠١ . ص ١١١ - ١١٢ .

(٣) ص ٢٢٤ .

به أحد بن محمد الكاتب من أن أحد بن طولون قدوة منة لجنود مجلس جماعة من
للتجربين من الأمير وتدوين كل ما يجري منهم ، فعمل ما أمية ، ووقع إليه تقريراً بكل
ما حدث ^(١) .

والدليل على أن سجلات ديوان الإنشاء للمصرى هي لفصل الأول الذى نهل منه ابن
البابية في كتابه « سورة أحد بن طولون » ، و « للكافة » ، ونهل منه البلبى في « سيرة
أحد بن طولون » أن الكتب المذكورة تنهى على تبويب مراسلات رسمية جرت بين
ابن طولون والوقت ، وبينه وبين ابنه الحسن الكاتب عليه ، وأن تلك الكتب تشابه في
الأخبار المشتركة بينها تشابهاً عالياً في اللفظ والمعنى والأسلوب ، وأنها تفرد فيها قصة واحدة
هي قصة الإنشادة بمحمد ابن طولون ومفاخره ، والتماس الماذير لأفعاله التي كانت تحصل
عن حدة مزاج تبلغ أحياناً مبلغ القسوة والوحشية .

• • •

نكتفي بهاتين البائتين اللتين أوردتهما قراءتنا مقدوة الكتاب . ثم نفيه بسبب ذلك
على هبات وقتب في متن الكتاب وجوانبه ، ولم نجد لها تصحيحاً في جدول التصحيحات
الواردة في آخر الكتاب . من ذلك « الظفر غمر » في ص ٣٣ ، براء مهلة مكررة : « صوابها
« الظفر غمر » براء مهلة مكررة ^(٢) . وفي ص ٨٨ « محمد بن علي بن غم الأرض » هو «
« بن يحيى الأرض » ^(٣) . وقول المتن في ص ٩٨ « وبلغ لم كل ما أحس » « بعلية
فصل باللام . وقد تكررت هذه التسمية في ص ١١٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، والتصحیح تبدل بالباء
كما ورد في ص ٢٧٦ وجاء في المتن في ص ١٤٧ « بتديل البيل » وعليه التلويح على
ذلك في هامش الصفحة بقوله « الأقرب بتديل تيسر » والتبديل « وجع اللحم » « عبارة المتن هي
التصحية واستعمال التبدل الذي كانت تصرفه الأوراق الخاصة بالأموال وجبايتها . وقد
ورد فقط « البيل » بمعنى « كشف الحياض » في موضع عدة من الكتاب . من ذلك
قوله في ص ١٦٣ « فن : فأجبرنا بها عملاً وبفعل » . قال ما عتدي لما عمل بتفصيل ...

(١) السيرة ص ٢٢٤ - ٢٢٩ .

(٢) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ١٤ .

(٣) سيرة ابن الهيثم ص ٢٤ واللبى يلج أوروبا المجموعة الثالثة ص ١٤٩١ .

وأخرج من خفه عملا وثاقه الأمير وقال له ... هذه نسخة ما حمل إلى بيت المال من هذه القصايح « ونقطة » القصصيين « و » القصص « الواردة في متن من ٧٠٦ وهاشبا بالقاف للثلاثة صوابه بالفاء للوحدة ، وجوز القصص التوخيون ورد ذكرهم في شعر التتبي وأخبار ميرويه المصري وشعر أبي السلاء للمري ^(١) .

١٧٥ « فلما توسطنا الطريق قام إلى أصحاب الأرباع فأرنبهم كتاب لؤلؤ وعرفهم أنى ذاهب إلى الأمير » وفسر فقط « الأرباع » في الهاش « للنازل » وهو قصير لا يناسب السياق . والأرباع هنا أرباع جند الشرطة أو الجيش أى أقسامهم . وقد كان جند السكوة زمن بنى أمية مقسمين أرباعا وجند البصرة أخلاسا ^(٢) وأصحاب الأرباع والأخلاص رؤساؤها .

وسيرة أحد بن طولون الجوى نص تاريخى هام كما قلنا ، استمد من مصادر قديمة اشتدادا مباشرا . فهو من ناحية يتتبع سيرة مؤسس الدولة الطولونية من بدايتها إلى نهايتها . فيرينا ابتداء أمره ونقله في معارج الرق إلى أن يبلغ غاية قوته ، ثم انحناء أمره وأنقراض نجمه . وهو فى خلال ذلك يشير إلى مواطن القوة والضعف من تلك الشخصية الجبارة . حينما يصور لنا مضاعفة عزيمته وقوة إرادته واستبداده وانتدائه العجيب على العمل للتصل وتما كل صغير وكبير من شئون دولته ، إذ يذابه يلمح إلى أن إفراطه فى ذلك كله كان السبب الأول فى فساد أمره وتصعد سلطانه ، ولا يعدم من حين لآخر أن يصور لنا ناحية الإنسانية . فيذكر لنا أنه كان جميل الصوت محبا لسماع النناء ، جم الإحسان والتصدق ، وأنه يرتاح الجواب للفتح والنكبة اللطيفة ، وأنه فى الجملة أحيانا كان يفسخ من جلد للارد الجبار ويلبس إهاب الإنسان اللودع اللطيف .

والكتاب من ناحية أخرى يلقى ضوءا على حياة عصر العائمة فى آخريات القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع . فيستطيع من يقرؤه أن يقين الشيء الكثير عن نظمها الإدارية

(١) انظر الرائية التى روى بها التتبي عهد بن إسحق التتبي وأخبار سيويه من ٤٧ وسطى التوند

من ٢٣ - ٢٤ من طبعة بولاق :

(٢) القبرى طبع أوروبا : القسم الثانى من ١٢١ ، من ٢٤٠ .

من خراج ومارون وقضاء وبريد وجاسوسية . كاييتين أسوال الجماهير وأرهاب الحرف والصناعات . وأبلغ من ذلك كله أن الكتاب يصور روح الشعب المصري للروح الذي لم يسببه أن يتزعمه متجبر يأخذ بمعتقداته مهما يكن عادلا وخيرا . يصور الكتاب ذلك الروح من طريق كلامه على الثورة التي بشها نمر من كبار المصريين بزعامة العباس بن أحمد بن طولون والتي أبتها الخلافة العباسية من وراء وراء .

والكتاب من ناحية ثالثة يلقي ضوءا على الدبلوماسية الإسلامية في الحقبة المذكورة ، فهو يبين حال الخلافة السياسية لتلك العهد وانقسام الدولة الإسلامية إلى شرقية وغربية . وأثر ذلك ، كما يوضح علاقة أقطار الشرق الأدنى وحملها الأقوياء بالسلطة المركزية في العراق .



والكتاب يد تحفة أدبية رائعة يحذفه مؤرخو الفتن القوي ومن يدرسون الألفاظ والأساليب العربية مادة غزيرة بالبحث والدرس .

من مواقف البطولة الإسلامية

في القتال *

إن من يطلع على تاريخ الحروب التي وقعت بين الفرس والروم في أواخر القرن السادس للميلادى وأوائل السابع ، يرى إلى أى حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية ، شهوات الأكرسة تارة والقياسة أخرى ، وإلى أى حد كان يحسبها حجب للضم والسلب والنهب ، وإلى أى حد كان يذكر أولها حجب القسطنطين والاعتقاف ، وإلى أى حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، وقض اليهود وللواتيق . فالشهوة ، والغنمية ، والانتقام ، والتخريب ، والتفرد ، كن أهداف تلك الحروب التي كادت تترك ربيع للشرق والمغرب خراباً ياباً .

والسبب العاجب أن هذه التقاليد المشهورة استمرت في التبريد القبي بين المسيحية السبعة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولله لم يخل منها حتى يومنا هذا . ولتمثل تلك بالحروب الصليبية التي ارتكب فيها الصليبيون في مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفعال تقتصر لهرولها الأبدان ، وبما صنه لللكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا ، بمسلى غرناطة غذاء استيلائهم على عاصمتهم صلحا ، من قضى اليهود للتؤكد ، وللواتيق للنفطة . وبالحروب للروقة في التاريخ الأوربي الحديث في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب الدينية ، وأخيراً بما ارتكب في الحرب العالمية الأخيرة من تخريب وتدمير كان ختمه إلقاء القنابل الذرية على لندن اليابانية ، مما أودى بالآلاف اللوثة من اليابانيين ، غداً وبنياً وعدواناً .

ولنضرب صفحاً عن وصف الحرب في المصور الوسطى عند القبائل الجرمانية التي قضت على الدولة الرومانية ، وغزت أوربا في ظلام داس طول ألف سنة تقريباً ، وعند النفر الذين قضوا على الدولة العباسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية في للشرق ، قد يستنر

من هؤلاء هؤلاء بأنهم هج ليست لم حفلة القوس ولا نصرانية الروم ولا مدينة أوروبا وأمريكا في القرن العشرين .

ولكن كم لجولات التاريخ وتصاريفها من أسرار جرمي العلماء ولا يزالون يحرمون على اكتسابها والوقوف عليها ! وكم قد من لطف خفي حارب في كنهه الأفهام ! ففي وسط هذه التباين للبلية والظلمات المألوفة ، تبرز شمس الدعوة الإسلامية ، فإذا الحرب للشريعة هي للبرقة عن شهوة السلطان ، وحسب للنفس ، والسمة ، والبرأة من عوامل للتندر والحياة والدون ، وإذا بها نظام من نظم العمران ، به يكف النظام ويقع الطغيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبر شوق عن كل ذلك في قوله مخاطباً الرسول العربي :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقصات دواء

وإذا بهذه الحرب للشريعة نسي جهاداً في سبيل الله ، أي كفاحاً لإعلاء كلمته بكل ما تشتمل عليه هذه العبارة من معاني المداواة والإصلاح في الأرض وتحقيق لئل العالم . وإذا الجهاد أعظم ما يقرب به البد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبعد بر الوالدين ، وإذا الجهاد إحدى الحسنيين إما الظفر وإما الشهادة . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه للبادئ أساساً جوهرياً من أسس الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها في حروبهم ، فلا غرو أن خلبت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة في القتال . ونحن نورد فيما يلي ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضاً من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجناعات .

١ - أبطال :

يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من الرياض يوم بدر فخرض الناس على القتال ، وقال : « ولأدى نفسي يده ، لا يقتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمر بن حنبل من بني مسيلة ، وفي يده ثمرات يأكلهن : « حج الحج ! ما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء القوم ! » ، ثم تذف بالثمرات من يده ، وأخذ سيفه فقابل القوم حتى قتل .

ويرى أنه عليه السلام يوم أخذ سيفاً فهزه وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟
 فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا أخذه بحقه ، فأعرض عنه . ثم هزه الثانية وقال :
 من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا أخذه بحقه ، فأعرض
 عنه ؛ فوجدوا في أنفسهم . ثم عرض الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه
 أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب في العدو حتى ينثني » فأخذه
 فنه ، وأعلم نفسه بصابة حمراء وشى إلى الحرب ، وجعل يفتخر بين الصنفين ، فقال الرسول
 « إنها مشية ينضم الله إلا في هذا الوطن » ؛ ودخل أبو دجانة في الحرب مبهتاً بالقتال ،
 فأبلى وأشكى .

وعما استدل به الفقهاء على جواز اللبازة مع التفرير بالنفس ما حدث في حرب الخندق
 إذ برز عمرو بن عبدود فارس قرشي وغلبها الخنذيذ ، فدعا إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد .
 ثم دعا إلى البراز في اليوم الثاني ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز في اليوم الثالث ، وجعل
 يبعثر المسلمين إحجامهم عن مبارزته . فقام علي بن أبي طالب فاستأذن رسول الله في اللبازة ،
 فأذن له على ضيقه ، وقال « اخرج يا علي في حفظ الله وعبادته » . فخرج فتجالوا وثار
 هجاجة اخفتها عن الأبحار ، ثم انحلت عنهما وعلى يمسح سيفه ثوب عمرو وهو قتيل .

٢ - المفو عند القدرة :

لما نهضت قريش هذبة الحديبية التي كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على
 غزوها وفتح مكة ، وذلك في رمضان سنة ٨ هـ فخرج من المدينة في عشرة آلاف وبيت قريشاً
 على غير استعداد ، فلم يسع ساداتها وكبرائها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأنفسهم ولإهلهم ،
 وقد أعطاهم الرسول هذا الأمان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقاتل إلا من قاله ،
 وقال في تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن
 حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ودخل
 الرسول وجيشه مكة من أطرافها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قريش إليه عند الكعبة
 مملكة إسلاماً ومباينة ، فخطبهم عليه السلام فقال « يا معشر قريش ماذا ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا: «خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم» قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» هكذا عامل الرسول هذه القتيبة التي كذبت ، وآذته ، وأخرجته وأصحابه ، وناوأه أكثر من عشرين سنة ! فضرب بذلك أروع مثل للحلم والرفق عند القدرة .

٣ - طالب الشهادة فلم يعطها

كان زيد أخو عمر بن الخطاب من قبل في وقعة الجمل ، إحدى وقائع حرب الردة ، وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله ، وكان معهم : «ألا هلكت قبل زيد ؟» هلكت زيد وأنت حي ! ألا داريت وجهك عنى ؟ قال عبد الله : «سأل زيد الله الشهادة فأعطىها ، وجهت أن تساق إلى قم أعطها !» .

٤ - لا نأمت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد في الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . وقد سماه الرسول سيفًا من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفًا له وتنويهًا بقدرة . ظهرت عبقريته في وقائع مؤنة الردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولاته تظهر فوق ذلك في تواضعه ، فبعد ما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لصلحته لارتأها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضيا تحت إمرة أبي عبيدة . وهي تجعل بوجه أخفى في العبرة التي استخلصها من تجاربه وعبر عنها في أقواله قلائل قالها عند ما حضرته الوفاة ، قال : «قد شهدت مائة زحف أو زهادها ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وما أذا موت كما يموت البير فلا نأمت أعين الجبناء» .

٥ - قائد محبوب :

كان للثقي بن حارثة الشيباني يقاتل الحزم بالعراق على شاطئ الفرات ، فأنشأ مع الفرس في وقعة كبيرة تعرف بوقعة البريب وذلك سنة ١٣ هـ . وكان قد انضم إليه قبيل الرقة جمع من نصارى تطلب حية لصلبة العروبة . وإلى الثقي ما تصف به الرواية هذا القائد وجيشه في ذلك اليوم : «وأقبل الفرس يتوادم مهبران في ثلاثة صفوف ومع كل صف

فيل ولم يجل ، قال للثني المسلمين : « إن الذي نسمعون قتل ، فاذموا القتل ! »
 وظلوا للثني في مظلوفه يهد إليهم ، وهو على فرسه الشوس وكان لا يركبه إلا قتال ،
 فوقف على الريات يحرضهم ويهزم بأحسن ما فيهم ، ولكلمهم يقول : « إني لأرجو ألا
 يؤتى الرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرق اليوم نفسى شيء إلا وهو يسرق لعانتكم »
 فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصتهم من ضده في القول والفعل ، وخاطب الناس في المحبوب
 والذكور ، « لم يستطع أحد منهم أن ينيب له قولاً ولا خلا . وقال : « إني مكبر ثلاثاً
 فثباتوا ، ثم احتلوا في الرابطة ! » لها كبر أول تكبيرة أجهلهم فارس وغالطهم ، وركدت
 خيلهم وأخربهم فلما وراى للثني عملاً في خفوف يتي جمل ، لجبل يد لحينه لا يرى منهم ،
 وأرسل إليهم يقول : « الأمير قرأ عليكم السلام ويقول لا تخضعوا للثني اليوم ! قالوا :
 نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال للثني لأنس بن حلال الخمرى : « إنك امرؤ عري ، وإن
 لم تكن على ديتنا ، فإذا حلت على مهران فاحمل مى ! فأجابه ، فحمل للثني على قلب
 الجيش الفارس فأزله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من قلب نصراني . فصار ذلك
 عجبت للثني حلوا على عجبات الفرس ، وجعل للثني والمسلمون في القلب يدعون لم
 بالنصر ورسل إليهم من يذمهم ويقول لم : « عادتكم في أسلهم ! انصروا الله ينصركم ! »
 هزموا الفرس .

ومات أنس بن الجرحى ، منهم مسعود أخو للثني فعلى عليهم للثني ، وقال : « والله
 إنه ليهن وجدى عليهم أن شهدوا البيوت وأقدموا وصيروا لم يحزروا ولم يشكروا » .

٦ - المعو عند القدرة أيضاً :

من أظن حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين في البيت المقدس فذلة استيلائهم
 عليه في سنة ٤٩٢ هـ . أجمت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء .
 فتفوز للقنارى بمجلاً ما حدث عند ما استقر صلاح الدين الأيوبي تلك المدينة من الصليبيين
 في سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين في وقت حائلين سار إلى صقلان فانتصها وأخذ يقامب الزحف منها إلى بيت المقدس : وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلازم الحرب والمحصار ، فأعدى وقدأ من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التي يقدسها الصليبيون وللنصارى ولكنهم حرضوا لها بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لهم أنه لن يأخذها إلا بالياف .

وتقدم صلاح الدين إلى المدينة وأخذ في مهاجتها وقتب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تتحصنها : فلما رأى الصليبيون ذلك أخذوا الأمير بليان لمحاولة صلاح الدين - فطلب هذا الأمير أن يمنع السلطان بيت المقدس عنوه الذي منعه مدعا صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب فتنسكا بينة التي استنها . عند ذلك قال له بليان : إن في المدينة ستون ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يطغوا خنادقهم وأغلقوا كل ما يسهم عليهم ، ثم يهاجمونه حتى يقتلوا من آخرهم : وقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من القادة فأقروه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف في إبراز قوته ، وأن في وسعه أن يتتبر كل من في المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يعطى عليهم القداء : وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأي وتم الاتفاق على أن يكون القداء عن كل رجل من عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديلراً واحداً ، وأن تكون للدة التي يؤدي فيها القداء ويتم الجلاء أربعين يوماً . فمن وجد في المدينة بعد ما كان ملكاً منقراً للسلطان :

وفضت المدينة أولها للسلطان وحيث وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٢ هـ . وكانت القيلة المراج الشهيرة ، وهي تضادفة عجيبة ، وأقام صلاح الدين على الأبواب أثناء يتقاتلون مال القداء .

فخرج الأمير بليان وسه سبعة آلاف فدير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تاج خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتي البطرك الكبير يحرم من أسوار الكنائس ويمنعها ويغيرها ما لا يقدر على ، فلم يمرض صلاح الدين شيء مما سمع على أن يرم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن يتفرض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة . واهتمت

الأرميون يوما ولا يزال في المدينة ألوف كثيرة من قراء العليبيين لا يملكون فداء .
يقول المؤرخ الصليبي « أرنول » - ولله كان حاضراً ذلك اليوم للشهود - : « فقدم
العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : سيدي لقد أعنتك بحمد الله على فتح هذه
البلاد وهذه المدينة وإني أستوجبك ألقاً من أولئك الأعداء . فأجاب السلطان إلى طلبه
وعند ذلك أعطهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطباً مثل الذي طلب العادل
فوجههم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا في الحال . وأخيراً بلغت صلاح الدين إلى أصحابه
ويقول : « لقد أدى أخى صدقه ، وكذلك منع بليان والبطرك ، وقد بقي أن أؤدي
أنا صدقي » . ثم إنه أمر رجلاً من حرسه أن ينطلقوا فينادوا في جميع شوارع المدينة أن
كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق
خروج هؤلاء نهلاً كاملاً من لدن شروق الشمس إلى أن غم الظلام » .

ثم يمضى المؤرخ المسيحي المذكور فيقول متحدثاً عن أدب صلاح الدين ونبه ورقة
قلبه : « إن نساء من نساء فرسان العليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل
أو أسر أزواجهن وعاتفن في الحرب ؛ فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند
صلاح الدين باكيات مولات يشكون إليه سوء حالهن ، فما كان منه إلا أن أطلق لكل
من لما زوج في حبسه زوجها ، وأمر بحال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها ، بما ألحق
المتن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الإنجليزي لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا
أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافياً في عهده أعظم الفاعلين في عصره فروسية وأكبرهم
قلبا ، وأكبرهم في أي عصر من العصور » .

٧ - وإسلامه

اجتاح التتار أقاليم الدولة السلجوقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو
بغداد في سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة السلجوقية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على
أبواب مصر . وقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك ، وهو الملك المنصور قطز ، كتاباً
ملاً تهديداً ووعداً وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه . فارت حمية

السلطان واستغفر الناس لجواده التتار فثاقلوا المائت في الأذهان إذ ذاك أن التتار لا يظلمون ولكن السلطان أعلن أنه سار بنفسه للجهاد إلى أي حالٍ وليصعبه من يشاء . عند ذلك غر منه الأسراء بأجنادهم ، فصار بالبيش إلى قسطنطين مقدما أمامه الأمير بييرس ، وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت ، وذلك في رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

يقول القرطبي في وصف بلاد قلز وبييرس والجيش للمصري في ذلك اليوم المصيب : « فلما كان يوم الجمعة خاس عسر من رمضان التثني الجمعان ؛ وفي قلوب المصريين وهم عظيم من التتار ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد احتل الوادي وكثر صياح أهل القرى من القتلاحين ، وتناجى ضرب كوسات السلطان والأسراء ، فتميز التتار إلى الجبل ، فعندما استقدم السكركان اضطرب جناح السلطان وانتفض طرف منه ، فألقى الملك للقطر عند ذلك خروجه عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « والإسلام ! » ، وحل بنفسه وحينئذٍ معه حملة سادة ، فأبده الله بنصره . وقتل كتيبتا مقدم التتار ، وهزم باقيهم ... وأبلى الأمير بييرس أيضا بلاء حسنا بين يدي السلطان ، « وسر السكرك في أثر التتار إلى قرب يسان ، فرجع التتار وصانرا مصالبا ثانيا أعظم من الأول ، هزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم . وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديدا ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعها منظم السكرك وهو يقول : « والإسلام » ثلاث مرات « يا الله ! انصر عبدك قلز على التتار » فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه وصرخ وجهه على الأرض وقبلها ، وضلى ركبتين شكرا لله تعالى ثم ركب ، فأقبل السكرك وقد استلأت أيديهم بالغانم . تلك وقعة عين جالوت التي صد فيها الجيش للندري سيل التتار التي الجوارف ، واستغنى بها الشام من أيدي التتار ، وزد عن مصر والفرج الإسلامي كيدهم وجبروتهم ، وفرق ذلك فإنه في ذلك اليوم وعلى غير علم منه وفي أوروبا وحضارتها الناشئة دمارا عظيما ، وذلك باعتراف مؤرخي أوروبا أنفسهم .

وبعد ، قلل القاري . يكون قد رأى من جميع النصوص القديمة أن الإسلام قد خفف من ويلات الحرب جهد الطاقة وأنه شرع لما منهاجا فاصدا ومن آدابا كريمة .

كتب الحسبة

وقائدهما في وضع المعجمين الوسيط والكبير (٥)

معنى الحسبة والاجتناب في لغة البدو والحباب - ومعنى الاحتساب بمعنى الإنكار
لشيء ، ومنه قول الكهيت :

بأى كتاب أم بآية سنة ترى جهنم عاراً على وتعب

أما في الشرح فقد عرف الإمام للأردى الحسبة في كتاب « الأحكام السلطانية بقوله
(هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله) » واستدل على وجوبها
بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون » ويرد حجة الإسلام النزالي في كتاب « الإحياء لمسلم الدين » أدلة
أخرى على وجوبها مستمدة من القرآن الكريم والآثار والأخبار - وعلى هذا الأساس اعتبر
الفتاوى الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على
القيام بأمر الجماعة الإسلامية بجلالة بفضله أو يتدب له من يراد أهله ، وهو الذي خدم
بالحسب - ويبرز ابن خلدون في مقدمته عمل الحسب فيقول : « ويتخذ الأعوان على ذلك ،
ويحث عن المنكرات ، ويمرر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على الصالح العامة في المدينة ،
مثل النعم من الضائقة في الطرقات ، ومنع الخالين وأهل السفن من الإكثار في الخمر ، والحكم
على أهل اللباني للتداعية السقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على
أيدي المسلمين في الكناز وغيرها في الإبلاغ في ضربهم المصيان والتسلين » - ويفرق ابن
خلدون بين اختصاص الحسب واختصاص القاضي فيقول : « ولا يتوقف حكمه (أى
الحسب) على تنازع أو استثناء ، بل في النظر في الحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع
إليه ، وليس له إضفاء الحكم في الدعوى مطلقاً ، بل فيما يتعلق بالنش والتدليس في العايش
وغيرها في الكناز والوازين - وله أيضاً حل للأطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس

(٥) بحث أدنى في الزمر السنوي لمجمع فتاوى الأول لجنة الريفة ق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ .

فيه صناع بيعة ولا إغاض حكم» ثم يحض فيقول «وكلها أحكام ينزه القاض عنها لمصوبها وسهولة أقرانها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها . فرضها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء » . ويلاحظ ابن خلدون التطور الذي طرأ على نظام الحسبة بما اقتضى فصلها عن القضاء فيقول « وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل السيليين بمصر والقرب ، والأسويين بالأندلس ، داخلة في عموم ولاية القاضى ، يولى فيها باختياره ، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عاماً في أمور السيلة ، اندرجت (أى الحسبة) في وظائف الشك وأنفردت بالولاية » .

وهذه الإشارة الأخيرة من ابن خلدون طريقة وهامة وتحتاج إلى شيء من البيان والتوضيح . فنجد ظهر منصب « أمير الأسراء » في بغداد في سنة ٢٩٦ على يد مؤسس النظام أصبح صاحب هذا المنصب أو ما يماثله من الألقاب عام النظر في السيلة وشئون الحكم العملى ، وبقى الخلفاء الاسم والسلطة الروحية تحسب إذا صح هذا التعبير . وقد صادف هذا الانقسام قيام حال خطيرة في الأمصار الإسلامية الكبرى من أقصى للشرق إلى أقصى للغرب ، مثل غزنة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وطس ، وصرافس ، ومدن الأندلس إذ أخذت هذه المدن النظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة ، حافلة بالأسواق ، زاخرة بطوائف التجار ، وأهل الحرف والصناعات ، كما أخذت يثبات اجتماعية مختلطة تنزل فيها الأهواء ، والبدع ، والنحل ، والليول السياسية المتصارعة ، وللذهب الدينية المختلفة .

كانت هذه الحال وحدها تقتضى من ولاة الأمور في الدولة أو الدول الإسلامية سهرًا ويقظة حتى لا يضطرب حيل الأمن ويتم التوضى . فكيف وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ذوى ميول سياسية ، وتزعزعت مذهبية ، وكان كثير من أهل للذهب الدينية متصين لمذاهبهم مستعدين في سبيل نصرتهم لحمل السلاح وإزالة الهما . لقد كانت بغداد ميدانًا لعن دامية متصلة تارة بين الحنابلة وخصومهم وأخرى بين الشيعة وأهل السنة . كما كانت الشام مجالاً لنشاط الباشية للسلطة لأحكام الدين الإسلامى . وكانت القاهرة عرضة لمثل تلك العن بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية ، قد كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية القذافية . ومثل ذلك يقال عن مدن القرب والأندلس ، حيث كان كثير من ذوى الحرف والصناعات من أهل القعة ، وكانوا

في كثير من الأحيان ضالعين مع الملك المصرية التي كانت غنائب للبلين الساء في
شمال إفريقيا والأندلس .

الذي يواجه ذور السلطان هذه الحال على قول ابن خلدون حملوا الحببة عن
القضاء ، وصيروها وظيفة ملكية ، وبطلوا يد الخنثب على كل آت يمتكر في الماملات
والصناعات والتجارات ، وكل نزاع إلى الفتنة والفساد في الأرض وإطلاق راحة الناس ،
وتأفصال الحببة عن القضاء وصيرورتها أداة رقابة وضبط وتنفيذ سريع انضحت شخصية
الخنثب . ويحدثنا القريزي عن الخنثب في القاهرة فيقول « ولا يكون إلا من وجوه
البلين وأعيان السدين ، وله استخدام التواب عنه القاهرة ومصر (القسطنطينية) وجميع أعمال
البلية كتنواب الحكم وله حق المجلس يجلس القاهرة ومصر يوما بديوم ويطوف بوابه
على أبواب الحرف والمائش وينظرون للسكايل والوزن ، وللمختب النظر في دار
الخير ، ويختص عليه ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على اللبر ، ولا يحال بينه وبين مملكة إذا
وآها ، والولاية تشدسه إذا احتاج إلى ذلك . وجاريه ثلاثون ديناراً في كل شهر » .

ويحدثنا صاحب « فتح القليب » عن الخنثب بالأندلس فيقول « أما خطة الاحتساب
فيها عندم موضوعة في أهل العلم والعلم ، وكل صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشي بنفسه
وأكباً على الأسوان ، وأعرافه منه ، ويميزاته التي ين به الخبز فيد أحد الأعراف لأن الخبز
عندم معلوم الأوزان ، يرجع من الدم رخيص على وزن معلوم وكذلك قسن ، و ذلك
مصلحة قد يرسل للبتاع الصبي الصغير أو الجارية لرفعها فيستويان فيما يأتيانه به من السوق
مع المادق في مرفة الأوزان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسمه ولا يجرس الجزار أن
يبيع بأكثر أو دون ما حده الخنثب في الورقة ولا يكاد تخفى خيائته ، فإن الخنثب يدس
عليه صيا أو جارية يتناع أحدهما منه ثم يختبر الخنثب الوزن فإن وجد قصاً قاس طر ذلك
جابه مع الناس ، فلا تال عما يلقى وإن كثر ذلك منه ولم يقب بد الضرب والتجريس في
من البلد » .

وقد يابرت حركة التأليف والكتابة في الحببة هذا التطور مسيرة تامة . فهند ما كاتب

الحسبة تابعة للقضاء كان للزقون من القضاة يكتبون عنها على أنها باب من أبواب الفتنة فيذكرون شروطها وأحكامها وآدابها ضمن تأليفهم التقوية. وأجمع ما وصل إلينا من ذلك الفصل الذي عقده لأحكام الحسبة للآوردى للثوق سنة ٤٥٠ هـ ثم الفصل للمزول الذي كتبه في كتاب الإحياء الإمام النزالي للثوق سنة ٥٥٥ هـ.

وكلام للآوردى في الحسبة كلام فيه متسكن علم بمختلف المذاهب الإسلامية لعمده يزيد أن يرسم صورة للحسبة كما ينبغي أن تكون من حيث المراقبة لأحكام الشرع مع الوضوح والدقة والإيجاز. أما كلام الإمام النزالي فكلام عالم تصوف يريد أن يرسم صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه العالم الإسلامي على الإطلاق. وكلامه على الحسبة يجرى هذا الجرى، فهو غوامس على حكمة التشريع، كثير الاستشهاد بالقرآن والسنة والأخبار وما يقتضيه الفقه السليم وينشر كل ما يكتب فيفيض من روحه القوى وإيمانه السيق.

فلما اندرجت الحسبة في توطأف السلطانية كما يقول ابن خلدون، وحدث ما المنأ إليه من تقعد الأمور في الأمصار الإسلامية الكبرى، اتجه التأليف في الحسبة أجمعاً على ما يرى إلى ضبط الحال بتعريف من يتولى الحسبة أسرار الحرف والصناعات وما قد يأتيه أربابها من أمور النش والخدسة والتدليس وأكل أموال الناس بالباطل.

وقد وصل إلينا من تآليف للوضوعة في الحسبة والتي نحا أصحابها فيها هذا المنحى الواقعي كتب تزيد على عشرة عدا، أكثرها من مشرق العالم الإسلامي ومن مصر والشام خاصة وأقلها من المغرب والأندلس. وأهم المجموعة الشرقية كتب أربعة :

١ - كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة « لمبد الرحمن بن نصر النيرآوى الشيرآوى للثوق سنة ٥٨٩. والراجح أنه وضع هذا الكتاب بطلب من صلاح الدين الأيوبي للاستئانة به في الاحتساب على أرباب النش والصناعات وأهل القمة الذين كان حرامهم مع الفاطميين كما تقدم القول. والكتاب يقع في أربعين باباً وقد نشر في مصر حديثاً تشراً حسناً. وهذا الكتاب يتميز في الحقيقة أصلاً للمجموعة الشرقية بنى عليه كل من كتب بعد في الحسبة في الناحية الصلية.

٢ - فحمد بن محمد بن أحمد القرشى المصرى المعروف بابن الأخوة والثوق سنة ٧٢٩

قد وضع كتابه « معالم القرية في أحكام الحسبة » وهو يضمن كتابه هذا أبواب كتاب الشيرازي مع زيادة ثلاثين باباً وإضافات قديمة وملحوظات شخصية للفؤاد لها طرائقها التاريخية كاسيأتى .

٣ - ثم يأتى محمد بن أحمد بن بشار المصرى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى فيضع كتاباً في الحسبة يسميه كذلك « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » ويضمنه أبواب الكتاتين السابقين ويزيد عليها ثمانية وأربعين باباً وبذلك تم عدة أبواب كتابه ثمانية عشر باباً ومائة باب استوفى فيها الحسبة على ما يقرب من جميع الحرف والصناعات الموجودة لعهده. ويختلف الطوائف والميقات التى تقضى مصلحة الدولة مراقبتها عن طريق الاحتساب عليها .

٤ - والكتاب الرابع من المجموعة الشرقية هو كتاب « المختار في كشف الأسرار » لكتاب من كتاب الدولة الأرتقية اسمه عبد الرحمن بن أبى بكر الدمشقى ويعرف بالجزبرى وقد وضعه كما يقول فى المقدمة بطلب من السلطان مسعود بناد على ثلاثين فصلاً كلها فى التعرف بطرق القس والتدليس فى الصناعات المختلفة وما يقع من طوائف معينة من الناس من السخوة والاحتيال .

أما المجموعة الغربية فتشتمل على كتابين اثنين :

١ - كتاب آداب الحسبة لابن عبد الله محمد بن أبى محمد السقطى اللاتى الأندلسى للتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى وكتاب يشتمل على ثمانية أبواب فى الحسبة ضمنها أموراً غائبة بنفسه أثناء ولايته الحسبة بمدينة مالقة .

٢ - والكتاب الثانى عبارة عن رسالة وجيزة لمحمد بن أحمد بن عبدون التجبى الإشبيلية للتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى ؛ ضمنها ما يراه من وجوه الإصلاح لأحوال مدينة إشبيلية وذلك عن طريق الحسبة على موطنى الحكومة وأرباب الحرف والصناعات . وهو فى رسالته هذه يتندد بنش الصناعات وأهل الحرف وفساد ذم بعض الطوائف وأنحلال أخلاقها .

الكتب للذكورة مزية عقلية في دراسة المجتمع الإسلامي كما تصوره حياة المدن الإسلامية الكبرى في العصور الإسلامية الأخيرة، أي من قبيل سقوط بغداد إلى انهيار النهضة بخديثة في آخريات القرن الثامن عشر. ففي من الناحية الاجتماعية تصور ما انتاب العالم الإسلامي من أدواء وعمل وقتر مدقع، مما أدى إلى التفتن في النفس والتكسب بالهن النفسية والشعوذة والاحتيال حتى صار ذلك صناعة ذات أصول وقواعد وحتى أصبح مبدأ لكثير من الناس قولهم « الحيلة عليهم ولا الحاية إليهم ». ثم إن هذه الكتب تشتمل على ضد للمجتمع قذاع مثل قول ابن الأخرى في تحليل ترك الناس دولة الطب وإقبالهم على حراسة القفح فيقول « والطب من فروض الكفاية ولا قائم به (اليوم) من المسلمين وهم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل القمة . ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام (الطب) ولا يرى أحداً يشتمل به . ويتهاقن على علم القفح ولا سيما الغلايات والمجذليات ، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتمل بالتوى والجواب من الواقع . قلت شفى كيف يرخص الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإعمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولي القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط على الأعداء ؟ هيئات قد أندرس علم الدين : فافقه للشان ، وإليه للاداء ، بأن يبيدنا من هذا التورر الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان » .

ويقول ابن الأخرى أيضاً في ذم طاعة للوكلين بالخصومة أو الحامين من أهل زمانه « وأما الوكلاء . . . فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم في هذا الزمان فإن أكثرهم رقيق الذين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتسكون فيه بسبب الشرح فيوقعون القضية فيضج الحق ويخرج من بين يدي طالبه وصاحبه . فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل . فكان ترك الوكلاء في هذا الزمان أولى من نصبهم إلا أن يكون هناك امرأة لم تكن من ذوات الهورز فتوكل ، أو صبي لحينئذ ينصب الحاكم عنه وكلاء . »

ويقول الشيزرى في أسرار التعرّوط من الباطنية « ويقدم الحنطب إلى جيران كل مسجد

بالواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان لإظهار معالم الدين وإشهار شعار الإسلام ، سبيل هذا الزمان لكثرة البدع واختلاف الأهواء ، وتنوع الباطنية ، وما قد صرحوا به من تعطيل الشريعة وإبطال أحكام الإسلام ، فيجب على كل مسلم إظهار أركان الإسلام وإشهار الشريعة في مقابلة ذلك لتقوى عقائد العامة .

إن الكتب المذكورة تصور لنا في الجملة الحياة اليهودية في المدن الإسلامية الكبيرة فيصف الأشراف وحركة الضلّل وما قد يقع من متكرير يمارع المحتجب إلى إزلاته ، كما تصف مختلف الصناعات والحرف وصفاً دقيقاً .



ومنها يمكن لما من قيمة تاريخية ، فإن قيمتها القنوية هي الجديدة بالتنبؤ في هذا المقام . إن كتب الحسبة العملية التي وصلت إلينا تحوى عشرات على مئات من الألفاظ والمصطلحات الفنية التي جرى استعمالها منذ أربعمائة عام أو تزيد . ولا يورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال : يقول الشيرازي في باب الحسبة على الياقارة « وقد ذكر بعض الحكماء في كتاب البيطرة أن علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة منها الخناق ، والخناق الرطب ، والخناق اليابس ، والجنون ، وفساد الدماغ ، والصداع ، والحرق ، والنفخة ، والورم ، والمرة المائجة ، والديبة والخنكام ، ثم يحصى فيد أكثر من أربعين مصطلحاً لأربعين علة من علل الدواب » .

ويقول في باب الحسبة على الأطباء « وينبئ الطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على السكّال ، وهي كليات الأضراس ، ومكازي الطحال ، وكليات الملق ، وزواقات القولنج ، ومزكم البراسير ، ومخرط للناخير ، ومنجل النواصير ، وقالب التشمير ، ورماس التثميل ومفتاح الرحم ، وورار النساء ومكدة الحشا ، وقدرخ الشوصة ، وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب غير آلة الكتالين والجراخين مما يأتلف ذكره في موضعه » .

ومن المصطلحات التي اقتضتها من كتب الحسبة المذكورة والتي تشتمل نحن بعضنا على حياتنا اليومية : الجرجار بمعنى صداة القنّاس ، والقبان ، آلة الوزن المروقة ، والقرمة التي يقصب عليها اللحم والفتان (بمعنى التنبؤ) ودقيق الملاحة أو المرمك لدقيق لب الحنطة ، واللحم

الراقة المزينة ، والسك القات ، والسك العرى ، والبيض المذر والسك اللذر بمعنى
القاسد ، والزهني بمعنى السيل ، وأرض السيب بمعنى ثابط ملح من الثمن يظهر فيجب في
السلة (وهو من أرض الميراث على الفقه بمعنى ديتها) والطنجور القدر الكبيرة المتخلفة من
النحاس ، وهي تقابل لفظ (القزان) عندنا .



أما بعد فقد قام المشرق المولدى دوزى فى النصف الأخير من القرن لافى بجهد
مشكور ، إذ جمع طائفة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات العربية التى لم ترد فى النسخ العربية
ونشرها ، ولكن كم ترك الأول لآخرنا إن من حق الألفاظ والمصطلحات التى ذكرت
وأمثالها على عجبنا ، أن تجمع وتفسر ، ثم نقمن النجيين الكثير والوسيط . بذلك نكون قد
وسنا مساهمة ، وزدنا فى مادة ثمتنا ، وزدنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات اعتبارها .

ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها^(١)

أتى حضرة الأستاذ أحمد أمين فى افتتاح مؤتمر هذا العام بحفاقة موضوعه تضمن للعام العربية، وقد عرض حضرته أسباب هذا التضخم سبباً سبباً، وكان البحث منصفاً على هذه اللامع وما وقع فيه واضعها من أوهام وأغلاط أدت إلى التضخم للذكر . أما البحث الذى أشرف بإقامته اليوم فنصب على ناحية من نواحي نمو اللغة العربية إبان ازدهار الدول الإسلامية القديمة . والنمو غير التضخم ، فالتضخم علة تلحق الكائن إلى خضبه وتله وقد تودى بحياته . أما النمو فذليل محته ، وقوته ، وحيويته ، وقابليته للبناء . واللغة لاشك كائن حي ، وإذا كان الواجب يقتضى أن تتصرف علل لتنتج كالتضخم الذى تكلم عليه الأستاذ الجليل ، فأحرانا أن نتعرف ظواهر فنونها ونماذجها وحيويتها فنكون قد جئنا بين الحسنيين : بين التضخم من أسباب الملل ، والأخذ بأسباب القوة والنمو والحيوية وللغنى بالانتفاع بها فى إيمانها وإقامتها من عثارها .

وقد نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم : أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ م) والثانى أمر الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ م) بتدوين الحديث النبوى ، والثالث أمر الخليفة للأمن العباسى (١٩٨ - ٢١٨ م) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية . وسأتكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحداً واحداً مبيناً الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختتم كلامى بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل من حيث نهضة اللغة العربية فى العصر الحاضر .



(١) أتى هذا البحث فى المؤتمر السنوى للجمع فؤاد الأول لغة العربية فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

إن نظام الديوان نظام مستحدث في الدولة الإسلامية ، ظهر على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما تولت الفتوح وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة . فانتضت الحال اتخاذ نظام لتسييد أسماء للقائمة وقبائلهم ومبالغ إعطائهم ، فاستشار عمر ذوى رأى على عادته في كل أمر حازب وحدثهم . فأشاروا عليه بوضع الديوان .

ولفظ « الديوان » كاقول دائرة للمعارف الإسلامية قد يكون إراني الأصل وذات صلة بكلمة « دير » الفارسية ومعناها « الكتاب » . ثم أطلق في الفتوح العربية على السجلات التي تشتغل على حساب الأموال ، ثم أطلق في الدولة السليمانية على كل إدارة من إدارات الدولة كديوان الزمام وديوان الخاتم وعلم جراً .

وقد كَوَّن عمر لجنة لحدوث أسماء الجند وبين أنسابهم وأعطائهم على نظام اتفق عليه وبينه للاوردي في كتاب « الأحكام السلطانية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع في الدولة الإسلامية ، وكان يمرر بالبرية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان المال والجباية . وكان مقر ديوان الأموال هذه في عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تسجل فيها أسماء القرى وساحاتها ومقادير لرفعها وتوزيع ذلك على أهلها على هيئة خراج أو جزية ، وكان هذا الديوان يكتب في كل قطر بلغة أهل ، وكانت في السالب لغة الدولة التي كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامي ، فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يتولى شئون هذه الدواوين رجال من أهل الإقليم ، فكان رجال ديوان العراق من موالى القرس ، ورجال ديوان الشام من الروم ، ورجال ديوان مصر من الروم والقبط .

وقد ظلت دواوين المال والجباية تكتب في الأقطار المفتوحة باللغات الأجنبية للذكورة ويتولاها رجال من موالى القرس والروم والقبط حتى كان زمن عبد الملك بن مروان . وكانت القرية قد انتشرت بين الأعاجم وحذتها قوم منهم إلى جانب لغتهم الأصلية . ثم إن الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ في الميزان الدولى ، هذا إلى عصيتها الشديدة لكل ما هو عربى ، فلم يكن من الطبع أن تظل دواوينها تكتب بلغات غير العربية ، وأصبحت سياسة عبد الملك إلى تهريب إدارة الدولة ، وبدأ بالسلطة ففرضها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذرى بإسناد « إن عبد الملك أول من ضرب الذهب بدعام الجماعة

الحاشية ٧٤ . وضرب الحجاج الدوايم آخر سنة ٧٥ ثم أمر بضربها في جميع الدوايم سنة ٧٦ . ثم اتجهت حزيمة عبد الملك وعاطة الحجاج إلى ترميد الدواوين .

يزرى البلاذرى ظلاماً عن الحادثين عن أشياء في بيان السبب الذي من أجله قتل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالقراسية ، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زاذان فروخ بن يدي ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم يحفظ بين يديه بالقراسية والقرية فوصل زاذان فروخ سالماً بالحجاج وتحت على قلبه ، فقال له ذات يوم : إنك شبيه بالأمير وأراه قد استغنى ، ولا أكن أن يقدمني عليك وأن تسقط . قال لا تفعل ذلك ! هو أخرج إلى منه إليك لأنه لا يجد من يكتبه حجابة غيره . فقال والله لو شئت أن أحول المكتب إلى القرية لحولته ، ذل غول منه شطراً حتى أرى ، فصل ، قال له فعارض ! فعارض ، فبث إليه الحجاج طيبه ، فلم يبرح علة . وبلغ زاذان فروخ ذلك فأمره أن يظهر : ثم أن زاذان فروخ قتل في أيام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السكندى . . . فاستكتب الحجاج سالماً مكانه فاعطاه الذي كان جرى بينه وبين زاذان فروخ في قتل الديوان ، فزعم الحجاج على أن يحمل الديوان بالقرية ، وقد ذك سالماً . قال له مراد نشاد بن زاذان فروخ ، كيف تصنع بدعوى وشيشوية ؟ قال أكتب عشر ونصف عشر . قال كيف تصنع بريد ؟ قال أكتبه أيضاً ، والبريد اليف والزيادة تزداد . قال قطع الله أسلاك من الدنيا كما قطعت أصل القراسية ! وبذلك له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر السجز عن قتل الديوان ويمسك عن ذلك ، فبني وقته . فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در صالح ! ما أعظم منه على الكتاب . ويقال إن الحجاج أجل سالماً أجلاً حتى قلب الديوان . »

هذا عن قتل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضاً سبب قتله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ أمر بقتله ، وذلك أن رجلاً من كتاب الزوم احتج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء فبال في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بقتل الديوان ، فآله أن يبيعه بخراج الأردن سنة ، فقتل ذلك ، وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من قتله وأتى

به عبد الملك فذبح ببرجونه كانيه ، فرض عليه ذلك ، فغنه ، وخرج من جده كنييا ، فلقبه قوم من كتاب الحرم ، قتلوا عاتقوا الميتة من غير هذه الصناعة ؛ فقد عظموا في حكمنا قال : وكانت وثيقة الأرض التي قطعها له مائة ألف وثمانين ألف دينار .

أما ديوان مصر فيقول السكندري في كتاب « الإلهة والقضاة » في أمر قتل « وروجع الوليد بن عبيد الملك ... فأنظر أخاه عبد الله على صلاة مصر وبنيراجها وأمره بالدواوين فقصحت بالبرية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقطيعة ، وصرف عبد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن روجع القزاري من أهل حمص » (١) .

وهما يمكن ما نروييه للصادر من أسباب مباشرة لتعريب الدواوين ، فالتى لاشك فيه أن عبد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدى القسوة لكل ما هو عربى وأن هدة قد أجهت إلى تعريب إدارتها كأقدمنا ، استكمالاً لمظاهر سيادتها وتوفيرا لكرامتها .

وقد ترتب على هذا الحادث التاريخى الملم عدة أمور خطيرة : —

فالبرية القصصى أذنت ألقاظاً جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية ووريد ، ففى مثال لما حصل فاقبل على نطاق واسع وظهرت فى البرية ألقاظ كثيرة إما مربة أو منقولة عن أصولها الأبحمية للتمسك فى الحساب وللإساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل .

ثم إن الأعاجم ، مسلمين وغير مسلمين ، أقبلوا على تعلم البرية بمائل المصلحة الذاتية ، وذلك للانتظام فى أعمال الكتابة والحراج وما يتصل بهما ، ولسهولة التفاضل فى المنازعات التي كان ينظر فيها قضاء من العرب بطبيعة الحال . وبذلك لم يكد ينصرم القرن الأول للمجرى حتى كانت البرية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغلبت القباربية والبرومية والبطيعة على أميرها فأخضعت هذه القنات بتضائل وتضعف فى الأقطار للذكورة حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال .

(١) وإعلنا لهذا العرض التاريخى أقول إن السيد حسن حسنى صاحب العلامة التولى ومصر عم فؤاد الأول إله البرية أخبر أن ديوان العرب قبل من اللغة اللاتينية إلى البرية فى حوالى الوقت الذى عرفت فيه دولونى الشرق وأهم عنوانا فى معنى تولى العرب على دينار عربى من عهد الأمير موسى ابن نصير .

• وبانتشار العربية بين الأعاجم وانسلاخ اللغات الأجنبية ثم ذهابها ظهرت في الأقطار المفتوحة لمجات عربية شعبية محلية تدين لنا للعربية منها مجموعات البردى التي كشفت في مصر والتي تصاحب تاريخ مصر الإسلامي من أول الفتح العربي إلى القرن السادس .

• تشمل هذه الوثائق القليلة على رسائل صادرة من ولاية مصر مثل قرعة بن شريك وغيره وبعض للتمنين من العرب ومكتوبة بلغة عربية صحيحة فصيحة ، كما تشمل على عدد عظيم من وثائق البايكات والداينات ، عقود الزواج والتخليك والشئون اليومية . وهذه مكتوبة بلغة شعبية ميانة للقصى وفيها كثير من خصائص العامية المصرية المحاضرة ، من ذلك إبدال الضاد من الظاء في « احفض » بدلا من « احفظ » وإسقاط اللامزة رسما وضقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « وبعثا » بدلا من « وأيضاً » و « حدعشر » بدلا من « أحد عشر » وعدم الالباء بالإعراب فيقال « إثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » و« علم جرا . وقد نشر جانبا من هذه البرديات المحفوظة بدار الكتب المصرية الأستاذ للشرق أودولف جروهمان المنسوى في ثلاثة أسفار كبار طبعتها دار الكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنبه حديثا كتابا قيا في هذا الموضوع أسماء « من عالم البرديات العربية »^(١) .

• وأم النتائج التي ترتبت على تريب المداوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب وتبادل الآراء والأفكار في العالم الإسلامي الذي كان يجد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسي .

• نحذا عن تريب المداوين وما ترتب عليه من الآثار ؛ أما تدوين الحديث النبوي فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . بيد أن هذا التحرج لم يمنع قرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأغصهم لا بقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قرى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحيح . يروى الخطيب البغدادي في كتاب « تهذيب العلم » من ابن

(١) نمرته حديثا « جية الدراسات التاريخية للمصر » .

شهاب الزهرى أنه قال « لولا أحاديث تأتينا من قبل للشرق تنكروا ولا نعرفها ما كتبت حديثا ، ولا أذنت في كتابته » فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنة فكتبناها دفقا ودفقا فمئت إلى كل أرض له عليها سلطان دفقا » . ثم انخفض تأليف الكتب في الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب السنة المشهورة .

والذى نخصه بالملاحظة من هذه الظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هي طبقة عالية من البلاغة ، فأذنت السنة من تدوينها نموذجيا للعبارة البليغة مكن القصصى بدلالة التي بلغت بها القرآن الكريم أى تمكن ؛ وأن حرص المسلمين في كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدمين وبالغ عنايتهم بها أقام القصصى على المسلس ولسخ لا يتطرق إليه ومن ما دلم في الأرض مسلمون وإسلام .

ثم إن السنة المروية عن الرسول الربى تعد المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى ، ومن ثم وضعت كتب في الحديث مرتبة على أبواب الفقه كموطأ الإمام مالك وصحيح البخارى ، فكان منها مادة عظيمة غذت لغة الفقه الإسلامى وعلم الحديث وابتشت فيها تسميات ومصطلحات يعرفها من يطلع على الكتب المزودة في هذين السنين الجليلين .



ثم انتقل إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام وال عراق وسمر وجندوا في أسهل منها مدارس للسرمان والفرس والتبسط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان ، وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية في الشام وال عراق رغبة من السامطرة واليعاقبة في درسا بلسنتهم ومبائنة منهم في مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنيسة البيزنطية التي اضمحلوا عنها من الناحية الدينية ، وكان أكثر ما يدرس في هذه المدارس اللغة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة والطب والنجوم والكيمياء . وقد تجلوا كذلك كتباً عدة في الرياضيات وغيرها من الفارسية والهندية والتبعية والنبطية .

واشتهرت هذه الحائل في العصر الأموى وأخذ المسلمون يتعلمون شيئاً فشيئاً بهذا الجو

التي كان يسود بلاد الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأطاكية وقيصرية
ونصيبين والرها وجنديسابور، حتى دونوا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء
حتى راهب إسكندرية اسمه ماريانوس وأنه ألف في الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن
العباسيين الأوائل غزوات إقبال المسلمين على دولته هذه العلوم ، وكان الخليفة المنصور ولع
خاص بالعلم والتبحر ، فترجم له كتب في تعدين المعادن عن السريانية . وكان للبرامكة
أثر كذلك في تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء المأمون وكان ميالا بطبعه
إلى البحث الفلسفي وآراء المتوكل كالتفكير بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد ملك مثلها
جديدا بالرة ، إذ أنشأ في بغداد « بيت الحكمة » للدرس والبحث . والظاهر أنه أنشأ بيت
للكفة هذا على مثال مدارس السريان التي أشرف إليها ، ثم إنه أحب أن ينقل كتب
الفلسفة الإغريقية عن اليونانية وأب دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . وهدوي
ابن التميمي في « التمهيد » للبيب التي بيت المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى في
مقابلته أرسطوطاليس وأنه بعض الأساطير ، فلما عرض من نوبه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى
ملك الروم يثاله الإذن في إغاض ما يختار من الكتب القديمة المديرة بلاد الروم ، فأجابه
إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون فريق جماعة منهم الجعاج بن يعقوب وابن الهيثم ،
وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا عما وجدوا ما اختاروا ، فلما حموه إليه أكرم بقله
خفيل ، وجعل يعرض الناس على قراءة تلك الكتب ، وروغبهم في تعلمها كما يذكر ابن
العمري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » .

واتخذى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الراجحة والثروة في بغداد ،
فخطاير إليها المترجمون من أمراء العراق والشام وفارس ونهبهم الساطرة والعمانية والصائبة
والجوس والروم والبرامكة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والمندية والبطنية
واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على للاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك
ن أنه لم يتكد ينحى القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية .

ولقد كان أثر هذا النقل الواسع الذي عتيا بالإضافة إلى اللغة العربية قد نقل المترجمون
عنات الألفاظ الفلسفية والعلمية والكيميائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها
إلى ما يقابل في العربية وثاقين بعضها بفظه عما حمل علماء اللغة على أن يحصوه بتأليف

خاصة مثل كتاب « المرب والخيال » لجواليتي . ومما يمكن من شيء قد أفادت الفنة
الغربية مادة غزيرة مكنت النحلة والتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من أن يتناولوا مسائل
علومهم بلغة موثقة ، وألفاظ دالة على لماى الذى يريدون التعبير عنها .

* * *

أما بعد ، فإننا إذا اعتبرنا ما أوله تحريب الدولارين إلى الفنة الغربية في مجال المصطلحات
الإدارية والمالية ، وتدوين الحديث في مجال السنة والفقه ، وحقل كتب الفلسفة
والطب والرياضة والكيمياء في ميدان العلوم العقلية والطبيعية ، فإننا نجد أن الفنة الغربية
قد أصبحت في القرن الرابع عشر زائراً ، مما اقتضى وضع معاجم تجمع مادتها وتبين معانى
مفرداتها . وهذا كله بفضل ما أوتيت هذه الفنة نفسها من قوة وحيوية محيية ، ثم بفضل
السياسة التى انتهجتها الدولة ليزائها على النحو الذى يتناه .

ثم أختم كلمتى فأقول : ما أشبه الية بالبراحة ! فبعد أكثر من ألف سنة عادت الفنة
الغربية إلى شبه الحال التى كانت عليها في أزهى عصور الإسلام . لقد عربت الدولارين بعد
أن كانت تكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وإنجليزية ، ثم هاجم حتى حركة
تخل قوية عن اللغات الأوربية في مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم بمحنا على توفير
للمصطلحات الغربية اللازمة للإبحار . وكما كانت الغربية أداة للتفاهم وتبادل الرأى والتفكر
في الدولة الإسلامية القديمة ، فإنها بسبيل أن تصبح كذلك في عالم شرق حديث يمتد من
أقصى أندونيسيا إلى صراكش ، وهو لىرى عالم أوسع وأشمل من العالم الإسلامى القديم .
ولكن معنى هذا كله ترديد العبء الذى على أبناء العروبة وحالة لنة الضاد ، وأخص بالذكر
منهم رجال مجتمنا بالقرن . إن الآمال المتفردة بهم في جعل الغربية تنهض في المستقبل القريب
نهضتها في الماضى البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإننا ما تحققنا هذه
الآمال — وهى متحققة بإذن الله — فسيكون للغربية شأن أى شأن في نشر الثقافة العليا
في القارتين الآسيوية والأفريقية . والله ولي التوفيق .

أثر مصر

في الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر

البياسى الأول*

لم تكن مصر في نظر العرب عند ما أقدموا على ضمها سنة ١٨ هـ كثيرها من الأقطار التي ضحوها في نهضتهم العظمى ، بل كان لها في أختيتهم وخواطرم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام ، ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر في مواضع عدة ذكرها كريماً تارة بالتمريح وأخرى بالإشارة والتلميح ، فمن ذلك قول القرآن غديراً عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ١ » . وقوله غديراً عن يوسف عليه السلام « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . وقوله : « ولقد يرثينا بنو إسرائيل مبوءاً صدق » . وقوله : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقدم كريم ونسوة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » . وقوله : « ربنا إنك آتيت فرعون وماله ذينة وأموالاً في الحياة الدنيا » .

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيما تنويه بقدر مصر وخطرها وثرائها ، فإن السنة ذكرت مصر وتوعدت بأهلها خاصة لأسباب وردت في قصص الكتب المقدسة . فمن ذلك ما يروى من أن النبي (ص) قال : « إذا اقتحم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فمة ورحماً » وفسروا « رحماً » بأن هاجر أم إسماعيل عندها السلام كانت مصرية وأنها جدهم ولده إسماعيل الذي هو أصل عرب الحجاز ، فكان القبط أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية .

والمعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها

(*) بحث ألقى في الجمعية للدراسات التاريخية في ١٥ أبريل سنة ١٩٥٠ .

إبراهيم الخليل ، ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد وتأس موسى عليه السلام ، ومنها خرج بنو إسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم عليهما السلام .

فإذا ما صرنا إلى أخبار حرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجراً لم تعمل إليهم منها فيما يحمل الثياب المروقة بالذهب ، جمع قبطية ، وقد ورد ذكر هذا الضرب من الثياب في الشعر العربي القديم .

كل هذه الذكريات للتمتع من اللذات التي ذكرنا كانت تجول بخواطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر ، فلما لم فتحها فلا واختلطوا بأهلها ، وعابثوا نيلها السجيب ، وتربها النخلة ، وخيراتها الزائرة ، وآثارها الرائحة ، ووضعها الجفرا في القريد ، ودعة أهلها وانصرافهم إلى السمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ؛ كل ذلك جعلهم يرون أن قد صدق الخبير الخبير . فاطلقت ألسنتهم تشيد بمصر ، وخيرات مصر ، ونيل مصر ، ومحاسن مصر ، وجبلوها « جنة الدنيا » و « كنافة الله في أرضه » ، وقالوا « من أراد أن يذكر التردوس أو ينظر إلى منتهى الدنيا فليتنظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » . (ابن عبد الحكم ص ٥) .

ومن قبيل ذلك الوصف البديع الذي يقال أن عمرو بن العاص بث به إلى أمير المؤمنين عز بن الخطاب يصور فيه اختلاف مناظر الأفق للصري من لندن أن يكون مغشوراً بجماء القيصان ، إلى أن ينحسر عنه ليلاء ، وتحث الأرض ، وتخضر بالشب والنبات ، وتنضج الزروع ، وتنشوع ألوانها ، فيقول : « فينا مصر يا أمير المؤمنين لزوجة بيضاء ، إذا هي صبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء ، فبارك الله الخالق لما يشاء » .

والحق أن من بين الشعوب التي اختلفت حكوماتها على مصر لم يحب مصر ويقتن بها غير المصريين القدماء والعرب ، فقد بلغ من فتنة الأولين بها أن ألحوا وعبدوا نيلها وأرضها وسماها . أما الآخرون فتمتع دينهم من التورط في شيء من ذلك ، فراحوا يتفننون بحماستها في منشورهم ومنظومهم . وكل من هؤلاء وهؤلاء كان أطول أمداً ، وأعظم أثاراً في تاريخ مصر ، ممن دخلها قائماً مسيطراً ، أو متجراً مستمراً .

من أجل ذلك لم تلبث مصر أن استعالت قطراً عربياً إسلامياً في زمن أوجزما يجرى

في الحسان عادة . ذلك بأن الصلة الاستيرافية القديمة التي ترمز إليها قصة إبراهيم الخليل
وهاجر للمرية وولده إسماعيل أبي عرب الشمال ، لما غل من الحقيقة ، فأنصرون والعرب
هما في الحق أبناء بيته تكاد تكون واحدة ، والسلاسل التاريخية بينهما من غير التاريخ
مشبكة متصلة ، ثم إن مصر كانت قد تعربت إلى حد ما قبل الفتح العربي ، فجزيرة سيناء
كانت تسرها قبائل عربية انضم بعضها إلى جيش عمرو بن العاص في زحفه إلى مصر ، وفي
الجاليلية عبرت إلى مصر واستقرت على سواحل البحر الأحمر وفي شمال السودان قبائل عربية
ينص ابن خلدون على بعضها كقبيلة الكنز مثلا . فبدأ استتلاب وادي النيل سابقا
على الفتح العربي . ثم جاء الفتح وحصلت هجرات كبيرة أشهرها هجرتان ، هجرة القبائل الناعمة
مع عمرو بن العاص ، وأكثرها من عرب اليمن ، ثم هجرة قبيلة عدنانية كانت في خلافة
هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ ، وقد استقرت في الحوف الشرق ، ويقابل مانسيه الآن
بمديرية الشرقية . ثم يحدث الامتزاج فيستقر العرب في الأرض ، يزعمونها ويسلمون فيها ،
ويقبل القبط على التهرب بشكهم المريبة ودخول الملم الفتيق منهم في الإسلام . وبذلك
تصبح مصر قسراً عربيا إسلاميا يتمتع بخصائص مكنته من أن يشترك في الأحداث
الكبرى التي وقعت في الدولة الإسلامية عامة ، وها نحن أولاء نستعرض هذه الأحداث
ونبين مدى تأثير مصر فيها منذ الفتح حتى آخر العصر العباسي الأول ، أي إلى قرب منتصف
القرن الثالث الهجري .

ولكن نجلو المحاولات التي شاركت مصر فيها فحول إن حوادث الدولة الإسلامية
من قيام الخلافة إلى آخر العصر العباسي الأول تقع في ثلاثة ميادين كبيرة ، ميدان الفتح
المرية ، وميدان الأحداث السياسية ، وميدان الحركة الفكرية .

الفنوع الميرية :

كان المداء مستحكما ومتعللين الدولة الميرية الناعمة والدولة البيزنطية طوال العصر
للكور ، فكان الروم يحاولون لارتجاع ما قدوا من أملاكهم في آسيا وأفريقية ، وكان
... ناحتهم مضطرب إلى حد هذا المديان . ولقد وقم عب قال الروم في ذلك

العهد على الشام ومصر بحكم وضعها الجغرافي ، واضطلت مصر بتصميمها من هذا العهد اضطلاماً رائداً . كما كان لها أثر قوى في مد خلق الدولة العربية غرباً وجنوباً وشمالاً بعض جهودها ومولدها . إن مصر كانت في نظر الخلفاء باب اللرب والوسيلة إليه أقروا عليها في فتحه وبسط سلطانهم عليه . تلك نجد عمرو بن العاص فداء فراغه من أسر مصر يكر على برقة فيستول عليها سنة ٢٢ هـ . ويتبع ذلك بالاستيلاء على طرابلس سنة ٢٣ هـ . ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في غزو إفريقية فلا يأذن له على عادته في المنكث والقرى إزاء للشروعات الخطيرة ، ولكن عثمان بن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله الجديد على مصر فيحتاج إفريقية ، ثم يأتي عقبة بن نافع القهري فيؤسس مدينة القيروان ، ويكتسح شمال إفريقية ، كل ذلك بمجيش مصر ومولد مصر . ثم إن قامى اللرب من يد عقبة وخاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير قد مكثوا الدولة العربية في اللرب حتى سواحل المحيط بمجيش عربية غير مصرية ، ولكن مصر كانت دائماً رداً لهم تساعدهم بأسطولها ومالها . وحتى الأندلس الثانية قد اشترك جند مصرى في تهدئة أحوالها ضمن حملة كلثوم بن عياض القشيري ، ونزل هذا الجند للصرب كورة تدمير التي سميت « بمصر » إشارة إلى أن الجند الذى نزلها أصله من مصر .

هذا في اللرب أما في الجنوب فقد غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بلاد الأسود سنة ٣١ هـ ويريدون بها التوبة ، وكانت الحرب عنيفة استبيل فيها العرب والسودان ، فنجح ابن أبى سرح إلى السلم ، لما رأى من شجاعة السودان وبراعتهم في الرماية في الوفة للروقة يوم دقة ، فقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة .

أما في الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية . وكان معاوية بن أبى سفيان حريصاً على إدراك هذه الغاية ، وتوسل إلى ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية في سواحل الشام والاستعانة بالأسطول للصرب والاستيلاء على جزائر البحر الأبيض الشرقية . وافتتح معاوية برنامجاً سنة ٢٨ هـ بالاستيلاء على قبرص ثم كانت الوفة البحرية للروقة بذلت الصوارى سنة ٣٤ هـ في أواخر عهد عثمان . قالوا إن الأمير اثور قسطنطين سار في أسطول ضمن يريد به التجمع ماقد ، إما الشام أو مصر ،

فسارع الأسطولان الشامى والمصرى إلى لقاءه . وكانت الرقعة بين الفريقين على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، فانتصر للمصريون انتصارا حاسما ودمر الأسطول البيزنطى وعاد الإمبراطور مغلولاً فقتله بعض أتباعه بجزيرة صقلية جزاء له على تلك المزعجة الشتماء . وفى سنة ٤٤ أغزى معاوية الأسطول الشامى جزيرة رودس ، واشترك فى النزول الأسطول المصرى بقيادة عقبة بن عامر الجهنى ، ففتح رودس عنوة (البلاخرى ٢٤٤) وفى سنة ٤٩ كانت الحملة النبطية التى أمدتها معاوية لنزول القسطنطينية ، وغزا فيها ابنه يزيد وعدد من الصحابة فيهم أبو أيوب الأنصارى . وقد اشترك فى هذه الحملة الأسطول المصرى بقيادة عابس بن سعيد الرادى . (الكندى ص ٣٩)

ويدخل فى هذا الصراع عمل مصر على انتزاع جزيرة قبريطس من أيدي الروم . وذلك قصة طريفة ، فقد ورد على مصر فى أوائل القرن الثانى جماعة من مهاجرة الأندلس ممن أجلاهم الأمير الحكم لقيامهم بشوة الربض المشهورة ، فولى بعض هؤلاء المهاجرين وجعه شطر مدينة طاس التى كانت تؤس فى ذلك الوقت فأزلم إدريس بن عبد الله بها واضع يكتائبهم فى الصناعات المختلفة . أما سائر المهاجرين فاجابوا البير شرًا حتى بلنوا مصر فى وقت اضطراب أمورها بالفتنة بين الأمين ولأأمون . واستعاضوا احتلال الإسكندرية بضع عشرة سنة إلى أن قدم عبد الله بن طاهر واليا على مصر من قبل لأأمون ، فحاصرم بالإسكندرية حتى نزلوا على حكمه ، ثم إنه أعانهم بسفن ومال وسلاح فساروا إلى قبريطس سنة ٢١٢ هـ فاحتلوها بزعامة أبى حفص عمر بن عيسى الأندلسى .

المؤتمرات السياسية :

من ذلك نرى إلى أى حد أسهمت مصر فى حركة الفتوح الإسلامية الكبرى فقد قامت فيها بدور كان حاسما فى أمر الغرب والسودان ، وخطيرا بالإضافة إلى الحروب العربية البيزنطية . وقد جرت مصر فى ذلك على المألوف من تاريخها قديما وحديثا . ففى وسعها كلما تهيأت لها الأسباب أن تصبح قوة من قوى البحر للتوسط بحسبها فى الليزان الدولى كل حساب . ولم يكن ممكنا أن تظل مصر وقد انضمت مكائنها فى الفتوح الكبرى ببناءى عن

يجرى الأحداث السياسية والاخلاقيات العامة التي رجّت الدولة الإسلامية رجاً عتياً ، ولحق
أما نلحظ أثر مصر بارزاً في أشد هذه الحوادث وأحرجها . ولنبداً بالفتنة الكبرى التي كان
أقلم أحداثها مقتل الخليفة ثالث عثمان بن عفان .

لا نريد أن نخوض في هذا المقام في أسباب هذه الفتنة فقد اختلطت فيها العوامل
الاقتصادية والاجتماعية بصية القبائل العربية على قريش . ولكننا نبادر إلى القول إلى أنه
قد يكون محباً من العجب أن تشرك مصر في هذه الفتنة وأن تبوء هي الجانب الأكبر من
إنعائها ، مع أنها في ذلك الوقت كانت أرغد أقالم الدولة الإسلامية حالاً وأحسنها إدارة
ونظاماً . غلطة صدرت عن السياسة العليا هي في نظرنا السبب في انقلاب مصر على عثمان ،
فكان عزل عثمان لسرو بن الدس عن مصر وتوليته مكانه أحد أقربائه وهو عبد الله بن
مسعد بن أبي سرح ، وعمره رجل خضع ضربه ، يرجى لشر كما يرجى للخير . ولم يظن
الخليفة الثالث لذلك عندما عزل عمرأ عن مصر ، كما ظن له من يد معاوية . أجل ! فقد
أقام عمرو على حدود فلسطين يقرب الأحوال ويؤلب على عثمان في الحجاز وفي مصر .
ثم يضاقم الخطب ، ويتبع قرن الفتنة في غزوة ذات الصولرى نفسها ، وتلي مصر دعوة
الدارعين إلى الجهاد ، لا فيا وراء الثغور ، ولكن في المدينة نفسها ، فخرج من مصر
عصابة مؤلفة من ٥٠٠ رجل فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى وكنانة بن بشر التميمي
ومحمد بن أبي بكر الصديق . ويحاولون إقناع الخليفة باعتزال الأمر فيأبى ، فيجرون عليه
ويحاصرونه في داره ، ثم يقتحمونها عليه ويقتلون الشيخ المرم والصحابي الجليل وهو يقرأ
في مصحفه (١٨ ذى الحجة سنة ٣٥) . ويعود للمصريين إلى مصر بعد أن ولوا على
ابن أبي طالب الخلافة ، عانوا وم يرتجزون :

خذها إليك واحذرن أباحسن إنا نمر الأمر لإسار الرمن
ونظن للأك بلين كانشطن بالسيف كي نحمد نيران القمن

ولكن الرواية لم تتم فصلاً ، لقد انصعدت بمقتل عثمان وحدة الدولة الإسلامية
واقسمت إلى معسكرين متعادين ، معسكر على ومحبيه ، ومعسكر معاوية وحزبه .
وتقد أخذت مصر جانب على بطبيعة الحال في هذا الصراع العنيف ، وجالت تتقبل
علاء راضية ، ولكن معاوية كان أدهى من ألا يظن إلى أهمية مصر وضرورة حصولة

عليها ، فأخذ يشجع الأتلية المروقة فيها بالبنانية ، كما جعل يشعل من حال على على مصر الواحد تلو الآخر ، بالحمية تارة وبالاغتيال أخرى ، إلى أن ظهرت نتيجة التحكيم ولم تكن في مصلحة على ، فأرسل معاوية سنة ٢٨ عمراً إلى مصر على رأس جيش فانتزها من يد محمد بن أبي بكر عامل على ، وكان ذلك بدو قصة هائلة تعرف يومئذ بالسنة ، عددا عمرو أمول وقصة خاض غمارها على كثرة ما شهد من الواقع من قبل . وتظهر فرقة الخروج ، ويجمع نثر منها على اغتيال الثلاثة الذين كانوا في نظرم سبب كل البلاء . وم : على ، ومعاوية ، وعمرو . ويقتل على ، وينجو معاوية وعمرو ويستمر أمر الخلافة لمعاوية في سنة ٥٤١ .

ولكن مصر تخفى في خاصمة الأمويين ، فندما اشتد الخلاف بين آل الزبير وبين أمية أخذت مصر بجانب عبد الله بن الزبير وبايت بالخلافة . ولكن ما هي إلا أن انتصر مروان بن الحكم في وقعة المريج للشهيرة سنة ٦٥ حتى أسرع مروان إلى مصر وانتزها من عامل ابن الزبير .

ودان للمروان للأمويين مكرهين ، فلما ظهرت الدعوة الباسية بث دعائها الدعوة للباسيين بمصر ، فاستجاب لها المروان بوجه عام ، ذلك بأن للتأخرين من خلفاء بني أمية جنوا النصر العربي المبني الذي كان يشد ملكهم ، فأخوف عنهم الباسيون ، وم جبهة عرب مصر . وظهر أثر ذلك في وقعة الزاب التي هزم فيها مروان بن عبد ، وفر على أرها إلى مصر وجيوش الباسيين تتعقبه . ولقد أجمع المروان على منع مروان من دخول مصر فاضطر إلى دخولها عتوة ، ولكنه كان قد تقطعت به الأسباب فأدركه الباسيون في بومير من أعمال الأشمونيين وقتلوه . ولأن المصريين لم ينصرفوا عن الأمويين وقاموا في نصرتهم قياما حسنا لتخدير مجرى الحوادث في أغلب الظن تديراً كبيراً .

• • •

لم يكد الأمر يستمر لبني الباس حتى دهمتهم ثورة عظيمة قام بها العلويون من بني الحسن بن علي بن أبي طالب ، قد رفع لواء الثورة بالحجاز سنة ١٤٤ محمد بن عبد الله الحنفى العلوى للقب بالنفس الزكية ، وثار أخوه إبراهيم بن عبد الله بالمراس . وقام الأمر واشتد الخطب على الخليفة المنصور وتجرده فجرداً تاماً . وبث الدعوة في مصر للعلويين

فلتجلب لها المصريون . وخاف للتصور اتصال الحركة العلوية المصرية بالحركة العلوية بالمجاز ، فأمر بعم خليج أمير المؤمنين للوصول بين النيل والبحر الأحمر . ولكن حركة العلويين بالمجاز والفرق بامت بالقشل وغلب الزعيان العلويين على أسرها وقتلا . عند ذلك انتهت الثورة العلوية في مصر (سنة ١٤٥) .

ولما وقعت الحرب بين الآخرين الأميين والأمنون انقسم المصريون حزبين أحدهما مشايخ للأميين والآخر للأمنون . ووقعت الحرب فلا بين الحزبين ولم تنطفي جذوتها في مصر إلا عندما بلغ المصريين مقتل الأميين سنة ١٧٨ . ولكن لنصرين لم يلبثوا أن تاروا بالأمنون وخلوه عند ما يلتمهم نيا أخذه اليمية بولاية العهد للإمام على الرضا العلوي ، فلما يلتمهم موت على الرضا وانخذال إبراهيم بن المهدي الذي ادعى الخلافة في بغداد أخذوا إلى السكون .

بقى الحدث الأخير والمطير . قد قامت الدولة البلبسية على اكتاف الموالى من مجرم فارس وخراسان ، والواقع أن انتصار البلبسين على الأمنيين كان انتصاراً للجسم على العرب وإذناً بذهاب نفوذ العرب السياسي ولا شك أن ذلك كان الحافز الأول لتورث العرب طوال العصر البلبسي الأول في العراق والشام ومصر ، وإن اتخذت هذه التورثات صوراً شتى كما رأينا . ثم يأتي الخليفة لتتصم فيكيل لتنفيذ العربى الضربة القاضية . وذلك بعد أن تكامل له جيش تركى قوى ، فيسقط العرب من الديوان ، ويأمر بقطع خطاهم . وكتب بذلك إلى عامله على مصر نصر بن عبد الله اللقب بكيدر ، فأخذ كيدر أمر الخليفة . يقول الكندي : « ولما قطع الطاء خرج يحيى ابن الرزير الجروى في جمع من غلم وجذام وقال هذا أسرا لا تقوم في أفضل منه لأنه مننا حقنا وفيأنا واستمع إليه نغوم من خميسة رجل » . ولكن كل هذه التورثات إن كانت قد تمحضت عن شئ فإنما تمحضت عن تحول خطير في وضع مصر السياسي . لقد شعر المصريون بقوتهم وتنبه وعيهم القومى ، فأخذوا يصلون على الاستقلال بشئونهم الداخلية على أقل تقدير ، والدليل على ذلك أن أسرة عربية مصرية تعرف بآل السرى بن الحكم تولت أمور مصر بإجماع جند مصر اثنتى عشرة سنة (من ٢٠٠ إلى ٢١١) فكان ذلك تمهيداً لاستقلال مصر فعلا عن الدولة البلبسية وقيام الدولة الطولونية في سنة ٢٥٤ هـ .

الحركة الفكرية:

لا شك أن الحركة الفكرية من أجل حوادث القرون الثلاثة الأولى من حياة الدولة الإسلامية ، وإنا نستمتع بالثراء الضخم الذى خلقه لنا ذلك العصر الزاهر فى ميدان العلوم والفنون والآداب الإسلامية ، نعم إن الحركة الفكرية تزدحمت فى الشام وال عراق بحكم أنها كانتا مقر الخلافة الأموية والعباسية . ولكن ينبغى ألا تنشط مصر نصيبها من هذه الحركة ، فالحق أن التسعاط قدت بيئة غنية تذكركم بالبصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة تدرس بها علما الحديث والفقه كما تدرس الآداب الغربية .

أما الحديث فقد حفظ مصر عدد كبير من أجلاء الصحابة الذين أدركوا (رسول) (صلى الله عليه وسلم) وشرفوا بصحبته والسماع منه ، فكانوا رولة لعدد كبير من الأحاديث روى عنهم ثم دون يد ، من هؤلاء عمرو بن العاص وقد روى عنه أكثر من عشرين حديثاً ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، روى عنه أكثر من مائة حديث ، وعبد الله بن عمرو بن الخطاب ورووا عنه ثمانية أحاديث ، وأبو أيوب الأنصارى ولم عنه تسعة أحاديث ، وقيس بن سعد بن عباد ، وجابر بن عبد الله الأنصارى ، ورووا عن كل منهما أحاديث غير مئتين العدد ، وقضاعة بن عبيد الأنصارى ، ولم عنه نحو عشرين حديثاً ، وعقبة بن عامر الجهنى الذى تولى إمرة مصر ولم عنه نحو مائة حديث . ويبنى ابن عبد الحكم فى تاريخه بالنص على ما تفرد هؤلاء بروايته من الأحاديث وما شاركهم فيه فيقيم من محدثي الأقطار الأخرى ، وهو بحث على طريف . وبذلك أسهم المصريون فى جمع سنة الرسول (ص) وهى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن ، فلما ابتنى تدوين الحديث النبوى بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت الرواية للصربية ذات محل بارز فى كتب الحديث التى ظهرت ابتداء من القرن الثانى الهجرى .

والتراث والحديث مما عادة لثقافة الإسلامى الأساسية ، ولا شك أن اشتغال المصريين بهما كان مؤدياً لاهتمامهم إلى اشتغالهم بالثقافة ، فإذا تذكرنا أن نظاماً محكماً للقضاء قد قام فى مصر الإسلامية من أول الأمر ، وأن القضاء كان لا يتولاها فى الصدر الأول إلا فرسانهم فى العلم بالكتاب والسنة والتأديرون على الاجتهاد والاستنباط ، فقد تبين لنا أن وسائل الدراسة العلمية قد

تسكنت وساطتها في مصر في زمن ميكر لا يكاد يعدو أوائل القرن الثاني ، وذلك مستفاد من
 بطور طاحنة كبيرة من أئمة الفقهاء الذين وضعوا دراسة الفقه مكانا عليا . نخص منهم
 بالذكر « الإمام الليث بن سعد » المتوفى سنة ١٧٥ ، وكان فيه مصر وعالمها ، وله بقا شتة ،
 وكان له اتصال بالإمام مالك ، يكتبه في مسائل التشريع ويحاجه ، ولقد عرض عليه الخليفة
 للصور ولاية مصر فأباه . ثم « أبا محمد عبد الله بن وهب » المتوفى سنة ١٩٧ وقد شهد له
 الإمام مالك ، وكان يكتب إليه « إلى قبة مصر ... » ثم « الإمام الشافعي » المتوفى سنة ٢٠٤
 وله بزة من أرض الشام وتقل في الأقطار الإسلامية ، ولقي الإمام مالكا ، وأخذ عنه
 « للوطا » ورحل إلى الرافق غير مرة ، ودون مذهبه هناك ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩
 واستقر بها ، وفيها كتبت موالهبة الفقيه ، وأمل على تلاميذه يجمع النساط كتبه الجديدة
 التي يبيع عنها « بالقول الجديد » ويجمعوا « كتاب الأم » ، وهو للذهب الذي أداه إليه
 اجتهاده في مصر .

ثم « أبا محمد عبد الله بن عبد الحكم » المتوفى سنة ٢١٤ وقد بلغ هو وابناه محمد
 وعبد الرحمن صاحب « كتاب فتوح مصر » منزلة عالية في العلم والجاه ، وكان صديقا لشافعي
 وعليه نزل الشافعي حين جاء مصر فأكرم مشواه وبلغ النهاية في إكرامه .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن محمد بن جرير الطبري ، شيخ للزوخين
 والفسرين وقد حل مصر مرتين في سنتي ٢٥٣ و ٢٥٦ وكتب عن علماء القساط ، وجرى
 له فيها نواذر ذكرها ياقوت في ترجمته .

ولقد كان موقف علماء مصر من مسألة القول بخلق القرآن مشرفا لهم . فقد امتنعوا
 عن متابعة للأمن وللتعم والرواق في القول بخلق القرآن ولقوا من جراء ذلك الزل والحبس
 والتشهير ، ولكنهم احتلوا كل ذلك في صبر وإباء حتى انجابت الفتنة بمجيء التوكل وأبطله
 امتحان الفقهاء والعلماء في مسألة القول بخلق القرآن .

ذلك مبلغ تقدم العلوم الشرعية في مصر حتى الثلث الأول من القرن الثالث الهجري
 وهو تقدم لا شك عظيم . ومشاركة من مصر في تحرير علوم الحديث والفقه ذكر لم يميز
 الإيجاب .

أما الحركة الأدبية فلم تبلغ في مصر مبلغ العلوم الشرعية إلا أن مصر أنجبت شعراء

بلقاء لم تصل إلينا دواوينهم كاملة للأسف أمثال مُتلى الطائي ، وسعيد بن خنيزم أنها
اجتذبت إليها طائفة من كبار شعراء العراق أمثال ابن قيس الرقيات وأبي نونس ، ولا
نفس أن الشاعر المبدع أبا تمام الطائي نشأ وتأدب في جامعة القضاة .



فذلك مبلغ ما أسهمت به مصر في الأحداث العامة في الدولة الإسلامية حتى تتمم
القرن الثالث ، ومنه تبين أن مصر شاركت في كل مناسخ الحياة العامة من حيث الفتح
الحربية والحوادث السياسية ، والحركة الفكرية ، وكان ذلك مما أبرز شخصيتها وكشف
عن جلاله قهرها وخطرها وحيالها السيل إلى أن تصبح بعد في العصر العباسي الثاني دولة
إسلامية قوية أثرت في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ العام أبلغ الآثار . وموعداً لبيان
ذلك بحث آخر ومقام آخر إن شاء الله .

القسم الثاني
المغرب والأندلس

موسى بن نصير

١٩ - ٥٩٨

هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير قاضٍ للرب والأندلس ، وناشر الإسلام والفتنة العربية فيها وللهد قيام الحضارة الإسلامية في عذبة القلبر بن القليلين .
وشخصية موسى بن نصير يحفلها القنوض من كثر من وأحبها ، كما أن سيره تناولها القصاص فأعلاها قصة للخيال منها حظ غير قليل ، ولكنا نقصر حديثنا على القاب للقتن من أخباره .

كان أبوه نصير من قبيلة بكر بن وائل العربية العراقية ، أسره خالد بن الوليد في وقعة عين التمر سنة ١٢ مع قتيان آخرين كانوا في بية يملكون الإنجيل ، والظاهر أن نصيرا أسلم غداة الأسر ، ثم انتقل إلى الحجاز ودخل في قبيلة علم الجبية ، وتزوج منها المرأة ورق منها ابنة موسى في سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب . ثم نجد نصيرا بدأ في الشام على خيل معاوية ، فلما عزم معاوية على الخروج لحرب على بن أبي طالب لم يخرج معه نصير تخرجاً ، وقبل معاوية عذره ، ولم يكرهه على الخروج معه .

عاصر موسى في صباه أحداثاً جساماً ، منها مقتل الخليفة عثمان ، والحرب بين على ومعاوية ، وثورة آل الزبير . وكان في موسى طموح وتطلع إلى المجد شديد ، فلم يخرج على سنة أبيه من البعد عن السياسة ومخرجاتها ، بل خاض غمارها ، فأخذ جانب عبد الله بن الزبير ، واشترك في وقعة الراج بالشام سنة ٦٤ ولما انتهت تلك الوقعة الكبيرة بهزيمة أنصار ابن الزبير وانصار مروان الأموي وحزبه ، كان موسى من بين الذين أرسل مروان ضرب أعتاقهم من أنصار ابن الزبير ، ولكن موسى استجار ببعد الزبيرين مروان فشفع فيه لدى أبيه لما رأى من عقل موسى ولبه ، وقبل أبوه شفاعة . وأصبح موسى من ذلك

الوقت حتى آخر حياته من أشد أخصار الأمويين إخلاصا لم ولدتهم .

ويشمل الخلافة بعد مروان ابنه عبد الملك ، فيظهر موسى على مسرح الحوادث مرة أخرى ، ولكن في العراق لاقى النشام ، وفي البصرة باقتات . فقد تدخل أول الأمر في المناقشات الحزبية الناشئة إذ ذاك بالبصرة ، مما يدل على أنه أصبح شخصية ملحوظة وذلك اعتبار خاص ، ثم يوليئه الخليفة خراج البصرة فيتهم بأنه احتجب مالا من مال الدولة وتشتد عليه وطأة الحجاج أمير العراق بإحراز من الخليفة ، ولا ندرى مبلغ هذه التهمة من الصحة فقلما راجعة إلى الحزبات الحزبية الناشئة إذ ذاك في العراق . ومهما يكن من الأمر فقد فر موسى إلى مصر واحتسب مرة أخرى بيد العزيز بن مروان . ويخف الأمير إلى الخليفة وسه موسى ، وتسوى المسألة بأن يحمل الأمير عن موسى نصف المال المطلوب ، ثم يعود إلى مصر وسه صاحبه .

في ذلك الوقت ، أي في أواخر العقد الثامن من القرن الأول الهجري ، اضطربت أحوال المغرب وانتفضت البربر وفسدت أمور ذلك الأفليم ، هذا إلى أن المغرب الأقصى لم يكن قد ضاع بعد . فرأى عبد العزيز بن مروان ، وكان إليه أمر المغرب ، أن ليس لإصلاح هذه الحال غير موسى بن نصير فولاه عليه ولاية عامة في سنة ٧٩ هـ على أرجح الأقوال ، وبذلك الولاية شرع موسى يخط صفحة مجده ويخارقه الباقي على الزمان .

كان موسى إذ ذاك قد استحكمت سته ، ونضجت مواليعه ، وتمت تجاربه ، فأقبل على عمله فاضخم بهمة عظيمة ، وعزيمة متقدة ، مستجيبا في جميع أمره بأبوابه النجباء عبد الله وعبد العزيز ومروان ، ورجال من البربر اصطفاهم واصطنعهم بصفة الولاء أشمل طارق بن زياد وطريف ابن مالك . قمع فتنة البربر في شيء من العنف والشدّة ، ثم استسلم بعد إلى الإسلام فأسلموا وتكلموا العربية ، ثم حل بهم وبالعرب على المغرب الأقصى فتبعه ونشر فيه الإسلام واللغة العربية ، وغلط البربر بالعرب وعالمهم جميعا سائلة واحدة ، وهي سيلة حكيمة لم تكن إذ ذاك متبعة في الشرق . وبذلك أصبح تحت يده قوة عظيمة جعلته يد عينيه إلى

ما وراء خليج الزقاق ، إلى إسبانيا . ولكنه يرى أن القرصة في أمر إسبانيا لم تنجح
بعد ، فيترك أسرها مؤقتاً ويورد إلى مقر إقامته بالقيروان ، فأركا مولاه طارق بن زياد
في طنجة وسه حامية قوية ليرقب الأحوال وينص إلى ما يحس أن يكون من
تطور الأمور .

كانت إسبانيا إذ ذاك تحت حكم القوط ، وكانت في حال اضطراب سياسي وانحلال
عام . يتنازع الملك فيها فريقان ، فريق يمثل الأسرة المالكة للشريعة وعمل رأسه رجل
يقال له بيلان وفريق آخر يمثل « قديري » القديس اغنصيب الملك اختصاماً . فبدأ يمثل الفريق
الأول إلى طارق يستنصرونه النصر ، ويهتفون عليه أمر الأندلس ، فأعلم طارق على
مولاه موسى ، فأدرك موسى أن القرصة في أمر إسبانيا قد أمكنت ، وكتب إلى الخليفة
الوليد بن عبد الملك يستأذنه في غزو إسبانيا ، فجاء الرد بالإذن على أن يلتزم الحيلة
والاحتراش الشديد .

وعمل موسى بما أشار به الخليفة ، فاختر السواحل الإسبانية بالسرياء ، مرة إثر مرة
لجأت نتيجة اختياره مشجعة له على الشروع في الغزو ، فسير طارقاً على رأس جيش قوي
أكثره من البربر وأظه من العرب ، فدخل طارق بالصخرة التي عرفت بعد « جبل طارق »
ثم تقدم غرباً والتقى بطريق في وقعة البحيرة في رمضان سنة ٩٢ ، فهزم الفريق ويقتل فيها
يقال وينتصر طارق انتصاراً حاسماً ، ثم يزحف طارق من قوره نحو طليطلة عاصمة الدولة
القوطية فيدخلها عنوة .

عند ذلك يرى موسى أن قد آن أن ينهض بنفسه لإتمام ما شرع فيه من الفتح
وليتضاد ما يحس أن يحل بطارق وحيد بعد أن أوغل في أرض العدو . فركب البحر في
سنة ٩٣ في أسطول كان قد أخذ في إعداده عند تسيره طارقاً وسلك طريقاً غير الطريق التي
سلكها طارق ، وفتح مدناً عظيماً ثم التقى بطارق في طليطلة ، ثم سار معه طارق يفتح
الأقاليم الشمالية الشرقية حتى بلغ جبال اليرانس المجاورة بين إسبانيا وفرنسا .

والعجيب من أمر موسى ، وهو شيخ قد أربى على السنين ، أن يهيم بأن يبرح جبال

البرانس ويسير مشرقاً ، فاتحاً كل ما يعترضه حتى يستول على القسطنطينية ويأتى دار الخلافة بالشام .

ويبلغ هذا الحلم مسامع الخليفة ، فيرى فيه بطيئة الخال إسرائيلاً وتريراً ، فيستدعى القاهرين موسى وطارقاً من فورهِ إلى الشام . فلا يسع موسى إلا أن يصعد بالأسر فيخرج سنة ٩٥ قاصداً الشام ، ومعه من الثنائم والسبي والأسرى ما لم يسع بمثله في تاريخ القنوج المصرية .



كان من حق هذا القابع للظفر والشيخ الكبير أن يتم في البقية الباقية من عمره بضعة مناسك وأدعية ، ولكن أبت عليه الأقدار ذلك . قالوا : إنه لما بلغ موسى في طريق عودته فلسطين كان الخليفة مريضاً مرضاً شديداً ، فكتب إليه ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه عدم العجة في السير حتى يتروى الخليفة ، فخصير إليه الأموال التي مع موسى . ولكن موسى أسرع السير وقدم على الخليفة قبل وقته بثلاثة أيام . فلما تولى سليمان الخلافة أراد الاضطلاع بمن موسى لمصيبة أسرهِ ، فأقبل يحاسبه حساباً حديداً ومطالبه بأموال جسام فحجز موسى من أدائها فجعل ينفذه ، فلم ين موسى استجار يزيد بن العلب وكان أميراً لدى الخليفة الجديد ، وسوى الأمر بأن التدى موسى تحت بحال عظيم يؤديه ما عيش . وظل موسى ينفذين لومه من عظم وأحياء الحرب على أداء ما لزمه به حتى أدركه الموت في إحدى قترى سنة ٩٨ هـ . وقد هلت نكبة موسى هذه من سيئات الخليفة غلبان بن عبد الملك ، وكانت في الحق كثيرة .



هذا هو الجانب الأعم والأشهر من سيرة البطل القابع موسى بن نصير . غير أن لهذه السيرة جانباً آخر لا يقل طرافة عما ذكرنا . فالرواية تصف موسى بالعدل والورع والتقوى والشجاعة ، وبأنه لم يهزم له جيش قط ، وتصفه بطلاقة العبارة والقدرة على قول الشعر الحسن . وبالإحاطة بالمعارف السلطانية من حرب وإدارة وسياسة ، وتصفه بفرق ذلك كله بأنه تابعي جليل روى الحديث عن نعيم الهاربي ورواه عنه هو آخرون . ولكن أسراً واحداً

هو سر نجاحه وعظمته ، ذلك حرصه على القيام بواجبه ، ففي سبيل الواجب قام بما قام به من الفتوح العظام ، وفي سبيل الواجب اجمل ما اجمل من الأذى والضّر .

قالوا : إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ! في كم كنت تمتد ، أنت وأهل بيتك ، من اللواتي والخدام ؟ » أنكروا في ألف ؟ قال : نعم ! وألف ، ألف ، إلى منقطع النفس ! قال : « فلم أقيت بنفسك إلى التهلكة ؟ أفلا أقت في قرار عزك ، وموضع سلطانك ؟ » قال : والله ! لو أردت ذلك ، لما قالوا من أطراف شيئا ! ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله ، ولم أر الخروج عن الطاعة ! »

أما بعد ، فقد يكون سليمان بن عبد الملك قد نال بطنياته وجبروته من مال موسى وبذنه ، أما مجد موسى ، وعظمة موسى ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن يتل منها مثالا ؟

حديث

الفنية المفررين من أهل لشبونة

كان جنرالنيو الأغريق يعتقدون أن الأرض للسورة يحيط بها بحر عظيم سموه « أنياوس » ، وقد تابعهم جنرالنيو العرب في اعتقادهم هذا ، وأطلقوا على البحر الذي يحيط بالسورة أسماء مختلفة : منها البحر المحيط ، وبحر الظلمات ، والبحر الأخضر ؛ كما قدسوه باعتبار الجهات الأربع إلى محيطات أربعة : شمال وجنوبي وشرقي وغربي .
والبحر الغربي هو الذي نسميه الجغرافيا الحديثة بالبحر الأطلسي أو الأطلنطي .



لم يمرؤ من القدماء على النفوذ إلى المحيط الغربي والإقبال فيه إلا الفينيقيون أهل مدينة صور ، وإلا أعقابهم القرطاجيون أهل قرطاجنة ، فهم الذين قدسوا إليه ، وركبوا ثيابه ، ولججوا فيه شمالا حتى الجزائر البريطانية ، وجنوبا حتى متحلف خليج غانة العظيم ، والملاح القرطاجي (هنو) القدح للبل في كثير من هذه الأسفار البحرية العظيمة .

ولكني يحتكر الفينيقيون هذا البحر ، ويستأثروا بمنزلة جزائره وسواحه الأوربية والأفريقية ، ويمسوا الأغريق من منافستهم فيها ، ملأوا أسباع الناس واسترهبهم بأبطال لقنوها عن هذا البحر وأذاعوها ، قد صوروه بحراً عظيماً الأموال على الرياح ، يركبه ظلام حالك ، وتسبح فيه كانتات منكرة الأشكال ، وتسر جزائره التبانين والأفوال والسمال ، وتستر في جوفه براكين تصذف بالنار والحلم والدخان ، وأنه نهاية للسور ومقطعه ، وأنه ليس فيه ولا وراءه مطعم لطامع .

وقد عمل هذا التخريف والإرهاب عمله في ملاحى الأغريق وطلاب الاستعمار منهم ، فتحملوا ركوب هذا البحر المخوف ، وقصروا نشاطهم التجاري والاستعماري على البحر

الأبيض للتوسط . هل أن هذه الأراجيف لم تمنح الخيال الإغريق من تناول هذا البحر والغرائب في تصوره كل مذهب . فلقد تنقن هوميروس بعبث الشمس في لجة هذا المحيط ، كما قرر أفلاطون في بعض سرارياته أنه كان في هذا المحيط القربى جزيرة عظيمة تسمى « أطلنطة » ، وأنه كان بها دولة عظيمة غزت أراضي البحر الأبيض للتوسط ، ولم يثبت لها إلا أهل أنينا ، وأن هذه الدولة كانت ذات نظام جمهورى مثالى ، ثم يقول الفيلسوف : إن هذه الجزيرة اقضى أمرها بأن طغى عليها البحر فأغرقها ، ولم يبق منها إلا جزائر صغار ترى فوق سطح المحيط .

والواقع أن المحيط الأطلس ظل لثراً غامضاً يستثير إعجاب الأخية وأغرب التصورات ، إلى أن تمكن العرب في القرن الثالث الهجرى من أرض المغرب الأقصى والأندلس ، وأصبحوا أفلاً مشرفين على هذا العظم العظيم ، وأنشأوا فيه الأساطيل الجارية لدعائية أهل الشمال عن سواحلهم ؛ وعندئذ نجدهم يقتنون على ركوب البحر المحيط في غير ما خوف ولا وجل ، ويعرفون الشيء الكثير عن سواحله وجزائره ، ويصفون كل ذلك وصفاً لا يأس به في جلته .

•••••

ومن أعجب ما يروى عن غريب الأندلس في هذا العهد حديث فية من مدينة لشبونة ، ومن أهل القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادى ، شاعهم المجهول من أمر المحيط القربى ، فأحبوا أن يقتوا على مداه ، ويحلقوا التامض من أسرارها ، فقاموا برحلة بحرية وعادوا منها بعد أهوال وأوهام ، وقصوا حديث رحلتهم على أهل بلدهم .
وقد أورد الشريف الإدريسي خلاصة حديثهم في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، قال :

« ومن مدينة لشبونة كان خروج الثورين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه » وإلى ابن انتهائه . . . ولم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحلة درب منسوب إليهم يعرف بدرب الثورين إلى آخر الأبد ، وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حلالاً وأدخلوا فيه من لاد والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس

الريح الشرقية (أى هوبها) ، فحزوا بها تحموا من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غيلط
 اللوح ككند وخرانج كثير القروش (الصخور التي لا يكاد يستقر لها) قليل الضوء ، فأبغثوا
 الثالث ، فردوا قلائصهم في اليد الأخرى ، وبغروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً ،
 فخرجوا إلى جزيرة النتم ، وفيها من النتم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي مرساة لا راس
 لها فلا تأنظر إليها ، فقصصوا الجزيرة ، فخرزوا فيها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة
 تسمى برني ، فأخذوا من تلك النتم ، فخبجوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها ،
 فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً ، إلى أن غاصت لهم جزيرة ،
 فظفروا فيها إلى عمارة وحرك ، فقصصوا إليها ليروا ما فيها ، لما كان غير بعيد حتى أبط
 بهم في زوارق هناك ، فأخذوا وخرافى مركبهم إلى مذينة على شفة البحر ، فأزولوا بها في
 دار ، فزاولوا بها رجالاً غشراً وخرزوا شعور رؤوسهم ، شعورهم بسيطة ، وم طوال القدود ،
 ولباسهم جمال عجيب . فاحتفلوا فيها في بيت ثلاثة أيام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل
 ليحكم بالسلطان العربي ، فسأله عن حالهم وفيهم جادوا ، وأين يديم ، فأخبروه بكل خبرهم ،
 فوجدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجان لك . فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا
 بين يدي لك ، فسأله عما سألهم الترجان منه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجان بالأس من
 أنهم اقتنعوا البحر ليروا ما به من الأخبار والنجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم لك ذلك
 ضحك وقال لترجان : خير القوم أن أبى أمر قوماً من عبيد ركوب هذا البحر ، وأنهم جروا
 في عرضه شهراً إلى أن أعطع قههم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .
 ثم أمر لك لترجان أن يديم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بذلك ، فقبل . ثم صرفوا إلى
 وضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية : فسر بهم زورق وعصبت أعينهم ، وجرى
 بهم في البحر برهة من الدهر ، فلما انقروا قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام لياليها حتى جرى
 بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتبنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت
 الشمس ، ونحن في ضحك وسوء حال من شدة الكفاف ، حتى صفنا ضوضاء وأصوات ناس
 فصحبنا بأجنتا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بلك الحال البينة ، فخلونا من وقتنا وسألونا ،
 فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا رابرين ، فقال لنا أحدهم : اسلمونكم بين يديكم أفلنا : لا ،
 قال : إن بينكم وبين يديكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : والاسقى ! ففى للكان

إلى اليوم « أسنى » وهو للرسم الذي في أقصى الغرب » .

ويزعم الإردني حديث هؤلاء القتيبة في موضع آخر من كتابه جداول كزخرات المحيط الأطلسي فيقول : « وفي هذا البحر أيضاً جزيرة الأخوين الساحرين الذين يسمى أحدهما شرمهم ، والثاني شرام . ويقال لهما كانا بهذه الجزيرة يطلن على الراكب التي قربهما يظلهما ، ويهل كان جميع أهلها يأخذن أسواقهم ، فخرج الله بهما يظلهما ، وبهما حزين على ضفة البحر قائمين ، ثم حيرت هذه الجزيرة باليس ، وهي تقابل سوسى اليمن . . . » . وهذه الجزيرة قصة غريبة أخبر عنها التردلان من أهل مدينة لشبونة بالأندلس حين أسقطوا إليها بحر كلبهم .

ويؤخذ من سياق كلام الإردني أن هؤلاء القتيبة كتبت لهم للسلافة وادعوا إلى يدهم ، وحشدوا أهل لشبونة بما رأوا وما سمعوا في رحلتهم ؛ ولكن أهل لشبونة لم يروا في هؤلاء القتيبة يد كل الذي سمعوه منهم إلا رجلاً مفردين يحملين « دسوماً القرب الذي فيه دورم يدرب التردلان .



ونها يكن رأى أهل لشبونة في هؤلاء القتيبة ورحلتهم ، لأن ما قاموا به طريقاً ، ورحلتهم هي الأولى من نوعها بد رحلات التفتيقين القدماء . وسالم قصتهم هيبة ضلوة من الرجاء الطيبة . فالظاهر أنهم عندما ساروا أول الأمر أخذوا مشجعين شمالاً إنما أصبحوا في عازلة لندة ، فلما ساروا بعد ذلك نحو الجنوب التي حشر يوماً ولبثوا الجزيرة التي سموها جزيرة التتم ؛ إنما لبثوا الجزيرة السمة الآن بخولها . ويذكر العلامة دافوك خلا عن العالم الطيبي برتل أن بهذه الجزيرة كثيراً من التزخات جوع من عشب هذه الجزيرة هو السبب في حرارة لجوها . أما جزيرة الأخوين الساحرين الذين سبنا حزين فهي الجزيرة التي تعرف الآن بجزيرة (تسيلوت) وجرفها الشالي صخرتان متقابلتان هما اللتان تحدث عنها القتيبة في حديثهم ؛ وهذه الجزيرة هي في أغلب الظن التي جرى القتيبة مع ملكها الحديث الذي قبه الإردني .

وكا ذات مغلوبات التفتيقين والترطيين عن البحر المحيط وجزائره في أوهم القدماء

من اليونان والرومان ، فكذلك قابت سلويات هذه القصة في أوام أوربي المصور الوسطى ، وظهر ذلك واضحاً في القرن الحادى عشر خاصة ، ولا أدل على ذلك من قصة رحلة منعمومة تضاف إلى رابع إيرلندى يعرف بالقديس براندان .

كان هذا الرعب من أهل إيرلندا ، وقد جاش في القرن السادس لليلادى ، وينسبون إليه أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جبلها الله عبادة لصالى القديسين ، والى توحها جزيرة من جزائر المحيط الأطلسى . فاعد سفينة شحنها بالراد ، وركب فيها هو وسبعة عشر من أصحابه الرهبان ، ثم ضربوا بها فى عرض البحر ، فبليتوا جزيرة غتم وجزيرة الطيور (لكثرة ما بها من طير الماء ، وقد وصفها الإدريسى) ، وعابثوا من السحاب والفراب الشئ الكثير : من ذلك جزيرة جرداء طلوا إليها ، فها أوقدوا بها نارا لإصلاح طلمهم لغزت بهم ، فأسرعوها إلى الفرار منها ، فإذا هى خوت عظيم راكد على سطح الماء . ومنها أنهم عابثوا طائراً هائلا يختلف الوحوش الكبير . ثم يسود الرعب وأصحابه من رحلتهم هذه إلى إيرلندا ، ويقصون على قروهم ما رأوا وعابثوا .

ومع أن الرعب براندان من أهل القرن السادس لليلادى ، فإن قصة رحلته للذكورة لم تظهر إلا فى القرن الحادى عشر . وقد أبى من دونوا أخبار القديسين أن يسجلوا هذه القصة ، واعتبروها حديث خرافة ، والواقع أن قصة الرعب الأيرلندى ليست إلا قصة القتية للفريرين التى ذكرناها مع ما أضيف إليها من أخبار عجيبة أخذت من أسفار السندباد البحرى للشهيرة فى قصص « ألف ليلة و ليلة » ، وذلك كحكاية الموت التى ظن الرعب جزيرة ، وحكاية الطائر المائل الذى هو (الرخ) فى قصص السندباد .



د : أما بعد ، فقد جرى فى أوربا — فى القرن لاثنى — جدل شديد بين اللوزخين ، مدله أى الشعوب الثلاثة أسبق إلى ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه : الجنويون أم الفرنسيون ، أم البرتغاليون ؟ ومن العجيب أنه لم يذكر من هؤلاء اللوزخين ذاكر أن هذه الشعوب الثلاثة قد سبقت إلى ركوب هذا المحيط لكشف غوامضه بمئات السنين ، وأن السابقين إلى ذلك كانوا أولئك « القتية للفريرين » من أهل لشبونة .

زرياب المغنى *

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفني والاجتماعي ، فلا شك أن أنضر صفحة في ذلك التاريخ الجيد وأجملها قد تكون صفحة أبي الحسن علي بن تافع الفني للقب « زرياب » . فهو رجل استطاع وحده أن يقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة . وذلك بشيئين اثنين : تحييب الموسيقى إليها ، وتنظيم حياتها اليومية .

•••

فتح للمسلم الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجري ، واقتشرت قبائلهم البربرية والبربرية في سهولها وحروبها ، ولكنهم ظفروا حتى أواخر القرن الثاني ببلدة جفنة ، كما اجتمعت كلهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والدولاب للبيئة من الصعية القبلية . فكانهم لا يزالون ضالين في ضباب نجد وسهول تهامة ومغاور إفريقية وشمالها . ثم أخذت جيوشهم السياسية تستقر وتثقل بفضل مجيئات للتقدميين من أسراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل ، وحسام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه بداءة واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان للشرق الإسلامي في ذلك الزمان ، فقد استبحر فيه المسلمين وبلغت للدين الإسلامية فيه غايتها ، وتعلق فيه ذوق الدولة واليسار بأسباب الكمال من شؤون الحياة جد أن استكفوا القسور والخاص منها على حد تعبير ابن خلدون . وقد ساهموا في ذلك عمل الدين وعمل التاريخ معاً . فأما للتدولون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامي دين يسر يجب من الزمن أن يكون هيناً ليتأقروا موقر المظ من الظرف والكياسة . غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا تأس نصيبه من الدنيا . وأما للتدولون فوجدوا في قتالهم القرمس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون الحاجة ويحرمون على لغة الحياة الدنيا ومتاعها ، أما كانت الطرق للروسة إليها .

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة أرسنطالية ، مرعنة الأدواق ، رقيقة الطباع ، تروى في الموسيقى ومجالس الأنس والطرب أو حفلات البسر خير ما ينتمون به فئة تلك الأدواق المرعنة والطباع للترفة . هذا هو السبب المباشر في تقدم صناعة التناء في ذلك الزمان ، ويؤيدها النافذة على ألبني إبراهيم بن البدي ، وزيرهم للوصل ، وابنه إسحق . وهذا هو السبب كذلك في استضافة مجالس الأنس والطرب لتلك العدا في مدن الشرق الإسلامي عامة وبغداد خاصة ، وفي بلوغ هذه المجالس درجة من التناقض يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آداباً كانوا يأخذون بها من يحضرها من التناء ، والجلاء ، والسيار .

من ذلك أن يكون التناء قولها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب للصنعة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين ، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً بخفيف الروح ، خاضعاً للديبة ، قادراً على قول الشعر وارتجاله ، فضلاً عن تدويع وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك .

إلى هذا الشرق توجه أسرى بني أمية الأندلسيون ، وهم أبناء خلفاء حكام ووصائهم ، يستمدون فنائهم وسليين يهذبون ما حفظ من طابع العرب والبربر والروم ، ويظهرونها جميعاً في فنن واحد . وقد أمدى الشرق إلى الغرب غير واحد من الفنون أمثال علون ، وزرقون . ولكن زربا كان أصغر هؤلاء جميعاً وأبدم أرقاً .



كان أبو الحسن علي بن خاف مولى الخليفة المهدي العباسي ، ولسمرة لونه ورقة شامته قبوه زرباب ، تشبهاً به بطائر أسود غرد يعرف عندم بهذا الاسم . وقد تكاملت زرباب شكل أساليب النورج والتفوق موهوبها ومكسوبيها ؛ فكان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، غارقاً بالنجوم والأقاليم ، شاعراً فصيح الشعر . غير أنه كان إلى التناء أميل وبه أشفق . وقد درسه خلفاء كعب الأقدمين من حكام اليونان ، وعلا على استاذة إسحق للوصل زعيم الفنون في ذلك الوقت ، ولشدة اقتناب زرباب بالموسيقى كان تذكره فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه يلهم « النوبة والصوت » وهو تأم فهب من نومه مسرعاً ، ويقيد ما وقع له أو يلقه على جار يقيه غزلان وعبيدة ، ثم يسود إلى مضجعه عجلاً ، ومن ثم قيل

إنه كان يأخذ الحياه عن الجن كما قيل في إرثهم للوصل غشه ، فثرا وكان يحفظ عشرة
آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها . ولم يأل ذرياب جدا في أن يأخذ غشه بالأدب الرفيع
واللوك العالي المصطلح عليه في البيئه التي كان يعيش فيها بعداد ، بيئه البلاط وقصور
الأمراء وروساء الدولة العباسية ،

ويذكرون أن السبب في هجرة ذرياب من للشرق إلى الغرب ، أنه غنى بونا في حضرة
هارون الرشيد ، فأخذ الخليفة بصناعته وطرقه وطلب إلى إسحق أن يعنى به حتى يترغ
لساعه . ولكن إسحق لم يلبث أن تحركت في غشه عوامل التنوير والحسد والمقصد على
تليذه ، فخلا به وغيره بين الموت والحياه ، بين أن يقيم بعداد فيعرض حياته للهلاك
ومسحت الخلق ، وبين أن يذهب في أرض الله الفريضة فينبو بحياته ، ووعده إذا هو
اقتار ثاني الأمر أن يسيه على الرحيل بما شاء من لال وغير لال ، فاختار ذرياب الرحيل
عن للشرق بأسره ، وروى له إسحق بما وعد به من الموده .

وتذكره الرشيد بعد أن فرغ من شغل الذي كان منهكاً فيه ، وطلب إلى إسحق
إحضاره فقال : « ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذلك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه
وتطالعه ما يزعم به من جنانه ، فأبى في الدنيا من يده ، وما هو إلا أن أجأت عليه
جائزه أمير المؤمنين ، وترك استدانته ، قدبر التقصير به والتهور بصناعته ، فرحل مضطرباً
خائفاً على وجهه مستخياً غنى ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين ، فإنه كان به
لم يشاء ويفرط خطئه ، فينزع من دأه » . يقول القري « فسكن الرشيد إلى قول إسحق
وقال : على ما كان به ! قد بقنا منه سرور كثير » .

خرج ذرياب من بعداد يؤم للغرب ، فلما كان بأفريقية اتصل بصاحبها زيادة الله
الأغلي . ولكنه لم يطلب له المقام بها ، فرحل عنها إلى الغرب الأعشى ، وهذا كتب إلى
الحكم بن هشام ، أمير الأندلس المروء مجبه للهوسى ، يستأذنه في دخول الأندلس
والعبودية إليه ، فأذن له الأمر في ذلك من فورده . وهو ذرياب البحر إلى عدوة الأندلس

ومنا هو ضارب الرحيل إلى قرطبة إذ منع وفاة الحكم ، فهم أن يعود أدراجهم إلى المغرب
ولما أن كتب إليه الأمير الجديد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويطلبه أن يئذيه كل
ما تصير إليه نفسه من مال وجاه ، قدم عليه زرواب . ويرودون أن عبد الرحمن احتفل
لقدمه أعظم احتفال إذ خرج بضعة من قرطبة لتلقيه . وما هو إلا أن سمع غفاته وحديثه حتى
شفق به ، فصره بغضه وإسلامه ، وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق الشيء الكثير ، حتى
كان يركب بين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر اللتين ، وبلغ من شدة شفقه به
أن جل في قصره باباً خاصاً يستدعيه منه كلما أحب سماع غفاته الرائحة ، وحديثه
الغريب العريف .

وقد لقي زرواب الجليل بالجميل ، وسيرى على اللوف بالمروف ، ولكنك قصد إلى ذلك
من طريق غير مباشر ، قصد إليه من طريق التمسح والإخلاص للأندلس التي أصبحت
له وطناً ، ولأهل الأندلس الذين أصبحوا قومه ومشرقه . فكيف على وضع مستوى للوسيقى
الأندلسية ، وعلى التهورس بالجميع الأندلسي حتى يداني الجميع الشرق ببندلا . وقد وفق
فيا قصد إليه كل التوفيق .



يمكن القول بأن زرواب انهمض بالوسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه ، وذلك
بما أدخله على المود من إصلاح وتحسين ، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء النقاء
وتعليقه . فقد اتخذ لنفسه وهو بالشرق غزواً جده على القلت من وزن المود القديم ، ومنع
أوتاره من حرير لم يخل بماء ساخن فأكسبها أوترة ورخاوة ، واتخذ بماء ومشتها من
مصران شيل أسد : « فلما في القرم والصفاء والجمارة والحنة أضاف ما لتيدها من مصران
سائر الحيوان ، ولما من قوة الصبر على تأثير وقع الضارب للناورة بها ما ليس لتيدها » . فلما
كان بالأندلس زاد أوتار المود الأربعة للناوبة للطابع الأربع ورا خامسا يقوم مقام النفس
من الجسد ، فأكتب به عوده الطيف معنى وأكل قائمة كما يروي للقرى . واتخذ مضراب
للمود من قوادم السير بدلا من مرهب الخشب ، « وذلك لطف قشر الريشة وغفاته وخفته
على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه » . أما من حيث إلقاء النقاء ، فقد
رسم زرواب أن يبدأ في الإلقاء بالتشديد بأي غير كان ، ثم يؤول في أثره باليسيط ، ويحتم

بالحرركات والأهراج . أما مذهب في تعليم الفناء فيقول فيه القري : « وكان إذا تناول الإلقاء على تليذ يله أسره بالتعود على الرساد للدور للروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينة أسره أن يشد على بطنه عجمة ، فإن ذلك مما يقرى الصوت فلا يجد مقسماً في الجوف عند الخروج على القم ، فإن كان ألم الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبينها في فمه ليالي حتى يفرج فكه . وكان إذا أراد أن يختبر الطبع بالصور الراد تعليمه من غير الطبع أسره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ! أو يصيح آه ! أو يمد بها صوته ، فإن سمع صوته بها صائفاً ، ندياً ، قوياً ، مؤدياً ، لا تتركه غنة ، ولا جبة ، ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف يتجيب ، وأشار بتعليمه ، وإن وجد خلاف ذلك أبده . » هذه العبارة تشير في مراعاة إلى أن زرياباً إنشأ الأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري ما يصح أن نسيه بفترة الوقت المتأخر مهذاً لتعليم اللوسيقى .

ولم يكن زرياب أقل ابتكاراً في شئون الحياة اليومية منه في مجال اللوسيقى والقرن ، وهذا محل العجب من سيرته . قد ابتكر لأهل الأندلس ألواناً من الطعام استطاعوا ونسبوا بعضها إليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المدن . وهو أول من اجتمع لهم البقلة الشبيهة للروقة بالمليون وكانوا لا يعرفونها من قبل ، وعلمهم أن يسطروا سطر الأديم فوق اللوائد الخشبية فذلك أنظف لما وآتى لمنظرها ، وعلمهم أن يلبسوا جين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفا إلى الثقيل للون شتاء ، ولتتهم إلى أنواع من الطيب والطر لم يلبسوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يحيطون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظفون شعورهم ، تصفيفاً ، وتدويراً ، وإرسالا .

لا ندرى بالهقة متى توفي زرياب . والقالب أن وفاته كانت في إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) وكان زرياب المظفرة عند أهل الأندلس في حياته قد رزقته ذكره عندم جد ماته . ذلك بأن مذهب في الفناء ومارس لم من أسلوب للبيئة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم . فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من

تجلى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل إليها باقتحام مقدار غير قليل من صناعة زوياب وآدابه . يقول ابن خلدون عند ذكره زويابا « فأورث بالأندلس من صناعة النناد ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ولما منها بأشبيلية بحر زانر وتناقل منها بعد قهاب حضارتها إلى بلاد القنطرة بإفريقية وللقرب وانقسم على أبصارها وبها الآن منها صباية على تراجع جاراتها وتناقص خولها » .

ويقول القزويني « وكان زوياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتركة في كثير من ضروب الفنون ، وفنون الآداب ، ولطف للباشرة ، وحوى من آداب المجالية وطيب الحداثة وشهارة الخدمة للوكية ما لم يجد أحد من أهل صناعته حتى اتخذ هؤلاء أهل الأندلس وشواصمهم قدوة فيما سلكه لم من آدابه واستحدثت من الحسنة ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوبا إليه ملوكا » .



أما بعد ، فقد كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يفتخرون شربا من سرتهم باسم بطرونيوس ربب الطرف وسلامة الدوق ، لأنه كان عندهم مضرب للثقل في ذلك . أما أهل الأندلس فقد وصفو زويابا بأنه « معلم الناس للرودة » ولزودة عندهم كل الإنسانية ، وهو لا شك أجل أوصافه ، وأحقها بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به ؟

حكيم الأندلس

عباس بن فرناس^(٥)

بما يوصف به العقل اليوناني القديم أنه عقل لطيف ، غاذ ، بحث ، شكك ، فواصل على حقائق الأشياء ، حريص على الوصول إلى أسرار هذا الوجود وتوايسه التي يقوم عليها نظامه ، معنى بهم قوى الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان .

بهذه الخصائص العقلية بلغ الأغريق القدماء ما بلغوا من تقدم في أنواع المعرفة على اختلافها ، وأصبوا للتل الأمل في البحث العلمي الصحيح .

ومن الشخصيات العلمية الإسلامية التي يصح أن توصف بما يوصف به الأقدمون من علماء الأغريق من حيث التنف بالبحث العلمي ، والمطابقة في سبيل ذلك إلى أبعد حدود المطورة ، رجل أندلس من أهل القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي ، اسمه عباس بن فرناس ، ويلقب بحكيم الأندلس .

وقد فسّر القنويون الحكمة بأنها عبارة من سرقة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وسعوا من بحسن دقائق الصناعات وحقها حكماً ، ولكن الخولوزي في كتابه « خاتيج العلوم » يقول عند كلامه على الكيمياء : « والمحققون لهذه الصناعة يسمونها الحكمة على الإطلاق » . ولعل وصف عباس بن فرناس بالحكمة إنما جاء من اشتغاله بالكيمياء كما سترى ، لقب بالحكيم كلقب من قبله خالد بن يزيد بن معاوية بحكيم بني أمية ، وذلك لبعده بالكيمياء خاصة .

• • •

كان أبو القاسم عباس بن فرناس من موالى الأندلس ، أى إسباني الأصل ، وقيل بل كان من أصل بربري ، أى أفريقي الأصل . وكان من موالى بني أمية ، وكان أمه من

كورة تاكرنا الأندلسية . ثم انتقل إلى قرطبة ، وسكن منها الرضى القريب . والظاهر أن ذلك كان في أوائل القرن الثالث ؛ وقد عاصر ثلاثة من أمراء الأندلس : الحكم الرضى ، وابنه عبد الرحمن الأوسط ، وخليفته محمد بن عبد الرحمن (١٨٠ - ٢٧٢ هـ) واتصل بهم جميعاً وحسنت مكاتبه عندهم .

وفي هذا العصر اشتد إقبال اللعين على علوم اليونان إلى درجة لم تهد من قبل ولا من بعد ، فقلت إلى لغة العربية أمهات كتب الأغريق والسكندرانيين في الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعات . وناسر الخلفاء والملوك وأعيان اللعين هذه الحركة العلمية أيماناً حاضرة ، وكان الخليفة للأمن زعيم أنصارها بالشرق ، كما كان الأمير محمد بن عبد الرحمن زعيمهم بالأندلس .

وإذا قد نشأ أبو القاسم عباس بن فرناس في جوشع باروخ الأغريق ، وكان على منظر من صفاء الفهم ، ودقة للاحظة ، وحب البحث العلمي ، والتوفر عليه دون سواء ، فلم يلبث أن هضم ما وصل إلى يده من تأليف الأغريق على كثرة ، واستطاع في قليل من الزمن أن يرد ما هضم اختراعات وإبداعات تشرف عالم العصر الحديث فضلاً عن العصر الوسيط .

ويعد للزوخون لبياس بن فرناس أموراً في العلم كان أولاً فيها ، وأموراً لم يسبق إليها لبق الأندلس على أقل تقدير . من ذلك أنه أول من فهم كتب العروض لخليل بن أحمد زحل رموزه ، وعنه أخذته الناس في الأندلس . قالوا : « أدخل بعض التجار كدباً في الليل » في العروض لخليل ، فصار إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ولم يبق عليه إلا على أصحابه ولا فهوهم ، وصار الكتاب مطروحاً في داخل القصر يتلقى به الجوارى ، حتى إن بعضاً يقول لبعض : صير الله عقلك كمثل هذا الذي ملأ كتابه من مفاهيم ، مفاهيم ؛ وبلغ خبره ابن فرناس ، فكتب إلى الأمير يأله إخراج الكتاب إليه ، فقبل . ونظر فيه بمذقه فافتح عليه وأدرك علم العروض منه ، وقال بفضل نظره إن هذا الكتاب يدل على أن ما قبله يفسره . فأرسل الأمير عبد الرحمن إلى الشرق يطلب تامله حتى . إليه بكتاب « القرش » فاستكمل به عباس نظره وقبضه على الناس ، وكان أول من

أخذ عنه علم العروض في الأندلس . ووصله الأمير عبد الرحمن على ذلك بثلاثمائة دينار وكسده .

وقالوا إنه أول من فك اللسني بالأندلس . ولا شك أن المراد بذلك أنه اعتدى إلى حل رموز كتاب يوناني قديم في اللسني ، على نحو ما صنع بكتاب العروض الألف الذكر .

• • •

على أن مكانة عيسى بن فرنس الطبية إنما تقوم على تمكنه من علوم الحسكة الرياضية والطبيعية . والحسكة الرياضية تشمل عديم علم العدد ، والمنسمة ، والميتة ؛ ومن آلة براجه في هذه العلوم أنه صنع في يده كهيئة السد ، ركبا على منهاج الحسكة ، ومثل فيها أفلاكها ، وأقام فيها آلات تخيل إلى الناظر فيها أنها نجوم وقمر ، وبروق ورمود ، وأراها كثيرا من حيون الناس مفتخرا عليهم بحسكة ؛ فذاع ذكرها في الناس وكثر حديثهم عنها ، من بين مطر له متن عليه ، أو مندر لسه مستهزئ به .

وطلب إليه الأمير عبد الرحمن عمل آلة لصد حركات السكواكب والنجوم تسمى عديم « ذات الحلق » . ويقول أستاذنا العلامة للرحوم كروطينو : إن هذه الآلة مذكورة في كتاب الجسطل لبطليوس وفي كتاب الله برقرس اليوناني أحد علماء القرن الخامس ليلسلاي ، وإنها تشتمل على سبع حلقات مدنية متحركة متداخلة ، ويقاس بها ما يقاس بالأسطرلاب للسطح ، وأنها تسمى بالفرنسية sphère armillaire . وقد عملها عيسى بن فرنس ورضها للأمير عبد الرحمن ، وبث بها هذه الآيات :

قد تم ما حلني من آة أيا القلافة الملباذ دون
لو كان بطليوس ألم صنه لم يشغل بمداول القانون
فلذا رأته الشس في آفها بثت إليه بنورها للوزن
ومنازل القصر التي حبيت ما دون السيون بكل طالع حين
يبدون فيه بالهار ، كما بدت باليل في ظلماتهن الجون
وكلفه الأمير عمد عمل آلة لمرقة الأوقات ، فصل له آة تعرف بها الأوقات باليل
والتهار بنير رسم ولا مثال ، وتسمى « التقة » ، ورضها إليه وقد قش عليها هذه الآيات
على لسان حال تلك الآلة :

ألا إني للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تبين كواكب ليل حالك للظلمات
بين إمام للدين عهد تجلت بي الأوقات للعارات

وكا اشتغل عباس بن فرناس بطول الحكمة الرياضية فكذلك اشتغل بطول الحكمة
الطبيعية . فهو أول من استخرج الزجاج من الحجر بالأندلس . واشتغل بالكيمياء ،
وكان على حد تنوير صاحب « نيرانجيات » . والنيرانجيات لغة فارسي الأصل ، وفسروها
بأن القرض منها تزجج القوي التي في جواهر العالم الأرضي لتحدث عنها قوة يصدر
عنها نمل غريب .

ولكن لا شك في أن أكبر مظهر لحكمة ابن فرناس وجراسته الطبية أنه حاول تطيير
جناته فكان — إذا صح ذلك — أول طيار علمه في التاريخ . فلما إنه كاشفه بريش
قشام القصور على سرق الحرير ، ومد لفضه جناحين على وزن وتقدير قدره قشياً له أن
استطاع في الجو من ناحية الرصافة بقرطبة ، واستقل في الهواء ومكث فيه حتى وقع في مكان
مطارد على مسافة بعيدة . وقد تأذى بذلك مؤخره لأنه لم يحسن الاحتيال لوقوعه ، ولم يقدر
أن الطائر إنما يقع على زمكاته أي ذنبه ، فمها عن ذلك ولم يتخذ لنفسه ذنباً . وقد أفرغ
من رأى طيارته من أهل الصحراء ، فكثير حديثهم مما عاينوا منه ؛ من ذلك قول مؤمن
ابن سعيد ، وكان منرى بهجو ابن فرناس :

يَقْلَمُ عَلَى السَّعَادِ فِي طَيْرَتِهَا إِذَا مَا كَا جَنَاهُ رِيَشَ قَشَمِ

كبرت أعاليق ابن فرناس ، وتعددت ابتداعاته جرى له ما يجري لكل مبتدع
يفجأ الناس بما لم يأتقوا ، فكان الخاصة يشعرونه ويرمون به بالمن والسخر ؛ من ذلك قول
مؤمن بن سعيد في هيئة السماء التي أحدثها عباس في داره :

قَدَلْتُ تَحْتَ سَمَاءٍ لِابْنِ فَرْنَاسٍ خَلَقْتُ أَنْ رَحَى دَارَتِ عَلَى رَأْسِي
سَمَاءٌ أَتْرَكَ سَوَالَهَا وَحَقَّقَهَا بِحِمَّةِ ذَاتِ أَيْتَابٍ وَأَضْرَأَسِي
لَهَا نَجْمٌ تَهَيَّ أَنْ خَالَقَهَا إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا أَحَقُّ النَّاسِ

يمسى ويصبح من شغل بصنعها نجي " فر دحكور ووسواس
كان الجدير بأن يرقى إليه بها راق فيحربها منه على الرأس
وقد كان ابن فرناس كتب إليه مهزلاً :

دنت لساناً يا خلق خالقتها واستشر الخوف من صواصها .
فرد عليه ابن سيد بآيات من غس الوزن والروى الخس فيها .

أما العامة فكان سخطها أشد وأذاها أبلغ . فقد رمت بالزندقة والسحر والكيسياء ، وطمنت
في دينه ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كتب بعضهم وثيقة بزندقته ورفضها إلى قاضي
الجماعة بقرطبة ، وشهد عليه بعضهم بأنه سمع يقول مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ كما شهد آخر بأنه
رأى الدم يفر من فتاة دارة لجة كذا ، إلى دعاوى من هذا القبيل . وكان القاضي رجلاً
حصيف العقل ، ففطر فيا لهم به ابن فرناس نظرة تحقّق وتعتل ، واستشار قضاة قرطبة
في الأمر ، فلم يجد بعد كل ذلك سبيلاً إلى عقابه ، وأقلت ابن فرناس بحريمة الذنن
كما يقولون .

ولسرى إن العامة لمحدودة إذا هي غرت من رجل عجيب جاء قبل أوانه بألف سنة
من الزمان .

قاض فاضل^(٥)

هو أحمد بن يحيى بن محمد قاضى الجماعة بقرطبة على عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). كان أبوه يحيى بن محمد عالماً فاضلاً ورعاً زاهداً . وهو أحد الذين عرض عليهم القضاء فأبوا قبله تخرجاً ، وذلك أن أمير الأندلس للنعمان بن محمد (٢٧٢ - ٢٧٥) أراد أن يولي القضاء فأبى . فذهب إلى استكرامه فاعتذر اعتذاراً لطيفاً وقبل الأمير عذره وقد نشأ ابنه أحمد نشأة حسنة جيدة ، وعرف منذ حداثة سنه بالفضل ، ووسم بحب الخير . وكان أمير الأندلس عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠) يشارره ويأخذ برأيه مع أن سنه إذ ذاك لم تكن تزيد على خمس وعشرين سنة . فلما تولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الخلافة ولاء صلاة الجماعة بقرطبة ، ثم ولاء بد ذلك قضاء الجماعة بها وأقره على الصلاة ، وذلك في سنة ٥٣١٤ هـ .

• • •

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة أحد للنائب الثلاثة التى تعتبر أركان الحكم فى الأندلس على عهد بنى أمية ، وهى إمارة التتر الأعلى بسرقة وإمارة الأسطول بالمرية وقضاء الجماعة بقرطبة . وربما كان قاضى الجماعة يأتى لمقره الدينية ومكاته الاجتماعية بعد الحاجب الذى كان عديم بمنزلة رئيس الوزراء عندنا ؛ وكثيراً ما كانوا يلتقيون قاضى الجماعة بالوزير القاضى تخفياً لشأنه وتخلياً لقلده . وكان اختصاصه عديم يشمل النظر فى اللواريث والوصايا والتجبير والأحبس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق ، وقد يجمع له فوق ذلك إمارة الصلاة العامة ، وهى صلاة الجمعة واليدين وصلاة الاستسقاء ، كما كان الإشراف على الحسبة داخلها اختصاصه . من أجل ذلك كانوا لا يستبدون قضاء الجماعة إلا إلى كل من عرف بمنزلة العلم والبراعة فى الفقه ، ووصف بالفضل والورع وزهاده الضمير . ولله لم يتول قضاء الجماعة بقرطبة رجل أجمع لذلك الخصال من أحمد بن يحيى ، حتى لم يكن

اعتباره للثقل الصالح للقاضي الشرعي في عصر ازدهار الدولة الإسلامية بالأندلس .

• • •

كان ذا ميثقة سهلة ساذجة ، « إذا طرقة ضيف ليلا لم يدع له شيئا من الخير ، وقال الليل أمان لها ، ويقتصر على اللسل والسمن والبيض وما شاكل ذلك فيقربه إلى الضيف » . وكان متواضعا ، مثل مرة عن نسيه وولائه فقال ولاؤنا لأمراء من أهل جيان . وكان ولي عهد الدولة المحكم للسنصر يسحب من صدقه في ذلك ويقول : لو شاء لادعى أشرف الأنساب ثم لا يجد في ذلك مكذبا .

وكان رءوف القلب ، رفيق العقوبة إذا عاقب . جاءت مرة امرأة تخلم زوجها فجعلت تستطيل على زوجها بلسانها وتؤذيه بصلاتها ، فظفر إليها ابن قتي وقال لها : أنصري ! وإلا عاقبتك ! فأنكسرت المرأة شيئا ثم عادت للصلف ، فقال لها القاضي مرة أخرى : أنصري ! وإلا عاقبتك ! فأنكسرت شيئا ثم عادت للصلف . عند ذلك صلف عليها أحمد بن قتي فجعل يقول لها : أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! ثم قال : ألم أعرفك من قبل هذا ؟ ولم ترد عقوبته للمرأة على ذلك .

وكان كثيرا ما يبدأ المخلود الشرعية بالشبهات يمسدها سيلة منه العامة ورققا منه بها . قالوا أنه المختب مرة برجل به رائحة الشراب ، فقال القاضي لكتابه : استنكه ! فقل ، قال : نعم ! عليه رائحة الشراب . فظاهر بوجهه الكركلية لذلك ، ثم قال لآخر من كان حاضرا جلله : استنكه ! أنت ! فقل ، قال : أجدر رائحة ولا أدري إن كانت رائحة مسكر أم لا ؟ فتهلل وجه القاضي وأمر بخليته سيلة .

• • •

ومع أنه كان رءوف القلب رفيق العقوبة يرى الرفق والتجاوز في كثير من اللوامن أبلغ من الصنف والمؤاخضة ، فإنه كان في صميم واجبه القضائي مثال الدقة واللباب والاستقصاء . كان لا يوقع شهادته في وثيقة حتى يقرأها من أولها إلى آخرها . من ذلك أن صديقا له أرسل إليه مرة وثيقة كتبها على رجل يمال ليشهد عليها . وقد ذكر في الوثيقة شيئا يحملها واحدة . فلما قرأها ابن قتي وتبين له ما فيها من الوهن كره ألا يوقع عليها فيسخط

صديقه ، وكره أن يفيه للشهود عليه إلى وهما . فأطرق علياً ثم رفع رأسه وقال للشهود عليه : أنتهدون على أن تلاقن عندي كذا وكذا مثلاً إلى أجل كذا وكذا ؟ قال نعم ! فبعد شهادته حل هذا النظر بسببه لا غير .

وكان جم الغاية بأمر الوثائق خاصة ، شديد التعقب عليها . وكانت الوثائق يمررها وجبل اسمه محمد بن إبراهيم بن الحباب كثير الزهو والاعتدال بسببه ، فخاله تعقب القاضي عليه وقال : من أين يتصلق ابن عتي أنه أعلم بالوثائق مني ؟ وبلغ قوله القاضي . فانهز فرصة عرضة عليه وثائق ، واستخرج جوده في التعقب عليها حتى أخذ مواضع ألبتة له وأمره بتغييرها ، فتغيرها وأتاه بها . فأنفذ عليه فيها مرة أخرى . فأرسل إليه ابن الحباب يقول : إنني أفر لك أنك أعلم بها مني وأنشد بذلك ، فدمعت من كفرة هذا البحث والكشف وإلا حلفت ألا أكتب وثيقة ؛ فتركه ابن عتي بعد ذلك وسامحه .

• • •

وكان من عادة ابن عتي فيما يتخاصم عنده فيه أن يفض الظاهر للبين ، ويستعمل الأمانة والتؤدة فيما التبس عليه منه ، حتى تظهر له الحقيقة أو يصير الخصمان إلى التصلح والتراضي . وربما جرت تلك المنكث والمهل في القضايا للشبهة إلى تأخير الأحكام زمناً طويلاً قد يضجر الخصوم . وقد صيب عليه ذلك في حاضرة الخليفة الناصر وبما عرف به من لين الجانب ، فقال : أعوذ بالله من لين يردى إلى ضعف ، ومن شدة تبلغ إلى عنف ؛ ثم جل يذكر فساد الزمان واحتيال الفجار ، وما يحدث من الأمور للشبهة التي لا تدين له حقيقتها ولا يكشف له وجوها ، ثم قال : قد اشتبه على عمر بن الخطاب رضي الله خصومة قوم طال نظره فيها ، فكره أن يحكم مع الانتباه فأمرم بإجداه الخصومة من أولها .

وعما يصدق مذهبه هذا في التوقف عند الشبهات أنه رقت إليه خصومة وقت بين الحاجب عماد بن موسى — والحاجب عندهم كما قلنا بمنزلة رئيس الوزراء عندنا — وبين رجل اسمه يحيى بن إسحق . وكانت شهادة الشهود في مصلحة الحاجب . ولكن القاضي اصطنع الأمانة ولم يسجل الحكم لشبهة وقت في شفه . فأرسل إليه الحاجب يقول : لقد عرفت محبتى لك ، وشئى بجميع أسيايك ، وقد دار عندي على يحيى بن إسحق

ما قد علمت من الحاشية ، وقد شهدت عليه عندك الرقة العذول ، وتأيت من الحكم عليه .
قال القاضي الرسول : « تبلغ الحاجب عن السلام وتقول له : إن محبتنا كانت لله ولوجهه ،
ويحيى بن إسحق وغيره في الحق سواء ، وقد دخل على لرتياب ، ولا والله ما أحكم على يحيى
ابن إسحق بشيء حتى يتضح عندي أمره بتوركا ضاح الشمس في الدنيا ، فإنه لا يميزني
أحد من يحيى بن إسحق إن جافاني لخصومة بين يدي الله » . فأدى الرسول هذه القصة
لحاجب وهو ساكت لا يقول شيئاً . وجعل بعض من حضر من الوزراء يقع في القاضي
ويبدي ويميد في ذلك . فحول الحاجب إليه أخيراً وقال له : « يا أخى القاضي والله رجل
صلح ، ولا تزال بخير ما كان هو وشبهه بين أظهرنا .
والله ما زاده فله عندي إلا محبة واعتقاداً » .

* * *

قالوا : وكان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر يتبعه ويحمله ويرفقه ولم يزل به من
القتضاء حتى توفي سنة ٣٢٤ عن أربع وستين سنة .

٥٩) بين خليفة وقاض

أما الخليفة فهو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ابن الله الذي استوى على عرش الأندلس حين سنة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) تدبىق أزهي عصور الأندلس ، ومن أعبد المصور الإسلامية على الإطلاق . تولى والأندلس على أسوأ حال : شمل بحرق ، وقطن ضاربة بأطنابها ، وعدوى يخنز ليتفنى عليها من فوقها ومن أسفل منها . فازال بالفتن حق قطع دابرها ، وبالأعداء يحادهم تارة بغضه ، وأخرى بأبرع قواده ، حتى خضد شوكتهم ، وكسر شرهم ، وأزلم على حكمه .

ولما رأى الفيتا أسر الخلالة البلية بالشرق ، واستحال أمر السبيدين بالمغرب ، استقر في نفسه أنه أحق بقب الخلالة من السبيين والسبيدين جميعاً ، لأنه أجمع منهم لمشروطها فأعلن خلافته في سنة ٣١٦ هـ وبابه الشعب بالخلالة طامعاً راضياً . ثم إنه رفع العلم والمعاراة بالأندلس مناراً عالياً . وعنى بالبينان والمارة فشيء مدينة الزهراء التي كانت تضرب بروعتها الأمثال . وطار صيته في الخلقين وازدلفت إليه ملوك أوروبا ، وقدمت عليه وفودهم طالبة موادعته وموادته ، فكان بحق أوحى ملوك العالم في عصره .



وأما القاضي ، فهو أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي ، أصله من خصم البلوط في شمال قرطبة ، ولد في العقد الثامن من القرن الثالث للمجرى ، ونشأ وتقه بالأندلس على عبيد الله ابن يحيى بن يحيى اللبني وأمنه ، ثم رحل إلى للشرق حاجاً وطالبا للرواية ، على عادة كثير من علماء الأندلس في ذلك الزمان ، واجتمع في رحلته بمجربة من علماء للشرق ، وظهر فضله هناك . وعن سمع عليهم بمكة : محمد بن للنذر التيسابوري ، سمع عليه كتابه للزلف في اختلاف العلماء ، للسى « بالأشراف » ، كما روى بمصر كتب « العين » للخليل عن أبي السباس بن ولاد ، والشعر القديم عن أبي جعفر بن النحاس . ثم عاد إلى وطنه ، وقد

استحكمت منه وكلت تجربته وتمت ثقافته ، وأصبح معدوداً في كبار قهواء الأندلس وقتها
في العلم ، وقد صنف كتباً في علوم الفقه والكلام والتفسير ، وكان يثلب عليه الفقه بمذهب
داود الظاهري ، ويأخذ به نفسه وقديه ، فلما تولى القضاء كما سيجيء ، كان لا يقضى إلا
بمذهب مالك ، لأنه للذهب الذي كان عليه السبل بالأندلس ، على أنه كان مع ذلك واسع
الأنف في مسائل الفقه ، ميلاً إلى الاجتهاد ، غير ملتزم بالتقليد ، يشير إلى ذلك قوله :

مذيرى من قوم إذا ما سألتهم دليلاً أجابوا : هكذا قال مالك

فإن زمت قالوا : قال سحنون مثله وقد كان لا يخفى عليه للمالك

فإن قلت : قال الله ، ضجروا وعولوا على وقالوا : أنت خصم عماحك

وكما كان منظره قديماً متبحراً في الفقه ، كان خليطاً مفوهاً وواعظاً جدير الصوت بليغ
الخطابة . قريب اللمعة ، حسن الترتيل ، قوى التأثير في سامعيه ، وكان فوق ذلك شاعراً ،
وشعره من قبيل شعر العلماء ، وقد أورد للقرى في كتابه نفع الطيب ، مساجلات شرعية
جرت بينه وبين أبي على القالي وغيره من الأدباء . وكانت فيه مع جده وورعه ، دعابة ربما
انخفض بها من لا يعرف بليغته ، فلذا أراد القليل من دينه تكشف له عن أسد ورد
لا يرام حله .

* * *

والظاهر أن منذر بن سعيد كان يحيا في قرطبة حتى سنة ٣٢٩ حياة فيه يدرس العلم
ويصنف الكتب ويصاحب العلماء والأدباء ، دون أن يلى السلطان عملاً ، مع فضله وتقدم
سنه . فذلك لم يكن الظاهر يعرفه شخصياً على غير ما يعرف السلطان كبار رجال دولته .
لهم إلا أن يدعى في زمرة القهواء إلى المحلات الرسمية ، التي كثيراً ما كانت تقام في البلاط
على عهد الظاهر . ثم عرضت ظروف نهبت الخليفة إلى مكانة منذر وفضله وخطره ،
ورفضت في طرفة عين إلى مكان الصدارة من رجال الدولة . ففي عام ٣٢٩ قدم قرطبة
وقد عامل القسطنطينية ، يحمل إلى الظاهر تحفاً وهدايا ، ويرغب في توثيق أوامر الرد
والصدقة بين الظاهر والظاهر البيزنطى . وقد أراد الخليفة أن يستقبل هذا الوفد في بعض
مجالس الزعماء ألخم استقبال وأعظمه . وقد أتى للقرى في كتاب « نفع الطيب » على وصف

حكك الخنجر بالفضيل . قال : « وقد قدم الناصر إلى الأمير الحكم ابنه ورث عهده بإعداد من يقوم من الأطباء ويقدمه أمام إنشاد الشراء ، فتقدم الحكم إلى أبي على فقال البنداض ، خيف الخليفة وأمر الكلام ، وبحر القنة ، أن يقوم ، فقام وحده الله وأثنى عليه ، وصل على نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع وبهت ، فما وصل إلا قطع ، ووقف ساكناً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضر في زمة التقهات ، قام بدرجة من مرقاة أبي على ووصل افتتاحه بكلام مجيب ، بهر الفضول جزالة ، وملاً للأسماع جلالة . وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جناته ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم توجعاً منه . وأقبل على ابنه الحكم فأنه عنه ، ولم يكن يثبت مرقته ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي ، فقال والله لقد أحسن ما شاء . وأراد الخليفة مكافأته والانتعاج بمواهبه ، فوله الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بمدينة الزمراء . ثم حدث بعد قليل من الزمن أن توفي قاضي الجماعة بقرطبة ، فولى الخليفة منذراً قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزمراء .

* * *

وهكذا نشأت الصلة بين الخليفة الناصر وبين الله وبين القاضي منذر بن سعيد . نشأت من مناسبة عارضة أعجب فيها الخليفة بالقاضي والقاضي بالخليفة . غير أنه سرعان ما وقت الوحشة بين الخليفة وقاضيه ، وذلك لاختلاف وجهة نظر كلٍّ إلى الأمور .

أما الخليفة فكان ينظر إليها نظرة ملك عظيم وبما جانيه الصواب في تصرفاته على غير قصد منه ، ولكنه يجب مع ذلك أن يعرف له حقه من التبجيل والتكريم ، أما القاضي فكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يجرى في تصرفاته على أساس العدالة المطلقة ، مهما علا مكان القاضي إليه ولو كان الخليفة نفسه .

قالوا إن الناصر احتاج إلى شراء دار في قرطبة لإحدى نساياه ، فوقع استحسانه على دار واسعة ذات مستنلات واثرة ، وكانت لأيتام في حجرة القاضي . فأرسل الخليفة من خرمها بقدر ما طابت نفسه ، وأرسل نساء أسرهم بمداخلة وصى الأيتام في بيعها عليهم ، فذكر أنه لا يميز البيع إلا بأمر القاضي منذر ، فأرسل الخليفة إلى القاضي في بيع هذه الدار فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الرعي الشديد ، ومنها

النبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة بهذه الأيتام إلى البيع ، وأما الرعي فليس فيها ، وأما النبطة فهذا مكانها . فإن أعطاهم أمير المؤمنين ما تستعين به النبطة أصرت وصيهم بالبيع والإفلا . فخل جوازه إلى الخليفة ، وأظهر الزهد في شراء الدار طمعا في أن يغير القاضي رأيه . ولكن القاضي لم يغير رأيه ، ثم إنه خاف أن تنبثق من الخليفة عزيمة تلحق بالأيتام ضررا ، فأمر وصى الأيتام بقبض الدار وبيع أعضائها ، فعمل ، فكانت قبة الأخاض أكثر مما قامت به السلطان . عند ذلك أرسل الخليفة إلى القاضي مسددا يسأله عما دعاه إلى قبض الدار ؟ قال أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لما كُتِبَ يسألون في البحر ، فأردت أن أهييها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » مقوموها لم يقوموها إلا بكذا ، وقد قبض في أعضائها أكثر من ذلك . وبقيت القاعة والحمام ، ونظر الله للأيتام ، فلم يسع الخليفة إلا أن يقر القاضي على ما عمله ، وقال : « نحن أولى من اتحاد إلى الحق ، فجزاك الله عنا وعن أمانتك خيرا » .

وهكذا أذن الخليفة لحدث أن يمر بسلام ، وإن كان أبق في نفسه شيئا من اللوعة على القاضي الذي تحده على هذا النحو الذي لم يعود . ثم سرعان ما وقع حادث آخر كان أشد من الحادث الأول وأدعى . لقد كان الناصر بطبعه ميلا إلى العبارة ، مشغوقا بتشديد البنيان يرى أن ذلك من أبهة للآل والدليل الباقي على فخامة الدعوة ، ويذهبون إليه أنه القاتل :

هم للوك إذا أروا ذكرا
من بدم فيالآن البنيان
أو ما ترى المرمين قد بجاؤكم
ملك محضه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تناغم شأنه
أنهى يدل على عظيم الشأن

وقد أقبل على عمارة الزمراء أيما إقبال ، وأخفق من أموال الدولة في تشييدها وزخرفتها ما أخفق ، وهي لا تدور في حقيقة أسرها أن تكون مجموعة من القصور الفاخرة مخصصة لزمه وسكنى خدمه وحشمه وحرسه ، وكان ربما أشرف بضه على شئون البناء والزخرفة حتى شغل ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة ثلاث جمع متواليات . فاشهد ذلك على خطيب للسجد الجامع بالزمراء وإمام الصلاة فيه ، ورأى خروجها من تبة التصغير فيا أوجب

الله على العلماء من تنبيه الغافل وتذكير الناس ، أن يلقى على الخليفة درساً قد يكون تنبيهاً على نفسه ، ولكن فيه شفاء له من علة الإسراف ، ورد إلى طريق الصواب . ورأى أن يكون ذلك على ملا من الناس وفي المسجد الجامع بالزعماء فيها . وعلم أن الخليفة سيشهد صلاة الجمعة بعد طول انقطاعه عن شهودها ، فأعد خطبة قوية ضمنها كل ما كانت تميش به نفسه من اللامى . فلما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة اعتل للنهر ، والخليفة حاضر والمسجد غاص بالمصلين ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى « أتيتون بكل آية تعيثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » إلى قوله « فلو اسواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » ثم مضى في ذم تشييد البنيان ، والاسترقاق في زخرفته ، والإسراف في الإنفاق عليه ، بكل كلام جريز ، وقول فصل ، تلا قوله تعالى « أفئن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالين » وراح يخوف من اللوث ويحذر من لجأته ويدعو إلى الزهد في هذه الدار القانية ، ويحرض على الإعراض عنها ، ونهى النفس عن اتباع الهوى ، فأسهب في ذلك كله وأضاف إليه من آتى القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر من حضر من الناس وخشعوا وارتقوا وبكوا وسجوا ودعوا ... وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وتدم على تربيته .

غير أن الخليفة وجد على منظر لفظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده وولى عهد الحكم بعد انتهاء الصلاة وانصراف الخطيب ، وقال : والله لقد تصدق منظر بخطبته ، وما عني بها غيرى فأسرف على ، وأفرط في قربي وتأنبي ولم يحسن السيلة في وعظي ، فزعمت قبي ، وكاد يصعاه يقرعني ، ثم استشاط غيظاً عليه ، فأقسم أن لا يصل خلقه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلزم صلاتها خلف صاحب الصلاة بقرطبة ويحارب الصلاة بالزعماء .

هذه كل القوية التي نال بها الخليفة الخطيب التي تجاوز الحد في وعظه وإرشاده . وقد قال له الحكم : فما الذي يملكك من عزل منظر عن الصلاة بك واتخاذ غيره مكانه ؟ ولكن الخليفة زجره وقال له « أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وطله ، يبرز لأرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون ... بل يصل بالناس حياتهم وحياتهم إن شاء الله ، فما أظننا نضاض منه أبداً » .

ثم إن الجنوة تأكدت واشتدت بين الخليفة والقاضي ، وود ولى العهد لو أزالنا أو خفف من حدتها ، قيل إنه اعتذر إلى الخليفة عما قال منذر وقال يا أمير المؤمنين : إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً ، ولورأى ما أهدت وحسن تلك البنية ، لمذكرك ، ويريد بالبنية هنا القبة التي بناها الناصر بالزمراء واتخذ قراميدها من فضة . وبسبها منشى بالذهب ، وجعل سقفها نوعين : صفراء فاقية إلى بيضاء ناعسة ، يستلب الأبصار شعاعها . فلما قال له الحكم ذلك ، أسر قرشت بفرش الديباج . وجلس فيها لأهل مملكته . ثم قال لقرايته ووزرائه : أرايتم أم سمعتم ملكاً كان قبلى صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين ! ، وإنك لأوحد فى شأنك ! فبينما هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سيد واجاً ناكاً رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرايته ، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحية وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ما علمت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولأن تمكنه من قيادتك هذا المكنن ، مع ما أتاك الله تعالى وفضلك به على اللعين ، حتى يترك منازل الكافرين ! فافسر الخليفة من قوله ، وقال له انظر ما تقول ! كيف أتزنى منازلهم ! قال : ثم ! أبس الله تعالى يقول « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوثهم سفحاً من فضة ومسارج عليها يظهرون » : الآيات . فوم الخليفة ، ونكس رأسه ملياً وجعلت دموعه تنحدر على لحية ، ثم أقبل على منذر وقال له : « جزاك الله عنا ومن الذين خيراً فاقضى قلت هو الحق » ثم قام من مجلسه وأسر يقضى سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها .

وهكذا أفر الخليفة القاضي بأنه على الحق فيما قال . وزال ما كان فى نفسه من اللوجدة عليه .

ولكن بقي أن يرضى القاضي عن الخليفة . ولم يكن ذلك جيداً . فقد فطمت الأندلس فى آخر مدة الناصر (سنة ١٢٥٠ هـ) وأسر منذراً بالخروج للإسكندرية ، فخرج ، واجتمع له الناس فى مصلى الرضى ، وصعد الخليفة فى أعلى مصانعه المرتفعة ليشرك الناس فى الخروج إلى الله . وأجأ القاضي حتى اجتمع الناس ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً خجياً ، وطم لخطب . فلما رأى خشوع الجمع وإخباتهم رقت نفسه وغلبته عيناه ، فبكى حيناً ، ثم

انتبح خطبته قال : « يا أيها الناس : سلام عليكم ! » ثم سكت ووقف شبه المصمر ، ولم يكن من عاذته ، وتظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما همراء ، ثم اندفع في خطبته ، فمز القلوب ، وأبكى العيون ، وكان الخليفة أشد الحضور وجلا وغشوما ، وأغزرم بكاء وأحرم دعاء ، فلما رأى القاضى منه ذلك تهلل وجهه وقال : « قد أذن الله بالسيا . إذا خضع جبار الأرض ، قد رحم جبار السماء » قالوا وكان كما قال ، فلم يتصرف الناس إلا من السيا .

وتوفى الخليفة الناصر في سنة ٣٥٠ أما القاضى منذر فكانت وفاته في سنة ٣٥٥ في خلافة الحكم المستنصر . وقد ظل حتى وفاته على قضاء الجماعة بقرطبة والخطابة والعلامة بجامع الزهراء ، كما رسم الناصر .

وإن الإنسان لا يدرك بأى هاتين الشخصيتين هو أشد إيجاباً ؛ أالخليفة في نيته ، وسمة احتماله ، وإذعائه الحق عند وضوحه ، أم بالقاضى في عدلته ، وصراحته ، وشجاعته وشدة إخلاصه لدينه وواجبه . ألا حيا لله تلك النفوس الكبار فلى مثلها تصلح الدول وتستقيم أمور الناس ؟

١- الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي^(١)

قد وجد كثير من كبار الشعراء على مختلف الصور في الحوادث العامة للامارة لم
أو الساجدة عليهم مادة قرائتهم ، ومسرحاً غليظاً ، فانتخذا منها موضوعات بنوا عليها
قصائدهم ومسرحياتهم . قبل ذلك هوميروس في إلياذته ، وشكسبير في مسرحياته ، والفتني
في سينياته ، وشوقي في اجتماعياته وسياسياته . فهل للزورخ أن يعد شعر هؤلاء الشعراء
مصدراً من مصادر التعميق بهذه الحوادث ؟ وإذا جاز له ذلك ، فإلى أي مدى يكون
اعتماده على الشعر في تاريخ الحوادث للذكورة وتصورها ؟ إن الأمر ليس سهلاً كما يتبادر
إلى الذهن لأول وهلة ، فالشاعر ينظر إلى الأشياء بين الخيال دائماً ، وهو بحكم فنه الرفيع
قائى في تناوله الحوادث ، فهو يرتها ويعمك لها أو عليها تيهماً لما تبيت في نفسه من عاطفة
وتثير من إحساس . أما للزورخ فيحكم صناعته واتقى النظر إلى الحوادث ، يصورها كما
هى في الواقع ، أو كما يعتقد أنه حالها في الواقع على أقل تقدير ؛ وينبني أن يضبط عاطفته
جهد طاقته ، فلا يحمل لها على قله سلطاناً ، وأن يتقيد بالواقع كل التقيد ، يسبح في محيطه
سهما يكن كثيراً ؛ فإن حلت فرقاً فلكي يتمكن من رؤيته والإحاطة به لا أكثر ولا أقل .
وإذا فبين الشاعر الزورخ والمتخصص تباين شديد على ما يظهر . ولكن يظهر أن
التباين بينهما ليس تاماً ، فهناك أساس مشترك بينهما ، هو الواقع والحقيقة ؛ كلا الشاعر
والزورخ في مراد أمره يرجع إلى الواقع ويتعرف من بحره . وليس الاختلاف بينهما إلا اختلافاً
بين أسلوبيهما في التعبير عن الحقيقة والواقع . فالزورخ يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ،
ويسنى بمادتها وجسمها ، إذا صح هذا التعبير ، فهو يوقتها ويصاها ، ويرد بعضها إلى بعض ،
جاعلاً للصدق في كل ذلك شعاره ومبدأه ، محتاشياً للخطأ في القياس أو الاستنباط .
أما الشاعر فلا يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، وإنما يتناولها من بعيد جداً ، يتناولها
مصعدة منقطة متبلورة ، إن صح هذا التعبير . يتناولها من حيث تأثيرها في نفسه ؛ ويبلغ

تأثر نفس الشاعر بمحدث ما واحتياجه له ومن بمقدار تأثر البيئة التي يعيش فيها بهذا الحادث واحتياجه له . فالشاعر بسجل أثر المحدث في المحيط الذي يعيش فيه . والشاعر الحق هو الذي يدرجنا صادقاً لإحساسات البيئة التي وجد فيها . ونمثل لذلك بشعر أبي الطيب المتنبي المتنبي يمجّد سيف الدولة في قصائده السيفيات ؛ ولله في قرارة نفسه يعتقد أن سيف الدولة من حيث رقة ملكه وسعة موارده ، لا يزيد على أن يكون أميراً إقطاعياً من أمراء الدولة الإسلامية للترامية الأطراف ، وقد يكون أقل شأنًا وخطرًا من أمراء بني بويه شرقاً ، وخلفاء الأندلس غرباً . وهو لا شك يعلم أن في سيف الدولة عيوباً لا تنقش رؤيتها على مثله ؛ ولكنه مع ذلك ينض النظر عن عيوبه ويضيق على سيف الدولة حلالاً منشرة من مداخله . ذلك بأنه إنما أراد أن يصور رأى الناس لهذه في هذا البطل وفي وقته مع الروم دفاعاً عن التنوير الإسلامية ؛ في حين أن هذا البطل وهذه الوقائع ليست في نظر اللؤرخ للدق شيئاً كبيراً بالقياس إلى أبطال المسلمين الذين جاهدوا الروم قبل سيف الدولة وبسده ، ولا إلى الوقائع المنظمة التي جرت بينهم وبين قيامة بزنطة . وناحية أخرى من شعر المتنبي ، ذلك أنه يمدح الأفراد ويهمل الجماعات أو يذمها أبحر الذم ، يمدح سيف الدولة ويهمل أهل الشام ، ويمدح كافورا الإخشيدى ويذم للصريين ، حتى ليكاد يلحقهم بالسوم للهمة . ولقد كنا نقرأ كل ذلك قهراً وروماً ونقول شاعر يريد الاقتتان والإغراب . ولكن الحقيقة أن المتنبي لم يرد اقتتاناً ولا إغراباً ، وإنما هو من حيث يريد ألا يريد ، يصور ما لحق قهراً للمسلمين عامة وأهل الشرق الأدنى خاصة من ضعف وقصور ، انتهى بأن طمع فيهم الروم أولاً والصليبيون أخيراً ، فترجم في قعر دلوهم ، وتلقوا على حوزتهم خيبة طويّة من الزمان . فهل يقال بعد ذلك إن شعر المتنبي لا ينجدى على اللؤرخ لأنه شاعر كثير القهاب مع الخيال ؟ كلا ثم كلا ! المتنبي بأسلوبه الشرى الخاص قد سدّ قصصاً في كتب التاريخ ، ولا غنى حيث عن ديواته عند ما يؤرخ الشرق الأدنى في القرن الرابع الهجري .

وما يقال من المتنبي يمكن أن يقال عن كل شاعر آخر كبير تصدى لتسجيل المحدثات العظمى في شعره . على أنه ليس كل شاعر يستطيع أن يتناول المحدثات على نحو ما تناولها المتنبي أو شكسبير ، فالقدرة على تصفية المحدثات وقطعها وبلورتها لم توهب إلا لبقارة الشعراء وغولم غيب .

ونحن نعتقد أن من هؤلاء أبا القاسم بن هاني الأندلسي . وقبل أن نكمل القول في ذلك نعرف القاري بهذا الشاعر ترميزاً موجزاً .

•••

هو أبو القاسم محمد بن هاني الأندلسي ، يقال إنه من ولد اللهب بن أبي صفرة القائد الأموي المشهور ، وقب بالأندلس لفرقة بينه وبين ابن هاني المسكن الذي هو أبو نواس . كان أبوه هاني من قرية من قرى الهمدانية بآفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، ثم انتقل إلى الأندلس وتزل الهمدانية بقرطبة ، وولد له ابنه محمد صاحب الترجمة بأحد هذين البلدين سنة ٢٢٠ أو سنة ٢٢٦ على خلاف في ذلك ، وإن كان التاريخ الأول هو الأرجح عندنا . ونشأ محمد بقرطبة وتعلم بها وحقق علوم عصره وخاصة اللغة والأدب والفلسفة ، ثم انتقل إلى إشبيلية وتزلفا واتصل بصاحبها واشتم به ؛ غير أنه سرعان ما ثبت به إشبيلية والأندلس عامة ؛ ذلك بأن ابن هاني عرف بحرية الفكر ، ولهم بذهب الفلاسفة ، وروى بالتأليف التشيع ، هذا إلى استنار ، وفاد في السيرة ، وأمر يحتاج في الطريقة . وكانت الأندلس أياماً حديثة عهد بخلافة سنية جديدة ، أمما الناصر لم يبق بها على انغلاق السياسة الضيقة ، ويصعد بها انطلاقة الفاطمية الشيعية التي ظهرت في شمال إفريقيا ؛ وكانت الدولة الأندلسية فوق ذلك واقعة تحت همود قهواء للالكية ؛ فكانت الفلانة والشتون بها محل مقت الخامة والحانة على السواء . ولقد بلغ من ذلك أن أحرقت كتب الفيلسوف الأندلسي ابن سررة طناً في دواير قرطبة . من أجل ذلك اعتزم ابن هاني الهجرة إلى مدرة للرب حيث الدولة الفاطمية الجديدة ، وهي دولة قامت على دعاية باطنية واسعة النطاق ، تنسج لكل مفكر أياً كان اعتقاده ونوع تفكيره .

كانت إجازة ابن هاني إلى مدرة للرب في السنة السابعة والعشرين من حياته ، أي في سنة ٢٤٧ على تقدير من يقول إنه ولد سنة ٢٢٠ ، أو سنة ٢٥٤ على رأي من يحمل مولده سنة ٨٢٢٦ ، وعلى كلا الأمرين لقي ابن هاني جوهراً بالمتقى ، إما في جلسته الحورية الأولى على للرب الأنص ، أو وحلته الثانية إليه قصد تعهد أبوه قبل أن يسير للفر إلى مصر لتهتمها ؛ وقد مدح ابن هاني جوهراً لأول لقاءه به بقصيدة لم يجره عليها القائد

الكثير إلا يبلغ زهيد من اللال لم يرض الشاعر ؛ وسأل عن رجل بالترب يكون أكرم منه ، فدل على جعفر بن علي بن حمدون صاحب كورة الزاب بأفريقية ، فقد رحله إليه ونزل عليه وعلى أخيه يحيى بن علي ، وملكهما بقرى قصائد ، فكافأه على ذلك بالأموال السنية ؛ وعلاصته ، وأخل شعراء الترّب لعهده على الإطلاق . ثم نعى خيره إلى الخليفة للزّيد بن أبي العاصي ، فاستهداه من جعفر فسيده إليه مع تحف وهدايا كان أبو القاسم أحسنها في نظر الخليفة . وربما كان يده اتصال ابن هاني بالمرز حوالي سنة ٣٥٤ ، واضطع ابن هاني من ذلك الوقت حتى وفاته لمده للزّيد كبار رجال دولته ، وجعل يشيد بمجد الدولة القاطية ويهجو أعداءها . فلما أزمع للزّيد الاعتقال إلى مصر سنة ٣٦١ بعد فتح جوهر لما خرج ابن هاني لتشييعه ، قالوا ثم استأذنه في العود إلى الترّب ليأخذ عياله ويلحق به ، فأذن له في ذلك . وعاد ابن هاني ونجيز ثم تبع الخليفة ، فلما كان بركة استضافته رجل من أهلها ، فدل عليه في رفاق ؛ فيقال لهم عربوا عليه في مجلس أنس قتله ، وقيل في موته غير ذلك . وسها يكن من شيء قد كانت وفاته في سنة ٣٦٢ بالثامن من السرّيتين وأربعين سنة أو ستاً وثلاثين سنة تبعاً لسنة ميلاده كما تقدم . وبأبي الدكتور زاهد على المندى التي نشر ديوان ابن هاني من سنوات إلا أن يحمل لأموالي الأندلس يداني موته ، مع أن كل الروايات الواردة في موته لا تشير إلى شيء من ذلك ، ويقتضي الدكتور فياد سيرة الشاعر التي كانت السبب الأول في موته غير الطبيعي

وقد أجمع قواد الشعر ورواته على أن ابن هاني أعظم شعراء الترّب على الإطلاق ، مواته عديم نظير معاصره للثني عند أهل للشرق . ولما بلغت وفاته للزّيد أسف لذلك كثيرًا ، وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن فاخر به شعراء للشرق ، فلم يقدر لنا ذلك .

وسمع أن كل الشعراء تدل على أن ابن هاني كان مبكر الشعارية ، ومن الشعراء للكثيرين ، وأن قريحته كانت وقادة ، وطينه سخياً بالشعر ، فإن ما وصل إلينا من شعره ليس بالشئ الكثير . فلم يصلنا إلا شعر السنوات التسع الأخيرة من حياته ، إذ أخذنا بقول من يحمل حياته ستاً وثلاثين سنة فقط ، أو شعر الخمس عشرة سنة الأخيرة ، إذا قلنا

برأى الذى يحملها اثنين وأربعين سنة . وعلى كلا الأمرين لم يصلنا شيء البتة من شعره الذى قاله وهو فى الأندلس ، مع أن الأندلس وطنه الأول ، فيها ولد ، وفيها نشأ ، وفيها تعلم ، وفيها ترعرع ، وفيها ظهر ذكره . وبأشيلية استمتع بصحبة ملكها وعلموا لى أمية ؛ فأين غرامياته ، ووجدانياته ، وإخوانياته ؟ بل أين مدائمه فى صاحب أشيلية الذى رعد مارعاه ثم حيا له سيل المجرة إلى اللرب ؟ لا شيء من ذلك البتة . ويقرر الدكتور زاهد على المبنى ذلك النفس فى ديوان ابن هاني "تصيراً عجيباً" ، فيجعله على أن الشاعر لم يشتر في وطنه ، بل اشتهر فى اللرب ، وأن هذا حال أكثر الفضلاء "لأن الرجل في وطنه لا يكون معروفاً ، فإذا اغترب عرف فنله ، وقد يما قالوا ليس لى كرامة فى وطنه " (مقدمة الديوان ص ٢٠) ولكن ابن هاني عرف بالأندلس فعلاً ، وقال الشعر فى ذلك الطور من حياته ؛ وأكبر الفن أنه اصطحب نسخة أشعاره الأندلسية ، فأين ذهب ذلك ؟ ثم إنه لم يصلنا كل شعره الذى قاله بعد هجرته إلى اللرب . ونستشهد على ذلك بحادث واحد : فى سنة ٣٦٠ خلع جعفر بن على وأخوه يحيى وعشدهما ثوب التتبع ونكنا بيمعة للرز ، وخرجا من اللرب بعد أهوال ، ولحقا بالحكم للتتبع الأموى بالأندلس ، فاعتزت الأندلس لقدمهما وتقبلتهما بأعظم القبول . فلذا عرفنا أن هذين الأميرين لما من الأيدى على ابن هانيء لما لما غلب يغفل أن يمر هذا الحادث دون أن يترك فى نفس ابن هانيء أثرًا يظهر فى شعره إن قليلاً وإن كثيراً ؟ ومع ذلك فليس فى ديوانه شيء من ذلك الحادث الخطير من الناحية العامة ، ومن ناحية ابن هانيء خاصة إلى السبب الصحيح فى ضياع الجانب الأندلسى من شعر ابن هانيء ، والشعر الذى قاله فى حادث ابني على هو أن جامع ديوانه أراد ألا يثبت من شعر الشاعر إلا ما قاله فى الهدية العاطفية فقط . وإذا فتننا بإزاء ديوان شعر شيبى لشاعر شيبى إسماعيل لم فيا وصل إلينا من شعره بكثير من حوادث عصره وصورها فى شعره . فنتنظر إلى ما تناوله من تلك الحوادث لى كيف ألم به ، وكيف صوره .

٢- الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي (٥)

نصرو لقاري* النصر لقدى عاش فيه ابن هاني* الأندلسي ، فنقول : ولد شاعرنا نحو سنة ٥٢٢٠ هـ وتوفي سنة ٥٣٢٢ هـ ؛ قد عاش إثناً في صميم القرن الرابع الهجري ، وهو عصر حافل بالأحداث الجسام التي وقعت في العالم الإسلامي ، كما كان عصر تبدل واضح في علاقة الشرق الإسلامي بالتراب الأوربي للبحر . وحسبنا في هذا للقيام أن نقول في وصف العالم الإسلامي لذلك العهد إنه كانت تنقسم ثلاث دول متعاطلة ، وتتوزع ثلاث خلاقات متنافسة إلى حد بعيد : أولاها الدولة العباسية بالشرق ، وكانت أحوالها قد صارت إلى الضمحلال وفساد تلبية الترك والذيل على خلفائها واستبدادهم بالأمر دونهم ، مما أضف إلى السلطة المركزية ببندلا ، وأضاع هيبة الخلافة ؛ وذهب بروقها ، وجبر إلى تفرز الدولة إلى دويلات عدة كان بأسها بينها شديداً . ثم الدولة الأموية بالأندلس ، وكانت سالماً إذ ذلك على التقيض من حال الدولة العباسية . كانت في عصرها الذهبي ، عصر عاهلها العباسيين : محمد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم للنقص ؛ وقد قامت فيها خلافة منية اجتنبها الناصر عند ما رأى ما آلت إليه الخلافة العباسية من الضمحلال والفساد . ثم الدولة الفاطمية التي قامت بأفريقية في آخريات القرن الثالث الهجري ، وسرعان ما عم هزوها شمال أفريقيا كله تقريباً ، وولم للصدام بينها وبين الدولة العباسية في مصر والشام والمجاز ، وبينها وبين الدولة الأموية الأندلسية في التراب الأقصى .

وكان القرن الرابع الهجري زمن تبدل في العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي للبحر ، فيه نبثت وقويت فكرة الحرب الصليبية في أوربا على عهد أباطرة الروم خاصة . وكان السبب في ذلك ضعف الدولة العباسية ، حتى لقد أقدم الروم على غزو الشام ، وطعموا في استلاكها والزحف منها إلى نفس المجاز . على أن عدوان الروم في الشرق على البلاد الإسلامية كان يسلمه عدوان منه في التراب من القرام على بقية ملك الروم في جزيرة صقلية .

عاش ابن هاني في ذلك العصر ، وانتمى في البيئة الفاطمية السياسية كل اهتمام ،
وصور في شعره نواحي الحياة السياسية الفاطمية ، وعلاوة الدولة السيدية بالعباسيين والأمويين
والزعم ؛ وهو في أثناء ذلك كله يزود البيت أو البيتين بضمها شيئاً من تعاليم الشيعة
الإسماعيلية لتلك العهد .

يصور ابن هاني للزق الفاطمي خليفة مهيأ ، حكماً ، يضع اللدى في موضعه ، واليد
في موضعه ، نافذ الأمر في أقطار الغرب .

ملك أمان على الزمان بكل كل فأذل صبا في القياد جوحا
يضي لليل والعطاشا وادعاً تبت له عزما وأربعا
قل للجبارة للوك تنصوا سلا ، كفى الحرب السوان قنوحا
بيوتكم رجع الجنود قوافلا بالأسب تختل الدم المنوحا

وهو ياتي ضوءاً على النظام الذي جرت عليه الدولة الفاطمية في عهد الأفرقي ، وهو
النظام الإقطاعي الذي عم الشرق والغرب في المصور الوسطى ؛ وذلك واضح في قصائده
التي امتدح بها رجال الدولة الفاطمية ، فيقول في جفر بن علي صاحب الزب :

سد الإمام بك التور وقبه هزم النبي قومك الأحرا
أتم ذوو النيجان من يمن إذا عد الشريف أرومة ونصا
إن تختل منها للوك قصورك فطلال كانوا لها حبا

ويقول في أخيه يحيى بن علي :

وسيد سادت إذا ما رأته هفت يمان النجار متوجا
تألق في أوضاعه وحجوله لم تر عيني منظرأ كانت أبها
نما للرب أقصى بظرة بأه قلعه رحوا وقد كان صرحا

ويقول في أبي الفرج الشيباني ، ذا كرا بلاه في التمكن للدولة الفاطمية نفراً وفراً :

تنشق للشرق الأضوى إليك هبا تركت في الشرق من بأثرة هب
وكم تخلف في أوديس من جد بارت بذكرك في الأسماع والكعب

قد كنت تملؤه خيلاً مضرة يحلن كل حيد القبس والفضب
كن كيف شئت بأرض الشرقيين تكن بها الشهاب الذي يسلو على الشهب
فأنت من أنفع الأصنام واسطع المعروف فيها ولم تظلم ولم تحب
ويقول في نظام الجيش الذي دخل به جوهر مصر:

وقد دبت فيه للوك سراتياً فمن بين متبوع وآخر يقيم
تسير على أقدارها في مجابهة ويقدمها منه التزير للضعف
فهذا وصف حال لم أحساب وأنساب ، وبأس وسطوة ، ويسوا مجرد حال لإدريين
بالمضى للأثرف .

ويصف بحرية الموة القاطية ، فيقول في الأسطول وفي استعمال النار الإفريقية
في حرب الروم خاصة :

لك البر والبحر العظيم عباة قيان أغمار تخاض ويد
أما والجوارى للثبات التي سرت قد ظفرتها عدة وعديد
قياح كما ترجى القياح على المها ولكن من ضمت عليه أسود
أطاع لها أن لللائك خلفها كما وقت خلف الصفوف ردود
وأن الرياح القاريات كتاب وأن النجوم الطالعات سعود
مواخر في طاني السباب كأنها لعزتك بأس أولئكك جود
من القادحات النار تضرع الصلى فليس لما يوم اللقاء خود
إذا زفرت غيظاً زلمت بمارج كما شب من نار الجحيم وقود
فأقواهم الحاميات صواعق وأخلصن الزانرات حديد
يشب لآل الجاثليق سحرها وما هي من آل الطريد بيد
يعنى بآل الطريد بنى أمية الأندلسيين .

ويقول في ضخامة الجيش الذي فتح به جوهر مصر :

- رأيت بيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع
- خداة كان الأفق سد بمنه فلا غروب الشمس من حيث تطلع

تسير الجبال الجاهلات لسيده . ونوجد من أدنى الخفيف وتركم
إذا حل في أرض بئاعا مدانكا وإن سار من أرض نوت وهي بئاع
ويملو لنا ابن هاني ناحية هامة من تاريخ الترب لهده ، فيذكر لنا وجود للذهب
الطارجي في الترب الأقصى وإفريقية في ذلك الزمن ، وأن الطولرج كانوا يسلون لحساب
الدوة الأموية ، ويبين جد الخليفة للز وهام في قتال هذا الذهب للناس للتشجيع من جهة
وللتأنيب لدوة مادية من جهة أخرى ؛ فيقول في أخذ جنترين على قلعة حصينة كانت
بأيدى الطولرج بإقليم الزاب .

سرورية ما كبر الله خالط عليها ولا حيا بها ملكاً وفد
وكانت شجا للملك سجين حبة وما طيب وصل لم يكن قبله صد
وعادت بهم حرب الأزلوق لأحقاً وإن لم يكن فيها للهب والأزد
ويقول في حرب أبي الفرج الشيباني مع خولرج للترب الأقصى :
كل السيوف اللواتي جردت كذب وهو الجرد ليس المتيقن
لم يجهلوا ما لاقى في التشجيع من تمريض شارية أو بأس شاري
وما يذل من أهل الحناد لم وما يذل من الدين الأبنى
من يصطلي حر نار أنت موقدها وهي المروء على الشعب المروء
هذا من حيث أحوال الدوة الداخلية ، فأما من حيث علاقتها الخارجية ،
فالشاعر يبدى القول ويبيده في بيان العلاقة بين القواطم والأمويين وهو متأثر في ذلك
ببرامل بعضها شخصي كما يؤخذ من قوله يصف قراره من بني أمية إلى إفريقية ؟
ولو علقته من أمية أحبل لب سنام من بني القشر تملك
ولما التقت أسبغها ورماسها شراعاً وقد سلت على السالك
أجرت عليهم عابراً وتركها كمن للتيا تحت جنبي أرائك
وما خسرو إلا قديم تشي ضحي ليلاً شدة التدارك

رجلها علم دافع إلى ما كان بين الأميين والقاتلين من المداوة فيقول :

وأمية تخفى السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر فوما ؟

يجهشوا فمهم يتوجهوك بارزاً والنتاج مؤثقة عليك لموحا

ليسوا معانيهم وازد قبيحهم كاللايات على الخداد مسوحا

وقد يحلله فرط تصبه لقنواظم على أن يصف الأميين بالجهن وعلم البصر بالحرب :

وما عرفت كرم الجياد أمية ولا حلت بزلقنا وهو شاك

ولا جردوا نصلاً تخاف شياه ولكن فولا فاعبدا وهو آتاك

ولم تنم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء السوارك

٣ - الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي (٥)

ومن السبب أن ادعاء ابن هاني "جبن" أموي الأندلس على جلاله ، يكرره داعية
 فاطمي آخر ، هو لرحالة أبو القاسم بن حوقل القزويني للعاصر لابن هاني ؛ فيقول في كتابه
 « صورة أقاليم الأرض » : « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هم في يده ،
 مع صنو أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم ويهدم من الرأس والشجاعة والقروسية
 والبيعة وقواد الرجال ، وسلس الأيجاد والأبطال ، وعلم مولانا عليهم السلام بمحلها في نفسها
 وقدر حباياتها ، ومواقع نسائها وقلتها » . والشاعر والجغرافي كلاهما يريان إلى غرض
 واحد ، هو حمل اللز على غزو الأندلس ؛ ولكن اللز كان أهد منها نظراً ، فلم يعرط
 في حرب جديبة مع الأندلس ، بل صرف قوته إلى الشرق ، على ما هو معروف . . .
 وليست حجة الشاعر على الأمويين بأقل من حجة على الباسيين ؛ وهو متأثر في ذلك
 بالنسبة السياسية الشيعية لقائه بأن الخلافة حتى لأبناء علي بن أبي طالب دون غيرهم
 فيقول مغالياً بين الباسيين :

أبناء تالة مالكم ولشركم دوحه الله قدي يختار ؟

ردوا إليهم ختمهم وتذكروا وعملوا قسداً استعجوا

ولهم زمر الثاني كلما أناكم للثني والزمنا

ويرض باستخراء الخلفاء الباسيين وغلبة الأعمام عليهم .

قد شمت بعض القلي من جنونها وكانت حتى تألف سوى الملام نام

وقد غضبت للدين بأسط كفه اليمن في إياق كالتيكلم

والرعب الرعب وقت غسودها والنسرة البيداء في الزمن السوي

والملك في بغداد أن رد حكمه إلى عصف في غير كف ومسم
إلى شلميت في ثياب خليفة وبضع لحام في إهاب مورم
فإن يكن السبب التي نجاره فما هو من أهل العراق بالأم
سوام رناع بين جبل وحيرة وملك مضاع بين ترك ودلم
ولما قلب عامل الروم قنود قوقاس الثاني على الثورة الإسلامية ، وأوغل في الجزيرة
ونازل أنطاكية ، واستولى أسطوله على قبرص ، وعجز سيف الدولة الحمداني عن مداخلته
لاشتهاله بحرب الطامنين في ملكه من جهة مصر والعراق ، كان قلقاً أثر حريق في نفوس
اللدنيين عامة ، لم يخف منه إلا خطط جيوش للزحف على قوى الروم بصقلية . وفي
سنة ٣٥١ استولت تلك الجيوش على قلعة طبرمين من أيدي الروم ودمطة في سنة ٣٥٣ ؛
وفي عام ٣٥٥ عقد صلح بين اللزوين والأميراطور قنود قوقاس ، وقد تجاربت أقطار العالم
الإسلامي بأصداء هذه الحزائم وتلك الانتصارات ؛ وقد سجل ابن هاني في شعره تلك
الأصداء ، فيقول في وصف إلحاح الروم على مدن الشام ، وعجز الشارقة عن مدافعهم :

مالي رأيت الدين قل نصيره	بالمشرقين وفد حتى حرقا ؟
م صيروا خدماً تسوس أمورهم	يا الزمان السود كيف تعرقا ؟
عبدانٌ عبيدانٍ وتبع تبع	فالقاضل للفضول والوجه القضا
يا ويلكم أنفالك من صارخ	إلا بشر ضاع أو دين هنا ؟
فديته من بعد أخرى تنفي	وطريقة في إثر أخرى تنفي
حتى لقد رجفت ديار دينة	وترزكت أرض العراق تخروفا
فالشام قد أودى وأودى أهله	إلا قليلاً والمجاز على شفا
أيسر قريباً أن مكة غودرت	بمجر جيش الروم قاعاً مضعفا ؟
أو أن ملحمود النبي وروسه	بمدارج الأقطام ينف منفا ؟
تقرصوا فاقه معجز وعده	قد آن للشقاء أن تحكنا
هذا للز ابن النبي الصلبي	سينب عن حرم النبي للصلي

ويقول في مدح للزروق الفتح الذي تم له على الروم ، ويصف كيف تلقى للزرقا
ذلك الفتح :

يوم عريض في التبخار طويل ما تنفص غرر له وحجول
مسحت قمر الشام أدمها به ولقد تيل القرب وهي حول
وجلا ظلام الدين والدنيا به ملك لما قال للكرام فقول
له عينا من رأى إنياته لما أتاه بريدعا الأجنيل
وسجوده حق، التقى غر الزرى وجيشه والنظم والأكيل
لو أبصرتك الروم يومئذ دوت أن الإله بما تشاء كفيل
أنت الذي ترث للبلاد لهم فالأرض قال والوجود دليل

وقد يكون أم من كل ما تقدم ، تلك الناحية من شعر ابن هاني التي تصف عقائد
التشيع الإسماعيلي في العهد الأفرنجي من حياة الدولة الفاطمية^(١) . وابن هاني "شديد الحية
التشيع ، فهو عنده للذهب الحق ، فيقول في مدح أبي الفرج الشيباني :

رصكن لسرك من لو كان دولتهم وعروة من عرى الدين الحقني
كل السيف القواني جرت كذب وهو المجرد لسيف الحقني
وعنده أن الأدب الحق والخلق الحق هو الأدب الشيء والخلق الشيء :

فه من علوى رأى منتجب إلى البلى واللى الأصل مرئى
شيئى أملاك بكر بن هو الشبوا ولست تلقى أديبا غير شيئى
ويعرض ابن هاني "لفظية الإمامة عند الإسماعيلية . فيقول بضرورتها :

إذا كان أمن يشل الأرض كلها فلا بد فيها من دليل مقدم
إذا كان تحريق القنات لسة فلا بد فيها من وسيط مقوم
وآية هذا أن دعا لله أرضه ولكنها لم ترس من غير علم

«وليلة الإمام لا تثبت بالاجتهاد، ولكن بالنس من قوله»

وما ذك أخذاً بالقراسة وحدها ولا أنه فيها من الغن مضطر
ولكن موجوداً من الأمر الذي تلقاه عن حبر ضنين به حبر
والإمام مظهر نور الله :

وما كان هذا النور نور جبينه . ولكن نور الله فيه مشارك
والإمام موئل علم التأويل ، وهو العلم الذي تعرف به سائر القرآن الحقيقية :
قد كاد ينفذ بالعميد لطول ما أصنى إليك ويسلم التأويلا
وعلم التأويل مقصور على الإمام مكتوم عن العامة :

إذا كانت الأبواب يقصر شأوها فظلم لسر الله إن لم يكن
والإمام مضموم من الخطأ :

من كان سباً للقدس فوق جبينه فأنما الضمين بأنه لا يحيل
وابن هاني يسير في رأى الدكتور زاهد على عن معنى التوحيد عند الإسماعيلية بقوله
غالباً الخليفة للمز :

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأت الواحد القهار
يقول الدكتور إن الإسماعيلية تنزه الخالق عن الصفات مطلقاً، وتوصفاه على البدع الأول
وهو الأمر والسكنة . ولما كان الإمام قائماً مقام الأمر والسكنة في هذا العالم ، لجميع
صفات البرى وقصة عليه ، فلا يجب أن أطلق الشاعر « الواحد القهار » على المز . ولكن
يظهر أن قول الشاعر : « ما شئت لا ما شئت الأقدار » يضيف هذا التفسير ، فذلك ماد
الدكتور فكتب على تحريمه للدكتور بقوله إن الشراء كثيراً ما يبايعون قبا يقولون ...
وقد قيل : « أحسن الشعر أكذبه » فليكن إذا هذا القول الأخير هو وحده الذي يستلزم
به عن إسراف الشاعر وقوله .

ندين من كل ما تقدم أن ان هانى وعرض في شعره لأهم حوادث العالم الإسلامى
 في عصره : صور النظم الأساسية للدولة الفاطمية ، وبينت من الوجهة الشبية علاقة
 هذه الدولة بالدول المعاصرة لها ، ثم ألم بطائفة عامة من عقائد الشيعة الإسميلية . وكانى
 به ، يقول : إن السر العظيم فى قوة الدولة الفاطمية وسرعة تكوينها ، إنما هو فى سياستها
 الحكيمة التى جرت عليها : سياسة العدل والإحسان والنظام فى الداخل ، والانتصار
 لقضية الإسلام العامة بإزاء أعدائه فى الخارج ، وإن قرا لم إفرقية كانوا يثابتن ولم يكونوا
 هدامين كاترسلطة والمشيئة وللأحلة الذين يتنون إلى للذهب الإسميل . وليت شمرى
 هل يستطيع أكثر المؤرخين تسقا لهم الحوادث ، أن يعمل إلى أعمق وأصدق مما وصل
 إليه هذا الشاعر ؟

بنو فراس بن غنم

يروى أنه لما توارت الأخبار على الإمام علي بن أبي طالب باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد بندقمة صفين ، قام على النبر ضجراً يتناقل أصحابه عن الجواد وخافتهم له في الرأي ، فخطب الناس خطبة قوية جاءت فيها هذه العبارة : « أما والله لو ددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم » وهذا العدد الذي تمتد الإمام علي قليل جداً بالنسبة إلى جيشه الذي بلغ في وقعة صفين خمسين ألف مقاتل على أقل تقدير . فمن بنو فراس هؤلاء الذين يدل الرجل الواحد منهم خمسين رجلاً من أصحاب الإمام ؟

قال ابن أبي الحديد في شرحه على كتاب « نهج البلاغة » . « قال القطب الراوندي : بنو فراس بن غنم هم الروم » . ويختل^١ ابن أبي الحديد بحق هذا التفسير ويقول : الصحيح أنهم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، من مشهور بالشجاعة ، منهم علقمة بن فراس وهو جندل الطمان ، ومنهم ربيعة بن مكدم حامي الظن حياً وميتاً ، ولم يحرم الحرير وهو ميت أحد غيره . عرض له فرسان من بني سليم ومعه ظلمان من أهلهم يحميهم وحده ، فطاعنهم ، فرماه أحدهم بسهم أصاب قلبه ، فنصب رمحه في الأرض واعتد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل ، وأشار إلى الظلمان بالرواح ، ففرن حتى بلطن بيوت الحى ، وبني سليم قيام إزاده لا يقدمون عليه ويظنون حياً ، حتى قال قاتل منهم إنى لا أراه إلا ميتاً ولو كان حياً لتحرك ؛ إنه والله لما تامل راتب على هيئة واحدة لا يرفع يده ولا يحرك رأسه ، فلم يقدم أحد على الدنو منه حتى رموا فرسه بسهم فشب من تحته ، فوقع وهو ميت وقتلهم الظلمان .

وما يجري مجرى اللوازة بين بني فراس وأشباههم ، ما يروى من أن للنصور بن

عاصر الأندلس كان في غزاة له فوقف على نثر من الأرض فرأى جيوشه قد ملأت
السهل والجبل ، فأجابه ذلك ، وانضت إلى مقدم المسكر ، ويرى ابن الصحنى ،
وجرى بينهما هذا الحوار :

للتصور - لا يميز أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبيعة ؟
ابن الصحنى - يطرق ساكتاً .

للتصور - وما سكوتك ؟ أليس في هذه الجيوش ألف مقاتل ؟
ابن الصحنى - لا !

للتصور (متجبراً) - أليس فيهم خمسمائة رجل من الأبطال للدودين ؟
الصحنى - لا !

للتصور (منضياً) - أفهم مائة رجل من الأبطال ؟
ابن الصحنى - لا !

للتصور - أفهم خمسون من الأبطال ؟
ابن الصحنى - لا !

عند ذلك اشتعل التصور غضباً وأمر بمقدم المسكر فأخرج على أقيح صفة .
فلما توسطوا بلاد الدود و تصاف الجمعان ، برز هليج من صفوف الأعداء شاك في سلاحه
يكر ويضرم وينادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة قتله
العليج . فصاح المشركون وقتل للعلون ، وكادت تكون كسرة . فقيل للتصور ، مالما غير
ابن الصحنى ! فبحث إليه ، فغض . فقال له للتصور : ألا ترى ما يصنع هذا العليج الكلب
منذ اليوم ؟ قال : جئني جميع ما جرى ! قال فما الحيلة فيه ؟ قال وما تغنى تريد ؟ قال أن
تسكنى المسلمين شره ، قل : نعم ، الآن !

ثم قصد ابن الصحنى إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل التصور على فرس قد
نشرت أورا كما هو حالا ، وهو يحمل قرية ماء بين يديه على القرس . قال له ابن الصحنى :
ألا ترى ما يصنع هذا العليج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيته ! فإذا ترى فيه ؟ قال : أريد
رأيه الآن ! قال نعم !

فقل الرجل القربة إلى رجلي ، وليس لأمة حربه ، ورمز إليه ، فخبأ ولا سافة ، فلم
ير الناس إلا للمسلم خارجا يركض ولا يدرون ما هناك ، وإذا الرجل يحمل رأس البلع ،
فألقى الرأس بين يدي المنصور .

عند ذلك قال ابن المصنفى للمنصور : أعيرتك أنه ليس في عسكرك من مثله ألف ،
ولا خمسمائة ، ولا خمسون ، ولا عشرون ، ولا عشرة . فرد المنصور إلى منزله وأكرمه .

وبعد ، فيقال إن عدة المسلمين في جميع أنحاء العالم تبلغ اليوم زهاء ثلثمائة مليون من
الأنفس . ترى كم فيهم من يشبه بنى فرانس ، ويشبه هذا القمارس الأندلسى النور؟
لنا نجيب عن هذا السؤال الدقيق . ولكننا ، ونحن في مستهل عام هجرى جديد ، فنبهل
إلى المولى عز وجل أن يكثر فيهم أمثالهم ، أو أن يحلهم جميعا على شاكلة بنى فرانس ،
وما ذاك عليه سبحانه جزير .

قرطبة الإسلامية

قع بين الجبل للنسب إليها وهو جبل قرطبة من ناحية الشمال ، وبين الرياض الكبير من ناحية الجنوب . وتمثل بقعة خصبة غنية بالمرعى والكروم وشجر الزيتون وغير ذلك مما محمود في هذه المنطقة من الزروع والثمار .

وهي مدينة عادية قديمة ، لا تدرى أوليتها على التحقيق ، غير أنها ورد ذكرها في الحرب البونية الثانية . وفيه اسمها على عهد الروم والبيزنطيين ، ثم اشتمل شأنها زمن القوط الذين اتخذوا طليطلة قاعدة للحكم .

نصها هشوة ميثث الروي ، أحد رجال طارق بن زياد ، وذلك بقرب وقعة البعيرة التي كانت في سنة ٩٢ هـ . واتخذها الخوارج العربي السبع بن ملك الخوارج قاعدة لأملوة الأندلس وانتقل إليها من إشبيلية سنة ١٠٠ هـ وما يدل على سوء حال المدينة عند فتح العرب لما ما كتب به السبع إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشير به ويطلب أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية قريش ، وكان لما جسر يمر عليه نهرا ، ووقفه يحميه واجتاعه من الخوارج في الشتاء عامة ، فلما رأى أمير المؤمنين بنيان سوز المدينة فطمت ، فلما قيل غرقة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند وفتقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فهدمت جسرهم . فيقال إن عمر أسرى بنيان القنطرة بصخر الدور ، وأن بني السور بالين ، إذ لا يجد له صخرأ ، فوضع يدا بني القنطرة في سنة إحدى ومائة (أشهر غرقة ص ٢٤) .

هكذا ابتداء العهد العربي الإسلامي من حيلة قرطبة وهو أزمى محمودا على الإطلاق . بقيت فيه قرطبة من الفخ والازدهار ما عني على تاريخها القديم والحديث ، فقد حجاج أسماء العرب وملوك بني أمية وخلفائهم على عمارتها ونوحتها وجميها ، حتى أصبحت في القرن الرابع الهجري أعظم مدن الغرب الإسلامي طلبة ، ومن أمهات المراكز الإسلامية ، وكانت تتدل في أماسها أحد جانبي بتدلي .

أخذها السج بن مالك كقلعة قلعة وبني جسر هاروم سورها ، وابتنى عبد الرحمن الداخل قصرها ومسجدها الجامع ، كما ابتنى في شمالها قصر الرصافة لخدمته خاصة وزاد عبد الرحمن الأوسط في مسجد الجامع ، وجعل إلى قرطبة للقاء المذهب من الجبل الشمال في أنابيب الرصاص ، وزاد عبد الرحمن الناصر في المسجد وابتنى الزهراء غربي قرطبة ، وزاد الحكم المستنصر في المسجد الجامع زججه وقفه ، وأتم بناء الزهراء ؛ فلما كان زمن النصور بن أبي عامر زاد في مساحة المسجد الجامع وبني الزاهرة والماسرة شرق قرطبة ، كما قد جسر آخر على الوادي الكبير . وبذلك بلغت قرطبة في القرن الرابع للمجرى أو العاشر لليلاد غاية انبعاث وعمرتها . ويفصل القرى في كتابه « فتح الطيب » الكلام على هذا السران وذلك الاتساع فيقول « أصبحت دور قرطبة التي بها وأرباضها ، أيام ابن أبي عامر فكانت مائتي ألف وسبعين داراً . وهذه دور الرعية . وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار سوى مصاري (أي غرف) الكراء ، والحمامات ، والحانات ومسدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون حانوتاً » . ويقل للقرى كذلك « إن عدة مساجد قرطبة عند تطلعها في مدة ابن أبي عامر ألف وستة مسجداً ، والحمامات تسعة وخمسة وأربعون » ويقول « إنها تحيط بها البساتين ، والزيتر ، والقرى ، والمصرون واللياء ، والعيون ، من كل جانب ، وبها الحورث العظيم الذي ليس له في بلاد ^(١) الأندلس نظير ، ولا أعظم منه بركة » .

أما الشريف الإدريسي الذي تصف في قرطبة في أوائل القرن السادس ، فيقول في كتابه « رمة اللشق في اختراق الآفاق » « وهي في ذاتها مدن خمس يطوقها بها بساتين ، بين المدينة وللمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والقنادق والحمامات وسائر الصناعات . . . ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمسجد المسلمين مثله بنية وتشييداً وطولاً وعرضاً » . ويستفاد من كلام الشريف الإدريسي أن مركز قرطبة « مدينتها الوسطى » هي ما يعرف « بالقصبة » أو « للمدينة » وهي التي فيها المسجد الجامع وقصر الأمارة ، ثم امتدت غرباً فبني الناصر مدينة الزهراء ،

(١) هو عرث السكباتية للند جنوب قرطبة على الضفة اليسرى الوادي الكبير .

واتصلت الهامة بينها وبين « المدينة » فتشأ ما يعرف بالجانب الغربي ، كما اعتدت من ناحية الشرق مبنى ابن أبي عامر بمدينة الزاهرة . واتصلت الهامة بين المدينة للتوسعة وبنها ونشأ ما عرف بالجانب الشرق ، فهدى على المدن المجلس التي كانت تناف منها قرطبة الإسلامية ، والتي يشير إليها الإدريسي في جواره المتقدمة .



تقد جمع الشاعر ما المعزت به قرطبة الإسلامية من المالم في قوله :
 بأرج طافت الأمصار قرطبة ومن فطرة الروادى وجاسما
 هاتان فتحات وإزعماء ثالثة . والم اعظم شىء وهو راجبا
 ولم يد هذا الشاعر الحقيقة التاريخية في سرد معالم قرطبة على النحو المذكور فلتتبع هذا الترتيب في الكلام على هذه المعالم .

١ - أما القنطرة قديمة ، بناها الروم على نهر الروادى الكبير ، ثم تهدمت قبيل الفتح العربي للأندلس ، فبناها السج بن مالك كما تقدم القول . ثم تهدمت أجزاء منها بعد ذلك . فرمها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وأبقى في ذلك أموالا عظيمة ، وأشرف على بنائها بنفسه ، وقد شاهدها الشريف الإدريسي في القرن السادس للمجرى ووصفها في كتابه بالضخامة والمناة وبأن أطرافها سبع عشرة وبأن تحتها في قاع النهر أرواح يدبرها انصباب ماء النهر ، ولا تزال هذه القنطرة قائمة إلى اليوم على الميثة التي وصفها الإدريسي ، وكانت تلك القنطرة واسطة الاتصال بين قرطبة والأرباض الجنوبية ومن ثم غاية ولاء الأمور الأمويين بأسرها .

أما المسجد الجامع فهو أعظم معالم قرطبة وأشهرها « وليس له مثيل في مساجد المسلمين بنية وعسقا وطولا وعرضا » كما يقول الإدريسي . وكان قبل الفتح العربي للأندلس كنيسة يقال لها كنيسة القديس قسنت . ويحكى مؤرخو العرب في تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد نفس القصة التي يحكونها في تحويل كنيسة القديس يوحنا إلى الجامع الأموى المشهور بدمشق . فيقولون إن القابعين استولوا أول الأمر على نصف الكنيسة وحولوه إلى مسجد جامع لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل ورأى ضيق المسجد بالمصلين ساءم نصارى قرطبة في النصف الآخر الذي بأيديهم ، واشتره منهم بشئ لم يتصوره ، وفرق ذلك أجاز لهم إعادة

الكنائس الأخرى التي هُدمت وقت الفتح . ثم بنى عبد الرحمن الداخل للمسجد من جديد
 في أخاش الغمام ، وذلك سنة ١٧٠ هـ . ولقد تاجع ملوك بني أمية و خلفائهم على المسجد بالزيادة
 في مساحته ، وتنسيق وزخرفته فزاد فيه عبد الرحمن الأوسط زيادة كبيرة من الناحية القبليّة
 للواجهة لاهر ، وبنى الأمير محمد منصوره ، ومهد الأمير عبد الله بين القصر وبينه سابحا
 مسقوفا يمر منه من القصر إلى المسجد . وأبقى الناصر المنيعة ذات الدرجين المروقة
 بالصومعة وبالمئذنة . على أن أبدع أجزاء المسجد وأروعها الزيادة التي زادها الخليفة الحكم
 المستنصر في المسجد من الجهة القبليّة ، لاسيا الحراب والنبر والقصور ، وقد استعان الحكم
 في زخرفة هذا الجزء بصانع يوناني فاحر في الزخرفة بالفسيفساء ، أرسله إليه الامبراطور
 البيزنطي قنطور قوقاس مع مقادير ضخمة من الفسيفساء ، وكان ذلك طلب من الحكم
 شبه أسوة بما صنعه جده الوليد بن عبد الملك عندما أراد تجديد الجامع الأموي بدمشق .
 لما كان زمن المنصور بن أبي عامر ، ورأى ضيق المسجد بالمصانين لتوافد الكبر بر من الغرب
 زاد في المسجد من الجهة الشرقيّة زيادة بلغت ثلث مساحة المسجد كله ، وبذلك كل
 للمسجد وأصبح أكبر وأجمل مساجد العالم الإسلامي ، وكان طوله ١٨٠ مترا وعرضه ١٣٠ مترا
 وكان تلك مساحته حتما مكتسوفة ، وبقية المسجد مسقوفة ويشتمل على أكثر من ألف سارية
 تحمل المسجد أشبه بنبابة من الفخيل - وقد أورد ابن عذاري في تاريخه تفصيلات طريفة
 عن الزيادة التي زادت بها ابن أبي عامر كما أورد إحصاء لما كان للمسجد يشتمل عليه من عدد
 السور والفتيات والمصاييح ، وما كان مرتبطا به من مقادير الزيت والشمع والبخور ،
 وعدد آتته ، ومقرنيه ، ومؤذنيه ، وسدته ، وخداه ، وهو شيء كثير (ج ٢ ص ٣٠٨)
 ومع أن للمسجد قد حول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسبان على قرطبة ، فإنه برغم ذلك
 وبرغم القدم ، لا يزال حافظا لروحه وجلاله القديمين .

والسلام على « الزعماء » يقتضى أولا التعريف بقصر الإمارة بقرطبة .

قد كان حكماء قرطبة من القوط يملكون قصر أجمع غربي كنيسة القديس لئسنت ، ولما
هانت قرطبة تاعلة إمارة الأندلس لقب النصح العربي ، ولما أخذ أسرى العرب هذا القصر

بمقرأ لم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل جند بني أمية في سنة ١٦٨ وانتقل إليه من قصر الرصافة ، وأصبح القصر من ذلك الحين مقراً للأسراء بنى أمية يدعون منه شئون الأندلس كلها ، كما كان جانب منه مدفناً لمن يتوفى منهم . وقد تأتى الأمويون في بناء محاربي هذا القصر وتنسيق مبانيه ومن هذه المحاربي فيها يروى للورخون « البكامل » ، والروضة ، والبديع ، والفسوق ، والفانج . . . الخ . وكان يحيط بكل القصر سور مانع فيه أبواب كبار منها باب الجامع الذي كان مقابلاً للمسجد الجامع .

فلما كان زمن عبد الرحمن الناصر ورأى أن القصر أصبح واغلا في مدينة يتكاثر سكانها وتزايد مساحتها أحب أن ينتهي لنفسه وحرمة ودواوينه وخلعه وحشيه وحربه ، مكاناً خارج قرطبة يخطط فيه مدينة خاصة على نحو ما صنع النصور النباسي عند ما اختط المدينة للدورة ببنداد ، فشرع في سنة ٣٢٥ هـ في بناء مدينة الزهراء ، وقد سماها باسم جارية كانت حظية لديه ونقش صورتها على أبوابها فيها يروى ، ثم انتقل الناصر إلى مدينته الجديدة في سنة ٣٤٧ هـ وقد توفي الناصر ولم يكن قد تم بناؤها . فأقيم من بعده ابنه الحكيم للبههر (٣٥٠ - ٣٦٦) فكان بناءها مستغرق نحو أربعين عاماً .

وتقع مدينة الزهراء غربى قرطبة بخمسة كيلومترات في منحدر من الأرض بين جبل الروس من جهة الشمال والوادي الكبير من جهة الجنوب وكانت على شكل مستطيل عظيم بطوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متراً ، وقد أفاض للورخون ، لاسيما القرى ، في وصف مدينة الزهراء وما اشتملت عليه من قصور وروضات وبساتين ، وما كانت تضم من حرم وخدم وحشم وحرس ، وما أتت عليها من أموال حكام أفاضوا اعتراض المعترضين وتقد الناقدين من علماء قرطبة . ووصفها الشريف الإدريسي ، وقد دى إليها انطرب فقال « وحى في ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، صليح التلث الأهل يوازي على الجزء الأوسط ، وصليح التلث الأوسط يوازي على التلث الأجل ، وكل ثلث منها له سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط بساتين وروضات ، والجزء التلث فيه الديار والجامع » ثم يقول « وحى الآن نراب وفي حال القلع » .

ويرجع استعمال الزهراء ثم خرابها إلى حجارة الإدريسي إلى أسيرين .

(١) اتخذ المنصور بن أبي عامر، عند ما استبد بأمر الأندلس، مدينة اخشطار شرق قرطبة في بعض مصفحات الوادي الكبير وسملها « الزاهرة » فكان ذلك مما أهل « الزهره » **الوادي إلى انتمحلال أسرها** ، (٢) ثم القن الكبيرة التي كانت قرطبة مسرحها من مطلع القرن الخامس والتي أطاحت بالهبة الأموية وأدت إلى تخريب الزاهرة والزهره وانتمحلال قرطبة والأندلس بوجه عام .

ولقد دلت أعمال الحفر والتقيب التي أجراها علماء الآثار الإسبان في مطلع القرن الحالي في موقع الزهره ، على أن ما ذكره مؤرخو العرب من غارة الزهره وروعة بنائها لم يكن مبالغ فيه .



لقد بلغ عدد سكان قرطبة في أزمنه عهودها ، أى في القرن الرابع الهجرى ، نحو نصف مليون نسمة على تقدير للشرق الكبير دوزى وكانوا يتألفون من عناصر شتى من العرب والمولدين والبربر والصقالبة ، وظفر في أيام القن التي وقعت في أواخر الدولة الأموية عنصر السودان ، وكان إلى جانب هؤلاء جميعاً جاليان من النصارى واليهود لها شأن في الحياة الاقتصادية والعامه بقرطبة . ولم تكن هذه العناصر مؤتفة بل كانت مختلفة الأهواء . وأظهر ما كان هذا الاختلاف في القن والاضطرابات السياسية . ثم بن أهل قرطبة على وجه العموم كانوا حابطين عامة وخاصة . أما العامة فكانوا السواد الأعظم من السكان وكانوا يتألفون غالباً من أرباب الحرف والصناعات . وكان فيهم نزوع عجيب إلى الشغب ، وسيل شديد إلى الفتنة ويقتل القرى عن ابن سديد قوله فيهم « إلا أن عاتبا أكثر الناس فسولوا ، وأشدم تشنيداً ، ويضرب بهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على اللوك والتشيع على الولاء ، وقلة الرضا بأمرهم ، حتى أن السيد أبي يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما اخصل عن ولايتها ، وكيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال مثل الجمل : إن خفتت منه الجمل صائح ، وإن أغلقت به ضاح ، ما ندرى أين رضاهم فتصد ، ولا أين سخطهم فتجنبه ، وما سيط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عاتبا شراً من عامة العراق ١١ »

وعلى العكس من العامة كانت الطبقة الأرستقراطية من أهل قرطبة ، وكانت تتألف من أعيان الدولة ورجال القصر من عرب وبربر وصقالبة ، يسكنون بيوتاً بديعة

تخطيطها الخدائق والبساتين إما في أطراف المدينة أو في أرباعها ، كما عتافت من كبار التجار ذوي الثراء الواسع والتجبر العريض ، ومن العلماء والفنهاء والأدباء ومن لم ميل إلى العلم والمعارف ، ويعصف للزورخون هذه الطبقة بأجل الصفات ويمتوتهم بأحسن النشوت ، يوم المنيون بقول الإديسي « فضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومنافيتهم أظهر من أن تضر ، وإليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأمان البلاد ، في كروا بصحة للذهب ، وطيب للكسب ، وحسن الزى في اللباس والراكب ؛ وعولمة في الجالسي والراتب ، وجيل يتخصص في الطعام والشارب ، مع جيل الخلاقين ، وحيد الطرائق » .

لا شك أن قرطبة الإسلامية كانت مجالا لحيوة عامة قوية نشطة كانتى نجدعافى بتداد والقاهرة والقسنطينية في العصر الوسيط ، ففي مجال التجارة كانت أسواقها حافلة بشق المروض الصادرة والوارد ، يقوم على تصريفها طائفة من التجار للياسير الذين لم اتصال تجارى وثيق بالمالك للطفية بالبحر الأبيض المتوسط . وفي مجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية كانت قرطبة كثيرا ما تتبادل السفارات والوفادات مع أكبر الممالك الأوربية ، لاسيا القسنطينية ورومية وجرمانيا ، فضلا عن الممالك الإسبانية للسيحية الشمالية . وكثيرا لما كان قدوم وفود هذه الممالك فرصة طيبة لأن تقدم لهم سفلات لاستقبال تحية في قصر قرطبة أو في مدينة الزهراء . وقد ألم القري بومض بعض هذه الحفلات في شيء من التفصيل . كما أنه قلما كان يمر عام دون أن تشهد قرطبة عرض الميوش الأندلسية عند تحركها للقرز ، أو عند عودها منتفزة متصورة .

ومن حيث مظهر الحياة الدينية كان لأهل قرطبة في مسجدهم الأعظم منظر تحفة متنوعة طوال العام ، ففي كل يوم جمعة كان الأمير أو الخليفة في الثياب يؤدي فيه فريضة الجمعة ، ويؤديها معه عدا رجال الدولة وأعيان الناس ، ثلاثة آلاف من لابس القلاص ، وكان هؤلاء القلسون هم الذين لم حق القنفا في الأحكام والشرائع في القري التي تقع خارج قرطبة ، كل في قريته . فكانوا يأتون يوم الجمعة إلى قرطبة للصلاة مع الخليفة ، والتسليم عليه ، ومطالعته بأحوال يومهم . ولكن المسجد كان أجمل ما يكون ، وأبهى ما يكون ،

الى ليالى شهر رمضان واليدين ، إذ يلتجئ بقصاه وعماره ، ويضمره فوض من متاع برياه ،
ويشعره ، ومصابحه ، ويصغر أرجاؤه بشذا ما كان يطلق فيه من البخور والطيب .

يبدأ ناعية عامة من هذه الحيرورة السجبية ، وذلك النشاط اللم ، نلاحظها الى بيئة
النفاء ، والفلاسة ، والأدياء ، بيئة العلم التي مر أعظم شئ . وهو رابع معالم قرطبة كأزدها
الشاعر في بيتيه للذكورين في مطلع هذا القائل : لقد استعمل للمسجد الجامع جامعة تزخر
بالتطلاب الذين وفدوا إليها للأخذ عن أئمة الفقه والبيان والفلسفة والأدب . وازدادت قرطبة
بعضة من العاراز الأول من العلماء والفكرين خلدها التاريخ في صحافته ، أمثال ابن حيدر
وأبي علي القتالي ، وابن زيتون ، وابن حزم ، وابن رشد ، وابن ميسون ، وكانت قرطبة
الشاعرة الكسونية « مبروزة » شديدة الانجذاب بقرطبة ، وكانت تسميها « جوهرية
الدنيا » كما ذكر العلامة فوزي .

وكان لأهل قرطبة ولم شديد بالكتب وغرام بالقتناء النادر منها حتى عدت قرطبة
أكثر بلدان الأندلس كتباً وحتى كانت الكتب من أروج متاجرها . ولقد من لم هذه
الصفة الحيدة ملوك بني أمية وخلفاؤها لاسيما الحكم المستنصر الذي جمع في مكتبته الآلاف
للؤونة من الكتب المصنفة في مختلف العلوم والفنون والآداب . وينقل للقرى في كتابه ضح
الطيب « أنه جرت مناظرة بين يدي يعقوب للنصور للوحدي ، وكانت بين الفقيه
أبي الوليد بن رشد والوزير أبي بكر بن زهر ، وكان الأول قرطبياً والثاني إشبيلية ، فقال ابن
رشد لابن زهر في فضيل قرطبة ما أدرى ما تحول ، غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية ، فأريد
يجمع كعبه ، حلت إلى قرطبة حتى تجاع فيها . وإن مات مطرب بقرطبة ، فأريد يجمع آلامه
جئت إلى إشبيلية . وهل للراكنش عن ابن قياض أنه « كان يريض للشرق من قرطبة
مائة وسبعون امرأة كلهن يكنن للمصاحف بالخط البكوف ، هذا ما في ناعية من نواحيها
فكيف يجمع جمالاتها » .

ظلت قرطبة مامية للأندلس وأم مدائن الغرب الإسلامي ثلاثمائة سنة (٩٠٠-١٨٠٠) .

ثم فصلت زعامتها السياسية بزوال الدولة الأموية في سنة ٤٢٢ هـ . وتناوبت عليها الفتن والمحن السياسية في آخريات العهد الأموي وزمن الطوائف والرابعين والواحدين وإن ظلت متناكسة محتفظة بمكانتها الأدبية ، وإلى تلك الحال يشير الإدريسي بقوله « ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طاحتها رحي الفتنة ، وفورها حلول للعاصب والأحداث ، مع انصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن إلا انطلق اليسير » .

كان ذلك إيذاءً بالنهاية ، ففي ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ استولى عليها الأسبان وبذلك طويت صحيفتها من حيث هي مدينة إسلامية جليلة القدر اضطلمت بالزعامة السياسية للعرب الإسلامي أتم اضطلاح ، وأنت رسالتها الثقافية للشرق والغرب علة أحسن الأداء .

لفتحة نحو الأندلس^(١)

هناك في القسم الجنوبي من إسبانيا ثلاث مدن عظام من « قرطبة » ، وإشبيلية ، وغرناطة . فإذا ما خرجت على جبل طارق سفينة رابحة أو قاذية ، وكان يقبها بعد يومين أو ثلاثة سفينة أخرى تقصد قصدها ، فكيف ما يتم للتشوقون للتطلعون من أهل السفينة الأولى فرصة ما بين الليتادين فيزورون « اللث » ، وما اللث هنا إلا خطوط موهومة ثلاثة تصل بين اللذان الثلاث .

وتبعد أسدنى الحظ فزرت ذلك اللث منذ عام وبعض عام زوارة باحث ومتصيد ، لا زيارة راكب عجتاز .

وأنا امرؤ عاش بالذاكرة والذكرى والخيال في تلك اللذان منذ أعرام طوال ، ولكن لم أظفر بالعيش فيها حقاً إلا تلك المرة ، وذلك ما أرجو وأمل أن يكون بداية عهدي بها لا آخره .

طوفت في أعماق قرطبة ، وإشبيلية ، وغرناطة ، وشهدت معالمها ، وقت في دنيا وآثارها ، واتصلت بأهلها بقدر ما يسمح الخاطر المشغول والوقت المحدود ، فخلصت من كل ذلك إلى أن هذا الثالث لا يزال أبلغ ما يعبر عن مقاطع التاريخ الأندلسي الثلاثة : الخلافة ، والطوائف ، وغرناطة .

أما قرطبة فإنها بنهرها المتحدر الوئيد ، وجسرها العجيب ، ومسجدها الفخم ، وزهراتها الدارسة ، وأزقتها الصاعدة المايطة العرية الأسماء ، وأهلها الذين يظلب عليهم حسن السمات وتعام الوقار ، تصور لمن الباحث للتأمل سذاجة عصر الخلافة وقوته ، وقناته وروحه . كما ترمز باجتماع السجد والتعصر إلى اجتماع الدين والسياسة في النظام السياسي الإسلامي ، وهو اجتماع كان مدار الدولة الإسلامية نشوياً ، واكتمالاً ، وهرماً ، وزوالاً .

زالت الخلافة ، وانخرط عقد الدولة ، وعاد أمر الأندلس بجاهلية كما بدأ . سيف
تودع ، وشروسيح ، وطلس وكاس ، وجارية وقلام . تلك معالم الحياة العامة على عهد
الطوائف ، عهد ابن عباد ، وابن جهور ، وابن حجاج ، وعهد ابن زبدون ، وابن
عبدون ، وابن عمار ، وعهد سيف ، وولادة ، وامتداد ، وقر . فإن شئت أن تستل
ذلك العصر ، وتنشق حيرته ، وتحس نشوته ، فجل جوة في طرق إشبيلية ، وقف وقفة بفناء
قصرها ، واغش أنديتها في أي وقت شئت من نهار أو ليل ، فستجدها على طول العمر
وتقام الهدى ، لا تزال أسرح البلدان ، وأجلها ، وأطربها ، وأتمها . ففى بلد الرياض
الضاحكة ، والقصور الناعمة ، والبيوت الشرقية المرادعة ، وبلد الرقصة الفلكنكية الرشقة ،
وامطار الاندلس واليمن الذى يحيل القلوب فى الصدور ، ثم هى بلد ذوات الحسن
والنظر من النساء .



ولكن وأسفاه ! فابرت لغة هذه الدنيا إلى ألم ، ونصبتها إلى يؤس ، وفرحها
إلى حزن . وما برج غير انطلاف سراً مبرها ، وعاقبة التفوق ويلا وثبورا . لقد أسلم الإسلام
بالأندلس الروح إلا فضاء استبقت غراماً إلى أجل مسمى .
فى غراماة تجمع ما كان متفرقاً فى طول الجزيرة وعرضها ، من حرص على انطلاف ،
ونهايت على الترف .

أما انطلاف فلا يزل أثر ملحوظاً فى حى اليازيرين ، بأزقة الضيقة ، وبموتى العابية ،
وأهل اللروفين بمدة الطبع وشكاسة الخلق . وأما الترف فحسبك دليلاً على قصر الحرام
بأسراره وأبراجه ، وروحه وأبهاه ، وغرفة ومقاصيره ، وسقته للفرقة ، وعده للنصوبة .
وتزايقه للرقصة ، وتهاويله للرأسة ، ومياهه الجارية ، ورياضه النافرة . فهو صنع قوم
تجولوا فى الدنيا جنة الآخرة ، فالتوى عليهم القصد ، وانعكس الترف .

خلاف وترف ! ألا لقد حق قوله تعالى : « وإنا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينا
ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

مسجد قرطبة ، وقصر إشبيلية ، وجراد غرناطة أكرم فيك من عظمات وعبر أولئك إن
 نحن نخطو ويمتدح أبا أماناً فاشهد لقد رأيت ، وفكرت ، وأحيرت ... ولكن من أنا ؟
 فلما قضيت حق القلب وفكرت من اللذان الثلاث ، أذنتها بأرحيل ، وأنا على مثل
 حال الشريف الرضي حين قال :

وقد وقت على ديارم وطولما يمسد الليل نهب
 فبكيت حتى ضج من لئب فضوى ولى يضل الركب
 وتلفتت حينى قد خفيت حتى العالول تفت القلب
 وانطلق القطار بى وأصحابى نحو مسديد ، فودعت حر الجنوب واستقبلت
 برد الشمال .

دير الاسكوريال ومكتبته

الاسكوريال اسم يطلق على بناء ضخم غم يضم ديرا وكيسة ، وقصرا ومدفا كانا لذلك الأسبان . وهو يبعد عن مدريد بنحو أربعين كيلومترا ، ويقوم على رابية موحشة تطل على وادي جبل وادي الرمة ، ويقال إن مساحة الأرض التي يشغلها البناء تبلغ بضعة أفدنة ، وأن لبناء خبة عشر مدخلا وبه سبعة أبراج وما لا يقل عن اثني عشر ألفا بين نافذة وباب . شيد عامل الأسبان فيليب الثاني وفاء لنذر نذره والحرب قائمة بينه وبين فرنسا ، وقضى في تشييده وإحكامه إحدى وعشرين سنة وأثنى في ذلك القناتير للقنطرة من الذهب والفضة فجاء من أضخم وأعظم ما بنى الإنسان وهو من قبيل للنشأت الشخصية المائلة التي لا يسير القيام بها إلا في أزمان الاستبداد والجيوت فهو يشبه من هذه الناحية هيكل سليمان وكثيرا من تنبأ للمربين القدماء .

زوت الاسكوريال ثمان سنين خلت ، وقضيت أياما ممدودات باحثا متبنا في مكتبة القيسة ، وكنت أقسم الأيم للذكورة قسمين فأجل للاسكوريال النهار وللمريد الليل ، ذلك بأن نهار الاسكوريال وإن يكن مثمنا للنفس أى متاع ، فإن ليله لا يطلق وحشة ، وسكونا ، وروحية ، وشلة يرد وخاصة إذا كان الزمان شتاء .

والكيسة الخم أقسام الاسكوريال ، فهي وحدها تسترق أكثر من خمس الأرض التي تقوم عليها جملة البناء ، وبها الشيء الكثير من روائع الفن على هيئة قباب ، وتماثيل ونصو وأبدعها ريشة أعظم مصوري الأسبان أمثال الجريكو وفلسكوتز . ويقع أسفل تلك الكيسة على الجراب مدقن الأسرة التي ملكتها الأسبان نصرا طويلا ، وهو مدقن رطب مغطى من الأرض ينظم ترواويس ضحكنا من الترمص فيها ولدت لذلك التناير من مرتبة ترتب بينهم إلى هذه الدنيا وخروجهم منها ، وأحسبنا وآخرها ثوروس كان أعد الجنان لذلك الخمدى خطم منذ سنوات .

١ وفوق الرواق الرئيسى للمكتبة تقع مكتبة الأسكوريال الصغيرة ، وهي قسمان ، قسم أوربي عام يشتمل على مجموعة الكتب التى أنشأ الأسكوريال وماضم إليها من مكاتب الأديرة والكنائس ، ولندن ، وللكتاب الخاصة . وهذا ماأذن بزيارته للأجانب ، وقد زره فى حبة بعض وهران الدير .

واقسم الآخر عربى مخطوط ولا يؤذن لأجنبي أن يدخله ، وكل من أراد الاطلاع على بعض كتبه فينبى أن يطلب ما يريد الاطلاع عليه إلى المراقب المختص بذلك القسم فيحضر له ما أراد فى الفترة الخاصة بالمطالعة . وهران الدير يحتفلون عادة بالزوار ولا يقصرون فى إحضار الكتب التى يريدونها .

يحتوى القسم العربى للذكور على نحو الفى كتاب عربى مخطوط بعضها فى غاية النفاة وسندوم النظر ، أذكر من ذلك على سبيل المثال قطعة من قاموس عربى يونانى ألف فى القرن السابع للمجرى ، وكتاب الأنساب لابن الكلبي ، ونسخة من ديوان أبى تمام برواية أبى على القتال ومرتببة ترتيبا مختلف من ترتيب النسخة المطبوعة .

وهذه المجموعة العربية هى البقية الباقية من مجموعة أكبر منها ترجع على أرجح الأقوال إلى أصلين :

(١) جنابا للكتاب الأندلسية القديمة التى سلت عما أصاب آثار مسلمى الأندلس من الضياع والتلف فى حروبهم مع الأسبان . وقد جمع شتات هذه البقايا فيما قال فيليب الثانى وخلفاؤه من بعده وأودعوها ناحية من الأسكوريال .

(٢) مكتبة الأشراف الحسين من سلاطين مراکش (٩٥١ - ١٠٦٩ هـ) وذلك أنه فى أوائل القرن الحادى عشر للمجرى وقعت فتنة بين مولاي زيدان سلطان مراکش (١٠١٥ - ١٠٢٨) وبين أخيه أبى فارس القادر عليه ، واضطر مولاي زيدان إلى التفرول عن مراکش - فابتاع سفينة فرنسية عمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض ثمرور للتراب الأقصى إلى أكادير ، فلما حصل بأكادير ، وقع خلاف بيته وبين رباب السفينة على مبلغ الأجرة للسفينة ، فسا كان من الرباب إلى أن انسل بالكتب تحت الليل يؤم مرسيها .

فلما كان ببعض الطريق عرضت له سفينة أسبانية خضجة الكتب وانطلقت بها إلى أسبانيا وكان خاتمة مطالب تلك الكتب أن أودعت في أيضاً دير الأسكوريال .
كانت مكتبة الأسكوريال أول الأمر من أعظم مكاتب أوروبا كثرة كتب وغاية قيمة ، ولكن شبت النار في مباني الأسكوريال كلها في عام ١٧٦١ م فاحترق من المكتبة نحو ثلاثة أرباعها وسلم الرمح فقط ولا تزال آثار الطريق ماثلة فيما سلم حتى اليوم .

وأول من درس محتويات القسم العربي ووضع لها فهرساً باللاتينية راهب ماروني اسمه ميخائيل المنزيري ، وذلك في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٩ - ١٧٥٢) وقد ظل ذلك الفهرس الدليل للتبند للمكتبة إلى أن شرع في أواخر القرن التاسع عشر المستشرق الفرنسي هر توبنغ دونبورغ في وضع فهرس جديد بالفرنسية . وقد ظهر الجزء الأول من الفهرس المذكور في عام ١٨٨٤ وظهر الثاني في عام ١٩٠٥ ثم تولى هذا المستشرق قبل تمام عمله . غير أن الجزء الثالث من فهرسه ظهر أخيراً في عام ١٩٢٧ بإشراف مستشرق فرنسي آخر هو الأستاذ ليثي بروفسال .

وقد أخبرني قيم المكتبة الأب ملخور أنطونا أنه هو وزملاؤه يعدون فهرساً علمياً مطولاً لقسم العربي من مكتبة الأسكوريال ، ولكن أرجح أنه لم ينشر منه شيء حتى الآن .

تلك مكتبة الأسكوريال التي يقال إن حكومة مدريد هبتها من الدير إلى مكان آخر حريزاً خوفاً عليها من أخطار الحرب القائمة بينها وبين الخارجيين عليها في هذه الأيام .

بلاد عربية محتضرة فيها العروبة^(٥)

تستأمن لها القارىء الكريم تلك البلاد إلا للغرب الإسلامي الذى يمتد من حدود مصر شرقا إلى أمواه المحيط الأطلس غربا ، ومن سواحل بحر الروم شمالا إلى جبال السودان جنوبا ، والذى تنزهه من الخلاق من لا يصعبهم سوى خالقهم ورازقهم .

كان للغرب ولا يزال ميدانا عظيما من ميادين الصراع الأذى الأذى العنيف بين الشرق والغرب ، فيه تصالوت وتطاحنت قوطجة للشرقية السامية يهودية التربة الآرية ، فكتب للفرز الثانية على الأولى - وعبر الغرب قروا جلة وهو قطر وملك جائل لاون لم يمسح فيه للدينية الرضائية ولا تفررت فيه أصولها - فلما نهض الشرق نهضت الكبرى في ظل الإسلام والروية ، وطاسيل الفتوح العربية وعب عبايه ، وغلب الغرب تجاهه على أسبه ، غاد للغرب لوضا شرقية ولكن في صورة جديدة قوامها العروبة والإسلام ، خير أن النزاع القديم بين الشرق والغرب لم يقطع ، فحق أنحرىات البصير الرطلى تهاوت مجموع الصليبيين على الغرب ، فلم تثبت لهم به قدم وبأموا بخسران ميين - ثم تجدد الصراع في العصر الحديث ، فكتب للفرز مرة أخرى الغرب على الشرق ، وأصبح الغرب بمحلبه مستمرات أبدية ، ووقف الأكر عند ذلك حتى اليوم .

وق أثناء تلك المحاولات والمساجلات نبغ بالغرب رجال أصبحوا مضرب الأمثال في البطالة والشجاعة والتضحية ، منهم في الزمن القديم حاكمار ، وأسدروبال ، وهيبال ، ومنهم في العصر الوسيط عتبة ، والسكافنة ، وكسيلة ، وسنان ، وموسى بن نصير ، ويوسف ابن تاشفين ، وعبد للزمن بن حلى وسلافة العظيمة من أمراء اللوحدين ، ومنهم في العصر الحديث الأمير عبد القادر الجرائرى ، واليد السنوسى الكبير ، والأمير عبد الكريم

(٥) علة الرابطة الترية ، في ١٤ أبريل سنة ١٩٣٢ والليب أن أنشأت المجارة الآن في تونس وما كس تعد على أن حتى سنة عشر عاما لم يغير شيئا من الحال التي يصفها هذا القائل !

إيطاليا بطريرك أرياف وقرج أسبانيا وفرنسا ، والذي لا تزال وقامه مع هاتين الدولتين مستقوداً
بجوارها بأرجاء المغرب الأقصى ، وصداها يدور في الإسماع .

وينبئ أن قلبه إلى أن المغرب أصبح هذه الفتحة للرب أرضاً بحرية ، وإن شئت
الذقة في القول قل إن أسبانيا الشرقية استعالت أرضاً بحرية ، في حين أن أسبانيا الغربية
أصبحت وقد استعربت ، وقد بدأ قسم القلما . عرب الجزيرة نفسها قسمين عاربة ومستعربة
فلم يندح ذلك في عروبة من استعرب ولا وجد فيه خضاعة على خسه .

لقد صار المغرب عربياً بأمرين : بهجرة العرب إليه واستعراة البربر أنفسهم .
أما الهجرة فابتدأت بالهجرة التي تدقت على المغرب من الجزيرة في القرنين الأول والثاني
المعبرين وانتهت بهجرة العرب المالكية في القرن الرابع ، وأما الاستعراة فم باعتراف
البربر الإسلام وتكلمهم العربية ولزناطهم بالقانعين برباط الصهر والزواج بحيث لم
يبتلى . القرن الرابع حتى كانت قد استعربت قبائل البربر الكبرى أمثال كهلانة وزناتة
وضناجة ، وأصبح جميع سكان المغرب من عرب وبربر بدأ واحدة على كل من دام
يلادم إبان الحروب الصليبية والزمن الحديث كاسبت الإشارة . وبتمام هذه الوحدة الرائحة
أمكن ازدهار المدينة الإسلامية في روج المغرب ، وعدت القيروان ونونس وفاس ومراكش
موائل الثقافة الإسلامية العربية وغدا جامع الزيتونة وجامع القرويين من مدلس الإسلام
الباقية ، وتبع بالمغرب من العلماء والأدباء والشراء والفلاسفة عدد عظيم يشار إلى غيرهم
بالبيان . وتعدى أثر هذه الثقافة الإسلامية العربية إلى صقلية فكان قاضاً حياً إيطاليا
للنهضة الأدبية العظيمة التي ظهرت بها في القرن الخامس عشر الميلادي .

ذلك البطريرك العربي أخذ نجم حياته للنبذة التشعة القوية للثمرة في الأقول منذ وضع
الترك الساميون أيديهم عليه في القرن السادس عشر مع استثناء المغرب الأقصى . فلما هجر الترك
أفسهم من الدفاع عن أطرافهم في القرن الخامس عشر تداعت بل تصارت ذئاب الاستعمار
الأوروبي على المغرب . فالتقت أسبانيا لقيات من المغرب الأقصى ، وتحملت فرنسا على
الجزائر ونونس ومراكش فازدهرت ازدهاراً . ثم انقضت إيطاليا على طرابلس بيقا وعدواناً
فاستولت عليها بعد أن أبلأ أهلها عنراً .

ولا يظن القارى أن الاستعمار الأوربي دخل للثرب وهو يريد أن يسويه على أسس الاحتفاظ بتقاليد وعاداته وإنهاء موارده وترقية مراحته والتفويض به ظهر أمه واكتساب وودتهم ومدايتهم ثم الجلاء من بلادهم فيكون بذلك قد أسدى إلى الانسانية يداً عظيمة فمنة باقية على الزمن . كلا ثم كلا ! إن خطته التي جرى هي نحو تخصيص تلك البلاد وإتخاذها في الدول المستعمرة بهدم مقوماتها الجوهرية من لغة ، ودين ، وعزة قومية . والاستمرار في الوصول إلى تلك الغاية طرق شتى : منها أنه يسد على منزل للثرب من -إلى العالم الغربي بتحصين أبواب الاتصال بين الثرب والأقطار العربية الأخرى ، وتشديد البرقية على العربي الذي يدخل للثرب فلا يسمح في الاتصال بالأجانب إلا بقدر معلوم ، وطريقة أخرى أبلغ في الوصول إلى الغرض الإستعماري للتشويهي القطع بين حاضر للثرب وماضيه ، وذلك بإضياف اللغة العربية ونشر لغة للجمهورين ، والحد من الثقافة للإسلامية والتحكم في ثقافة الأجنبية ؛ ومن ثم ذلك التهاك الذي غلبه على ترجمة الكتب العربية القديمة الخاطئة خارج للثرب وأدى وقته إلى لغة للجمهورين وخاصة الفرنسية وذلك لئلا أول للثرب تاريخهم وماضيهم باللغة الفرنسية دون العربية . وطريقة ثالثة هي تحييد التجنس الأجنبي إلى نفوس الثغارية وإزالة المرة الجنسية للبربرية في نفوس للثرب ، وما هنا التخليد الذي حدث في براكني بوجود أنواع الثرب الذي يرى في دور القضاء بعيد .

أما العمل على إهانة العزة القومية فحسبنا التذليل عليه بأمرين أو ثلاثة . فنذ معلومات ست احتفلت فرنسا في نفس للثرب بمرور مائة سنة على فتحها الجزائر وخسفت سنة على فتحها تونس ، ومن عهد قريب قلت زلات للرشال ليون طاهر للثرب الأقصى إلى براكني ودنيتها بها احتفال بشهود . هذا ولا ننسى إيطاليا منذ استقرت على طرابلس تترجم عنها غيراً وشرقاً وتعرض بأنها ولادة الرومان القديم في البحر الأبيض المتوسط فينبغي أن يؤول إليها ميراث الرومان في هذا البحر كاملاً غير منقوص .

لحز أن العروبة والإسلام ماثق في الأندلس بالسيف ، أما في للثرب فإنهما يقضيان صبراً ، إلا أن يتوجه أهل للثرب إلى الله بقلوبهم وعرائعهم ، ويغفلواكم الله بتصره ورحمته « وليصرن الله من بتصره ، إن الله قوى عزيز » ؟

فهرست الصور

٥	زخرفة على الخشب بجامع عمرو بن العاص
١٢	زخرفة على الحجر بأحدى منارتى جامع الحاكم بأمر الله
٥١	مسجد قباء (بالمدينة المنورة)
٦٣	جنة البقيع (بالمدينة المنورة)
٦٦	فسيفساء من المسجد الأموى بدمشق
٧٦	صورة خيالية تمثل دخول الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس
	آية قرآنية بالخط الكوفى من مسجد الحاكم بأمر الله (من صورة
٨٤	الفتح ٠٠٠ ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً)
٩٢	تاج عمود بجامع ابن طولون
٩٨	صورة تمثل فرساناً من العرب
١٠٤	زخرفة عربية (أريمنك)
١١٦	أحد نوافذ جامع ابن طولون
١٢٠	فسيفساء بقصر هشام بخربة البقعر بفلسطين
١٤٤	أحد مداخل جامع ابن طولون
١٦٣	جنة المولى (بالمدينة المنورة)
١٧٤	فسيفساء بالمسجد الأموى بدمشق
١٨٧	كتابة كوفية وزخرفة بالجامع الأزهر من عصر بنائه

فهرس الموضوعات

١	الامداء
ب	كلمة الجمعية التاريخية
١	دروس من الصحراء
٤	« مصر القديمة » واثارها
٦	دار الندوة
١٣	احابيش قريش هل كانوا عربا أو حبشا ،
٢٢	دار الأرقم المخزومي
٢٦	أم المؤمنين خديجة بنت خويلد
٣٧	الهجرة
٥٢	كيف كان الرسول يسوس أصحابه
٥٧	من تكريات الحج
٦٤	رسالة الحج
٦٧	عمر بن الخطاب فى عام الرمادة (١)
٧٢	عمر بن الخطاب فى عام الرمادة (٢)
٧٧	عمر القاتح (الروح الذى وجه المسلمين الى النصر الياهر)
٨٥	دولة الأكاسرة ٢٢٦ - ٦٥١ م
٩٣	فتح العرب لمصر ، تأليف بتلر وتعريب محمد فريد أبو حنيد
٩٩	على ساحل بحر الروم
١٠٥	شعراؤنا وسيدنا عثمان
١٠٨	أبو ذر الغفارى
١١٧	العقبات المقدسة
١٢١	الأب لامانسروالحكومة الاسلامية الأولى
١٢٧	زياد بن أبى سفيان (١)
١٣٦	زياد بن أبى سفيان (٢)

١٤٥	محمد بن القاسم الثقفى
١٥٥	عمرو بن عبد العزيز ٦٢ - ١٠١ هـ (١)
١٦٤	عمر بن عبد العزيز (٢)
١٧٥	نساء الخوارج
١٨٨	الأدب العربى المصرى (١)
١٩٠	الأدب العربى المصرى (٢)
١٩٣	البعث ٠٠٠٠
١٩٦	كشاف

القسم الأول : عصر الدولة العباسية

٢١٧	أبو العباس « السفاح »
٢٢٤	هارون الرشيد بين التاريخ والقصص
٢٣٩	أم المحسنين : السيدة زبيدة
٢٤٦	بين هارون الرشيد وشارلمان
٢٥٣	الرشيد وأبو نواس
٢٦٢	مع أبى نواس الزاهد
٢٧٠	كتاب الوزراء والكتاب للجيشيارى
٢٧٧	أبو العلاء السياسى
٢٨٥	ناحية التاريخ من أدب أبى العلاء المعرى
٢٩٤	السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى
٢٩٩	١ - الفردوسى
٣٠٧	٢ - الفردوسى (تنمة)
٣١٥	سيرة أحمد بن طولون لأبى محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى
٣٢٢	من مواقف البطولة الاسلامية فى القتال
٣٣٠	كتب الحسبة وفأشدها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير
	ثلاثة حوادث من التاريخ الاسلامى ساعدت على نمو العربية
٣٣٨	وانتشارها
٣٤٦	اثر مصر فى الأحداث الاسلامية حتى آخر العصر العباسى الأول

القسم الثاني : المغرب والأندلس

٣٥٩	موسى بن نصير
٣٦٤	حديث الفتية المفردين من اهل لشبونة
٣٦٩	زرياب المكنى
٣٧٥	حكيم الأندلس عباس بن فرناس
٣٨٠	قاض فاضل
٣٨٤	بين خليفة وقاض
٣٩١	١ - الناحية التاريخية من شعر ابن هانيء الأندلسي
٣٩٦	٢ - " " " " " "
٤٠١	٣ - " " " " " "
٤٠٦	بنو فراس بن غنم
٤٠٩	قرطبة الاسلامية
٤١٨	لفتة نحو الأندلس
٤٢١	دير الأسكوريال ومكتبته
٤٢٤	بلاد عربية تحتضر فيها العروبة
٤٢٧	قهرس الصور
٤٢٩	قهرس الموضوعات



Bibliotheca Alexandrina



0296872